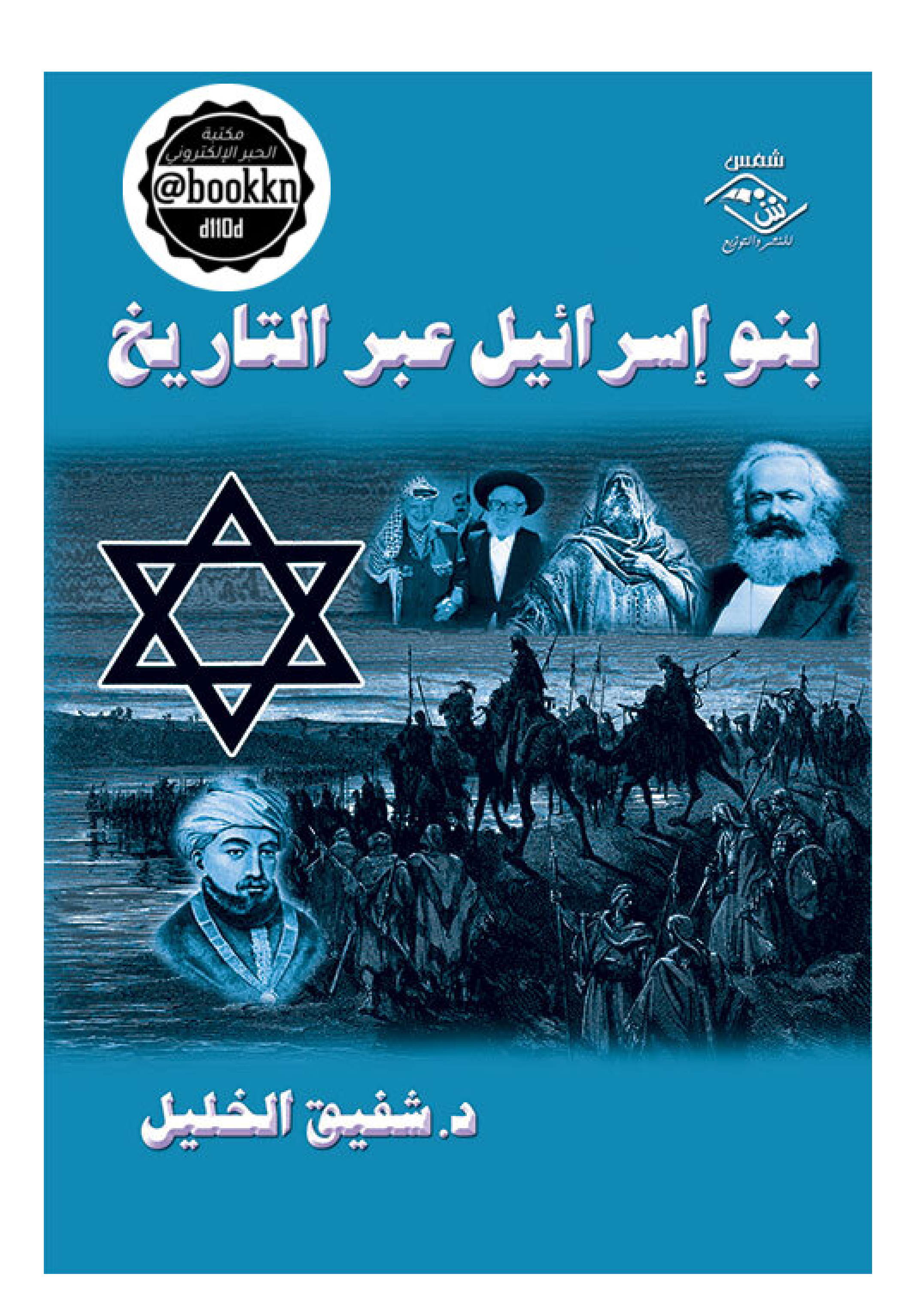




بنو إسرائيل عبر التاريخ

د. شفيق الخليل


مكتبة
الحبر الإلكتروني
@bookkn
d11Od
شفس
للنشر والتوزيع
بنو إسرائيل عبر التاريخ
د. شفيق الخليل

بنو إسرائيل عبر التاريخ

تأليف

د. شفيق الخليل

الكتاب : بنو إسرائيل عبر التاريخ

المؤلف : د. شفيق الخليل

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١١

رقم الإيداع : ٢٠١١/٤٧٣٥

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 071 - 3

الناشر

شمس للنشر والتوزيع

٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة

ت/فاكس: ٢٧٢٧٠٠٠٤(٠٢)- ٠١٨٨٨٩٠٠٦٥(٠٢)

www.shams-group.net

تصميم الغلاف : إسلام الشماع

كلمة المؤلف

بداية أود أن أتوجه بالشكر والعرفان لكل أولئك الذين وقفوا إلى جانبي في وضع هذا الكتاب "بنو إسرائيل عبر التاريخ"، والذين كان لهم دور كبير في إخراج الكتاب إلى النور بتشجيعهم لي أثناء فترة الكتابة، وتبادل الآراء حول الكثير من فصوله وأبوابه.. إضافة إلى تقديرهم للفكر الذي طرحته في الكتاب، مما يشعرني بأني مدين لهم جميعًا بكل الشكر والتقدير والعرفان.

بدأت فكرة هذا الكتاب تتجمع لدي قبل عشرين عامًا، ولم أكن معنيًا كثيرًا لأخذ قرار يتعلق بنشره، بل اكتفيت بجمع المعلومات من المصادر التي تدعم وجهات نظري في وضعه، وذلك لعدة أسباب أذكر منها:

1- الظروف السياسية التي تعيشها منطقة الشرق الأوسط خصوصًا في أعقاب بعض التسويات العربية، التي أخذت مكانها تحت اسم اتفاقيات السلام أو الاستسلام مع إسرائيل، والتي لم تجلب لأمتنا سوى الخزي والعار بكل الأسف، وبدء ما يسمى بموجة التطبيع مع العدو الإسرائيلي.. لهذا كان عليَّ أن أتجنب الدخول في تلك المتاهة تخوفًا من سوء فهم القصد واعتباره نوعًا من أنواع التطبيع الذي أرفضه جملة وتفصيلاً.

2- صعوبة البحث وتقصي الحقائق وإعادة نبش تاريخ منطقة الشرق الأدنى الحالي، الذي لا يمثل الواقع الذي تعيشه شعوب المنطقة، خصوصًا وأن تاريخ المنطقة المزور قد أدخل بشكل أو بآخر إلى عقول الناس، ونشأت عليه الأجيال العربية بكل أسف، وترسخ في ما اسميه أنا شخصيًا "تاريخ المستشرقين" في عقول الناس.. مما يجعل الأمر في غاية الصعوبة، خصوصًا وأن شعوبنا بطبيعتها تنفر من كل جديد وتكتفي بما لديها، حتى لو كان الخطأ بعينه، فكان من الضروري ألا تترك هذه المسألة دون البحث فيها ونشر الحقائق المتعلقة بماضي أمة العرب وحاضرها، والاعتداء على تاريخها المجيد وتعرضه للتزوير والأباطيل والروايات الأسطورية، وطمس حقيقة شعوب الأمة وتاريخها الحقيقي.

ما من أحد يشك ولو للحظة بأن التاريخ الذي نتبعه ونُعلمه لأبنائنا في المدارس الابتدائية والثانوية والكليات الجامعية لا يمثل الحقيقة التاريخية على الإطلاق، لأنه سبق وأن تعرض إلى التزوير واستبدال الحقائق بروايات أسطورية ومجازية، بعيدة كل البعد عن واقعها الفعلي، وقد بدأت هذه الفكرة تراودني على أثر صدور كتاب بعنوان "التوراة جاءت من جنوب جزيرة العرب"، وقد أسس المؤلف وجهة نظره على المقارنات اللغوية للأسماء القائمة في الوطن العربي وفي المملكة العربية السعودية بالتحديد، وبين المسميات الواردة في التوراة اليهودية، وكان ذلك الكتاب قد تعهدته دار النشر الألمانية "دير شبيغل" عام 1986 تقريبًا بترجمته إلى ست لغات أوروبية، لأنه كان يدعو لإعادة النظر في قراءة جغرافية التوراة، ويقول إنها - أي التوراة - جاءت من جنوب الجزيرة العربية ومن جيزان وعسير بالتحديد، ومن المناطق الممتدة على طول الشريط الساحلي السعودي للبحر الأحمر وصولاً إلى حدود اليمن، فلماذا قصد الكاتب بطلبه إعادة قراءة جغرافية التوراة على أساس أنها لم تكتب في بابل العراق، بل جاء بها موسى عليه السلام من عسير وخميس مشيط وجيزان بعد أن قطع مستنقعًا في عسير إلى بلدة موجود الآن في السعودية باسم

"فرعة"، وكان شيخ العشيرة في تلك البلدة لقبه فرعون نسبة إلى البلدة، وأنكر أن تكون قصة موسى الواردة في الكتب السماوية قد حصلت في مصر، كما أنكر وجود ملك فرعوني باسم رمسيس الثاني، وركز على أن أرض المملكة العربية السعودية هي مصدر التوراة، ومصدر الوجود اليهودي الأصلي، استنادًا إلى مقارنة لغوية لا أساس لها.. إذ أنه من المعروف أن اللغة العبرية التوراتية تعتمد اعتمادًا كبيرًا على نظام التصويت، فإن كتبت الكلمة العبرية أو التسمية بدون تصويتها بمعنى (عدم تشكيلها) حيث لا وجود للإعراب في العبرية خلافًا للغة العربية.. فإذا جاءت الكلمة أو المسمى بدون التصويت فإنه يصبح في الإمكان نطقها وتصريفها لغويًا بأساليب عدة وكذلك إعطائها المعاني المرادة، وهذا ما حدث في تلك المقارنة اللغوية التي تحدث عنها مؤلف الكتاب الدكتور كمال الصليبي، أستاذ التاريخ واللغات السامية في الجامعة الأمريكية ببيروت في ذلك الحين..

فلماذا ركز المؤلف على قضية إعادة قراءة جغرافية التوراة في هذا الزمن بالتحديد؟ سؤال لابد من الوصول إلى إجابة له.. وهي أن التقدم التكنولوجي في العالم، وخلال النصف الأخير من القرن العشرين وقيام الأقمار الاصطناعية بإجراء مسح جيولوجي للكرة الأرضية تبين أن مناطق عسير وجيزان وخميس مشيط في السعودية تعتبر من أغنى مناطق العالم بالذهب الجيد، مما أثار شهية بني إسرائيل للتمهيد بهذه الأفكار لاقتناص المملكة العربية السعودية، باعتبارها أرض التوراة الفعلية وأرض جذور بني إسرائيل، وإلا لماذا تتعهد دير شبيغل الألمانية بترجمة الكتاب إلى ست لغات ونشره، وتوزعه في أوروبا وأمريكا إن لم يكن يخدم الأهداف الصهيونية وأطماعهم بالمناطق الغنية في العالم، وفي الشرق الأوسط على وجه التحديد؟.

أوكلت الصهيونية الدولية إلى ذلك المؤلف مهمة وضع ذلك الكتاب بالمعنى الذي جاء فيه، أو قُل إن الكتاب تم إعداده في الدوائر الصهيونية، وصدر باللغة العربية باسم المؤلف ليبدو وكأنه بحث تاريخي يستند إلى المقارنات اللغوية، ومن الغريب أيضًا أن الذي رشح ذلك الكتاب للنشر في البلاد العربية كان مركز الدراسات الاستراتيجية العربية في بيروت عام 1986، فوجدت نفسي مجبرًا على الرد على تلك الترهات في الكتاب المذكور بنشر حلقات طويلة في جريدة القبس الكويتية بعنوان "السنهدرين اليهودي الثاني"، أو "السنهدرين بيت"، واستمر النشر عدة سنوات إلى أن اجتاح العراق إمارة الكويت فتوقف النشر ولم يصدر كتاب به نظرًا لتلك الظروف القاسية.

هذه المسألة جعلتني على يقين تام بأن تاريخ المنطقة تعرض عن قصد للتشويه من قِبل الحركة الصهيونية وأعوانها، بإعادة تفعيل أهدافها القديمة والحديثة، وإمعانها في تضليل شعوب المنطقة، وإدخالهم إلى متاهات لا حدود لها، وتضليلهم عن طريق التزوير والروايات الخيالية التي لا تخدم إلا المصالح الصهيونية، لذلك أطالب في هذه الكتاب بإعادة النظر ليس في قراءة جغرافية التوراة، بل في إعادة قراءة تاريخ منطقة الشرق الأدنى ككل، لاستجلاء الحقيقة والواقع، وأن يُعاد كتابة تاريخ المنطقة في ضوء المعرفة الحقيقة واكتشافها، فجعلت هذا الكتاب نوعًا من المساهمة المتواضعة مني كباحث في الأمور التاريخية والدينية وصحافيًا ومراقبًا سياسيًا، ودعوة صادقة للمؤرخين العرب للاهتمام بهذه المسألة الحساسة، فقد حان الوقت لمؤرخينا أن يؤدوا واجباتهم الحقيقة في إضاءة شموع المعرفة على طريق الأجيال العربية القادمة، وأن لا يعتمدوا - كما فعل المستشرقون - على التوراة اليهودية كمرجع تاريخي وحيد، بل ينبغي دراسة المكتشفات الأثرية

والمدونات التي تم العثور عليها خلال القرن العشرين للوصول إلى الحقيقة المتعلقة بتاريخ منطقة الشرق الأدنى.

الدكتور شفيق الخليل

مقدمـــة

بنو إسرائيل عبر التاريخ قديمًا وحديثًا

عندما اختمرت في ذهني فكرة استعراض تاريخ بني إسرائيل في منطقة الشرق الأدنى؛ ترددت كثيرًا حيث شعرت بأن ذلك لن يكون أمرًا سهلاً، إذ أن تاريخ هذه القبائل اليهودية القديمة له جذور عميقة وغامضة أحيانًا في منطقة الشرق الأدنى، وقد يتطلب الخوض فيه الكثير من الجهد والوقت والبحث، كما أن الكتابة به تفصيلاً قد تحتاج إلى مساحات واسعة ومتعددة، غير أنني أثناء ترددي هذا طرحت على نفسي السؤال المهم وهو: لماذا استعرض هذا التاريخ الطويل والمليء بالمغالطات والتزوير والغموض والادعاءات غير السوية، وقد سبقني الكثيرون سواء كانوا من العرب أو من غير العرب في طرق هذا الموضوع الحساس؟ وكان لا بد من إيجاد الجواب المقنع لهذا السؤال، وفعلاً هداني الله إلى الجواب وهو أن هذه الفئة من المخلوقات البشرية التي تعتبر نفسها شعب الله المختار، أو أنه الشعب الذي اختاره الله لنفسه، قد برعت في تزوير الحقائق التاريخية المتعلقة بمنطقة الشرق الأدنى، وبعد أن قرأت في أدبياتهم الدينية أن الإله الذي يعنون هو إله اليهود فقط، وأن اسمه "يهوه"، وأن له مساعدًا اسمه "ميتاترون"، وكما يقولون في أدبياتهم وعلى الأخص "التلمود" أن الله يعمل لمدة ساعتين في اليوم ثم يستريح ويأخذ مكانه نائبه "ميتاترون" ليعمل طوال المدة المتبقية أي 22 ساعة الأخرى من اليوم في تسجيل حسنات بني إسرائيل لذلك اليوم، وهذا يعني أن الله يعمل ساعتين ونائبه يكمل اليوم بعده بتسجيل حسنات بني إسرائيل وكأن الله ونائبه لا شغل لهما سوى تسجيل حسنات بني إسرائيل فقط، أما الكون بنظامه العظيم وكواكبه ومجراته وسماواته وأرضه وما بينهما والبشر جميعًا من غير اليهود، لا يشغل الله نفسه بكل هذه العظمة التي تحتار فيها عقول البشر؛ ولكن يشغل نفسه هو ونائبه الموهوم "ميتاترون" في تسجيل حسنات بني إسرائيل فقط! ألا يدعو هذا إلى الدهشة والاستغراب؟ ليس من ادعاءات بني إسرائيل وحدها بل وأيضًا من الذين تنطلي عليهم هذه الأكاذيب القائمة على الخيالات الواسعة والأوهام التي تفوق كل الحدود، فيصدقونها ويتناقلونها وكأنها حقائق ثابتة منسوبة إلى الله العلي القدير، هذه الافتراءات اليهودية وغيرها كانت العوامل التي جعلتني أحاول استعراض هذا التاريخ اليهودي المليء بالمفاجئات والملابسات والأباطيل، إضافة إلى أن هذه الأقوام التي غزت بلادنا العربية من أقاصي بقاع الأرض تحت ذريعة وعد سماوي من الإله "يهوه"، أهداهم فيه أرض فلسطين مُلكًا أزليًا دون مساعدة من نائب الإله "ميتاترون"، كان العامل الآخر الذي جعلني أقرر وضع هذا الكتاب لكي أصل إلى جزء من الحقيقة ولا أقول الحقيقة كاملة، اطلعت على كتبهم الدينية خاصة التوراة والتلمود وبعض الأدبيات اليهودية، فوجدت أن هناك تزويرًا للحقائق التاريخية، وأن التوراة التي تعتبر - من وجهة نظر بني إسرائيل – سجلاً تاريخيًا لحياتهم ومعاناتهم التي يدَّعون وسبيهم وحروبهم وشتاتهم وتيههم الأكبر، وتبين لي أن توراتهم هذه تشرح الأحداث القديمة دون أن توثقها بالزمن، أي أن التوراة تسجيل تاريخي أسطوري ينقصه التسلسل الزمني، الأمر الذي يترك الباب مفتوحًا أمام نسبة الأحداث إلى أزمنة متغيرة تتفق مع أهدافهم وتطلعاتهم المتعلقة بتحقيق ذلك الوعد المزعوم.

كان لا بدّ لليهود أن يزيفوا تاريخ المنطقة ليساعدهم على الوصول إلى غاياتهم الخبيثة، وقد تم ذلك عن طريق المستشرقين الأوروبيين الذين استقدموهم أو دفعوهم لكتابة تاريخ المنطقة، بما يتلائم وأهدافهم التي عملوا قرونًا طويلة لتحقيقها، ومن المؤسف أننا نحن العرب أخذنا ما كتبه المستشرقون وجعلناه تاريخنا المعتمد دون مناقشة.

لا أظن أنني أنا الوحيد الذي يستعرض تاريخ بني إسرائيل في المنطقة العربية، بل هناك الكثيرون من المؤرخين والمفكرين منذ منتصف القرن العشرين الماضي حاولوا أن يضعوا بين يدي الإنسان تاريخ وفلسفة بني إسرائيل، وقد حاول البعض اكتشاف الحقيقة فأصاب نوعًا، والبعض لم يحالفه الحظ في التوصل إلى معلومات كاملة نظرًا لظروف خارجة عن إرادته، ونظرًا للزخم الهائل من التزوير والتضليل في ذلك التاريخ، ولهذا يمكن القول بإن معظم هذه المحاولات لم ترقَ إلى درجة الكمال في التوصل إلى الحقائق وإلى توضيح صورة جذور بني إسرائيل وفكرهم وثقافاتهم الدينية ومعتقداتهم المختلفة وعاداتهم، وحروبهم فيما بينهم من جهة، وفيما بينهم وبين الشعوب الأخرى التي قُدِّر لهم أن يعيشوا بينها من جهة ثانية، ولا ينكر أحد الجهود التي بذلها هؤلاء المؤرخون والمفكرون والباحثون، أو أن يقلل من قيمتها وجدواها، ولست سوى مجرد باحث يضيف شيئًا من المعرفة التي أحسبها ضرورية للقارئ العربي والمسلم عن حياة بني إسرائيل من النواحي التاريخية والدينية والاجتماعية بقدر ما يتيسر من معلومات حول تلك الطوائف الدينية التي جاءت لغزو بلادنا العربية وتمكنت من فرض الهيمنة على عالم عربي مترامي الأطراف.

فلماذا يحاول أهل الفكر تقصي حقائق التاريخ اليهودي؟ الإجابة على سؤال كهذا إنما تأتي من رغبة الباحثين والمفكرين في استكشاف الحقائق الغامضة التي يلفها الضباب حول تاريخ بني إسرائيل ووجودهم في شبه الجزيرة العربية، فيحاولون سبر أغوار حياة وتاريخ وعقائد وتقاليد الآخرين، لكي يكونوا قادرين على دحض المفاهيم المغلوطة أحيانًا والادعاءات التي تقوم غالبًا على الباطل، خصوصًا في غياب المعرفة الحقيقية لطبيعة تلك الطوائف الدينية، خصوصًا في أعقاب غزوها لمنطقتنا العربية في الشرق الأدنى.

التوفيق في هذا الاتجاه لم يحالف البعض من المؤرخين العرب، فلم يتمكنوا من إعطاء صورة حقيقية عن تلك الطوائف القبلية البدوية من أهل الصحاري والبوادي في جزيرة العرب، وقد ترجع أسباب ذلك إلى اعتماد من بحثوا وكتبوا وألَّفوا الكتب في هذه المسألة، على ما جاء في الكتب المقدسة وفي مقدمتها "التوراة"، وما تحكيه عن تاريخ تجرد من التسلسل الزمني، وأقيم على الأساطير القديمة، اعتمادًا عليه أكثر من سرد الوقائع التاريخية بذاتها، ولم يكلف المؤرخون العرب أنفسهم - فيما يبدو – عناء البحث والتقصي والتدقيق فيما أعطته المكتشفات الأثرية، وما توصل إليه علماء الآثار (الأركيولوجيون)، من كتابات ونقوش تحكي تاريخ بني إسرائيل بشكل مغاير لما ورد في كتبهم الدينية من أحداث بالمقارنة مع ما جاء في تلك الكتب، ومن خلال المكتشفات والأبحاث والكتابات والنقوش التي جادت بها الحفريات الأثارية خلال القرن الماضي، نرى أن التاريخ التوراتي الغامض والمبهم، لا يُعد أكثر من جانب جزئي، يجافي الصواب في أغلبه من تاريخ بني إسرائيل وجذورهم الممتدة عميقًا في الزمن في الصحاري والبوادي الشاسعة المترامية الأطراف، في منطقة عُرفت مؤخرًا بمنطقة الشرق الأدنى..

(وهنا ينبغي أن أنوه بأن المقصود بالتوراة هي الأسفار الخمسة الأولى في الكتاب المقدس (البنتاتويخ)، والتي نسبت لموسى عليه السلام، ولا أقصد الكتاب المقدس ككل، لهذا رأيت أن أشير

إلى هذه الحقيقة من واقع الحرص الشديد على احترام وتقدير الديانات السماوية جميعها، وإننا هنا نتحدث عن الأسفار الخمسة الأولى في الكتاب المقدس من النواحي التاريخية، ولن ندخل في صلب المعتقدات الدينية أو العقائد المختلفة للشعوب، إذ أننا بصدد بحث تاريخي لا عقائدي على الإطلاق).

في أعقاب قيام دولة صهيونية في منطقة الشرق الأدنى عرفت بدولة "إسرائيل"؛ استطاعت خلال مدة وجيزة من قيامها أن تبهر الشعوب الأخرى وتستحوذ على انتباههم، وتوجه فكرهم إلى ما هو بعيد كل البعد عن الحقيقة، بما قامت به من أعمال وما نشرته من إعلام لا يمت إلى حقيقة مأساة شعب فلسطين العربي، ولا إلى واقع معاناة شعوب الشرق الأدنى بسبب وجودها في المنطقة وادعاءاتها بوعد سماوي يمنحها شرعية اقتناص الأرض والهيمنة على الشعوب الشرق أوسطية، واقتناص خيراتها وتسخيرها لخدمة الأهداف الاستعمارية العنصرية، وقد أعلنت عن نواياها بتهويد كل الأرض الفلسطينية بالتركيز على تهويد مدينة القدس، وإعادة بناء هيكل سليمان المزعوم، وحيث أن عمليات التهويد والإعداد لبناء الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى المبارك وقبة الصخرة المشرفة في ظل التداعيات والانقسام والتشرذم العربي، وما آلت إليه أحوال الفلسطينيين بعد توقيع اتفاقيات أوسلو، فقد أخذت مخططات الصهيونية الدولية تطل برأسها غير آبهة بالاعتراضات العربية الخجولة، لهذا دفعني شعوري بالواجب تجاه الأمة التي أفخر بالانتماء إليها، وكباحث في الشؤون السياسية والتاريخية والدينية أن استعرض تاريخ بني إسرائيل، وعقائدهم الدينية الواردة في التوراة والتلمود، واستغلال النصوص الواردة فيهما سياسيًا ونفسيًا للتأثير على عقول البشر في العالم، باللجوء إلى الأكاذيب والتضليل والخداع فيما يتعلق بإقامة دولة لليهود على أرض فلسطين العربية.

العلماء والمنقبون الأثريون والمؤرخون بحثوا خلال نصف القرن الماضي في جذور هذه الفئة، التي استطاعت رغم قلة عددها أن تفرض على سكان الكرة الأرضية ذلك الزخم من الهيمنة الفكرية والسيطرة، وأعطت الانطباع الجبار عن بني إسرائيل بأنهم شعب الله المختار**!** لدرجة أن البعض من العرب أصبح يؤمن بهذه الأسطورة اليهودية، فجاءت أبحاث بعض هؤلاء العلماء والمؤرخين من غير العرب، حقيقية بعيدة عن الغموض التوراتي..

ومنهم من أغفل عدة جوانب لا تخدم مصالح اليهود، خوفًا من الاتهام بمعاداة السامية، ومنهم من كرَّس بحثه للوصول إلى الحقيقة المجردة دون النظر إلى تحيز معين، ودون التخوف من التشويه والعقاب والاتهام بمعاداة السامية والإنسانية.. الخ، وكان من ضمن الباحثين عدد من اليهود الذين تجردوا من انتماءاتهم وكرسوا أبحاثهم للوصول إلى الحقيقة، وليس شيئًا آخر سوى الحقيقة، فجاءت أبحاثهم جادة حازت على إعجاب المحافل الفكرية والتاريخية العالمية، وتبوأت مكانة مرموقة لدى أهل الفكر، ولاقت التقدير والإعجاب على كافة المستويات باستثناء الدولة العبرية العنصرية بطبيعة الحال، وبعض الجماعات اليهودية المتعصبة والعنصرية في الولايات المتحدة الأمريكية وبعض دول العالم الأخرى، وهنا لا بد من الاستشهاد بما ذكرته الأكاديمية "هلين صادر" أستاذة علم الأثار في الجامعة الأمريكية ببيروت تحت عنوان: (أريحا كانت مهجورة في تلك الفترة مما يختلف مع ما جاء في التوراة).

تقول الباحثة هلين صادر إن الاتجاه السائد في علم الأثار يأخذ بآراء يتناقض بعضها مع ما ورد في نصوص توراتية عن اجتياح الإسرائيليين لفلسطين، وكذلك وجودهم التاريخي في مصر،

وترى الدكتورة صادر أن الحفريات الأثارية في السنوات الثلاثين المنصرمة أدت إلى التوصل إلى معلومات جديدة، سمحت بإعادة النظر فيما يسمى مجيء الإسرائيليين إلى بلاد كنعان، وتسمح هذه المعلومات كذلك بإعادة النظر في موضوع القول بوجود الإسرائيليين في مصر كشعب واحد، وإنهم تركوها "بقيادة موسى ودخلوا فلسطين بقيادة يشوع بن نون كجماعة موحدة"، وهم الذين يوصفون بأنهم كانوا (12) قبيلة أو سبطًا، وإنهم احتلوا فلسطين في حرب واحدة.

هكذا تفسر الرواية التوراتية مجيئهم وسكنهم في بلاد كنعان، وورددت في التوراة قائمة بكل المدن التي قيل إن العبرانيين احتلوها، وقد جرب العلماء سابقًا أن يجدوا إطارًا تاريخيًا لما ورد في التوراة، فنظروا في التاريخ المصري ليروا من كان الفرعون خلال فترة بناء مدينة رعمسيس، التي قالت التوراة إنهم كانوا يبنونها، وقد ورد في التوراة في الإصحاح الأول من سفر الخروج عن الإسرائيليين أن المصريين جعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يذلوهم بأثقالهم، فبنوا لفرعون مدينتي مخازن "فيثوم ورعمسيس"، ولكن المصريين انتقموا من بني إسرائيل بسبب مناصرتهم للهكسوس في احتلال مصر السفلى، فاستعبدوهم بعنف.

ربما يكون رعمسيس الثاني عاش في أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ولأن في التوراة ذِكرًا لمدينة اسمها مدينة "رعمسيس" التي تقول النصوص المصرية إنه بناها، فقد اتخذ هذا الأمر إطارًا تاريخيًا وضعت فيه قصة خروج الإسرائيليين من مصر، وتضيف الدكتورة صادر إن هذا الإطار الأول كان مقبولاً في الفترة الأولى، لكننا نعرف من جهة ثانية، أن خضة كبيرة أو أزمة شمولية وقعت في الشرق الأدنى – سوريا ولبنان وفلسطين – انتهت على أثرها كل حضارات الألف الثانية قبل الميلاد ومنها: الحثية والمسينية ودخل من سموا بشعب البحر إلى مصر من فلسطين ومن البحر، كما أسسوا مدنًا في جنوب الساحل الفلسطيني.

ويقال أيضًا إنه في الوقت نفسه الذي هدمت هذه الشعوب حضارة الألف الثانية قبل الميلاد على الشاطئ السوري - اللبناني – الفلسطيني، دخلت قبائل آرامية قديمة وأسست دويلات آرامية في سوريا، وقبائل إسرائيلية دخلت فلسطين وأنهت حضارة الألف الثانية الكنعانية، إذن كان هذا هو الرأي التقليدي كما تقول الدكتورة صادر، إلا أن أول اهتزاز لهذه النظرية جاء من علماء التوراة أنفسهم خاصة من مدرسة ألمانية تقول إنه يتبين لدى التعامل مع التوراة بنظرة نقدية أنه لم يحدث أي غزو يهودي لأرض فلسطين.

وللتوراة عدة قصص تفسر مجيء الإسرائيليين إلى بلاد كنعان (فلسطين) منها اثنتان متعاكستان، قصة تقول إن إبراهيم عليه السلام جاء من "أور" الكلدانية في بلاد الرافدين وسكن فلسطين، والثانية هي قصة "الخروج" وهذا يعني أن هناك عدة قصص جمعت في التوراة، فالتوراة كما نعرفها لم يكتبها رجل واحد بل هي مجموعة وحدات جاءت على فترات مختلفة وجمعت بالشكل الحالي في القرن الثامن بعد الميلاد، وتبين أن الكتب التوراتية خاصة سفر "الخروج" هي تقاليد كتبت متأخرة بعد رجوع الإسرائيليين من السبي في بابل، وكل هذه القصص كما تقول الدكتورة صادر هي أقرب إلى "أسطورة"، من حيث أنها تسعى إلى أن تفسر بعد زمن طويل ضاعت فيه الذاكرة قصة نشأة معينة أو أصل معين.

وتضيف: أما النصوص التاريخية فلا علاقة لها بالمعتقد الديني، العلماء الألمان كانوا أول من نظر في هذه المسألة بهذا الشكل إذ أنهم رأوا أن الأمر ليس أكثر من قبائل كانت تروح وتجيء متنقلة

في مناطق "الأطراف" ثم استقرت، وكانت هذه أول "زعزعة" للقصة التوراتية عن تاريخ الإسرائيليين، أما الزعزعة الثانية فقد صدرت عن علماء الأثار المتخصصين في موضوع التوراة، من خلال سعيهم إلى التأكد فيما إذا كان ما ورد في التوراة قد حصل فعلاً أم أنه لم يحصل، فكانت حصيلة أبحاثهم أنه من كل المدن والبلدات التي ورد أن الإسرائيليين احتلوها رصدت في واحدة أو اثنتين بمستويات من الدمار لطبقات العصر البرونزي الحديث، والمفترض أن الإسرائيليين سكنوا في تلك المدن، لكن لم يظهر أي دمار يدل على ذلك، وأعظم مثل على هذا الأمر قصة "أريحا" واحتلالها وتدمير أسوارها بالطريقة التي تصفها التوراة مما لا ينطبق على الواقع، فأريحا كانت مهجورة في تلك الفترة، وكذلك ما عرف باسم "خربة التل"، فإنها لم تكن موجودة أساسًا كي يجري احتلالها. كما أن المكتشفات الأثرية الحديثة تؤكد أن مدينة أريحا كانت مدينة مدمرة ومهجورة قبل ما لا يقل عن ثلاثمائة سنة قبل وصول الموسويين إليها، مما ينفي نفيًا قاطعًا ما جاء في التوراة حول تدمير أريحا على أيادي بني إسرائيل ويشوع بن نون.

أما ما تسميه الباحثة الأكاديمية اللبنانية "البرهان القاطع" فقد توصل إليه العلماء الإسرائيليون بعد سنة 1967 واحتلال الضفة الغربية ووسط فلسطين، فقد أجرى هؤلاء العلماء مسحًا شاملاً لفلسطين كلها، منطقة السهول التي كان الكنعانيون فيها وكذلك منطقة الجبال الوسطى، ونتج عن ذلك اكتشاف مئات المواقع الأثارية الصغيرة، التي هي أقرب إلى مستوطنات أو مواقع ريفية ولم تكن مدنًا كبيرة.

ونتيجة الحفريات التي أجروها في هذه المستوطنات اتضح أن كل طرق الحياة لم تتغير عما كانت عليه قبلاً، وأن الناس كانوا هم الناس أنفسهم دون أن يجري أي انقطاع حضاري، بل جاءت الأمور تكملة لما كانت عليه في السابق الحياة المدنية توقفت لمدة قرنين وازدهرت بدلاً منها المستوطنات الريفية، إلا أن أهل المستوطنات كانوا يعرفون الزراعة، أي أن أغلبهم لم يكونوا بدوًا بل من سكان تلك الأرض، وقيل إن المستوطنات جمعت شرائح اجتماعية متعددة، قسمًا من البدو أو شبه البدو وقسمًا من الحضر، سكنت فيها وتعايشت في فترة من انعدام الاستقرار.

والاستنتاج الذي خرج به هؤلاء العلماء هنا؛ هو أن هذا الشعب نفسه أكمل حياته ولم يدخل عليه أناس من الخارج حاملين معهم حضارة جديدة، بعد ذلك عاد الاستقرار إلى هذه المستوطنات، وتدريجيًا أخذت تنشأ مدن بدلاً منها واحدة تلو أخرى.

وتتحدث التوراة عن وجود الإسرائيليين في مصر لعدة أجيال، أما تاريخيًا فليس هناك نص مصري يذكر وجود الإسرائيليين، هناك نص واحد هو نصب ملكي للفرعون "ميرنبتاح" الذي عاش في القرن 12 – 13 قبل الميلاد، وقد جاء فيه أنه تغلب على "إسرائيل" لكن كلمة إسرائيل هنا تتضارب فيها التفسيرات، فالبعض يعتبرها إشارة إلى شعب إسرائيل، والبعض الآخر يعتبرها اسمًا لمنطقة في شمال سيناء أو ما يعرف اليوم بمنطقة النقب في جنوب فلسطين، ومع أن العلاقات بين فلسطين ومصر قامت منذ آلاف السنين فليس هناك ما يدل على وجود الإسرائيليين في مصر، والسبب في هذا قد يرجع إلى أن الإسرائيليين دخلوا مصر مع الهكسوس، وكانوا قد تذوبوا في البيئة الهكسوسية واعتبروا من الهكسوس الذين غزو مصر السفلى وحكموها لمدة 150 عامًا، وهم يرجعون في أصولهم إلى بلدان في آسيا الصغرى.

العلماء الإسرائيليون على أساس أبحاثهم الأثارية ونتائجها توصلوا إلى نتيجة، هي أنه لم يكن هناك غزو لفلسطين كما جاء في التوراة وليس هناك من دلائل سوى تلك التي تشير إلى استمرارية الحضارة في فلسطين لكن في أوضاع اقتصادية واجتماعية مختلفة، وبعد هذه الفترة الانتقالية نشأت مملكتان - هما يهودا والسامرة - لا شك في تاريخيهما، إذ ذكرتا في نصوص غير توراتية، منها نصوص أشورية وبابلية وغيرها، وأهلهما ساميون عبدوا آلهة متعددة، أما التوحيد فقد توصلوا إليه في فترة متأخرة.

ويستمد من نصوص مختلفة أن فكرة آلة خاص بالجماعة انتشرت في الجنوب في مملكة يهودا، فتكونت ديانة التوحيد في القرن السادس قبل الميلاد، وتأصلت بعد السبي إلى بابل، حيث صار العائدون يكتبون قصص التوراة، والآن هناك فريقان من العلماء، فريق يأخذ بهذه النظرية، وفريق آخر يرفضها ويقاومها، ويبقى متمسكًا بالنظرة التقليدية في هذا المجال.

اجمع علماء التاريخ والأركيولوجيا بأن كتابة التاريخ تأتي على نوعين.. الأول أسطوري يقوم على الروايات المتوارثة والمتناقلة من جيل إلى آخر، ومعظمها روايات مجازية تختلف في نصوصها بين جيل وجيل وبين مكان وآخر أيضًا، كما أن الروايات بحد ذاتها تخضع غالبًا للمبالغة أحيانًا نظرًا لتعدد الرواة واختلاف أساليبهم، فلكل راوي أسلوبه في التعبير والوصف، فإما أن يزيد على الرواية التي سمعها أو ينقص منها، وهكذا مع مرور الزمن وباختلاف الرواة تصبح هذه الرواية أو تلك أسطورية مشوهة إلى حد كبير، وبعيدة كل البعد عن الواقع، ولهذا أطلق الباحثون والعلماء على هذا التاريخ اسم (التاريخ الأسطوري). أما النوع الثاني فهو التاريخ المدون، وهو الذي يقوم على المكتشفات الأثارية الحديثة والكتابات القديمة والنقوش التي وجدت على تلك المكتشفات، خصوصًا ما تم اكتشافه خلال القرن العشرين بما توفر للإنسان من وسائل تقنية ساعدته على قراءة الكثير من الكتابات القديمة التي كانت غامضة سابقًا وفي مقدمة تلك الوسائل الحاسوب الإلكتروني (الكمبيوتر).

كان لابد لنا نحن العرب أن نبحث في ذلك التاريخ الطويل باعتباره سجلاً حافلاً بحياتنا في المشرق العربي، وبعد أن تأكد لنا أن التاريخ التوراتي هو تاريخ لا يفي بالحاجات المطلوب معرفتها، وقد تكونت لدينا القناعة بأن أحبار اليهود حين دونوا التاريخ التوراتي كانوا تحت تأثير الأحلام السياسية بالعيش في منطقة الشرق الأدنى الغنية، وتخطيطهم المتعلق بغزوهم لأرض كنعان (فلسطين)، واحتلالها لتكون نقطة انطلاق لبلدان المنطقة التي يرمون إلى إخضاعها واقتناص ثرواتها وخيراتها، وقد تم ذلك تحت عباءة وعد سماوي لهم بتلك الأرض، وكأن السماء التي وعدتهم بها كانت وكالة عقارات مرخصة، أو شركة متخصصة في إصدار سندات الملكية برئاسة نبي الله إسحق عليه السلام - وإسحق من هذا بريء - وأن الإله يهوه هو مالك تلك الأرض، يهبها على هواه لمن يشاء دون أدنى اعتبار لمصير أصحابها الحقيقيين وسكانها الأصليين! فإن صدقت روايتهم – ولن تصدق – فإن ذلك يدعونا إلى الاعتقاد بأن يهوه هذا إله غير عادل على الأقل، أو أنه بدعة من وحي خيالاتهم وليس له وجود بالأساس، وما أكثر بدع هذه الطائفة! وما أكثر افتراءاتهم التي جاءت في التوراة وكتبهم الدينية، خصوصًا ما جاء في التلمود من قصص مجازية غير حقيقية.

لقد تحقق لهم هذا الهدف بعد أكثر من ألفيتين ونصف الألفية وبعد أن عملوا جديًا لاحتلال فلسطين كنقطة انطلاق إلى كافة بلدان الشرق الأدنى، وقد عملوا هذه المرة بأسلوب مختلف عن الأساليب

السابقة، فكانت خططهم الجديدة تتركز حول امتلاكهم لكل وسائل القوة وعلى رأسها قوة (الذهب والمال)، فجمعوه من كل أرجاء الأرض ووضعوه في خزائنهم وسخروه كقوة كبرى، باعتباره القوة الأكبر في السيطرة على الأمم الأخرى واستغلالها لخدمة أغراضهم، كما نشاهده في هذا الزمان من الهيمنة الخفية على أكبر دولة في العالم الولايات المتحدة الأمريكية، وعلى معظم الدول الكبرى الأخرى ونرى كيف تمكنوا من جر الأمريكيين وغيرهم لخوض حروب بالنيابة عن إسرائيل كلما دعت الحاجة، كما هو الحال في أفغانستان وفي غزو العراق العسكري الثلاثيني واحتلاله، وعن طريق الذهب وضعوا النظام المالي العالمي ونظام صندوق النقد الدولي، وفرضوا هيمنتهم الخفية على معظم شعوب الأرض ودول العالم، وسخَّروا هذه الهيمنة لخدمة هدفهم الأول وهو إقامة دولة لليهود في منطقة الشرق الأوسط، لتكون اللبنة الأولى في إحكام السيطرة على بلدان وشعوب المنطقة العربية، والأسباب معروفة لا تحتاج إلى تفصيلات وشروحات، فإن ما يتوفر في المنطقة العربية من خيرات طبيعية تحكي عن نفسها بنفسها وتجعلها عرضة لأطماع الطامعين، كما أن من يسيطر على الشرق الأوسط يضمن هيمنته وسيطرته الكاملة على دول العالم وبإمكان الحركة الصهيونية بعد تثبيت تلك السيطرة الإعلان عن هدفها الأكبر وهو بعث دولة العالم الواحدة يرأسها ملك من نسل داود.

حاول العرب أن يقاوموا المد الصهيوني الذي اجتاح بلادهم بغزو خفي الأول من نوعه خلال الألفيتين السابقتين، غير أن التصدي العربي لهذا الغزو أخذ منحى التقليدية دون أن يدركوا أن الغزاة الجدد يختلفون اختلافًا كليًا عن أي غزاة آخرين، الأمر الذي أدى إلى الفشل الكامل في وقف الزحف الصهيوني، علاوة على أن العرب لم يتمكنوا من فهم العقلية الصهيونية اليهودية فهمًا دقيقًا، ولم يكلفوا أنفسهم عناء ومشقة البحث والتدقيق والتمحيص للوصول إلى المعرفة الحقيقية للفكر اليهودي الغازي لبلادهم والسبب الرئيسي لذلك الإهمال العربي يرجع إلى عوامل عديدة، أهمها طمس دور الحضارة والثقافة العامة العربية التي سبقت ظهور الإسلام، إذ اعتبر العرب تلك العهود "عصور جاهلية"، وصنفوها بالجاهليات الأولى والثانية.. الخ، مما يتهيأ للباحثين والعلماء أن العرب كانوا يعيشون طوال حياتهم متنقلين بين جاهلية وأخرى، برغم أن الجذور العربية في منطقة الشرق الأدنى عميقة جدًا، وموغلة في القدم، وقد نمت من تلك الجذور أعظم الحضارات الإنسانية بكل فروعها، مثل حضارة الكنعانيين العرب والسومريين والبابليين والآشوريين والعموريين والفينيقيين والحثيين والكلدانيين والآراميين، وأقدمها أيضًا حضارة العرب الفراعنة في وادي النيل التي لا زال العالم بأسره يقابلها بالإجلال والتكريم، ولكن ما يؤسف له حقًا، أن عرب هذا الزمان لم يدركوا حتى اللحظة أن الفراعنة كانوا من أصلاب العرب واقحاحهم، الذين عبروا في هجرات متلاحقة من مناطق جنوب جزيرة العرب إلى وادي النيل، سعيًا وراء الخصب والمرعى، واستقروا هناك ثم أقاموا أكبر حضارة عرفتها البشرية وأسسوا نظام دولة كان الأول من نوعه في العالم القديم. ومن المؤسف أيضًا أننا نعتبر الفراعنة أقوامًا غريبة غريبة عنا لا تعرف أصولها، وأنهم كانوا غزاة من الأجانب جاءوا إلى وادي النيل من جهات مجهولة، لدرجة أن البعض ممن يرفضون العروبة يقولون بجهالة "نحن لسنا عربًا بل فراعنة"، وسوف نعود للحديث عن هذه المسألة والتأكيد على هوية الفراعنة العربية في فصل لاحق من هذا الكتاب.

أما السبب الآخر والمهم فإنه يرجع إلى الاعتماد على مراجع التاريخ التوراتي الذي يفتقر إلى التسلسل الزمني، وعلى التاريخ الذي وضعه المستشرقون الأجانب استنادًا إلى التوراة اليهودية،

وبالتحديد الإصحاحين التاسع والعاشر من سفر التكوين، وإهمال المكتشفات الأثارية الواسعة التي تحققت خلال القرن العشرين، والتي تحكي حقائق التاريخ القديم خلافًا للتاريخ الأسطوري القائم على الروايات والقصص المتناقلة من جيل إلى جيل، ذلك التاريخ الذي اخضع عن قصد وتعمد إلى "الميثولوجية" الواسعة التي أعطت فرصة لتزييف الحقائق التاريخية، خصوصًا فيما يتعلق بمنطقة الشرق الأدنى التي كانت ولا زالت عيون العالم تتطلع إلى خيراتها وثرواتها الطبيعية والبشرية الهائلة.

لا أحد ينكر بأن ما تعرضت له منطقة الشرق الأدنى على مدار الألفي عام الماضية خصوصًا خلال الألفية الثانية بعد الميلاد قد أخَّر إلى حد كبير انطلاقة شعوبها، وفرض نوعًا من التخلف الفكري ثم ساهم في وجود الإهمال العربي في معرفة حقيقة الدور العربي ومعرفة الفكر المعادي الذي اجتاح المنطقة، لهذا فقد نجد بعض الأعذار لمفكرينا في مثل هذا الإهمال، غير أننا نأخذ عليهم مأخذًا بركونهم إلى واقع جميعهم يعرفون أنه بالإضافة إلى كونه مريرًا، فإنه أيضًا يتنافى مع الحقائق الفعلية لدور شعوب المنطقة العربية.

خلال الألفية الثانية الميلادية كان تعداد سكان العالم لا يزيد على مئات الملايين من البشر، وقد ارتفع في نهاية الألفية إلى حوالي ستة مليارات، وكان متوسط العمر 30 عامًا، ليصل في نهاية الألفية إلى 60 عامًا ويزيد، كانت أوروبا في بداية الألفية الثانية مجموعة من الممالك التي برزت عشوائيًا في عصور الظلام بينما كانت الدولة العربية الإسلامية في منتصف الألفية الثانية تقريبًا تمتد من شمال أفريقيا إلى جنوب شرق آسيا مرورًا بالقارة الهندية وأسبانيا وجنوب إيطاليا وفرنسا ونمت معها الحياة الفكرية الرائدة على نطاق واسع للغاية لم يسبق لها مثيل في تلك العصور.

مكتبة غرناطة في الأندلس العربية وفي ذلك الوقت الذي كان الظلام فيه يخيم على أوروبا، احتوت على أربعمائة ألف مجلد ضخم تبحث في كافة العلوم والثقافات والحضارات الإنسانية، وتوغل العلماء العرب والمسلمون في أرضيات الطب والرياضيات والفيزياء والكيمياء والفلك، لا أريد الإسهاب في تعداد الأدوار العربية والإسلامية في الحضارة الإنسانية، وفي استعدادات العالم في الألفية الجديدة والاهتمام بها، وأفضل أن أذكر بأن علينا نحن أمة العرب دورًا كبيرًا في هذه الألفية بما يليق بماضينا المشرف وبما يخدم مصالح شعوبنا العربية، وبما يحقق لأمتنا اللحاق بركب الحضارة الإنسانية والإسهام من جديد في كافة الميادين الثقافية والعلمية، بما يليق بهذه الأمة الرائدة ومكانتها بين الأمم.

وهنا أود أن أذكِّر بأن مجلة "لايف الأمريكية" أصدرت عددًا خاصًا في نهاية الألفية الماضية، احتوى على أسماء مائة شخصية عالمية أبدعت بعلومها واكتشافاتها وثقافاتها، وأعطت البشرية زخمًا جديدًا من التقدم الحضاري والعلمي، وكان من بين المائة شخصية عشرة علماء من أصول عربية أي 10% من علماء العالم كانوا من العرب كرَّمتهم المجلة بنشر نبذة تاريخية عنهم، ألا يحق لنا أن نفخر بهذه الحقيقة؟.

العرب حاولوا مقاومة المد الصهيوني المتغلغل في منطقة الشرق الأدنى، ونشبت عدة حروب بين العرب واليهود خلال الستين عامًا الماضية، انتهت جميعها بفشل العرب في وضع حد للتوسع الإسرائيلي، فبعد الهزيمة العربية الأولى عام 1948 والتي نتجت عن دخول الجيوش العربية إلى الحرب على أساس تقديرات خاطئة، إذ كانت الأنظمة العربية في ذلك الحين تعتقد أن اليهود ما هم

إلا عصابة من المتشردين، ولا يحتاج القضاء عليهم أكثر من أيام معدودات، ولما بدأت القوات العربية في الحرب ضد اليهود في فلسطين يوم الخامس عشر من أيار عام 1948 تبين أن تقديراتهم كانت لا تقوم على أساس، ولا حتى على الحد الأدنى من المعرفة بعدوهم، فأولاً كانوا يجهلون لغته ومعتقداته وخبثه ومؤامراته، واعتماده على الجواسيس والمخبرين، واختراق هيئة الاستخبارات اليهودية لمعظم الأنظمة العربية، إضافة إلى من تم استخدامهم كمخبرين من العرب، مما سهل صد الهجمات العربية ومواجهة جيوش جاهلة لا تتمتع بثقافة ولا بمعرفة حقيقية بشؤون الحروب، تنقصها الخبرات القتالية، باستثناء ما يحمله ضباط تلك الجيوش على صدورهم من أوسمة ونياشين، يتهيأ للمشاهد أن صاحب هذه الأوسمة هو مونتغمري أو رومل ثعلب الصحراء، برغم أن البعض منهم كان لا يجيد استعمال المسدس العادي، ولا يحق لنا أن نوجه إهانة لهم، بل علينا أن نعترف أنهم كانوا بارعين في قمع الشعوب وقهرها.

خسرنا حرب 1948 وفشلنا في وقف التوسع الصهيوني في بلادنا العربية وتغنينا بعدها بالمخلصين الجدد الذين تولوا السلطات عن طريق انقلابات عسكرية، مما أعطى الأمل لأبناء الأمة العربية بمستقبل جيد واستعدادات جيدة لما عرف في حينها بالجولة الثانية من الحرب، فتولى الحكم في سوريا ضباط من العسكريين وكذلك في العراق وفي مصر، وكان ذلك مؤشرًا جديدًا على النصر القادم مما جعل الأمة تتجاوز هزيمة عام 1948.

وتوالت الأوضاع غير المحببة بسبب الخلافات العربية التي بدأت تنخر جسم أمة العرب، خلافات كان يهيأ للإنسان العادي أنها ترمي إلى الوصول إلى التنافس في قضية الصراع العربي الإسرائيلي، ولكنها كانت في الحقيقة غير ذلك على الإطلاق، بل كانت صراعًا عربيًا عربيًا حول السلطة والسيطرة والزعامة، وكانت النتيجة أننا هزمنا مرة أخرى عام 1967 شر هزيمة طاب لبعض العرب أن يطلقوا عليها اسم "النكسة" وهي في حقيقتها أكبر هزيمة عرفتها الأمة العربية عبر تاريخها القديم والحديث.

وتبع تلك الهزيمة النكراء مبررات للتنصل من المسؤولية مما يسمى دول الطوق، أي الدول المحيطة بإسرائيل، غير أن الهزيمة وما بعدها من آثار سلبية بقيت تنخر عقول الأمة العربية، إضافة إلى التيه الفكري الذي أحدثته الهزيمة بين أبناء الشعوب العربية، فلم يعد الإنسان قادرًا على التفكير، أو حتى لم يعد قادرًا على متابعة الأحداث والمتغيرات، وانشغل بالمهاترات التي سادت الأوضاع بين الدول العربية كنتيجة طبيعية للسياسات غير المدروسة والدكتاتورية اللعينة، فقبل عام 1967 كان العرب يشترون السلاح من روسيا، وأخذوا يهددون إسرائيل بالدمار والإبادة الجماعية لليهود على أرض فلسطين، استغل اليهود بخبثهم ومكرهم وأساليبهم هذه الأمور بالإيعاز إلى الصحافة المأجورة، سواء في العالم العربي أو في العالم الغربي، لتثير في أقوالها وافتتاحياتها قلق العالم من تنامي القوات العربية المحيطة بإسرائيل، وحصولهم على أحدث أنواع الأسلحة، بالتركيز على مصر العربية، لاستدرار عطف العالم على بني إسرائيل الذين يتباكون دائمًا بأنهم الضحية، وأن حوالي 300 مليون عربي يحيطون بهم من كل جانب وكلهم يضمرون العداء لإسرائيل المسكينة، وثانيًا ليحصلوا على الدعم العسكري والمالي والاقتصادي اللامحدود من دول العالم الغربي دون أن يتكلفوا دولارًا واحدًا، وهنا نستطيع القول بإننا نحن العرب كنا السبب الأول في تسليح إسرائيل بكل أنواع الأسلحة المتطورة، بما فيها الطاقة النووية، بسبب خطاباتنا العشوائية وعدم تقدير الأوضاع، وتكالب العالم علينا من أجل حماية بني إسرائيل في فلسطين، وتعهدت

الدول العظمى بضمان أمن إسرائيل ووجودها، بل ودعمها وتقويتها بدعوى الحفاظ على أسطورة التوازن العسكري في المنطقة.

بعد البحث والتقصي بأسباب الهزائم العربية والتعتيم الإعلامي العربي المفروض على تلك الهزائم، رأيت أن من حق الأجيال القادمة علينا نحن أهل الفكر من الذين عاصروا الهزائم منذ عام 1948 إلى يومنا هذا، من حقهم علينا أن يعرفوا الحقائق المغيبة عن واقع أمتنا العظيمة، ويعرفوا إلى أي مدى وصل تخاذلنا في التعامل مع الغزاة لأرضنا وأوطاننا، وإلى أي مدى تمكنت أنظمتنا العربية من إخفاء الحقيقة عن الشعوب، وبعضها اعتبر الهزائم النكراء نوعًا من النصر العربي، فإذا استمر الحال على ما هو عليه سوف نرى الأجيال القادمة تأخذ بهذه الأكاذيب والافتراءات وتؤمن بها، إن لم تجد الأمة من يصارحها بحقيقة الأمر وحقيقة المأساة التي حوَّلت شعوب منطقتنا إلى أموات يتحركون على الأرض لكن بدون روح وبدون كرامة إنسانية، حيث أخذ العالم يعتبرنا نوعًا من الحيوانات، وهذا يجعلني استحضر إلى الذاكرة قول شاعرنا الكبير نزار قباني في هزيمة عام 1967:

إذا خسرنا الحرب.. لا غرابة

لأننا ندخلها..

بكل ما يملكه الشرقي من مواهب الخطابة

بالعنتريات التي ما قتلت ذبابة

لأننا ندخلها..

بمنطق الطبلة والربابة

لأجيالنا القادمة علينا حق بأن نطلعهم على حقيقة أمرنا، دون أن نخجل من واقعنا الذي ليس من صنعنا نحن الشعوب المغلوب على أمرها، بل من صنع أحداث لم نرقَ إلى مستوى معالجتها بالطرق السليمة، حيث بقينا نعتمد على منطق الطبلة والربابة في تعاملنا مع الأعداء.

قد يرى البعض أن هذا الكتاب غير مألوف في بحثه حول بني إسرائيل ومسيرتهم عبر التاريخ قديمًا وحديثًا، حيث لم يسبق أن قام مؤرخ أو مفكر عربي بطرق هذا الموضوع بصورة جادة وموسعة، فإن معظم ما تعج به المكتبات العربية من كتب وأبحاث في هذه المسألة جاء بالتقليدية الكتابية من حيث المضامين والأساليب واللغة، لا اختلاف في المضامين بين كتاب وآخر سوى اختلاف أسلوب الكاتب في فن الصياغة اللغوية واهتمامه ببلاغة النصوص، مما أدى بالتالي إلى توجيه الأجيال العربية المتعاقبة إلى نوع من "عبدة النصوص"، فكانت كارثة فكرية لا حدود لها داهمت حياة هذه الأمة العريقة.

على العموم، هذه محاولة أحسبها جادة وجريئة، وهي دعوة مشجعة للمفكرين العرب للقيام بدورهم المهم واللازم في كشف الحقائق المتعلقة ببلادهم وأوطانهم وشعوبهم على مرّ العصور، وإني أرجو الله العلي القدير أن أكون قد وفقت في هذا البحث، وفي الوصول إلى جزء من الحقيقة، إن لم تكن الحقيقة بعينها، حيث أن هذا البحث تطلب الكثير من الاستقصاء والسفر والمتابعة والجهد والوقت، فكان ثمرة أبحاث دامت قرابة حولين ويزيد.

الدكتور شفيق الخليل

الباب الأول

الفصل الاول: أساطير اليهود

عُرف بنو إسرائيل بطبيعتهم الانفجارية، خصوصًا فيما يتعلق بأعدادهم وتضخيم أزماتهم ومعاناتهم، أي أنهم يعملون بالمثل القائل "يجعلوا من الحبة قبة"، وقد لازمتهم هذه الطبيعة مدى حياتهم، والتي يقول فيها بعض علماء النفس أنها ترجع في أساسها إلى رغبتهم في استدرار العطف والشفقة بتكريس المسكنة، باللجوء إلى الكذب وتزوير الحقائق والادعاءات التي لا أساس لها، فباتت هذه الطبيعة تُسيطر على حياتهم اليومية وعلى آدابهم وثقافاتهم، فكان لا مناص من أن يجنح إليها مدونو التوراة والتلمود لتُصبح جزءًا من معتقداتهم الدينية وتُصبح ذات تأثير كبير في كتاباتهم وتدوينهم التوراة والتلمود على حد سواء.

تقول الروايات التوراتية والتلمودية التي وضعها أحبار اليهود على مدار ثلاثمائة عام ويزيد، إن عدد بني إسرائيل الذين خرجوا مع موسى عليه السلام من مصر في عهد الملك المصري (رعمسيس الثاني) كان ستمائة ألف شخص، بين كهل وشاب وامرأة وطفل، ينتمون إلى أسباط بني إسرائيل أي رؤساء قبائلهم الاثنتي عشرة، جميعهم عبروا بحر "سوف" البحر الأحمر، بعد أن شق لهم موسى بعصاه مياه بحر سوف، وفتح لهم اثنتي عشرة طريقًا على عدد قبائلهم كما تقول الرواية التوراتية، والسؤال الذي لا بد من طرحه هنا هو: كم كان بالضبط عدد قبائل بني إسرائيل وكم كان عدد العشائر الصغيرة وفروع العائلات منهم؟ جاءت الأقوال في التوراة والتلمود بإن عدد القبائل التي خرجت مع موسى من مصر كانت (12) اثنتي عشرة قبيلة، إلا أن هذا الرقم هو رقم رمزي، بل رقم سحري، فإذا ما أجرينا عدًّا بسيطًا نجد أن هناك خمس عشرة قبيلة على الأقل، وهي: قبائل روبين وسيمون ولاوي وإساخر وزبلون ودان وجاد ونفتالي وعاشر ويوسف وإفرايم ومنسي وبنيامين، وهناك اعتقاد لدى عدد من المؤرخين المعاصرين بأن "العموريين" كانوا ينتمون لقبائل بني إسرائيل، إلا أن المؤكد بأن المديانيين كانوا فعلاً من بني إسرائيل، وقد جاءت سلالات موسى عليه السلام منهم، وإن لم يكن موسى نفسه واحدًا منهم، حيث تزوج من المديانيين الذين شاركوا بني إسرائيل في المراعي في برية سيناء وجنوب الأردن. كما أن هناك قبائل يهودية صغيرة تُعرف بعشائر "الكينات"، تذوبت بمرور الزمن في القبائل اليهودية الأخرى واندثر اسمها، لهذا يكون عدد القبائل اليهودية الفعلية التي تعرف ببني إسرائيل خمس عشرة قبيلة خلافًا لتعداد التوراة.

عدد آخر من المؤرخين الغربيين قرروا بأن إبراهيم الخليل، الجد الأعلى لبني إسرائيل، حسب التاريخ التوراتي الأسطوري، كان "عموريا" ولم يكن "أراميا" كما جاء في التوراة، وكان العموريون قد أخبروا عن إبراهيم وأخبار أبنائه إسحق ويعقوب في قصصهم التي جاءت بنفس القصص والروايات التي تذكرها التوراة، ولكنها بأسلوب يختلف نوعًا من حيث النصوص، وتتطابق من حيث المضامين، والجدير بالذكر أن روايات العموريين سبقت التوراة بحوالي 1400 عام على الأقل، وسوف أعود للحديث عن هذه المسألة في فصل لاحق من هذا الكتاب.

ما تقدم يحاكي الروايات التوراتية والتلمودية التي وضعها أحبار اليهود على مدار ما يزيد عن ألفين وخمسمائة عام، وهو ما ارتأوه لتدوين تاريخهم ودياناتهم ومعتقداتهم وسيرة طوائفهم، وأدوارهم في الحياة العامة لمنطقة الشرق الأدنى، غير أن المؤرخين المعاصرين يؤكدون بأن اليهود هم أكثر شعوب الكرة الأرضية في التاريخ عنادًا وتشبثًا بالأساطير، ويقولون بإن هناك في بلاد الكنعانيين مدينة الخليل أو "حبرون" تقع على مسافة 20 ميلاً جنوب مدينة القدس التاريخية،

وترتفع حوالي 3000 قدم عن سطح البحر، وتقوم على عدد من التلال الجبلية، وهناك في هذه المدينة كهف يعرف بكهف "المكفيلة"، الذي يضم قبور ما يسمى بالآباء الجوالين، وفي مقدمتهم ضريح إبراهيم الخليل عليه السلام الذي يضم رفاته، والذي ادعى اليهود دون برهان قاطع على أن إبراهيم الخليل هو المؤسس الأول للعقيدة الدينية اليهودية والجنس اليهودي، وضريح إبراهيم يزدوج معه ضريح "سارة" زوجته ابنة أخيه "ناحور"، وفي ذات المبنى قبران آخران لابنه اسحق وزوجته "رفقه" وبالفناء يوجد قبران آخران الأول لحفيد إبراهيم "يعقوب" وزوجته "ليئه"، وفي الساحة الخارجية للمبنى قبر "يوسف" ابن يعقوب وهذا يُشير إلى تاريخ مضى عليه اليوم حوالي 4000 سنة.

يصف المؤرخون مدينة الخليل بأن لها جمال خلاب، وأنها تعطي الزائر انطباع السلام والسكون، الذي غالبًا يكمن في المقدسات القديمة في المدينة، ولكن حجارة هذه المقدسات هي الشاهد الصامت على الكفاح الطويل الذي يعتقد أنه كان على مدار أربع ألاف سنة من النزاعات الدينية والسياسية المستمرة، وكانت بدورها مزارًا ومعبدًا يهوديًا وكاتدرائية بيزنطية ومسجدًا وكنيسة ثم مسجدًا مرة أخرى، أقام حولها الملك هيرودس سورًا ملكيًا يرتفع إلى أعلى حوالي أربعين قدمًا، بحجارة مجدوعة يبلغ طول بعضها 23 قدمًا، وقد زين صلاح الدين الأيوبي في وقت لاحق مزار إبراهيم الخليل عليه السلام بمنبر للوعظ والخطبة الأسبوعية في المسلمين..



- الحرم الإبراهيمي في مدينة الخليل -

يدَّعي اليهود أنه كان هناك مجزرة اقترفها العثمانيون في مدينة الخليل، طالت اليهود عام 1518، غير أن العلماء أفادوا بأنه كانت هناك طائفة يهودية صغيرة قد تأسست، وحافظت على وجود ضعيف لها يتكون من اليهود الأرثوذكس (المتعصبين دينيًا)، وتلموديين، وطلاب المذهب الصوفي الباطني الذي عرف بمبدأ "الكبالا"، كما ضمت الطائفة اليهودية هناك الزاهدين الذين كانوا يجلدون أنفسهم بقسوة حتى تسيل دمائهم على الحجارة المقدسة، وكانوا جميعًا ينتظرون مجيء "المسياح" المخلص، وفي زمن الانتداب البريطاني وعام 1929 بالتحديد تعرض اليهود في الخليل إلى هجوم

شرس من أهل المدينة العرب، وهجوم عربي آخر عام 1936، ولاقى العديد من اليهود حتفهم في الهجومين، خصوصًا "طلاب التوراة" من اليهود المقيمين في الخليل، واليهود الوافدين لدراسة التوراة والعقائد الدينية اليهودية، حيث كانت الخليل تضم أكبر كلية دينية يهودية في العالم في ذلك الحين.

هكذا عندما يزور المؤرخ مدينة الخليل في هذا الزمان يسأل نفسه أين كل أولئك الناس الذين أقاموا يومًا في ذلك المكان؟ أين الكنعانيون والاديميون؟ أين الهيلونيون القدماء؟ أين الرومانيون والبيزنطيون؟ لقد اختفوا جميعهم مع الزمن، لكن ظل اليهود هناك في الخليل، لذلك أصحبت الخليل تعدُّ مثالاً عن العناد اليهودي على مدار أربعة آلاف عام، وهي أيضًا تمثل تناقض اليهود الفضولي نحو ملكية الأرض والاحتلال، ليس هناك من حافظ لفترات طويلة على الوجود وبالتعلق بزاوية معينة على سطح الكرة الأرضية كاليهود، فكانت الخليل أول مكان سجله تاريخ بني إسرائيل في قضية شراء الأرض، الإصحاح الثالث والعشرون من سفر التكوين في التوراة يتحدث عن كيف تمكن إبراهيم الخليل من شراء كهف "المكفيله" والأرض المحيطة به ليدفن فيه زوجته "سارة"، واعتبروا أن إبراهيم الخليل أرسى بهذا مبدأ امتلاك الأراضي في بلاد الكنعانيين، بعد أن نسبوا كذبًا أنفسهم إلى إبراهيم الخليل وذريته.

المؤرخون المعاصرون يتساءلون: من كان إبراهيم هذا ومن أين جاء إلى الخليل؟ ما جاء في سفر التكوين فقط هو الإثبات الوحيد أن إبراهيم كان موجودًا وكانت نصوص ذلك قد جمعت على شكل كتابة ربما بعد حوالي ألف سنة من أيام حياته المفترضة، وقيمة الكتاب المقدس كسجل تاريخي كانت مسألة جدل مكثف على مدى القرنين الماضيين التاسع عشر والعشرين، وكانت حتى العام 1800 وجهة النظر السائدة بين العلماء وغير العلماء أيضًا أن الكتاب المقدس هو مجموعات من روايات التوراة، استلهمت إلهيًا وأنها مفصلة أحيانًا وغامضة أحيانًا أخرى، غير أن علماء كثيرون من اليهود والمسيحيين قد حافظوا لقرون عديدة عليها واعتقدوا أن أسفار الكتاب المقدس العهد القديم احتوت على مقاطع تفهم على أنها حقيقة رمزية أو استعارة أدبية.

ومنذ بداية القرن التاسع عشر الميلادي برز هناك وبازدياد نقد فني خطير للتوراة، فالعلماء اليهود الألمان مثلاً رفضوا فكرة الاعتراف بالعهد القديم كسجل تاريخي وصنفوا أكبر أجزائه كأساطير دينية، الأسفار الخمسة "البنتاتويخ" التي نسبت لموسى عليه السلام قدمت الآن كأساطير شفهية تناقلتها القبائل العبرانية المختلفة والتي وضعت كتابة بعد المنفى البابلي في النصف الثاني من الألفية الأولى قبل الميلاد.

هذه الأساطير (كما كان يدور الجدل) كانت قد حررت بعناية، بعد أن تم خلطها وتثبيتها لتعطي تبريرًا تاريخيًا وإجازة إلهية للمعتقدات الدينية والممارسات والطقوس الخاصة ببني إسرائيل، التي سبقت السبي البابلي، من أجل تأسيسها، والأشخاص الذين ذكروا في الأسفار المبكرة لم يكونوا أشخاصًا حقيقيين، ولكن كانوا أبطالاً أسطوريين، أو شخصيات مركبة تدل على تعدد القبائل اليهودية.

وهكذا ليس فقط إبراهيم والآباء الجوالين، ولكن موسى وهارون ويشوع قد شملتهم الأساطير فلم يعودوا جوهريين أكثر من هيركوليز، وكانت الإنجازات الموسوية حول التوحيد قد تآكلت، وإعادة كتابة تاريخ العهد القديم عملت بها نوعية دقيقة مخضبة بمعاداة السامية.

العمل الجماعي لعلماء التوراة اليهود الألمان أصبح أرثوذوكسيًا، وهذا من تعاليم "يوليوس فيلهاوزن" (1844 – 1918) الذي احتوى كتابه العظيم (مقدمات نقدية لتاريخ بني إسرائيل القديم) الذي نشر للمرة الأولى عام 1878، وحتى لمدة نصف قرن تقريبًا هيمن "فيلهاوزن" ومدرسته على تدريس التوراة، وكثيرًا من تأثيرات فكره انعكس على قراءات المؤرخين، وحتى علماء القرن العشرين مثل (م. نوث) و(أي الت)؛ استبقوا هذا النهج المتشكك رافضين انتزاع التقاليد الأسطورية والجدلية بأن الإسرائيليين أصبحوا شعبًا على أرض كنعان فقط وليس قبل القرن العشرين قبل الميلاد وفتح بلاد الكنعانيين، إنما ذلك كان من أساطيرهم الكبرى، حيث أنهم كانوا قد تسللوا إلى أرض كنعان، كما يقترح علماء آخرون أن أصول إسرائيل يكمن في سحب جالية متعصبة دينيًا من المجتمع الكنعاني اعتبروا فاسدين، هذه والنظريات الأخرى بالضرورة تتجاهل كل التاريخ التوراتي قبل سفر القضاة، الذي كان بذاته مزيجًا من الحقيقة والخيال. فالتاريخ اليهودي كان قد خضع للجدل ولم يكتسب أسسًا جوهرية من أسس الحقيقة حتى عصر "صموئيل" و"داود".

يقول العلماء والباحثون في تاريخ الشرق الأدنى، إن المؤرخين نادرًا ما يهدفون أو حتى يرغبون أحيانًا في توضح التاريخ التوراتي الذي يتحدث عن معتقدات وتحاملات وتحيزات إضافة إلى الإجحاف والتعصب، حيث أن هذه الأمور تدخل إلى صلب حياة الإنسان وهي المساحة التي تكون فيها الموضوعية بالذات صعبة للغاية، إن لم تكن مستحيلة التحقيق، وأكثر من هذا فإن خصوصيات الباحثين وأعمالهم تقوم على أساس تفعيل وتحديد مصادر الموارد، وإيجاد الدوافع الخاصة بالذين جمعوا بعض التصنيفات الأصلية، ليعيدوا تشكيل الأحداث في ضوء التاريخ المقارن.

مع التطور في علوم الأركيولوجيا الحديثة برزت قوة معوضة لانحياز علماء الأثار المتعلقة باستعمال النصوص القديمة للاهتداء بها، وتأكيد البقايا المادية، وقد جرت أبحاث بهذا الشأن في اليونان وآسيا الصغرى، فالاكتشافات والحفريات في طروادة وكفوسس ومواقع أخرى في مينون وكريت والمدن اليونانية القديمة الأخرى والروايات الهومرية، واتخاذها تسجيلات تاريخية مكَّنت العلماء من التوصل إلى عناصر الحقيقة الكامنة تحت القشرة الأسطورية، وهكذا في فلسطين وسوريا والتنقيب في المواقع القديمة فيهما وترجمة أعداد كبيرة من التسجيلات الإدارية والقانونية، قد جنحت بقوة إلى إعادة تخزين قيمة أسفار الكتاب المقدس المبكرة كروايات تاريخية، ويضيف العلماء بأنهم الآن يرون نصوص الكتاب المقدس (التوراة) أنها معقدة جدًا وغامضة، لا تقود إلى معرفة الحقيقة، بل لا تقود إلى شيء البتة.

ويضيف العلماء بأن اليهود هم الشعب الوحيد في العالم اليوم الذي يمتلك سجلاً تاريخيًا ولو أنه غامض ومبهم فيما يتعلق بالأماكن، مما يسمح لهم بالعودة في تتبع أصولهم الواغلة في الزمن، واليهود الذين أنتجوا "التوراة" بشكلها الحالي فكروا أن عرقيتهم ترجع إلى إبراهيم الخليل الذي يقولون إنه المؤسس الأول ليهوديتهم، وهذا يوصلهم إلى جدهم الأعلى "آدم". وفي ضوء معرفتنا الحالية ينبغي الرجوع إلى أقدم إصحاحات سفر التكوين في التوراة على أنها تخطيطية ورمزية أكثر من كونها حقيقية.

الفقرات الواردة في الإصحاح التاسع من سفر التكوين تذكر فيما يتعلق بـ "نوح" والميثاق الأول مع الإله بالإشارة إلى أرض كنعان، إلا أن الباحثين وجدوا أن هذه المواضيع تتكرر أكثر وباستمرار

عندما يأتي الباحث إلى قوائم الأسماء لما بعد الطوفان وصولاً إلى الآباء الجوالين، ويمكن للباحث الآن العودة إلى السؤال المحير عن هوية "إبراهيم" وعن منبعه، أما التوراة فتقول في الإصحاحات (11 – 25) من سفر التكوين: إن أبراهام في الأصل "أبرام" قد جاء من سلالات نوح، هاجر من "أور" الكلدانية أولاً إلى "حران"، ومن ثم إلى أماكن مختلفة ومتعددة في بلاد الكنعانيين، وسافر إلى مصر أيام الجفاف في فلسطين، ولكنه عاد إلى كنعان لتنتهي حياته في "حبرون" حيث اشترى هناك أرضًا لأول مرة.

هذا يعني أن تأسيس التاريخ التوراتي بالإشارة إلى الكلدانيين، هي مسألة عفا عليها الزمن، حيث أن الكلدانيين لم يتوغلوا في جنوب العراق حتى نهاية الألفية الثانية قبل الميلاد، ووجود إبراهيم الخليل تاريخيًا يرجع إلى وقت أبكر من ذلك بكثير ويشير إلى بداية الألفية وليس نهايتها، ثم أن ذكر الكلدانيين في التوراة كان فقط لغرض الإثبات لقراء التوراة أن الكلدانيين كانوا في الألفية الأولى قبل الميلاد، غير أنه على جميع الوجوه لا يشك العلماء بأن إبراهيم الخليل جاء من "أور" كما تذكر التوراة، وهذا يعطي دلالات كثيرة عنه، بغض النظر عن كتابات العمورين حول قصة إبراهيم والتي سبقت التوراة بحوالي أربعة عشر قرنًا.

أما الحفريات التي أجريت مؤخرًا في العراق بينت أن "أور" كانت على أعلى المستويات الثقافية والعلمية، ووجد عالم الأثار البريطاني "وولي" في قبر "ميسكالامدج" بطل الأرض الطيبة؛ خوذة ضخمة صنعت على شكل باروكة من الذهب الخالص، ووجد أيضًا "زقورة" ضخمة يبدو أن قصة برج بابل استوحيت منها، كان هذا من أعمال الملك "اورمامو" من العائلة الملكية الكلدانية (2060 - 1950) قبل الميلاد الذي كان رجل قانون ورجل إعمار.

يعتقد بعض المؤرخين أنه من المحتمل أن يكون إبراهيم ترك "أور" بعد وقت ذلك الملك، وأن يكون قد حمل معه إلى بلاد كنعان قصص "الزقورة" إضافة إلى قصة الطوفان المبكر.

يذكر المؤرخون المعاصرون استنادًا إلى المكتشفات الأثرية والأبحاث وقراءات الأركيولوجيين أنه عندما بدأ إبراهيم الخليل عليه السلام تجواله في منطقة الشرق الأدنى الطويل، الذي سبق استقراره في مدينة الخليل، لم يكن توقيت الآباء الجوالين عبثًا كما كان يفترض سابقًا، سفر التكوين يتحدث عن فترة ما قبل الطوفان ويخلص إلى النتيجة بأن ذلك التاريخ كان تخطيطي أكثر من مجرد قوائم ملوك أو أسماء للآثاريات، قوائم الفراعنة التي أعطاها "مانيتو" الكاهن المصري الذي عايش العصر الهيليني 250 سنة قبل الميلاد تؤكد أكثر صدق التاريخ المصري بثقة معقولة، وتعيد إلى العائلة الملكية الأولى 3000 سنة قبل الميلاد، بيروس الكاهن البابلي يتفق بشكل غير مرتب مع "مانيتو" فيما يتعلق بقوائم الملوك التي جاءت بعد الطوفان تعطي قائمة ملكية مشابهة لقوائم ملوك العراق، فإذا ما تم فحص قوائم الأسماء التي جاءت في سفر التكوين نجد مجموعتين، في كل واحدة منها عشرة أسماء، إلا أن التواريخ تختلف بين الأصل القريب للنص العبري للترجمة السبعينية اليونانية، وبين أسفار موسى "البنتاتويخ"، عند السامريين كان التجميع شبيه بتسجيلات ثقافية غير توراتية، والتوقيت التوراتي الطويل قريب جدًا لحياة ملوك المسماريين قبل الطوفان، لكن بيروس لديه عشر قوائم للملوك الذين سبقوا التوراة بزمن طويل تعطي فقط ثمانية ملوك، ولكن بيروس لديه عشرة تناسب طابع سفر التكوين، الرابط بينهما ربما يكون أبراهام الذي يعتقد أنه أحضر معه التقليد إلى بلاد الكنعانيين، أو الذي نسبه له اليهود لإثبات انتمائهم إلى هذا الجد الأعلى كما تسميه التوراة.

أما ما جاء في التوراة اليهودية فقد أهمل حسب رأي المؤرخين دور إبراهيم الخليل في منطقة الشرق الأدنى عمومًا، إذ اكتفت بإبراز إبراهيم ودوره في ذلك العالم القديم، وحصره في الفرار من الملك النمرود وحرق إبراهيم في نار النمرود، وزواجه من سارة وهجرته الغامضة إلى بلاد حران، ثم إلى الخليل ليستقر فيها ويرى منامًا يطلب منه الله يذبح ابنه (اسحق)، بعد تجواله في مصر وزواجه من "هاجر" المصرية، ثم يتوفى في مدينة الخليل، وهذا يعتبر انتقاص من دور إبراهيم العظيم في المنطقة.

علماء الأثار والمؤرخون يقولون حول موضوع المبالغة وتضخيم الروايات والقصص اليهودية، في قصة الخروج والتيه في برية سيناء أربعين عامًا وعدد من خرجوا مع موسى: "كل ما نعرفه عن هذه القبائل بدرجة من التأكيد أنهم تقاسموا الحياة الصحراوية القاسية جيلاً بعد جيل، وكانوا يتخاصمون فيما بينهم، يحاربون بعضهم البعض في مناسبات وظروف متباينة، يرتحلون من مكان لآخر عبر البوادي في منطقة تعرف اليوم بمنطقة الشرق الأدنى، ليس فقط لمدة أربعين عامًا، كما هو معروف في الكتاب المقدس "التوراة" ولكن لمئات ومئات من السنين، يتطلعون دائمًا للحصول على العسل واللبن في أرض كنعان، وكان على مقربة منهم جنة عدن بسهولها الخضراء في وادي الأردن والأراضي والمراعي الخصبة في دلتا النيل، وأشجار التين والنخيل وحقول القمح الذهبية والشعير والأبقار الحلوب في فلسطين، وقمم الجبال المكسوة بالثلوج في لبنان والأرز يكسو جبال الجليل الأعلى في شمال فلسطين، كان بنو إسرائيل ينظرون إلى تلك الجنة ويفكرون كيف يشربون من مياهها العذبة وأياديهم ترتعش من جفاف الصحراء، وكيف كانت نساؤهم تبكي من الجوع والعطش، نظروا إلى هذه الثروات الهائلة أمامهم ولم يتمكنوا من الاستمتاع بها لأنها لم تكن لهم، كانت محاطة بحراسات شديدة ضمن مدن محصنة بالأسوار العالية القوية والجيوش التي تعد بالآلاف من الجنود المدججين بالأسلحة، تردفهم قوة هائلة من أشد رجال الصحراء العربية. كان الكنعانيون العرب إذ ذاك على مستوى رفيع من التغذية وحسن اللباس وبحبوحة ورغد العيش، على درجة عالية من الثقافة، شعب حضاري متحضر يعيش في أمن واستقرار خلف الأسوار المنيعة، كانوا ينظرون إلى الصحراء حولهم فيروا بيوت الشعر السوداء الرثة التي يقطنها المرتحلون والبدو فنادوهم بالعبرانيين، والكلمة تعني في لغتهم – أولئك الذين عبروا إلى بلادهم من الجانب الآخر من النهر - أي نهر الأردن. فكان المرتحلون البدو يتوسلون إلى الكنعانيين من أجل شربة ماء وطعام يسدون به جوعهم، الكنعانيون كرماء بطبيعتهم يستجيبون لتوسلاتهم من واقع العطف والرحمة، أطعموهم وسقوهم وأكرموهم وأحسنوا إليهم، حاول العبرانيون الذين يعانون من العطش والجوع وحالات اليأس عبور النهر إلى بلاد كنعان، ومن هناك انتشروا إلى برية سيناء، ومنذ لحظات اليأس التي لازمت حياة بني إسرائيل في الصحراء زاد تطلعهم إلى العسل واللبن المتوفر في بلاد الكنعانيين، فنسبوا أنفسهم إلى إبراهيم الخليل وإلى إسحق ويعقوب الذين سبقوهم في العبور إلى بلاد كنعان بعد تجوال وترحال طويلين في البوادي الصحراوية، هذا إذا ما أخذنا بروايات العموريين وقصصهم عن إبراهيم الخليل وأبنائه إسحق ويعقوب، ولا علاقة لهم بهم على الإطلاق، إنما انتسبوا إليهم بغرض الدخول إلى بلاد كنعان، فلفقوا هذه الرواية التي هي في الأصل رواية عمورية قبل التوراة بأربعة عشر قرنًا، وهنا لا بد أن نذكر رواية توراتية تحكي قصة ابتداع اسم "إسرائيل" وخلعه على يعقوب عليه السلام، فقد أورد مدونو التوراة القصة التالية في سفر التكوين ورواية تكرار الوعد السماوي ليعقوب في الإصحاح 35 من سفر التكوين أيضًا، تقول التوراة: "في طريق عودته من فدان آرام وبعد أن قطع مخاوض نهر الأردن باتجاه

بلاد كنعان، التقى يعقوب في الليل في الجبل برجل طلب أن يتصارع معه، فأجلس يعقوب زوجتيه إلى سفح الجبل وأخذ يتصارع مع ذلك الرجل واحتدم الصراع بينهما، وعند الفجر استطاع يعقوب أن يأسر الرجل من وركه الأيمن، فقال له: أطلقني.. لقد طلع الفجر ولا أستطيع البقاء في الأرض! فقال يعقوب ومن تكون حتى لا تستطيع البقاء في الأرض، قال أنا الله! فقال يعقوب: ما دمت أنت الله فلن أطلق حتى تمنحني بركة. قال: ما اسمك؟ قال: يعقوب اسمي، قال الله: اسمك من هذا اليوم يصبح "يسرائيل" لأنك صارعت الله والناس وقدرت وهذه بركتي لك"، وكان يعقوب ابن مائة عام عندما تحول اسمه من يعقوب إلى إسرائيل حسب هذه الرواية التوراتية.

وهنا لا بد من تفسير هذا الاسم الذي يتكون من مقطعين الأول يسر بمعنى (أسر) فعل ثلاثي بمعنى أخذ أسيرًا، والثاني (ائيل) بمعنى الإله، وبجمع المقطعين يصبح معنى هذا الاسم يسرائيل (آسر الإله)، الغريب هنا في هذه المسالة أن يعقوب يصارع الله العلي القدير ويتمكن من أسره، والأغرب أن الله يصارع شخصًا لا يعرفه فيسأله عن اسمه ليباركه.. فهل يعقل هذا؟ وهل تعقل كل الرواية من أساسها، علمًا بأن التوراة أوردت في أكثر من موضع أن يعقوب كان ضعيفًا يخاف من ابن أخيه الصغير ويفر من وجهه، فكيف له أن يصارع الله؟ جاء في الإصحاح الـ 35 من سفر التكوين ما يلي: "وظهر الله ليعقوب أيضًا حين جاء من فدان آرام وباركه وقال له اسمك يعقوب ولا يدعى اسمك فيما بعد بيعقوب بل يكون اسمك إسرائيل، فدعا اسمه إسرائيل وقال له الله أنا الله القدير، أثمر وأكثر، أمة وجماعة أمم تكون منك وملوك سيخرجون من صلبك، والأرض التي أعطيت إبراهيم واسحق لك أعطيها ولنسلك من بعدك أعطي الأرض، ثم صعد الله عنه في المكان الذي فيه تلكم معه".

انطلت هذه الروايات على الكنعانيين العرب في فلسطين وصدقوها ولا زال العرب يصدقون هذه الروايات المختلفة الملفقة، ولهذا السبب سمح لهم الكنعانيون آنذاك بالإقامة بينهم، ولم يعتبروهم غرباء، إلا أن هذه القبائل البدوية أخذت منذ وجودها بين الكنعانيين بالعمل من أجل الحصول على الخيول والسلاح الحديدي من الحثيين فأدخلوا العربات بعجلات خشبية طوقت بأطر حديدية، وكانت العربات قد عرفت في المنطقة بعد دخولها إلى مصر واستعملها المصريون ثم انتشرت إلى البلدان المجاورة، وهكذا لم يحافظ الإسرائيليون القدماء على عهودهم مع الكنعانيين الذين أكرموهم ولم يقدروا ذلك الإكرام الذي قدمه الكنعانيون لهم، فقد عرفوا منذ أقدم عصور التاريخ بأنهم لا يرعون العهود ولا يلتزمون بالمواثيق وإنهم دائمًا يسيئون لمن يحسنون لهم، كما هو حاصل الآن على أرض الواقع في فلسطين، حيث أقاموا بادئ ذي بدء بين العرب أقلية، وعاشوا بينهم بسلام، ثم ما لبثوا أن عادوا إلى طبيعتهم، فقاموا بالمجازر ضد الفلسطينيين الآمنين، ولا زالت مجازرهم متواصلة منذ عام 1948، ومن غير المتوقع أن تصل إلى نهاية.

حروب القبائل اليهودية مع بعضهم البعض ومع غيرهم؛ كانت قاسية وشديدة جعلت أخلاقهم الدينية تجنح إلى عبادة آلهة متعددة عرفت بالآلهة الطوطمية، أي آلهة من الحيوانات مثل: الثور والأفعى والأسد والذئب.. الخ، وقد أرهبوا الكنعايين مما أجبر الكنعانيين على إعادة إغلاق أسوار مدنهم في وجه القبائل اليهودية الشرسة وأرسلوا إلى ملك مصر يطلبون منه النجدة والعون، وقالوا في رسائلهم لملك مصر:

"العبرانيون برابرة الصحراء، برابرة ما وراء النهر يهاجموننا، ساعدنا أيها الملك عليهم"، إلا أن ملك مصر لم يستجب لنداءات الكنعانيين حيث كان منشغلاً في صد الغزاة الذين عبروا إلى مصر

من البحار بسيوف حديدية وعربات بعجلات أطرها من الحديد، وخوذ حديدية أيضًا، وعربات نقل لم تكن جميعها متوفرة لدى المصريين، لهذا كان في ذلك الزمان حدثان عظيمان أولهما: السيف الحديدي وثانيهما: دخول الحصان إلى ساحات الحروب، أما الحدث الثالث كما يقول الأركيولوجيون فكان رجل يسمى "موسى"، ويضيفون بأن اليهود بدون موسى لم ولن يكونوا شيئًا يذكر، ويعنون من الناحيتين التاريخية القديمة والإحساس المعاصر، ليس بنو إسرائيل وليست القبائل الصحراوية وليس العصر البرونزي ولا العصر الحديدي المتقدم، فالبرابرة الذين زحفوا على فلسطين من الصحراء وتغلبوا على الكنعانيين لم يكونوا أدوات موسى ولم يكن موسى أداتهم بل كانت أدواته هو اليهودي، وقد دخل موسى التاريخ بصفة يهودي وهكذا تبعه اليهود فدخلوا التاريخ، حتى أصبحوا يشكلون جزءًا منه ويصفون موسى بقولهم: "عبر التاريخ كله لم يوجد أي شخص هادئ مثل موسى، ولم يتمكن أي رجل آخر أن يضع هذا الختم على مجموعة من الناس لا يتجاوز عددهم عدد أصابع اليدين وأن يعطيهم الخلود، لهذا فإن موسى المارد ظل عبر الأجيال ليس رجلاً عاديًا فحسب بل قوة وذاكرة".

تساءل علماء الثقافة والمفكرون خلال المائة عام الماضية فيما يتعلق بالعهد القديم من الكتاب المقدس "التوراة" من كان موسى؟ ومن لم يكن موسى؟ لكنهم فيما يبدو أهملوا حقيقة هامة وهي أنه قبل ألفي عام في زمن "فيلو الحكيم" العلاَّمة اليهودي في مدينة الإسكندرية المصرية، كان هناك أيضًا علماء ومفكرون وباحثون في التوراة، ولم يشك "فيلو" أو غيره من العلماء الذين عاصروه بوجود موسى، حيث كانت توجد في الإسكندرية مكتبات مصرية عظيمة، وبالأخص مكتبة إسكندرية الضخمة، تعج بالمواد الكثيرة عن موسى عليه السلام، وقد دمرت هذه المكتبات تمامًا، كما دمرت المكتبة اليهودية في القدس، ومهما توافر لدينا من كتب على موسى فإن الكتب الحقيقية عنه لم تعد متوفرة، باستثناء بعض الكتابات الفرعونية التي عثر عليها علماء الأثار مؤخرًا، والتي تحكي جانبًا من حياة موسى، وبما أن هذه الكتابات والاكتشافات العصرية لا تتفق كثيرًا مع ما ورد في التوراة والكتب السماوية الأخرى ومنها القرآن الكريم، وقد يرجع هذا إلى عدة أسباب يعتقد أن أهمها:

1- أن تكون الكتابات المكتشفة من الأبحاث والتنقيبات الأركيولوجية الحديثة، غير دقيقة في تفسيراتها ومعانيها التي فهمها الخبراء الأركيولوجيون.

2- أن تكون الأخبار التي وردت في الكتب السماوية عن موسى عليه السلام وقومه تحتاج إلى تفسير أوسع مما هي عليه!

3- نحن كمسلمين نؤمن بأن ما أخبرنا الله عنه في كتابه الكريم (القرآن) هو حقيقة ثابتة لا تبديل لها، غير أننا نؤمن أيضًا بأن الله ترك مساحات واسعة للعقل البشري ليعمل في اكتشاف المكنون من كنوز العلم وما جاء في كلام العزيز الحكيم، فهناك احتمال كبير أن تكون بعض التفسيرات القرآنية بحاجة إلى تفسيرات أدق مما هي عليه للوصول إلى الحقيقة وهذا لا يتعارض مع إيماننا بالله، بل على عكس ذلك فالبحث والتقصي والاجتهاد في التوصل إلى حقيقة القول قد أمرنا الله بها، أو أن نردها إلى الله ورسوله صلوات الله وسلامه عليه، إن غمض أو التبس الأمر علينا.

4- الكتابات والنقوش التي وجدت على المخلفات الأثارية القديمة لا تتعارض كثيرًا مع ما جاء في الكتب السماوية بل تؤكدها ولكن بأسلوب آخر، وعلينا أن نمعن النظر فيها قبل رفضها، فحين تقول

الكتابات القديمة أن أخت الملك الفرعون الإله، فهذا لا يتعارض مع الآية الكريمة في القرآن التي يقول الله سبحانه فيها عن فرعون (.. فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى)، والكتابات تصفه بالملك الإله كما لقب نفسه، وكان يأمر الناس بأن ينادوه بهذا اللقب الإلهي، كما تقول الكتابات المكتشفة أن أخت الملك واسمها - الأميرة إنيخاس آمون - هي التي التقطت موسى الطفل من مياه النيل أثناء رحلة تنزه نهرية مع نديمها في القصر، فهذا أيضًا لا يتعارض مع الكتب السماوية، فجميعها أكدت أن موسى ألقي في نهر النيل لكي لا يبطش به الفرعون، الذي كان يأمر بقتل مواليد ذكور الهكسوس الجدد، ومنهم مواليد بني إسرائيل، الذين كانوا يشكلون جزءًا لا يتجزأ من الهكسوس المهزومين للفراعنة، بعد حروب بينهم وبين مصر العليا استمرت 50 عامًا انتهت بهزيمتهم وانتصار المصريين عليهم، وأخذهم عبيدًا وخدمًا للفراعنة في مصر العليا، وصدور القرار الفرعوني بقتل المواليد الجدد الذكور للهكسوس كي لا تقوم لهم قائمة، وهذا أيضًا يتفق مع ما جاء في الكتب السماوية وإن اختلف الأسلوب، ومن الطبيعي أن يختلف الأسلوب البشري عن الأسلوب الرباني في النصوص وفي المضامين والجوهر، وتجنبًا لسوء التفسير قد يتعرض له هذا الرأي فلقد رأينا عدم التعمق في شرح تاريخ حياة النبي موسى وما وجد في الكتابات القديمة عن حياته، ونكتفي بالإشارة إلى ما يلزم معرفته المبدئية عن ذلك التاريخ الشخصي لنبي موسى عليه السلام دون الدخول في تفاصيل موسعة تفاديًا لسوء الفهم أحيانًا، حيث أننا لسنا بالأساس نعرض للحديث دينيًا عن معتقدات الأمم في منطقتنا العربية، بقدر ما نشير إلى النواحي التاريخية، مع الإيماء إلى ما نراه ضروريًا لاستعراض العقائد الدينية اليهودية الواردة في كتبهم وعلى رأسها التوراة والتلمود.

في هذه المسألة يقول المؤرخون ومنهم مؤرخون يهود أيضًا "أن الحقيقة المجردة أننا لا نعرف من هو موسى فيما يخص أصوله وجذوره العرقية، عدد قليل من المفكرين لا زالوا يتساءلون عن الحقيقة، ربما كان اسمه من أسماء الطبقات الأرستقراطية المصرية في عهود الفراعنة أو إنه من البيت المالك في مصر، فالاسم (موشيه) هو اللفظ العبري لموسى، ويعني بالهيروغليفية المصرية (أعطي طفلاً)، واسم موسى هو نصف اسم كان يطلق على الإله الذي يهب الطفل، وتعود تسمية الأطفال إلى تلك العهود التي كان المصريون يعتقدون أن الإله يحب الأطفال وينحاز لهم، ولهذا كان رعمسيس الثاني ملك مصر الذي عرف موسى في عهد حكمه كان يسمى "راع موشيه" والاسم راع يعني (إله الشمس) و(موشيه) يعني أعطي طفلاً، لهذا يكون اسمه (إله الشمس أعطي طفلاً) مع إضافة الأسماء الملكية.

وتساءل المؤرخون والباحثون الأركيولوجيون فيما إذا كان موسى من العائلة الملكية التاسعة عشرة في مصر؟ أم أنه التقط من الماء على يد أخت الملك؟ وهل كان من سلالات اللاويين؟ أم أنه من قبائل الكينات المتذوبة في بني إسرائيل؟ أو كان من أهل زوجته مديانيًا؟ وهل كان حقًا قائدًا عظيمًا في جيش المشاة المصري ومن ضباط العربات؟ وهل تزوج موسى من أميرة كوشية كما تقول التوراة؟ وربما لا تكون كوش أرضًا بل اسما يطلق على صنف معين من البشر! ففي اللغات العربية القديمة كلمة "كوشي" تعني أسود البشرة، أي من الأجناس الأفريقية السمراء، وربما تعني التوراة بزواج موسى من امرأة كوشية أنها امرأة سمراء وليست أرضًا بعينها".

وحول عرقية موسى أود هنا أن أورد رواية نشأة موسى كما وردت في المكتشفات الأثرية الحديثة والكتابات التي وجدت على المسلات المصرية القديمة، وقد نقلها المؤرخون بعضهم من اليهود

الأوروبيين والأمريكيين مما يعطي هذه الرواية نوعًا من المصداقية التاريخية، حيث أن هؤلاء المؤرخين تجردوا من كل العوامل التي قد تلعب دورًا في التحيز لجهة على حساب جهة أخرى، وكرسوا دراساتهم للوصل إلى الحقيقة المجردة.

تبدأ القصة عندما كان موسى في العاشرة من عمره، وكانت أخت الملك رمسيس الثاني واسمها الأميرة (إنيخاس آمون) هي الأم المعروفة لديه، باعتبارها الأميرة التي تعهدته بالتربية والإعداد ليكون أمير أمراء مصر، فحين كان موسى في سن العاشرة أرسلت الأميرة في طلبه ليمثل أمامها، وكان موسى إذ ذاك يسرح ويمرح منهمكًا في ألعابه كأي طفل في سنه في حدائق القصر الملكي الكبير، وفورًا ترك كل ألعابه وأسرع إليها حيث كان حبه لها كبيرًا ولا يعصى لها أمرًا، كيف لا وهي المرأة الأميرة التي رعته خير رعاية وكان له منزلة كبيرة في قلبها كأم.

قالت له عند وصوله مداعبة:

- أنت ولد غير صالح! لماذا لا تحضر لأمك إلا حين أرسل في طلبك؟

قال موسى:

- لا يا أمي.. أنا أكن لك كل الاحترام والتقدير وها أنا هرولت للمجيء إليك استجابة لطلبك..

قالت الأميرة:

- أعلم يا ولدي ولكني أردت مداعبتك بعض الشيء..

قال:

- ما الأمر يا أمي؟

قالت:

- انظر إليَّ فقد بلغت من العمر ما بلغت، انظر إلى ترهل جسدي والجيوب تحت جفوني، لم أعد تلك الأميرة الجميلة كما كنت من قبل!

قال موسى:

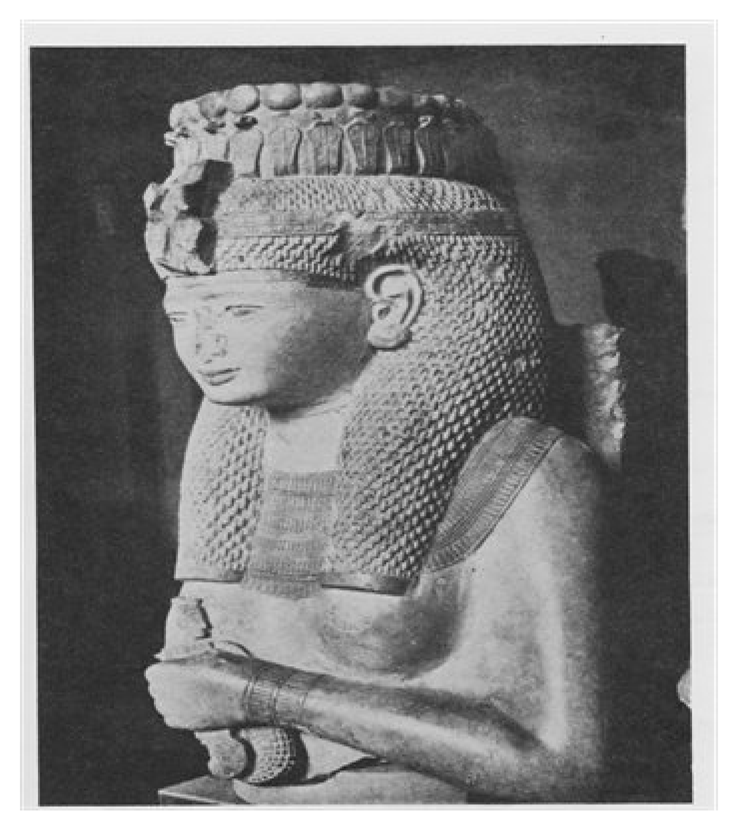
- أنت لا زلت جميلة يا أمي، على الأقل في نظري أنا، أنا أراك أجمل نساء العالم.

قالت:

- أشكرك يا ولدي على مجاملتك لأمك التي تحبك وتريد أن تصنع منك أكبر الأمراء في مصر! لقد وافق أخي الملك الإله رعمسيس الثاني على مقابلتنا أنا وأنت ليراك ويضع يده الملكية الإلهية على رأسك وربما يباركك الإله رعمسيس!

رد موسى قائلاً:

- لا يا أمي أنا أخاف من هذا الملك فربما يعيدني إلى الماء..



انيخاس – آمون أخت الملك رعمسيس الثاني التي تعهدت موسى عليه السلام بالتربية واتخذته ولدًا لها – الأسرة الملكية التاسعة عشرة

وهنا وقع عليها قوله كالصاعقة وقالت بغضب:

- من أخبرك هذا، لا شك أنهم الكهنة، قل من الذي أخبرك وسأقطع عنقه بيدي.

قال:

- لن أقول لك عن أي كاهن من كهنة المعبد، أنا علمت أنك التقطيني من الماء وإحساسي يشير إلى رعمسيس الملك الإله ربما يعيدني إلى المياه من حيث جئت.

قالت:

- لا يا ولدي هذا هراء ولا تصدق الكذابين الذين لا هم لهم سوى الوقيعة بين أبناء الدم الملكي.

قال موسى:

- أما آن الأوان لتخبريني من هو والدي الحقيقي؟ وأطلب منك أن تقولي لي من هو والدي وأين هو الآن؟.

قالت:

- نعم.. يحق لك الآن بعد بلوغك هذه السن أن تعرف من هو أبوك، فانا أمك الأميرة "انيخاس آمون" وكان أخي الملك رعمسيس الإله قد تبناك وأنت طفل رضيع.

قال:

- إذن رعمسيس الثاني الملك الإله هو والدي؟

قالت:

- نعم.. هو والدك بالتبني والكل يعلم ذلك في القصر ويعلمون أنك ابن الملك رعمسيس وأنك أمير من أمراء القصر، لهذا تذهب معي غدًا إليه ليباركك، فأنا أريد أن أصنع منك أمير أمراء مصر، أريده أن يرى بنيتك القوية وجسدك المبني بناء الرجال الأشداء، ولهذا أريدك أن تلبس فقط ثوب جلد النمر البسيط ليظل معظم جسدك مكشوفًا ليرى بناءك العضلي وجمالك الجسماني، اذهب الآن يا ولدي وامرح في حدائق القصر واحضر إلي غدًا لنذهب سويًا وسوف أعلمك الطقوس الخاصة بمقابلة الملك الإله قبل أن نذهب إليه.

في اليوم التالي حضر موسى إلى الأميرة انيخاس آمون التي بدورها شرحت له الطقوس والبروتوكولات الخاصة بالمقابلة، قالت:

- يجلس الملك على عرش خاص على منصة في أعلى القاعة وتقف الحاشية في أسفل الدرجات المؤدية إلى منصة العرش، وعندما يشير إليك بالتقدم إليه، عليك أن تنبطح وتزحف على بطنك على الدرجات صعودًا لتصل إلى أقدامه فتقبلها وتنتظر إشارته برفع رأسك والنظر إليه، فافعل ذلك يا ولدي عله يباركك..

وذهبا معًا إلى القاعة الملكية، ولما أشار إليه الملك بالصعود إليه زحف موسى على بطنه إلى أن وصل إلى أقدام الملك وقبلها، أومأ له الملك برفع رأسه والنظر إليه.. ففعل، سأله الملك قائلاً:

- أراك كبرت فكم عمرك الآن؟

قال موسى:

- عمري عشر سنوات..

مد الملك يده إلى رأس موسى وباركه، بعدها عاد موسى مع الأميرة إلى جناحها الملكي.. فقالت له:

- إني سعيدة أن أراك وقد باركك الملك الإله، اذهب الآن وامرح في الحدائق كما شئت ولكن لا تنسَ موعد الدرس العسكري والتدريبات الملكية، واظب على حضورها لتكون قويًا كي تستحق إمارة مصر، ودعني أناديك من الآن "أمير مصر الأول".

كانت الأميرة تعاني من ألم شديد وصداع في الرأس وبذل طبيبها الخاص كل ما في وسعه لمعالجة الصداع والألم إلا أنه لم يفلح، فاستقدم لها الملك طبيبه الخاص الذي كان أبرع الأطباء في عصره، ورأى الطبيب بعد إجراء الفحوصات اللازمة أن الحالة تتطلب إجراء عملية جراحية في الرأس لاستئصال ورم خبيث في الدماغ، ولكنه حذر من أن نجاح العملية ضعيف للغاية، حيث لم تكن تتوفر له أدوات جراحية مناسبة، كما أن العمليات الجراحية كانت تجرى للمرضى في قاعات واسعة ومفتوحة من أجل توفير الضوء اللازم، حيث لم تكن تتوفر إنارة صناعية مناسبة كما هو اليوم، غير أن الأميرة قبلت بالمجازفة ووافقت على إجراء عملية جراحية خطيرة كتلك، اتخذت كل الإجراءات المناسبة للعملية وتحدد موعدها، وفي الموعد حضرت الأميرة إلى قاعة العمليات وحضر معها موسى، ولكن الأطباء لم يسمحوا لأحد بالدخول إلى القاعة، وبقي موسى في الخارج

ينتظر بفارغ صبر نتيجة العملية الجراحية للأميرة، استمرت العملية أكثر من عشر ساعات متواصلة غير أن الأطباء فشلوا في إنقاذ حياتها.

صعق موسى لوفاة الأميرة التي اعتبرها والدته واعتبر رعمسيس الثاني الملك الإله أنه قاتل والدته الأميرة، وحقد على رعمسيس وأقسم بأن ينتقم منه شخصيًا في يوم من الأيام، وتم تحنيط الأميرة وإيداعها الناووس الخاص بها، وقد تطلب التحنيط والإيداع في الناووس حوالي ثلاثة أشهر، كان خلالها موسى منعزلاً منطويًا على نفسه، يعتصره الألم والمرارة والحزن على والدته الأميرة، وفي كل يوم يزداد حقده على الملك الإله قاتل الأميرة، من الطبيعي أن تؤول ثروة الأم إلى ولدها، فآلت إلى موسى خزائن الذهب الخاصة بالأميرة من حلي وجواهر نادرة لا تقدر بثمن، احتفظ موسى بها كذكرى من والدته وأبقاها في صناديقها داخل جناحها الملكي، واستمر موسى بالعمل برغبة والدته بحضور التدريبات العسكرية والفروسية في القصر الملكي مع باقي أفراد العائلة الملكية.

وذات يوم جلس موسى حزينًا في إحدى حدائق القصر، حين شعر يدًا تمتد إلى كتفه فنظر ورأى الكاهن الذي رافق والدته طوال فترة حياتها، وكان اسمه (آمون تيف) بادئه بالحديث بقوله:

- مرحبا بأمير مصر، إنها فرصة جيدة أن أراك وحدك، وأريد الحديث إليك، كما تعلم أنا كاهن القصر، كنت المرافق شبه الدائم لأمك الأميرة "انيخاس آمون"، وأرجو أن أكون صديقك أيضًا، وليس عيبًا أن يصادق كاهن كبير طفلاً في العاشرة من عمره، كانت والدتك عزيزة علي جدًا، وأوصتني أن اعتني بك بعد وفاتها، فهل تقبل أن تصادقني يا أمير مصر؟

قال موسى:

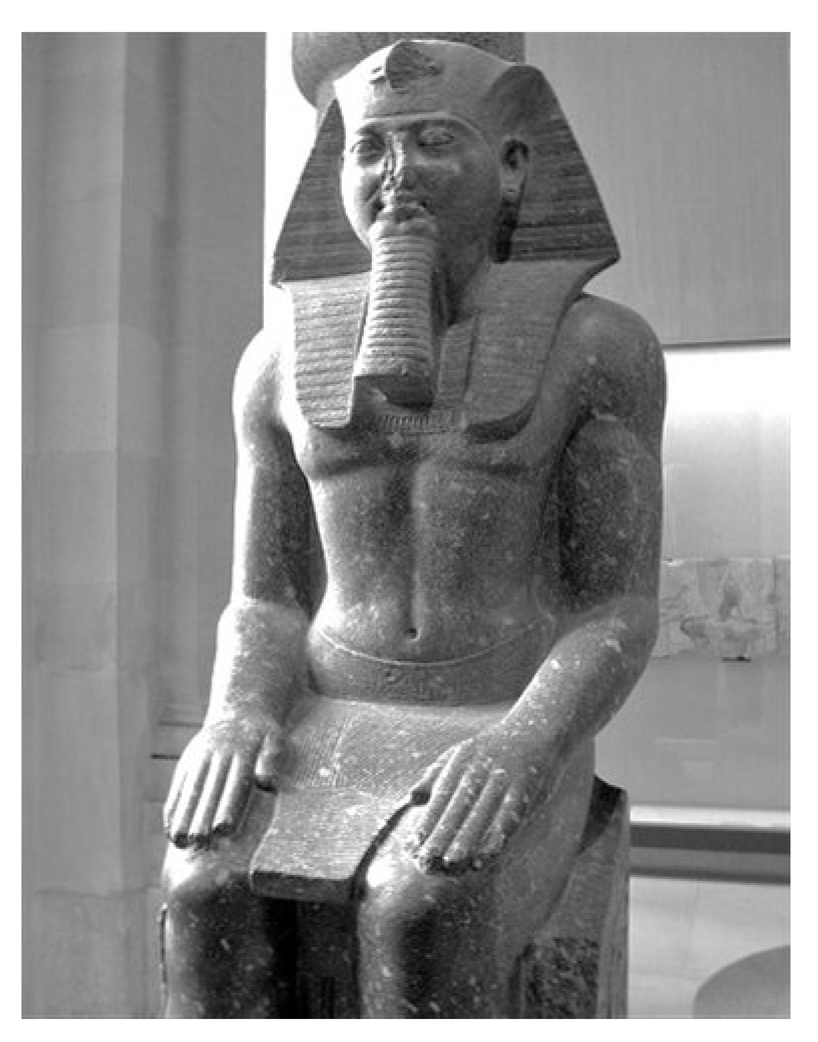
- نعم إني أعرف أنك صديق ومرافق والدتي، وأنا اعتز بصداقتك كما كانت هي أيضًا..

واستمر اللقاء بينهما منفردين حوالي أربع سنوات متواصلة، إلى أن بلغ موسى الرابعة عشرة من عمره قال الكاهن "آمون تيف":

- لقد بلغت من العمر ما يجعلني لا أعتقد أن حياتي سوف تطول كثيرًا بعد الآن، وإني أخشى أن يفاجئني القدر وأرحل عن هذا العالم، ولهذا أريد أن أبوح لك بسرّ أوصتني والدتك أن لا أبوح به قبل بلوغك سن الرجولة..

قال موسى:

- وما هو ذلك السر؟



الملك رعمسيس الثاني – الأسرة الملكية التاسعة عشرة

قال الكاهن:

- كنتُ يومًا مع الأميرة أمك نتنزه بقارب ملكي في مياه دلتا النيل وأثناء تجوالنا في الزورق رأينا صندوقًا صغيرًا يطفو على وجه الماء، أمرتني الأميرة أن التقط الصندوق وكم كانت المفاجأة كبيرة حين فتحنا الصندوق ووجدناك طفلاً بداخله، وأدركنا أن القبائل البدوية التي تقيم على شواطئ دلتا النيل أصحاب بيوت الشعر السوداء هم الذين قدموك قربانًا للنيل، التقطناك وأخذتك الأميرة إلى القصر وطلبت مني عدم البوح بهذا الأمر لأنها أرادت أن تتخذ منك ولدًا وتجعل منك أميرًا على مصر..

قال موسى:

- إذن أنا لست ابن رعمسيس الثاني؟

قال الكاهن:

- لا يا ولدي أنت ابن تلك القبائل البدوية التي تسكن شواطئ الدلتا فهم عبيد رعمسيس الثاني.

قال موسى:

- وهل يعلم الملك الإله الحقيقة؟

قال:

- لا، رعمسيس يعلم أنك ابنه بالتبني ولا يعلم من أين جاءت الأميرة بك!

عندما بلغ موسى سن التاسعة عشرة من عمره استدعاه الملك للمثول بين يديه، وكان الملك يبغض موسى، حيث سمع إشاعات تقول بإن موسى يحمله مسؤولية قتل الأميرة أمه وأنه سوف ينتقم منه شخصيًا.. وصل موسى إلى القصر وقابل الملك، ولكن بدون خوف هذه المرّة، قال له الملك:

- أراك شابًا يافعًا قوي البنية، وإني أعتز بك أميرًا من أمراء مصر، لهذا أريد أن أوليك مهمة كي تخوض التجارب العملية وتصبح مؤهلاً لوراثة العرش من بعدي..

قال موسى:

- ما هي المهمة أيها الملك الإله؟

قال:

- إني أعد جيشًا لمهاجمة الكوشيين في الجنوب، وقد وضعتك ضابطًا في فرقة العربات في الجيش، وعليك أن تلتحق فورًا بالجيش وسيكون قائد العربات بانتظارك ليعطيك الدور المناسب لك.

انصاع موسى للأمر والتحق بفرقة العربات برغم أنه كان يعلم بأن رعمسيس إنما يريد إرساله في مهمة صعبة للتخلص منه، وقال له:

- هذه المهمة تستغرق ثلاث سنوات ولا أريد أن أراك قبل انقضاء هذه المدة، بعدها تواصل مسيرتك إلى الجنوب منفردًا حتى تصل إلى مدينة الذهب وتحضر كل ما فيها من ذهب لي.

ذهب موسى إلى قائد العربات واتفق معه على الدور المطلوب إسناده إليه، وعندها أدرك موسى أنه ليس لديه دراية كافية في قيادة العربات، لهذا طلب من قائد العربات أن يرشح له أحد العبيد من ذوي الخبرة في العربات ليشتريه ويكون قائد عربته الخاص، وجاءوا له بعبد يدعى (نون)، بدوي من البدو المقيمين على شواطئ دلتا النيل، دفع موسى ثمنه وأصبح "نون" عبده الخاص، وبرغم أن موسى أغدق على العبد نون وعامله معاملة إنسانية حسنة، إلا أن العبد حاول مغافلة موسى وطعنه بخنجر من الخلف، وكان موسى سريع الحركة، فاستدار بسرعة البرق، وأمسك بيد العبد، وخلص الخنجر من يده وضربه ضربة ألقت به إلى الأرض، فزحف العبد على بطنه إلى أقدام موسى ليقبلها ويطلب الغفران والصفح، فأوقفه موسى وقال:

- لماذا تريد قتلي؟ إني أعاملك معاملة طيبة، وأغدق عليك، فلماذا هذا الغدر؟ قل لي ما تريد ولن أمنعه عنك ولكن يبدو أنك عبد قذر لا يؤمن جانبك.

قال العبد نون:

- إني أبغض كل الدماء الملكية وأريد أن انتقم منهم على استعباد قبيلتي البدوية.

قال موسى:

- من أي قبيلة أنت؟

قال:

- من قبيلة اللاوي على شواطئ الدلتا..

قال موسى:

- إذن أنا وأنت أخوان في الدم..

قال العبد:

- كيف يكون ذلك وأنت ملكي؟ شرح له موسى بعض الشيء عن أصوله وجذوره.. قال العبد:

- إذن أنت الطفل الذي قدمته القبيلة قربانًا للنيل.. إذا صح ذلك يكون والدك (عمرام) وأختك مريم وأمك (جبينكا) وأخوك هارون.

قال موسى:

- اكتم السر لأنه لا أحد هنا يعلم بذلك سواي وأنت..

قال العبد:

- أنا وأنت أخوة في الدم ولن أتخلى عنك ما دمتُ حيًا فأنا خادمك المخلص المطيع من هذه اللحظة.

بدأت استعدادات جيش رعمسيس للتحرك جنوبًا لمهاجمة الكوشيين، وبدأت مسيرة فرق عربات الخيول، وكان موسى يقود إحدى تلك الفرق ومعه العبد "نون" يقود عربته، وسارت الجيوش بمحاذاة النيل جنوبًا من مكان تجمعها في الكرنك، وكانت المسيرة في غاية الصعوبة بسبب الجو الحار وطبيعة الأرض الوعرة، فكان الجيش يقطع حوالي خمسة أميال في اليوم فقط، وبعد ثلاثة شهور من المسيرة وصل الجيش إلى مشارف ديار الكوشيين. خرج ملك الكوشيين بجيشه لملاقاتهم خارج المدينة والتقى بقائد الحملة وتحدث معه حول منع سفك الدماء.. وقال الملك:

- ماذا يريد ملك مصر منا؟ نحن قوم مسالمون ولا نريد الحرب إلا إذا فرضت علينا، فسوف نقاتل حتى أخر قطرة من دمائنا، إننا نطلب التفاهم ومنع حدوث مجزرة، نحن نطلب هذا وفي ذات الوقت نعلمكم بأن طلبنا لا يأتي من واقع ضعف بل لدينا القوة لردكم على أعقابكم، سوف نعطيكم ما تريدون مقابل المحبة والصداقة ومنع سفك الدماء..

رد قائد الجيش المصري بقوله:

- جئنا لنؤدبكم لأن بعضكم تطاول على الملك الإله رعمسيس الثاني.

قال ملك الكوشيين:

- إن الذين تطاولوا على ملككم هم نفر عاقبناهم وطردناهم من بيننا.

رد قائد الجيش:

- لن نهادنكم حتى تسلمونا أولئك الأفراد، وتأتوا لنا مذلولين خاضعين.

رد الملك بقوله:

- كيف نسلمكم أولئك الأفراد وقد نبذناهم وطردناهم من بيننا، ولا نعلم عنهم شيئًا الآن!

قال قائد الجيش المصري:

- إذن فيعمل السيف بيننا..

وانقض على ملك الكوشيين فقتله وبدأت الحرب بين المصريين والكوشيين، وقتل المصريون أعدادًا كبيرة من الكوشيين، انتهت الحرب بإخضاع الكوشيين لمصر، ونهب الجيش الغازي ذهب الكوشيين، وسبا نساءهم وساقوهم عبيدًا إلى مصر.

موسى الذي كان يعلم أن رعمسيس أرسله في هذه المهمة للتخلص منه، اتجه مع عبده "نون" إلى الجنوب للبحث عن مدينة الذهب برغم علمه أن لا وجود لتلك المدينة على الإطلاق، سار إلى الجنوب إلى أن وصل إلى مشارف منابع النيل الأزرق في الحبشة، ولم تعد الطرق تسمح باستعمال عربة الخيول، وكان أحد الخيول قد أصيب في الحرب مما جعل مسيرته صعبة، ترك موسى العربة والخيول واتجه جنوبًا مع نون سيرًا على الأقدام، سارا طويلاً رغم شدة حرارة الشمس الحارقة، وأثناء المسيرة دخلا إلى شعاب عديدة ووعرة، تعرض موسى فيها إلى لدغ أفعى، فاستل خنجره وقطع رأس الأفعى، إلا أن السم الذي نفثته فيه جعله غير متوازن، عندها أسرع إليه "نون" وشج بخنجره مكان عضة الأفعى وأخذ يمتص الدم من جسم موسى إلى أن تأكد أن خطر السم قد زال، ربط الجرح بقطعة قماش شبه بالية قدها من قميصه لوقف تدفق الدم، بعد ساعات بدأ موسى يعود من الغيبوبة وفتح عينيه ليرى العبد نون يجلس إلى جانبه والدموع تنهمر من عينيه حزنًا على فراق موسى، فأشار له موسى بأنه يريد ماء، ناوله وعاء الماء ليشرب غير أن موسى لم يقوَ على رفع الوعاء إلى فمه، ساعده نون بذلك فشرب وبعدها تقيء موسى كل ما في معدته من سموم ونام نومًا عميقًا، وبعد خمسة أيام استعاد موسى صحته وواصلا المسيرة، فأقبلا على صبية يلعبون، ولما شاهدهما الصبية فروا من أمامهما، فتابعهم موسى ونون إلى أن وصلا إلى قرية يائسة، تجمع أهل القرية حولهما بخوف، إذ لم يكونوا قد شاهدوا سيفًا حديديًا ولا خنجرًا من قبل، وكان موسى ونون بالنسبة لأهل القرية غرباء قد يكونان من كوكب آخر، ورأيا عجوزًا كهلاً يجلس القرفصاء أمام بيته، قال لهما بلغة مصرية:

- من أنتما وماذا تريدان منا؟

قالا:

- أنت تتكلم لغتنا! من أين لك هذه المعرفة بلغتنا المصرية؟

قال:

- كنتُ عبدًا من عبيد الملك الإله رعمسيس، وتعلمت خلال فترة الاستعباد اللغة..

قالا:

- من أنت؟

قال:

- أنا الطبيب الساحر العجوز، وواصل السؤال لماذا جئتما إلى هنا؟

قال موسى:

- جئنا نبحث عن مدينة الذهب، ونعلم أن لا وجود لمدينة كهذه.

قال العجوز:

- لا يا بني، هذه هنا مدينة الذهب، فخذا ما يحلو لكما وارحلا عنا بسلام، نحن لا نقاتل أحدًا، نحن نحب الناس جميعًا وليس لنا أعداء.

قال موسى:

- لن نأخذ شيئًا منكم وسنعود إلى رمسيس بدون الذهب الذي يريد، لأننا نعلم الهدف الذي أرسلنا إلى هنا من أجله.

وبقي موسى ونون في ضيافة العجوز لمدة ثلاثين يومًا كانت من أجمل أيام حياتهما، بعدها عاد موسى ونون إلى مصر، وأخذتهما الرحلة أكثر من ثلاثة أشهر سيرًا على الأقدام. بعد عودتهما من الحبشة طلب موسى من "نون" أن يأخذه إلى البدو ساكني دلتا النيل وتعريفه على أهله هناك، ذهبا سويًا وكان والد موسى وأمه وشقيقه هارون قد توفوا ولم يبقَ من العائلة سوى أخته "مريم"، وكانت امرأة كبيرة في السن، ولها ابنة واحدة تبلغ من العمر حوالي 20 عامًا، لما رأت مريم الأمير بلباسه الملكي خافت جدًّا وتوسلت إليه أن لا يأخذ ابنتها الوحيدة، وعرضت عليه أن تذهب معه لتعمل في البغاء من أجل أن تجمع له المال مقابل أن يترك ابنتها ولا يأخذها كعادة الأمراء الآخرين. قال لها نون:

- إنه لا يريد أن يأخذ منكم شيئًا.. فهو أخ لكم.

فظنت أن نون يخدعها بقوله، سألت كيف يكون أخ لنا وهو أمير مصري؟ قال:

- أتذكرين يوم ألقيتم طفلاً من أطفالكم قربانًا للنيل؟

- قالت: نعم!

- قال: هو هذا الإنسان الذي جاء ليتعرف على أهله، فقد التقطته الأميرة "أنيخاس آمون" واتخذته ولدًا لها واعتنت به وربته أحسن تربية.

ولما تأكدت مريم أن موسى هو شقيقها ارتمت على أقدامه تقبلها، فرفعها وحضنها وكان لقاء حار لم يسبق أن عرفه موسى في حياته.

عاد موسى ونون إلى القصر، ثم ذهبا لزيارة صديق لموسى وهو مهندس القصر الذي كان يشرف على بناء القصر الكبير (الفرعون) على ضفاف النيل، ليروا كيف يستطيع البناءون رفع الحجارة الكبيرة التي يزن الواحد منها عدة أطنان ويضعوها في أماكنها في البناء، دون استعمال آلات رفع وكيف تثبت تلك الحجارة في أماكنها دون استعمال الملاط، وبينما كان هو ونون يقفان لمشاهدة عملية البناء كان مراقب العمال يجلد العبيد بالسوط، يحثهم على العمل والإسراع، وكان المراقب يضرب أحد العبيد ضربًا شديدًا، وكان العبد ضعيف البنية غير قادر على العمل، وضرب العبد بالسوط مما أدى إلى سقوطه على الأرض عند أقدام موسى، فما كان من موسى إلا أن أخذ السوط من المراقب وكسره وألقى به جانبًا ثم لكم المراقب بقبضة يده فخر إلى الأرض ميتًا. حضر

صديقه المهندس وقال: لقد قتلته يا موسى، قال موسى: لم أكن أقصد القتل، إنما أردت أن اخفف عن العبد المسكين ضرباته الموجعة.

علم الملك بأن موسى قتل عبدًا من عبيده، فكانت فرصة للملك أن يتخلص من موسى بذريعة الجريمة، استدعاه إلى قصره وقال له:

- كيف تجرؤ على قتل عبد من عبيدي؟

قال موسى:

- قتلته لأنه يسحق القتل.

- قال: ألا تعلم أن عقوبة هذه الجريمة هي الإعدام؟ ولكنك ابني ومن الممكن أن أعفو عنك إذا اعتذرت عن تلك الفعلة النكراء!

- قال موسى: لن اعتذر!

- قال الملك: إذن أنت تريد الإعدام!

- رد موسى بقوله: بل إنني أريد الحياة!

- قال: إنك تطلب الحياة لأنك ابني؟

- قال موسى: ألم يخبروك؟

- قال: ماذا يخبروني؟

- قال موسى: ألم يخبرك أحد؟

- قال: ماذا يخبروني؟

- قال موسى: ألم يخبروك بأني لست ابنك، أنا ابن القبائل البدوية التي تسكن حول الدلتا وأنا قطعًا لست ابنك!

- قال الملك: أنت تكذب.. فأنت ابني!

- قال موسى: لا.. أنا لست ابنك ولن أكون.

صعق الملك الإله من هذا الخبر وصاح في الحرس الملكي أن خذوا هذا الشيطان من أمامي، وأمر بسجنه في بيته ووضع حراسة مشددة على البيت الذي يقيم فيه موسى ونون.

كان البيت على النيل مباشرة، وواجهته الأمامية تطل على حدائق القصر الغناء، ولهذا كانت الحراسة من الجهة الأمامية فقط، ولم يفكر الحراس بأن موسى ونون من الممكن أن يهربا من الخلف عبر مياه النيل، وفعلاً تمكن موسى ونون من الفرار من خلف البيت، نزلا إلى مياه النيل وكان هناك قارب صغير استقلاه وأبحرا به في النهر شمالاً حتى وصلا إلى منطقة آمنة، ترجلا من القارب وسارا مشيًا على الأقدام في اتجاه الشرق إلى أن وصلا إلى سيناء ومن هناك عبرا إلى بلاد الحثيين في جنوب فلسطين، وعاشا هناك فترة من الزمن حيث توفي "نون" ودفن هناك.

بعد وفاة نون حزن موسى كثيرًا عليه وقرر أن يذهب بعيدًا عن المكان الذي دفن فيه صديق عمره نون، فاتجه شرقًا إلى أن وصل إلى بلاد المديانيين شرقي نهر الأردن، وهناك التقى بشعيب وتزوج إحدى ابنتيه التي دفع مهرها عشر سنوات عمل لدى شعيب.

بعد أن قضى مدة خدمته لشعيب ارتحل موسى مع زوجته المديانية إلى بلاد كنعان، وفي جانب الطور الأيمن المحاذي لمدينة نابلس الحالية كلّمه الله العلي القدير وكلفه بالعودة إلى مصر، لتخليص المعذبين من ظلم رعمسيس الثاني الذي استكبر وادعى الألوهية، عاد موسى إلى مصر وأخذ يعمل على تحرير العبيد من قبضة فرعون، وتمكن بعد وقت طويل من اقتياد العبيد إلى برية سيناء.

المؤرخ الإغريقي القديم "مانيثو" كتب يقول: "بداية محتقرة قام بها الذي اقتاد المنبوذين إلى خارج مصر بأوامر من الآلهة المصرية، والمنبوذ هو الذي يعتبر غير نظيف من الناحية الجسمانية، ولكن مانيثو استعمل الكلمة بوصف قوم موسى الذين كانوا دينيًا غير نظيفين يغمرهم الدنس والرجس والقذارة الجسمانية. من هم الذي اقتادهم موسى إلى خارج مصر؟ ومن كان هؤلاء الناس؟ ماذا فعلوا لآلهة المصريين؟ لماذا كانوا منبوذين؟ ومن هم اللاويون؟ تلك القبيلة من بني إسرائيل التي لم يكن لها أرض في فلسطين، ولم يكن لهم فيها حق موطئ قدم سوى حق الكهانة؟ لماذا اللاويون دون غيرهم من القبائل الأخرى لهم أسماء مصرية مثل ميراري ومريم وأسير وبتئيل وبنحاس وهوفني وباشور، حتى هذا اليوم لا أجوبة على هذه التساؤلات، إنا نعرف فقط أنه منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد وفي عهد رعمسيس الثاني قاد رجل يدعى موسى أتباعه خارج مصر، وهذا حدث في أعقاب حصول المصريين على السيف الحديدي وجنود العربات، فيما قاد موسى قومه خارج مصر كان على بعد مئات الأميال رعاة الصحراء البدو من بني إسرائيل يتجمعون في فلسطين.

كان رعمسيس الثاني مولعًا بإقامة المباني الفخمة والقصور المنيفة، وكان بدأ والده الملك "سيتي الأول" في بناء قصر على ضفاف النيل، إلا أن الوالد توفي دون أن يكمل بناء ذلك القصر العظيم، فأكمله رعمسيس الثاني وأضاف الكثير إلى مخطط بنائه، فكان قصرًا على جانب عظيم من الفخامة والأبهة، سماه "البيت الكبير"، وهذا الاسم يعني بالهيروغليفية المصرية "فرعون"، وحيث أن رعمسيس الثاني التصق بهذا القصر وأحبه جدًا؛ أطلق على نفسه اللقب "فرعون"، بمعنى "ملك البيت الكبير"، وهذا لقب وليس اسمًا للملك، ومنذ ذلك الوقت أخذ لقب فرعون يقترن بملوك مصر، وأصبحوا يعرفون بالفراعنة منذ عهد رمسيس الثاني فقط، أي منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد قبل زوال عهود الفراعنة بفترة ليست طويلة، الأمر الذي يحملنا على الاعتقاد بأن إطلاق لقب "فرعون" على ملوك مصر الذين سبقوا رعمسيس الثاني هو الخطأ بعينه، حيث لم يكونوا معروفين بهذا اللقب قبل ذلك الوقت، كأن تقول التوراة مثلاً بإن إبراهيم الخليل عليه السلام ذهب إلى فرعون مصر في القرن التاسع عشر قبل الميلاد أي قبل أن تعرف التسمية بحوالي ستمائة سنة، إنما يدل على أن مدونو التوراة كانوا لا يتوخون الدقة في تأريخ كتاباتهم، ولكن قد نجد لهم العذر في ذلك إلى كون التاريخ التوراتي ينقصه التسلسل الزمني، مما يجعل اختلاط الأحداث وأوقاتها أمرًا عاديًا بل وكثير الحدوث.

كان حب رعمسيس الثاني كما أسلفنا للبناء والإنشاء عظيمًا، الأمر الذي دفعه لطلب أيادي عاملة من البلدان المجاورة، وقد جاءته أعداد كبيرة من العمال العبيد للعمل في مشاريعه العمرانية، وكان

له وكلاء في أسواق النخاسة في كل بلدان الشرق الأدنى تقريبًا، كما أرسل حملات إلى إثيوبيا ليحضروا له عبيدًا من هناك، ووضع قوانين جائرة ليفرض على شعبه العبودية، واستعبد أيضًا عددًا من القبائل من سواحل شمال أفريقيا (بدو شمال أفريقيا)، فقد جاءوا إلى وادي النيل للحصول على الماء والعلف والغذاء من الأسواق المصرية، بسبب الجوع الذي كان ينخر أجسادهم وحاجتهم للطعام، وأيضًا بدو سيناء الذين سمح لهم في مناسبات عديدة رعي قطعان ماشيتهم في دلتا النيل. قبيلة اللاويين التي كانت قد تذوبت بالهكسوس، وبهزيمة الهكسوس في مصر السفلى أصبحوا عبيدًا للفراعنة، وهم دسيسة غريبة على الزمن كما يتبين من عالم الأثريات الغنية بالعلوم.

والتوراة تتحدث عن حشد من الناس اقتادهم موسى إلى خارج مصر وتُشير أن عددهم كان مئات الآلاف، غير أن المفكرين يكادوا يجمعون على أن هذه الفكرة الغامضة نتجت عن التحريف في النصوص أو ما يعرف بالتوليد والاستيفاء لأرقام وتعداد السكان، فقد تم تقصى طريق الخروج، أي الطريق الذي سلكه هؤلاء الناس مع موسى، كما تم فحص حفر المياه وحسبت كميات المراعي وأصبح هناك ما هو شبه إجماع قائم على البحث العلمي بأن عددهم لم يكن يتجاوز الألف، وهناك احتمال أقرب إلى الصواب أن عددهم الفعلي كان يتراوح ما بين خمسمائة إلى ستمائة شخص فقط، والشيء الذي لا يصدق أن عدة المئات هذه أعطت ذلك الانطباع الضخم غير السوي عن حياتهم واختيارهم شعبًا خالصًا لله وغرسته في عقول بني البشر عبر آلاف السنين بأسلوب ماكر خبيث.

وبرغم أنهم تمكنوا من غرس هذا الانطباع والإحساس، فإنهم بما فيهم موسى قد صنعوا اليهودي والعقيدة الدينية اليهودية، من كانوا ومن أين جاءوا وما هي أصولهم وما هي علاقتهم الأكيدة ببني إسرائيل؟ إننا لا نعرف ومن المؤكد أن لا ولن نعرف.. كل ما نعرفه أنهم عند نقطة محددة انضم إليهم موسى وتحدى رعمسيس الثاني نيابة عنهم وأنه اقتادهم من مصر إلى برية سيناء ليعبدوا إلههم من ناحية، وليقوموا بأول حملة غزو لبلاد كنعان (فلسطين) بقيادة موسى، نعرف أيضًا أن موسى رجل لا ينسى، ورجل محبوب يخشاه البعض ويكرهه البعض الآخر، لكنه رجل ذو جلالة وكبرياء إنساني وإنه هو الذي بدء عملية القوننة وبدونه ما كان لليهود أن يكونوا أمرًا ممكنًا، نعرف أيضًا أنه كان نبيًا من أنبياء الله الصالحين وكان قد تحدث لبني إسرائيل باسم الله العلي، ولكن ما هو الإله؟، اللاويون الذين اقتادهم موسى لم يكونوا موحدين حيث أن التوحيد كان لا زال بعيدًا عن معرفتهم.

بوجود الآلهة الطوطمية للقبائل الإسرائيلية الشمالية وخلال السنوات التي تلت، واصل بنو إسرائيل عبادة الآلهة الحيوانية حتى عصر الخروج مع موسى من مصر، وظلت صور الآلهة الحيوانية (الأيقونات) تظهر على بيارقهم، فمثلاً: التنين الذي ينفث من فمه النار وضع على بيارق اللاويين وقبيلة إساخار التي عبدت الشمس والقمر طرزتهما على بيارقها السوداء، وهكذا كانت كل قبيلة تتبع شعار الآلهة التي عبدها أجدادهم، وكانت لهم الحرية في وضعها على بيارق القبيلة، فقبيلة يهودا كان شعارها الأسد برأس امرأة سموه "أبو الهول"، وقد ظل هذا الشعار قابعًا لسنوات طويلة في هيكل سليمان في بيت المقدس، أما قبائل يوسف النبي فقد عبدوا العجل واتخذوه شعارًا كما فعل أقرباؤهم في جزيرة "كريت" والأقربون إليهم من الفينيقيين على طول السواحل الفلسطينية الشمالية ولبنان.

أهم آلهة لدى القبائل الإسرائيلية كانت آلهة قبيلة "دان" وهي: "النحوشتان" أي الأفعى أو الحنش، والتي اشتق منها اسم الشيطان واعتقدت قبيلة دان أن "النحوشتان" أعطت الإنسان المعرفة في جنة

عدن، كما اعتقد قدماء الإغريق أن بروميثيوس الإله أعطى الإنسان النار ووضع كراهية الإله زيوس إله الرعد وكان هناك لدى القبائل الإسرائيلية إله رعد آخر يطلقون عليه اسم "يهوه إله جبل حوريب" في برية سيناء، وهو الإله القوي الفخور الغيور، إله الأماكن المرتفعة، وكان يهوه عدوًا للنحوشتان الأفعى، وقد وضع النحوشتان أيضًا في هيكل سليمان على قدم المساواة مع إله قبيلة يهودا "أبو الهول"، وبقي هناك بشكله البرونزي إلى عهد الملك "حزقيال" الذي هدمه وأذاب نحاسه لاستعماله في أغراض أخرى مفيدة، وإننا نستخلص من هذا أن موسى لم يستطع أن يغير من نفسية بني إسرائيل برغم خروجهم معه إلى برية سيناء وتلقيه الرسالة السماوية على جبل حوريب، وهنا نراهم يسمون الله "يهوه" إله جبل حوريب كما احتفظوا في عهد موسى عليه السلام بآلهتهم وتماثيلها في الهيكل الذي بناه سليمان بعد وفاة موسى بأربعمائة عام تقريبًا، وهذا يؤكد أن موسى عجز عن إلغاء الآلهة الطوطمية ولم يقنعهم بتوحيد الإله العلي.

يضاف إلى آلهتهم "الإله الذئب"، مع تذكير القارئ بأن هذه الآلهة الحيوانية عرفت بالآلهة "الطوطمية"، الإله الذئب كان للقبائل البنيامينية، وبالرجوع إلى التوراة نرى كم كان أولئك البنياميون مبغوضين لدرجة الإبادة من قبائل بني إسرائيل الأخرى، ولكي نُكمل قصة قبائل "عاشر" الذين تركوا عمل الرعاة وتحولوا إلى الزراعة والاعتماد على حقول الجليل الجنوبي الخصبة، فأقاموا المعابد لآلهتهم الأم التي أطلقوا عليها اسم "عشتورت" وعبدوها عن طريق "الجماع الجنسي" مع راهبات المعبد، الأمر الذي أثار الإغواء والإغراء فانتشر ذلك في كل أنحاء بلاد كنعان (فلسطين) وهذا أثار غضب حاخامات الإله "يهوه"، فصاحوا في الناس بأن لا يهرولوا ويندفعوا وراء آلهة غريبة.

في غمرة هذا الارتباك والفوضى حول طبيعة الآلهة وأسمائها، قال موسى عليه السلام للرب أثناء مناجاته: "ماذا لو أنهم لم يصدقوني ولا يسمعوا لقولي ويكذبون تجليك لي؟ فيقول الرب يهوه إله الرعد وعدو "النحوشتان" مخاطبًا موسى: "ألقِ عصاك التي بيدك إلى الأرض"، فألقى موسى عصاه فإذا بها تنقلب إلى نحوشتان، ولكن الأفعى كآلهة تعبد ترتبط دائمًا بالوجدان اليهودي على أنها ذات صلة بالزراعة والخصب والنماء، وبالرغم من الإشارات المتعددة إلى أن عصا موسى السحرية لم يكن من المحتمل أن تكون تلك هي "النحوشتان" الحقيقية إله موسى أو إله اللاويين.

اللاويون مهما كانوا، قد سكنوا مصر وهم ليسوا من الفلاحين بل من الرعاة الذين أقاموا في أراضي المراعي والمياه والبحيرات والمستنقعات والأنهر، ولو كانوا من الفلاحين لانتهت حياتهم خلال أيام معدودة في الصحراء بعد خروجهم مع موسى إلى برية سيناء، لهذا يمكن الاستنتاج أن اللاويين كانوا رعاة أغنام وليسوا من المصريين، حيث لم يكن في مصر في تلك العهود رعاة منهم على الإطلاق، إذ كان اعتمادهم على الزراعة والصناعة وكان لهم علاقة بشكل أو بآخر مع بني إسرائيل وقد انخرطوا في وقت لاحق بقبائل سيمون ويهودا وكين، وكان ذلك الانخراط يوفر لهم سلامًا أكثر في حياتهم في مصر، أما مسألة تسميتهم بأسماء مصرية؛ فإن من عادة بني إسرائيل أن ينتحلوا أسماء تتفق مع نكهة أسماء الشعوب التي يقيمون بينها، لقد قبلوا موسى باسمه المصري لأنه إما كان منهم، أو إنه من العائلة الملكية في مصر حسب اعتقاد الكثير من الأركيولوجيين والمؤرخين، لقبوا أنفسهم بقبيلة من الرهبان حيث أن آلهتهم هزمت الآلهة الأخرى (ليس الآلهة الأجانب) بل آلهة بني إسرائيل.



موسى عليه السلام غاضبا يحطم الألواح بعد عودته من الجبل وقيام قومه بعبادة عجل الذهب

كان يهوه إلههم الذي قال لزعيمهم موسى: "أنا يهوه.. إلهكم الذي أخرجكم من أرض مصر، بيت عبوديتكم، لا تعبدوا آلهة أخرى غيري"، لذلك كان إلههم هو "يهوه" إله الرعد الغيور والعادل، وقد ورد اسمه أكثر من سبع آلاف مرة في تاريخ وفلسفة اليهود التي لم تكن دونت في كتاب، سموه في وقت لاحق "التوراة"، فمن المهم جدًا أن نحاول فهم السؤال المتعلق بإله اليهود وكيف بدأت عملية التطور الطويلة والارتقاء، السؤال دفع الرباني اليهودي "هلليل" للعمل على استرجاع ديانة اليهود التي جاء بها موسى اللاوي، وحاول زرع المحبة في قلوب بني إسرائيل بقوله: "أحبوا جيرانكم كما تحبون أنفسكم"، وفيما يتعلق بالتوحيد فإن موسى ذاته لم يكن من الموحدين، وكذلك لم يكن واحدًا من الذين اقتادهم إلى برية سيناء، غير أن هناك ترجمة "ميتافيزيقية"، أي ترجمة ما وراء الطبيعة للتاريخ تجعلهم يبدون وكأنهم موحدون، إضافة إلى ذلك لم يكن من القبائل اليهودية الأخرى ولا من أقربائهم موحدين أو أي شيء يشبه التوحيد، اللاويون يعدون إلههم هو الإله المتفوق الأول على مجموعة الآلهة باعتباره إله الصحراء الذي ينبغي عبادته في قلب الصحراء، فكان عليهم أن يخرجوا إلى مسافات بعيدة في الصحراء لعبادة الإله "يهوه"، والسؤال هنا.. لماذا لا يُعبد هذا الإله إلا في الصحراء فقط؟ يقول اللاويون إنهم لا يستطيعون رؤيته إلا في الصحراء وإن لم يروه فمن وماذا يرون إذن؟ تذكر التوراة في سفر الخروج: "انطلقوا من سخوت واضربوا خيامكم في إيتام في طرف البرية، الإله يهوه يتقدمكم في عمود من الغيوم نهارًا ليدلكم على الطريق، وفي عمود من النار ليلا"، دخان نهارًا ونار ليلاً! هل هناك وصف أكثر دقة من "البركان"؟ إله البركان يعيش في أعلى قمم جبل سيناء أو جبل حوريب إذ يحتمل أن يكون الاسمان

لجبل واحد لم يعد موقعه بالتحديد معروفًا سوى أنه في برية سيناء، كيف كان شكل ذلك الإله يهوه؟ هل كان خيالاً أم قطعة من نار ودخان؟ أم كان إلهًا ساخنًا مبتلعًا؟ يقول سفر الخروج في توراة النبيين المكتوبة والمقروءة "أي إنسان يلمس الجبل قتلاً يقتل" جبل مميت أكثر من الإله، ويضيف سفر الخروج فيقول "الآن ارتفع الدخان مثل دخان متصاعد من التنور ثم ارتعش الجبل بشدة"، والغريب أن بركان جبل حوريب مرّ بفترة خمود، وقد فهم بدو الصحراء البرابرة من بني إسرائيل أن الإله خذلهم بالتوقف عن النزول في عمود من نار على الجبل، فاعتقدوا أنه مات أو رحل.

كان هؤلاء البرابرة (والبرابرة هنا تعني الذين يعيشون في البراري والصحاري) الرعاة يخضعون للاستعباد في مصر قبل حوالي 1500 سنة من العصر المسيحي، خصوصًا في عهد الملك رعمسيس الثاني، يعملون في الإنشاءات والمستودعات التي كان الملك مغرمًا بإقامتها حول أراضي المراعي الخضراء على ضفاف النيل، لقد استعبدهم رعمسيس بقسوة شديدة كما استعبد جميع العاملين الذين استقدمهم من البلدان المجاورة للعمل في إنشاءاته، وبما أنهم من البدو كان العمل المفروض عليهم بالقوة في مجالات غير مجالات حياتهم التي اعتادوا عليها مبغوضًا لديهم، لهذا حدث حدثان مهمان في ذلك الوقت، الأول: أن عاد البركان فنشط من جديد، والثاني كما أسلفت أنفًا ظهور زعيم اسمه "موسى" اقتاد حوالي 500 أو 600 شخص على أبعد تقدير خارج مصر إلى برية سيناء، ولم ينجز موسى مهمته بالعنف ولكن بقوة شخصيته. وبهذه القوة استطاع أن يعيدهم إلى عبادة الإله "يهوه"، ثم ما لبث موسى أن وضع قانونًا جديدًا لحياتهم عرف فيما بعد بـ "الوصايا العشرة"، إلا أنهم عندما أعادوا تدوين التوراة في العراق بعد 700 عام على وفاة موسى جاءوا بشرائع حمورابي واتخذوها وصايا، ونسبوها إلى موسى، وموسى لا علم له بهذه الوصايا مطلقًا.

علماء التاريخ والآثار يعتقدون أنه كان هناك أربع قبائل يهودية باستثناء اللاويين، يشكلون أساس ما عرف لاحقًا "ببني إسرائيل"، الذين كانوا يرعون ماشيتهم في المنتصف الشرقي لبرية سيناء وفي النقب جنوب بلاد الكنعانيين، الجزء الذي يعتبر جغرافيًا امتدادًا لسيناء، هذه القبائل هي: يهودا وسيمون وكالب والكينات، وكان مركز قوة هذه القبائل الأربع يتمثل في قبيلة "يهودا"، التي لا زالت تلوك المرارة في الصحراء الجافة، وكانت القبائل الشمالية قد قطعت شوطًا في زحفها داخل بلاد كنعان فاحتلت الأرض وبنت أو احتلت المدن وذاقت حلاوة اللبن والعسل هناك، ومن ناحية أخرى كانت قبيلة "يهودا" مختلفة في عباداتها، حيث كان أبناؤها يعبدون الأسود برؤوس نساء مثل "أبو الهول ذو الأجنحة"، إلا أن هذه الآلهة كانت صغيرة، وقوتها صغيرة أيضًا إذا ما قورنت بإله الجبل "يهوه" إله النار والرعد أو "الإله البركان".

هذه هي القبائل التي جاء معها موسى وعشيرته "اللاويين"، ويعتقد أن موسى هو الذي أسس الإتحاد الجنوبي، الذي أقيم على أساس القوة اليهودية، على أي حال كان موسى نبيًا وقد اتبع اليهود تصورات موسى كما اتبع موسى تصوراتهم. قبيلة يهودا هي التي دعمت اللاويين (قوم موسى) وهي التي قبلتهم كقبيلة مقدسة ليهوه الإله ووضعت تحت تصرفهم وبين أياديهم السيوف والخيول والعربات منذ بدايتها التاريخية، ولكن ظل السؤال الكبير حول لمن الحق الأول في عبادة "يهوه" وفي صيانة الطقوس الدينية المتعلقة بذلك الإله، وكذلك التحدث بصوته أو باسمه بعد احتلال أجزاء من بلاد كنعان من قبل بدو الصحراء الذين عرفوا آنذاك ببني إسرائيل.

قسمت المناطق التي احتلوها فيما بين قبائلهم ولم يعط اللاويون أي جزء من الأرض بل سمح لهم بحق الكهانة وحق جمع الضرائب من 48 قرية فقط، وهنا نعود فنذكر القارئ برقم 12 السحري الذي يستعمله بنو إسرائيل، فنرى الرقم 48 هو مضاعفات رقم 12 تمامًا كالرقم 7 وسحريته؛ فالسماوات سبعة والأراضي سبعة وأيام الأسبوع سبعة.. الخ. على أي حال من المشكوك فيه أن يكون اللاويون قد حصلوا على ذلك الحق المتعلق بيهوه، وهذا يعمق الغموض في أصولهم وتجانسهم، فلو كان اللاويون من قبائل إسرائيل الاعتيادية لما ارتضوا أن يعيشوا بين القبائل اليهودية الأخرى بدون حصولهم على الأرض، إلا أن ما يبرر قبولهم بالكهانة فقط دون الأرض قد يرجع سببه إلى قلة عدد اللاويين الذي خرجوا من مصر مع موسى، إذ أن خمسمائة أو ستمائة شخص لا يمكن أن يكون بينهم أكثر من مائة رجل فقط يستطيعون حمل السلاح، بمعنى أنهم كانوا ضعفاء من حيث العدد، وهذا ما يؤكد بحث العلماء حول أعداد الخروج، ويعارض ادعاء التوراة والتلمود بأن عدد اللاويين الذين خرجوا من مصر مع موسى كان ستمائة ألف شخص.

مع مرور الزمن وفي عهد الملك داود انتشر اللاويون فجأة في كل أرجاء فلسطين، وتوقفوا عن عبادة الإله "يهوه"، فقد نبذوا عبادته كما نبذته قبائل بني إسرائيل الأخرى، لأنهم وجدوا آلهة أكثر جاذبية من جاذبية الإله البركان "يهوه"، بعضهم عبد الآلهة الكنعانية – الإله داجون والإله بعل والإله "غول" وغيرهم من الآلهة الكنعانية الأخرى- وذلك بعد موسى، الأمر الذي يؤكد أن موسى اللاوي لم يتمكن من زرع قوانينه وعقائده بصورة جيدة في عقلية الأقوام اليهودية البدوية.

الفصل الثاني : الفراعنـــة

كما أسلفت في مقدمة هذا الكتاب، سوف أعود هنا للحديث عن أصول الفراعنة وجذورهم العربية ولو بصورة مختصرة، لأن وجود الفراعنة طويل جدًا وعميق في تربة التاريخ القديم، كما أننا لسنا بصدد البحث في تاريخ الفراعنة إلا بالقدر الذي يتصل بتاريخ بني إسرائيل، سواء كان ذلك الاتصال في وادي النيل أو في بلاد كنعان أو في برية سيناء، وهذا سوف يأخذنا للحديث أيضًا عن الهكسوس الذين غزو مصر واحتلوا مصر السفلى وحكموها 150 عامًا، فجميع هذه الأمور مترابطة وأود أن أشير إليها بنوع من التفصيل.

قبل خمس عشرة ألف سنة من يومنا هذا حدث تصحر في جنوب جزيرة العرب، وبالتحديد في اليمن وجيزان وعسير، فيما يعرف اليوم بالمملكة العربية السعودية، وكذلك في حضرموت التابعة لليمن آنذاك، وقد حدث ذلك التصحر لأسباب جيولوجية، من حكمة الله سبحانه وتعالى أن جعل مكة المكرمة مركز الكرة الأرضية، وما كان اعتباطًا أن يؤمر إبراهيم الخليل عليه السلام بإقامة قواعد البيت في وادي مكة أي في مركز الكرة الأرضية، ولم يكن إبراهيم ولا أحد من بعده يعلم هذه الحقيقة إلا أن اكتشفها العلماء والباحثون حديثًا، فالمركز، أي مركز، يقوم على ما يسمى (المحور) والمحور له قطب مغناطيسي، كما توصل إليه العلماء مؤخرًا، والقطب المغناطيسي للأرض يلعب دورًا كبيرًا في خصبها ومياهها ومراعيها وحياة شعوبها، وقبل خمس عشرة ألف سنة كما تشير الأبحاث الجيولوجية والعلمية بدأ القطب المغناطيسي للكرة الأرضية بالتحرك غربًا من المركز الرئيسي في مكة المكرمة، وبما أن تحركه بطيء جدًا، لينتقل من درجة إلى درجة يحتاج إلى سنين طويلة، سار متحركًا باتجاه الغرب، وبعد أكثر من مائتي عام، قطع حوالي 80 درجة غربًا، ووصل إلى خليج هودسن فيما يعرف اليوم بالقارة الأمريكية، وبسبب هذا الانتقال بدأت منطقة جنوب الجزيرة العربية تتصحر وتجف مستنقعاتها وغدران المياه فيها إلى أن جفت تمامًا، وبدأت القارة الأمريكية التي كانت قاحلة قبل ذلك بالنمو والازدهار واختلفت فيها المناخات، وأصبحت خضراء بفعل وصول القطب المغناطيسي إليها، وحيث أن أهل الجزيرة العربية كانوا في ذلك يعتمدون في معيشتهم على قطعان الماشية ويهمهم توفر المراعي لماشيتهم، ومع الجفاف الذي أصاب مناطقهم، اضطروا للرحيل باتجاه شمال الجزيرة العربية سعيًا وراء الماء والمرعى، ووجدوا ضالتهم في الجزء الأوسط من شبه جزيرة العرب بما يعرف اليوم بالمملكة الأردنية الهاشمية، فأقاموا هناك حيث كانت المنطقة قريبة من ما يسمى بحر لوط أو البحر الميت اليوم، وكانت مياه ذلك البحر حلوة صالحة للشرب وكانت تحيط به الأراضي الخضراء الخصبة، ومع مرور الزمن تكاثرت الهجرات المتعاقبة إلى تلك المناطق في أواسط شبه الجزيرة العربية، الأمر الذي كان لا بد من البحث عن مصادر أخرى لمعيشتهم، فاتجه قسم منهم إلى الشرق، إلى أن وصلوا إلى بلاد ما بين النهرين (العراق)، حيث نهري دجلة والفرات، تلك البلاد التي تصفها التوراة اليهودية بأنها جنة عدن، وفي لغة تلك القبائل (العربية القديمة) كلمة "آرام ورام" بمعنى عالي أو المناطق العالية، وباعتبار أن تلك القبائل التي وصلت إلى بلاد ما بين النهرين جاءت من مناطق مرتفعة وهي الأردن فقد أطلق عليهم اسم (الآراميين) أي سكان المرتفعات.

كما أن قبائل أخرى ارتحلت غربًا إلى أن استقرت في وادي النيل بسبب الخصب والمرعى والبلاد الجميلة وأقاموا هناك أكبر حضارة عرفها التاريخ القديم وأطلق عليهم (الفراعنة)، ولكنهم في حقيقتهم يرجعون إلى أصول في جنوب جزيرة العرب، وأنهم من أصلاب القبائل العربية التي تعيش في شبة جزيرة العرب.

وهنا يجب توضيح علاقة بني إسرائيل بفراعنة وادي النيل، وهي أن بلاد وادي النيل كانت في ذلك الوقت تُدار من قبل دولتين فرعونيتين، الأولى عرفت "بمصر العليا" وهي في المناطق الجنوبية من وادي النيل، أي في منطقة ما يعرف اليوم بمنطقة أسيوط وسوهاج ومنطقة النوبة، والحكومة الثانية عرفت بمصر السفلى وهي الوجه البحري المصري على الساحل الممتد غربًا، إلى ما يسمى اليوم الإسكندرية والصحراء الغربية، وكانت الدولتان في حالة صراع دائم فيما بينهما وحروب متواصلة لدرجة أنهما ضعفتا وأصبحتا عرضة للغزو من قبل القوى الأخرى.

في تلك الأثناء استهوى قبائل الهكسوس شمال شبه الجزيرة العربية في سوريا الحالية، بسبب الخصب والمراعي الخضراء في تلك المنطقة، استهوى بالقدوم من أواسط آسيا الصغرى إلى مناطق شمال شبه الجزيرة العربية، (وكلمة هكسوس هي كلمة إغريقية تعني ملوك الرعاة). أقام الهكسوس بادئ ذي بدء في مدينة في شمال سوريا تعرف بمدينة قطنة القريبة من حلب الحالية، وأقاموا لهم مملكة هناك، ولما تكاثروا نادوا في البلاد السورية يطلبون رعاة لمواشيهم، وتقدم للعمل معهم في رعي الماشية رجل وعائلته من شرقي سوريا عرف باسم "اللاوي"، وعاش هو وعائلته معهم وهم من بقايا قوم نوح، وانتقل الهكسوس جنوبًا، وانتقل معهم اللاويون أيضًا، إلى أن وصلوا إلى ما يعرف اليوم بمدينة نابلس في بلاد الكنعانيين، فأقاموا هناك ثم ارتحلوا جنوبًا إلى أن وصلوا إلى برية سيناء حيث كانت المراعي الخصبة، وهناك في برية سيناء أقاموا لهم دولة عرفت بدولة الهكسوس.

في تلك الأثناء كانت المصريتان العليا والسفلى في حالة حرب فيما بينهما، الأمر الذي أضعفها وأعطى فرصة للهكسوس بالانقضاض على مصر السفلى من سيناء، فاحتلوها وحكموها حوالي 150 عامًا، وطبيعي أن ينصهر اللاويون مع الهكسوس خلال هذه المدة الطويلة، وبسبب التزاوج والتصاهر الذي تم بينهم أصبح اللاويون جزءًا من الهكسوس.

بعد 150 عامًا من إقامة دولة الهكسوس في مصر السفلى استعادت مصر العليا قوتها وغزت الهكسوس في مصر السفلى، واستمرت الحرب بين الطرفين زهاء 50 عامًا، انتهت بانتصار الفراعنة على الهكسوس، فأخذوهم سبايا وعبيدًا لهم، وكان اللاويون من ضمنهم باعتبارهم جزءًا لا يتجزء من الهكسوس، وبسبيهم إلى مصر العليا أصدر الفرعون المنتصر مرسومًا بقتل مواليد الهكسوس الذكور الجدد، لكي لا تقوم لهم قائمة بعد ذلك، وكان هذا القرار ينطبق على جميع الهكسوس ومنهم اللاويين، غير أن اللاويين استغلوا ذلك لاحقًا وأشاعوا بأنهم هم المقصودون بقرار الفرعون وذلك من باب طبيعتهم في استدرار الشفقة والعطف عليهم من الشعوب الأخرى، كما حدث في قضية افتعلوها أثناء الحرب العالمية الثانية وأطلقوا عليها كذبًا اسم (محرقة النازيين) أو الهولوكوست.

لذلك عندما تقول الدكتورة "هلين صادر" أستاذة علم الآثار في الجامعة الأمريكية ببيروت؛ إن الاتجاه السائد في علم الآثار يأخذ بآراء يتناقض بعضها مع ما ورد في نصوص توراتية عن

اجتياح الإسرائيليين لفلسطين، وكذلك وجودهم التاريخي في مصر، وترى الدكتورة صادر أن الحفريات الأثارية في السنوات الثلاثين المنصرمة أدت إلى التوصل إلى معلومات جديدة سمحت بإعادة النظر في ما يسمى مجيء الإسرائيليين إلى بلاد كنعان، وتسمح هذه المعلومات كذلك بإعادة النظر في موضوع القول بوجود الإسرائيليين في مصر كشعب واحد، وإنهم تركوها بقيادة موسى ودخلوا فلسطين بقيادة يشوع بن نون كجماعة موحدة، وهم الذين يوصفون بأنهم كانوا (12) قبيلة أو سبطًا، وإنهم احتلوا فلسطين في حرب واحدة، فإنها تكون صادقة، حيث أنهم عاشوا في مصر تحت مسمى هكسوس ولم يعيشوا باسم بني إسرائيل، لذلك لا توجد كتابات تشير إليهم في الأثار المصرية المكتشفة حديثًا.

الفصل الثالث : الأرض - أرض كنعان

أرض كنعان قديمة قدم الزمن، وهي أرض ذاكرة الإنسان وأرض تاريخ الإنسان المدون، وهي المكان الذي نشأت وتكونت فيه الحروف الأبجدية، وعرف فيه البرونز والحديد، وفي أرض كنعان قامت أقدم مدن العالم تحيط بها الأسوار المنيعة والحصينة، فكانت مهد حضارة الإنسان ومنبع ثقافة شعوب منطقة الشرق الأدنى.

يدَّعي بنو إسرائيل أن هذه الأرض هي "أرض إسرائيل"، قبل أن يغزوها بدو الصحراء البرابرة من الإسرائيليين، ولكن من كان هؤلاء الغزاة؟ ومن لم يكونوا بني إسرائيل؟ الإجابة على هذا السؤال في غاية الصعوبة، كانت الأرض تُعرف بأرض كنعان، فيما عدا الساحل الجنوبي منها الممتد من جنوب مدينة يافا الساحلية على مسافة أربعين ميلاً جنوبًا في السهل الساحلي الغني، حيث جاءه غزاة من جزيرة كريت اليونانية، وثبَّتوا جذورهم في تلك المنطقة وبنوا هناك خمس مدن بأسوارها، فكانت تلك المنطقة الجنوبية من بلاد كنعان تعرف ببلاد الفلستينوس، نسبة لاسم القبائل الكريتية التي غزت المنطقة واحتلتها، وكان احتلال الكريتيين لجنوب بلاد كنعان قد تزامن مع غزو بني إسرائيل للبلاد من الجنوب والشرق، وكانت تلك المدن التي أقامها الكريتيون هي: غزة وعسقلان واسدود وعكرون وجاث وكان اسم الغزاة الذين جاءوا من البحار الفلستينوس ثم ما لبث وأن تحول بعد مرور مائة وأربعين عامًا على انخراطهم بالكنعانيين، وبعد أن أصبحوا يشكلون شعبًا واحدًا مع الكنعانيين سكان البلاد الأصليين، تحول اسم البلاد من بلاد كنعان إلى فلسطين نسبة للكريتيين الذين تذوبوا في البيئة الكنعانية، كان أهل البلاد من الكنعانيين قد سمحوا بالإقامة بينهم لكثيرين من المصريين والحثيين والعموريين، وكان الكنعانيون يعبدون آنذاك آلهة من الأساطير أيضًا، واعتبروا أن إبراهيم الخليل جدهم، وأشاروا بأنه دفن هو وذريته بينهم، عبدوا الأفعى والثور والشمس والقمر كما عبدت القبائل اليهودية، إلا أن الكنعانيين رفضوا عبادة الإله "يهوه"، وما يثير الدهشة أنهم كانوا ينقسمون إلى (12) قبيلة أو "دويلات" (مدن صغيرة) حيث كانت مدنهم محاطة بأسوار منيعة، فإن كانوا قد قبلوا الفلستينوس بينهم، وأن الفلستينوس تكنعنوا خلال مائة وأربعين عامًا وأصبحوا جزءًا من الكنعانيين، فإن هذا يعيد إلى الأذهان رقم (12) السحري، أمامنا طريق واحد لفهم التناقض بين بني إسرائيل داخل فلسطين وبني إسرائيل خارجها، وهو أن يتذكر المرء رقم (12) الذي لازم قبائل بني إسرائيل، حيث أن بني إسرائيل تاريخيًا كانوا تجمعات كبيرة نسبيًا إذا ما قورنوا بالإغريق، وأن اليهود كانوا بالأساس قبيلة كبيرة ومنفردة في التجمع اليهودي وهي قبيلة "يهودا"، وإن غزوهم لفلسطين وتاريخهم اللاحق داخل فلسطين كان فريدًا في نوعه منفصلاً عن جميع قبائل بني إسرائيل الأخرى، حيث أنه عبر القرون في فلسطين قد تذوب آلاف وآلاف منهم في بيئة البلاد.

إن جاز الحديث طوبوغرافيًا ومناخيًا فإن أرض كنعان كانت قبل ثلاثة آلاف وخمسمائة عام تختلف تمامًا عما هي عليه اليوم، برغم جميع الإصلاحات التي تقوم بها الدولة العبرية الجديدة، فعلى تلالها وأوديتها ملايين من أشجار الزيتون وغابات الصنوبر والأرز، خلال الثلاثة ألآلاف عام الماضية، كان لكل حرب وكل غزو وكل معركة نصيبها في القضاء على الأشجار المثمرة والأشجار الحرجية، ففي الحروب الرومانية مع اليهود قطعت أشجار الزيتون بمئات الآلاف

وعريت الهضاب والتلال، وحيث لم يكن يتوفر نظام حفظ التربة فقد كانت نتيجة لعملية الانجراف والتصحر أن خفت المياه وتغير المناخ.

كان الريح في تلك الأرض نسيمًا عليلاً يحمل معه رائحة أشجار الصنوبر والسرو والأرز، المستنقعات كانت تتواجد في كل مكان، ينابيع المياه العذبة تنبع من الأرض في أحواض وبرك تملأها أسماك المياه العذبة، البيارات وحقول الزيتون والتين واللوز والرمان كانت كلها كثيرة لا تحصى، وفي كل منحنى كروم العنب وكانت تلك الأرض تعرف بأرض النبيذ (الخمر)، السهول الساحلية كانت تغطيها مزروعات الحبوب، وفي المرتفعات الجبلية المواشي والأغنام في مراعيها الخضراء، وحتى في مناطقها الجافة إلى الجنوب من مدينة القدس كانت خصوبة لا تتوفر اليوم، من صيدا في الشمال إلى بئر السبع في الجنوب كانت منطقة تُعد من أغنى بقاع العالم، وأكثر منطقة تنتج جميع أنواع الفواكه في العالم القديم.

هكذا كانت بلاد كنعان، ولكن علينا أن نتسائل فيما إذا كان هناك بنو إسرائيل داخل أرض كنعان وفي الصحراء المجاورة؟ وهل فرقت التوراة اليهودية بين الغزاة وبين من وقع عليهم الغزو؟ ولماذا تحيزت التوراة لصالح الغزاة ضد من وقع عليهم الغزو؟ الجواب واضح جدًا، لقد كان الغزاة هم الذين كتبوا تلك التوراة، وقد كتبوها من وجهة نظر الغزاة الفاتحين، وبالتالي فإن التوراة هي تاريخ موسى والإله يهوه من وجهة نظر منفردة لقبيلة قوية كسبت الصعود على أكتاف قبائل بني إسرائيل الأخرى، وهي قبيلة "يهودا"، والتي عرف أفرادها أيضًا في وقت لاحق باليهود.

ولكي نتعرف على ذلك جيدًا علينا أن نستعرض غزوات ثلاث لبلاد كنعان قام بها الرعاة البدو من بني إسرائيل، الذين كانوا يتكلمون الآرامية، والذين اشتركوا في أساطير عامة، وتاريخ ديني عام، وادعوا أنهم ينتمون إلى نفس الأجداد: إبراهيم واسحق ويعقوب ويوسف والأسباط.

أول غزو لفلسطين بدأ قبل أربع آلاف سنة، وقد وردت أخبار ذلك الغزو في الإصحاحات الثمانية والثلاثين الأخيرة في سفر التكوين في التوراة اليهودية، ولكن باعتبار أن التوراة كتبت بعد أكثر من ألف وخمسمائة سنة من ذلك الغزو فإنه يمكن القول بإن ذلك الغزو استمر حوالي خمسمائة عام، بدأ عندما قام بدو بني إسرائيل بالدخول إلى المراعي الخضراء غير المستعملة في فلسطين وازدادت أعدادهم مع مرور الزمن إلا أنهم كانوا يحاربون بعضهم البعض، ثم تحولت حروبهم ضد أهل البلاد الأصليين، وكانت القبائل البدوية من بني إسرائيل قد تعلم أفرادها حرث الأرض، وتحولوا إلى مزارعين، ثم تعلموا بناء المدن ليعيشوا فيها، وأيامها لم يكونوا قد عرفوا الإله "يهوه"، ونسوا آلهتهم الحيوانية (الطوطمية) وكذلك الآلهة الشمس والقمر، وتحولوا لعبادة الآلهة الأم (عشتروت)، ورمزها الذكري الثور، وعبدتها النساء بإعطاء عذريتهن وبكاراتهن وأجسادهن للرجال الذين يؤمون المعبد لعبادة الآلهة "عشتروت".

أما الغزو الثاني فإنه يعتقد أن يكون قد بدأ قبل حوالي 3500 سنة واستمر حوالي مائة عام وربما أكثر، هذا هو الغزو الذي نقرأ عنه بصورة مربكة وغامضة في أسفار يشوع، القضاة هم أولئك الذين وصفتهم التوراة بالأبطال، مثل: جدعون وايهود وبفتاة وتولا وسامبسون وإبزان، فكانوا رؤساء الحرب الذين قادوا قبائلهم الخاصة ومزيجًا آخر من القبائل الأخرى.

الفارق الزمني بين هذا الغزو والغزو الأول لفلسطين قد اختصر ما عرف من قبل بنصف قبيلة "منسي" وقبائل "روبين وجاد"، إذ كانت هذه القبائل الثلاث قد بنت مدنًا لها على الضفة الشرقية

من نهر الأردن، وقد ساعدت القبائل الأخرى الغازية لفلسطين، أما المراحل المتأخرة للغزو الثاني فقد تزعم الحركة اليهودية رئيس الحرب "يشوع بن نون" كما جاء في سفر العدد الإصحاح – 13، وهنا تذكر التوراة بأن موسى غيَّر اسم هذا الرئيس من "شوع إلى يشوع بن نون"، غير أن عدد من المؤرخين الذين بحثوا في تاريخ بني إسرائيل يؤمنون بأن موسى ويشوع بن نون لم يسمعا بعضهما ببعض ولم يعاصرا بعضهما، فيشوع هو الذي جمع القبائل اليهودية في اتحاد وهو الذي قاد عبورهم نهر الأردن والتغلغل في فلسطين، وهل هو من قام بهدم أريحا؟ الجواب على هذه التساؤلات يأتي من أخر المكتشفات الأثرية التي تم العثور عليها مؤخرًا عام 1996 والتي تحكي قصة أريحا، وقد ثبت لعلماء الآثار من هذه المكتشفات أن مدينة أريحا الكنعانية كانت مدينة مدمرة قبل وصول بني إسرائيل بقيادة يشوع بن نون إليها بما لا يقل عن ثلاثمائة سنة، وهذا بطبيعته ينفي أن تكون رواية هذه المدينة الواردة في التوراة صحيحة، وأن يشوع بن نون لم يكن هو القائد الذي دخل إلى فلسطين وهدم أريحا، ما يعرف عن يشوع أنه كان قائدًا عسكريًا جيدًا وكان بامكانه محاصرة المدن المسورة، ويعتقد بعض المؤرخين أن عددًا من المدن التي حاصرها استسلمت له، إلا أن كل ذلك يقوم على الحدس والتخمين، وليس هناك ما يؤكد هذه الادعاءات التي وردت في التوراة اليهودية.

تقول التوراة بالتحديد إن ست أو سبع قبائل اشتركت في الغزو الثاني، لفلسطين وعلى مدار عدة قرون تمكنت هذه القبائل من احتلال المدن الحصينة، فأعادوا إعمارها وتعلموا نمط الحياة الريفية من الكنعانيين ثم عبدوا الآلهة الأم "عشتروت" و"الثور"، ثم ما لبثوا وأن حاربوا بعضهم بعضًا، إلا أنهم ظلوا متحدين في الجنوب بسبب ما كان يتهددهم من مركزي خطر في الجنوب وهما: اتحاد المدن الفلسطينية الخمس ومدينة القلعة المحصنة "القدس"، منذ ذلك التاريخ وحتى يومنا هذا؛ كانت القدس هي العامل المركزي في التاريخ اليهودي، وفي العقل اليهودي، وفي الحلم اليهودي.

المدينة بذاتها قديمة جدًا بنيت قبل خمس آلاف سنة، وقد أسسها وبناها اليبوسيون الكنعانيون، مدينة تربض على مرتفع محصن، وقد قيل عن هذه المدينة إنها تتحكم في كافة أرض كنعان بحكم موقعها المتميز، كما أنها نقطة الملتقى ومركز الترانزيت للتجارة بين شمال أفريقيا وسمرقند في شمال آسيا، وتسميتها تعود إلى الكلمة العربية الكنعانية (ياره) وتعني "صخرة"، وشالوم وهو اسم لإحدى آلهة الكنعانيين القدماء، عمَّرها وسكنها الكنعانيون اليبوسيون قبل مولد السيد المسيح عليه السلام بحوالي ثلاثة آلاف وخمسمائة عام ويزيد، تاريخ مدينة القدس يدحض الأكاذيب الصهيونية القائلة بإن تسميتها عبرية، وأن المدينة عبرية وأن الملك هيرودس هو مؤسسها، أما الغزو الثالث فقد حدث قبل 3250 سنة، قاده بداية موسى اللاوي، وهذا الغزو يختلف عن الغزو السابق، حيث كان جميع الغزاة من بني إسرائيل بقيادة يشوع بن نون، بعكس الغزو الثاني الذي كان معظمه ومعظم قادته من المصريين، يشوع بن نون كان يُعد قائدًا عسكريًا مصريًا ولهذا فإن هناك احتمالاً كبيرًا بأن يكون موسى لا يعرف يشوع ولم يسبق أن التقيا، حيث أن زمان كل منهما يختلف عن زمان الآخر، ومن الغريب أن أحداث ووقائع ذلك الغزو الموسوي لم تدون ولا يُعرف عنها أي شيء على الإطلاق، ولكي نتمكن من متابعة قصة الغزوات لأرض كنعان التي قامت بها عدة قبائل من قبائل بني إسرائيل، ولنعطي إحساسًا بظهور أقوام تسمي نفسها "الأقوام اليهودية"، علينا إذن أن نفحص بتدقيق عدد من أجزاء التوراة حيث أنها المصدر الوحيد تقريبًا عن حياة موسى وأعماله.

الأسفار الخمسة الأولى في الكتاب المقدس المعروف لدى العالم المسيحي تسمى "البنتاتويخ" بمعنى أسفار موسى الخمسة، أما اليهود فيسمونها "التوراة" بمعنى القانون، وهذه الترجمة مقبولة لدى الغرب حيث لا يوجد لها مرادف في اللغات اللاتينية، وتقول الأسطورة إن موسى كتب تلك الأسفار الخمسة بيده تحت وحي مباشر من "يهوه" الإله، ومما يلفت النظر بشكل قوي أن أسفار يشوع والقضاة والسفرين السادس والسابع في الكتاب المقدس تحتوي على إصحاحات تسبق تدوين التوراة بكثير، بينما كتبت أسفار موسى الخمسة "البنتاتويخ" بشكلها الحالي؛ بعد وفاة موسى بأكثر من سبعمائة سنة، تعكس الأسفار الأخرى التي أخذت بشكل عام من مصادر موغلة في القدم، وروايات تلك الكتب طويلة جدًا ومملة في ذات الوقت تُشير غالبًا إلى صبيانية لا يتسع المجال ولا تتوفر الرغبة في استعراضها لما تحويه من سخافات وإباحيات في منتهى الغرابة.

أسفار الخروج واللاويين والعدد وسفر تثنية الاشتراع تتحدث عن موسى، ولكن قصة وفاته الغريبة ودفنه في مكان مجهول مذكورة فقط في سفر تثنية الاشتراع، وهو السفر الذي يدَّعي اليهود أن الذي كتبه شخص واحد بعد وفاة موسى بستمائة سنة ويزيد، وسفر الخروج يتحدث عن حياة موسى في بدايتها قصة رجل حيّ، وسفر اللاويين ينتهي بقصة موسى وهو يتسلم الألواح من الله على جبل سيناء، وسفر العدد مثل سفر اللاويين جعل من موسى مانح القانون، أما سفر تثنية الاشتراع فإن القصَّاص أو الراوي دون القصة التالية:

"صعد موسى من سفوح مؤآب إلى جبل نيبو ووصل إلى "السبغاة" (القمة) مقابل أريحا وهناك أراه الإله يهوه كل الأرض، من جلعاد حتى دان (منطقة تل أبيب الحالية وتشمل مدن: يافا واللد والرملة العربيات وتل أبيب وملبس ورامات جان وقيسارية وعدد آخر من القرى المحيطة بالمدن الفلسطينية واليهودية)، وكذلك كل أرض نفتالي وأرض إفرايم ومنسي وكل أرض يهودا حتى البحر الغربي (البحر المتوسط) والنقب والسهل ووادي أريحا ومدينة أشجار النخيل "أريحا" حتى "تسوعر" وقال له يهوه: خذ الأرض التي أقسمت أن أعطيها لإبراهيم وإسحق ويعقوب، سوف أعطيها لك، لقد جعلتك تراها بعينيك ولكن سوف لا تعبر إلى هناك، وهكذا مات موسى خادم الرب "يهوه"، هناك في أرض مؤآب بناء على أمر من الرب، ودفن في الوادي في أرض مؤآب قرب "بيت بوعر"، ولا أحد يعرف مكان دفنه حتى يومنا هذا".

لماذا لا أحد يعرف مكان دفن موسى بينما ظلت أماكن القبور في ذاكرة بني إسرائيل على مرّ العصور؟ إنهم يعرفون قبر إبراهيم وقبر إسحق وقبر يعقوب، فهل يعقل أن لا يعرفوا قبر رجل كان رمز بني إسرائيل الأعلى؟ ولماذا لم يمت موسى في أرض إسرائيل التي يزعمون؟ وكيف جاء إلى أرض مؤآب وغابات الأكاشيا (غابات السنط أو الصبغ العربي) في وادي الأردن، بينما عاش حياته في برية سيناء يعبد "يهوه" إله سيناء؟ لا أحد يستطيع الإجابة على هذه التساؤلات بالتأكيد، إلا أنه يمكننا استنتاج التالي:

أولاً: استعمل القدماء أماكن ومدافن موتى عظمائهم وأبطالهم أساسًا للمطالبة بالأرض التي يدفنون فيها، فإن كان موسى دفن قرب بئر السبع مثلاً فإن ذلك سيضاعف حجة اليهود في المطالبة بالأرض الخصبة في المنتصف الجنوبي لفلسطين.

ثانيًا: إن كاتب سفر تثنية الاشتراع كان مصممًا على خلق صلة بين موسى ويشوع بن نون ولكي يثبت ذلك كان ينبغي أن يكون موسى في الشمال في الأماكن التي عبرها يشوع بن نون إلى أرض

كنعان.

ثالثًا: عندما أرى "يهوه" موسى أرض الميعاد المزعومة، أعطاه أراضي افرايم ومنسي الخصبة والتي تعد قلب فلسطين (السامرة) العدوة التاريخية لليهود، ومن الواضح أن هذا السفر كتب لأسباب سياسية حيث أن الروايات التي وردت فيه تضع موسى واللاويين واليهود في وضع يمكنهم ويمكن أحفادهم بالادعاء بكل أرض كنعان ملكًا أزليًا ورثوه بوصية من الإله "يهوه" وعلى لسان موسى الذي كان بريئًا من هذه الأراجيف اليهودية.

هناك سبب قوي للاعتقاد بأن اليهود وحلفاءهم غزو بلاد كنعان من الجنوب أكثر من الاحتمال بغزو تلك البلاد من الشرق، وسواء قاد موسى عملية الغزو أو لم يقدها، فهذه مسألة ليست بالأهمية أكثر من الحقيقة، وهي أن موسى كوَّن وحدة متماسكة من اليهود اللاويين أسست مبادئ الإله "يهوه" وقادت هؤلاء الناس إلى مسرح التاريخ، إنه من الممكن جدًا وفي عهد زعامة موسى أن يكون اليهود طردوا إلى النقب عدة مرات، بعد محاولاتهم المتكررة الفاشلة بالوصول إلى تلال القدس، وهكذا فإن قصة الأربعين عاما والتيه في برية سيناء ربما يكون لها جذور من الحقيقة في تلك الأماكن، ولكن لم يكن تيهًا بل كان يتمثل في غزوات متكررة فاشلة، حيث كانوا يتشتتون بعد كل فشل ثم يعيدوا تجميع أنفسهم لغزوة أخرى، كما أن هناك اعتقاد لدي اليهود أنفسهم أن موسى قد دفن في قبر صخري في برية سيناء، ويحتمل أن يكون "جبل يهوه" الذي كان يسمى بين الفترة والأخرى "جبل سيناء" أو جبل "حوريب"، ويذكر أن هناك جبلاً آخر في سيناء يبلغ ارتفاعه سبعة آلاف قدم عن سطح البحر الأحمر في الزاوية الجنوبية الشرقية لشبه جزيرة سيناء، ولكن لا أحد يعرف إن كان هذا هو "جبل يهوه" المزعوم أو جبل الرب المقصود.

بعد وفاة موسى استمر اليهود في حروبهم مع الفلسطينيين، وأشهر تلك الحروب كانت الحرب التي دامت مائة عام بين غزو فعلي وبين غزوات متقطعة، وباءت معظم غزواتهم بالفشل، حيث كان الفلسطينيون على مستوى رفيع من الاستعداد العسكري والتقني، وكانت جيوشهم مدربة تدريبًا جيدًا لصدّ غزوات برابرة الصحراء الذين عبروا إليهم من الجنوب عن طريق سيناء، مما اضطر الفلسطينيين إلى إقامة مراكز مراقبة عسكرية، امتدت عبر النقب إلى سيناء، لمراقبة بني إسرائيل ومنع تسللهم إلى بلاد كنعان، لكن اليهود بعد مائة عام استطاعوا الدخول إلى جنوب فلسطين، ونتيجة حرب المائة عام مع الفلسطينيين؛ أصبح بنو إسرائيل يتعطشون للدماء، واعتبروا الإله "يهوه" إله الحرب والانتقام، وإله العدل في آن واحد، كانوا مشاكسين يبحثون دائمًا عن المتاعب وإثارة القلاقل والحروب، بالادعاء بأحقيتهم برعي ماشيتهم في أراضي الآخرين، وقد تمكنوا من انتزاع الحق في الدخول إلى المناطق الشمالية في فلسطين والدخول إلى جبال لبنان الخضراء حتى منطقة صيدا في الجنوب اللبناني، وأخذوا يدَّعون بأن هذه المنطقة هي جزء من أرض إسرائيل، وبعد ذلك اتخذوا اسمًا لهم في كل أنحاء بلاد كنعان فأصبحوا يعرفون بالاسم الجديد "يهودا" والتسمية تعني "شبل الأسد"، يتضح مما تقدم أن التاريخ اليهودي هو تاريخ آلهة وتاريخ معتقداته وفلسفته ودوره الفريد على مسرح الشؤون الإنسانية، فهناك من يقول بإن موسى أقام مبدأ التوحيد بإعلان كلمة الله، إلا أن كل هذا ليس أكثر من وجهة نظر ميتافيزيقية، أي نظرة فيما وراء الطبيعة وأنها على أية حال سرقة للحقيقة، حيث أن الحقيقة أهم من ذلك وأبعد بكثير، يهوه إله موسى كان إلهًا بين آلهة كثيرة إلا أن موسى حاك يهوه لشعب، وهو الشعب اليهودي، مثل "أشبال الأسود" كما تعنى هذه التسمية "يهودا" بالعبرية القديمة، وقد قامت هذه الحياكة على ما يعرف بالعبرية "بريت"

أو "ميثاق"، وقد جاء فيه قول "يهوه" (أنا الله يهوه إلهكم الذي أخرجكم من أرض مصر بيت عبوديتكم، فلا تتخذوا آلهة أخرى إلى جانبي) وكما سلف ذكره في هذا الكتاب كان إله لكل قبيلة وعشيرة من قبائل وعشائر بني إسرائيل، وكانت لهم مذابح قرابين في كل حقل زيتون وفي كل غابة أرز، من الشمال إلى جنوب في كل أرض كنعان، كان لهم معابد عشتروت ومعابد "كاهنات عشتروت" اللاتي كن يقدمن أنفسهن للمتعة الجنسية والجماع الجنسي بين المتعبدين، وخادمات المعبد من ضمن الطقوس الدينية اليهودية، إلا أن إله موسى كان يختلف عن تلك الآلهة، فقد عرف بالإله "يهوه"، وهو إله قبيلة اللاويين التي ينحدر موسى من سلالاتها وكان من الصعب جدًا أن تتعايش هذه الآلهة جنبًا إلى جنب، ولم تكن المسألة سهلة.

الفصل الرابع : الملوك والأنبياء

صموئيل كان كاهنًا للإله "يهوه" وكان من قبيلة اللاويين، حاز على ثقة الاتحاد الشمالي وذُكر أنه اهتم كثيرًا بمذابح القرابين والمصعدات المقدمة للإله "يهوه"، وكان أيضًا قيمًا على الشؤون الدينية وطقوس العبادة، عاصر زمن ازدهار عظمة الاتحاد بين قبائل الفلسطينيين والكنعانيين أهل البلاد الأصليين، لهذا شعر بالأخطار تتهدد بني إسرائيل في شمال فلسطين، حيث أن طبيعة اليهود تتعارض وترتعب من الاتحادات لدى الشعوب غير اليهودية، لأن في الاتحاد قوة وهذه القوة تشكل أخطارًا كبيرة لهم، تمامًا كما هو الحال في هذا الزمان، حيث نلمس أن أي اتحاد بين العرب أو المسلمين؛ يقابل بضجة إعلامية كبيرة منددة بفكرته، وإن فشلت الضجة الإعلامية والتنديد يعملون على استعمال القوة العسكرية أحيانًا، وأحيانا أخرى يلجأون إلى الاغتيالات السياسية لأصحاب فكرة الوحدة أو أي فكرة أخرى لا تكون لصالحهم، وحرب الخليج بين الصهيونية الدولية وبين العراق واحتلال ذلك البلد العربي لأكبر دليل على ذلك.

نظرًا لإحساس "صموئيل" بتلك الأخطار الاتحادية؛ عمل على تقوية اتحاد القبائل اليهودية في شمال فلسطين لمواجهة هذه الأخطار، ولجأ كي يحقق ذلك إلى قبيلة اللاويين، ومن أجل تحقيق أغراضه سمح لقبائل اليهود الشمالية بالاستمرار في عبادة الآلهة الطوطمية إلى جانب الإله يهوه، والآلهة الطوطمية هذه عشتروت والنحوشتان والثور، ومن الجدير بالذكر أن مركز قيادة اتحاد الشمال اليهودي كان في منطقة عرفت بمنطقة "السامرة"، وقد واجه صموئيل صعوبات كبيرة في توحيد يهود "السامرة" لمواجهة الفلسطينيين المتحالفين مع الكنعانيين، ضد الغزاة الذين عبروا إليهم من وراء النهر الكبير "نهر الأردن"، واجه صموئيل مشكلة شائكة في اختبار قائد حرب لجيشه، يكون في مقدوره أن يقود جيش الاتحاد بين يهود الجنوب ويهود الشمال، الذين لم يكونوا متجانسين على الإطلاق، حيث أن يهود الشمال يبغضون يهود الجنوب الذين ذاقوا مرارة الحياة في الصحاري القاحلة، تمامًا كما هو الحال في إسرائيل الآن في بغض اليهود الغربيين "الاشكنازيم"، لليهود الشرقيين "السفراديم"، وكانوا شرسين في طباعهم بسبب قسوة الصحراء، وكانوا لا يزالوا يعتبرون الانخراط في العسكرية هو نوع من عبادة الإله "يهوه"، ولهذا كانوا يحتقرون يهود الشمال الذين يعبدون الآلهة الطوطمية، احتقروا عبادة الثور، واحتقروا الكاهنات اللائي كن يقدمن أنفسهن للرجال في معبد عشتروت كنوع من أنواع العبادة.

من بين قبائل الشمال كانت قبيلة بنيامين أكثر قبائل الشمال مبغوضة ومكروهة من القبائل الأخرى في الاتحاد الصموئيلي، وكان البنياميتيون يعدّون الغوامض الهامة في التاريخ اليهودي، بل كانوا يعتبرون وصمة عار وخزي لكل القبائل اليهودية، كان مظهرهم يوحي بأنهم من بني إسرائيل، ولكنهم كما يقول المؤرخون اليهود ليسوا من قبائل بني إسرائيل، برغم أنهم يتكلمون لغة القبائل الأخرى ويعبدون الإله "يهوه" كبقية القبائل اليهودية. كانت منطقتهم من أفقر المناطق وأكثرها عرضة للمخاطر، أعطيت لهم الأودية العميقة والتلال الوعرة بين القدس والساحل الفلسطيني في منطقة بلغت عشرة أميال طولاً وعشرة أميال عرضًا فقط، رعوا الأغنام واعتنوا بأشجار الزيتون، وكانوا يدخلون في مناوشات عديدة بين الحين والآخر مع الفلسطينيين واليبوسيين الكنعانيين، وعاشت القبيلة البنيامينية حالة حروب متواصلة مع جيرانها وكان الأصدقاء والأعداء على السواء يكرهون التعامل معهم، إلا أنهم لعبوا في وقت لاحق دورًا بارزًا في التاريخ اليهودي، وبرغم أنهم

قبيلة صغيرة العدد، فقد استطاعوا أن يحشدوا حوالي ألف مقاتل منهم، بما في ذلك الأولاد فوق سن الثالثة عشرة، وهذا السبب الذي جعل صموئيل يختار من هذه القبيلة رؤساء الحرب بزعامة القائد الأعلى "شاول" (طالوت)، الذي تولى المناطق الشمالية ووضع تحت إمرته خيرة المقاتلين من البنياميينيين، برغم أن هذا القائد كان يبغض الآلهة "عشتروت" وقام بتعذيب من يعبدوها حيث اعتبر نفسه خادمًا للرب يهوه، تمكن طالوت في البداية من وقف هجمات الفلسطينيين وكان على وشك أن يوقع بهم الهزيمة إلا أن عناده وجبروته والظلام الذي كان يخيم على عقله نتيجة الكبرياء والغرور؛ أدى إلى إضعاف اتحاد الشمال، وقد تمرد على صموئيل الذي جاء به إلى رئاسة الجيش، وقتل أولاد صموئيل الثلاثة في معركة بينهم، بعدها بارك طالوت زعيمًا شابًا جديدًا اسمه "داود".

الفصل الخامس : داود بن يسي الافراتي



(وقتل داود جالوت)

- داود الصغير يقتل جالوت بالمقلاع والحجر -

من بين المرتزقة الذين ضمهم (طالوت) إلى جيشه كان "داود بن يسي الافراتي"، وافراتا هي مدينة بيت لحم الفلسطينية، وحيث أن داود وأهله يعيشون في تلك المدينة؛ فقد عرف والده باسم "يسّي الافراتي" بمعنى يسي التلحمي، وكانت سياسة طالوت أن يستقطب المرتزقة في جيشه، فعندما كان يرى رجلاً قويًا أو تقع عيناه على رجل شجاع يضمه إلى جيشه فورًا، داود كان في أساسه راعيًا ينحدر من الطبقات المتواضعة، فعندما ضمه طالوت إلى خدمته؛ لم يكن يعرف شيئًا عن السلاح، قبل السيف وعدة الحرب وحاول أن يعمل بهما ولكنه لم يكن معتادًا على ذلك ولا ملمًا بعمل هذه الأسلحة، فتركها كلها واعتمد على سلاحه البدائي هو "المقلاع" والحجر يستغلهما، وكان أول فعل قام به أن قتل بالمقلاع "جالوت" ملك الفلستينوس، والذي زاد من تمسك طالوت به أنه كان عديم الأخلاق ماكرًا في اللعب، ورجل حرب واسع الحيلة والمراوغة والدهاء في أمور كثيرة.

يقول المؤرخون إن داود خدم طالوت فترات مختلفة، لكن مهنته العسكرية كانت على يد الفلستينوس أنفسهم، إذ تعلم منهم فنون القتال بما في ذلك استعمال سلاحهم الحديدي، وازدهر لدرجة أن الملك "أخيش" ملك "جاث" كافأه بأرض إقطاعية، ربما يكون عرف على نفسه بأنه من الفلستينوس، ولكنه في النهاية حصل على عرش يهودا، أحيانًا بصفته من الفلستيوس وأحيانًا كقائد معارض لطالوت، فقد أسس مجموعة من الفرسان المتخصصين الذين أقسموا له على إخلاصهم،

وكانوا يتبعون له شخصيًا، وكانوا يتوقعون أن يكافأهم بمنحهم أراضي في إقطاعه، وهذه هي القوة التي مكنته من أن يصبح ملكًا على "يهودا" بعد وفاة طالوت..



- الملك طالوت يناشد قومه لمبارزة جالوت -

كان ينتظر أن تنفجر الخلافات في مملكة الشمال، واغتيال وريث طالوت هناك "ايشبول"، عند تلك النقطة قدم له حكماء إسرائيل عرش مملكة الشمال بموجب ميثاق دستوري.

كان مُهمًا أن يغتنم داود هذه الفرصة، فمملكة داود لم تكن بداية وعلى الأقل كان اليهود أمة منسقة، ولكن كانوا مؤسستين منفصلتين كل واحدة منهما تعقد معه اتفاقية شخصية، وقد أصبح داود ملكًا ناجحًا ومحبوبًا في إسرائيل، فكان ملكًا وحاكمًا لدرجة أنه بعد 200 سنة من وفاته رأى اليهود أن فترة حكمه التي دامت أربعين عامًا كانت العصر الذهبي لليهود في فلسطين، إذ كان حكمه دائمًا غير مستقر، وجميع القوات التي يعتمد عليها كانت من المرتزقة غير اليهود، فقد تركزت قوته في بناء جيش محترف، وكان ضباطه ينبغي مكافأتهم بالأرض ليستطيعوا تحويلها إلى إقطاعيات، ولكن كي يكافأهم بالأرض كان عليه أن يمتلكها أولاً، وهذا لا يكون دائمًا إلا بهزيمة الآخرين، ومن هنا قامت ضد حكمه المؤامرات والتمرد وأهمها ذلك التمرد الذي قاده ابنه "ابشالوم" وكانت القبائل لا زالت انفصالية بالغريزة، فقد سئموا تكاليف حملات داود، وازداد التمرد والثورات ضد حكمه، لكنه تمكن من إخماد التمردات التي قامت ضد حكمه بالآلة الحربية التي لديه، غير أن فترة الأربعين عامًا من حكمه كانت تتسم غالبًا بعدم الإزعاج.

عمومًا كان داود ملكًا عظيمًا لأسباب ثلاثة:

أولاً: أنه جمع بين دور الملكية والكهنوتية بطريقة لم تكن ممكنة لطالوت سلفه، فطالوت لم يكن له خليفة مباشر على العرش، وإن كثيرًا من سلطاته الروحية الدينية قد آلت إلى داود، وبرغم شروره كان داود واضحًا بأنه رجل بشعور ديني عميق، مثل ابنه ووريثه سليمان، وكان موهوبًا بما في

ذلك التخيل الفني القوي، أما التقاليد التي تقول إنه كان موسيقيًا أو شاعرًا أو مرنمًا فهي مرفوضة بشدة، إذ لم يكن أيًّا من هؤلاء.

ثانيًا: كملك يبدو أنه تسلم التبريك الإلهي حيث أن إنجازاته العسكرية كانت لا تضاهى، فلقد هزم الفلستينوس وحصرهم بشكل دائم في بقعة مستطيلة وضيقة على الساحل، بهذا العمل الذي عجز عنه طالوت وهو تخفيض الجيوب الكنعانية المتبقية ثم تحرك إلى الشرق والجنوب والشمال، فأرضا سلطانه على "عمون ومؤآب وسدوم وارماز وبار"، وحتى دمشق في الشمال الشرقي البعيد، وكانت انتصاراته العسكرية محاطة بالتحالفات الدبلوماسية وبزيجات ملكية بمعنى "الازدهار" لإمبراطورية إسرائيلية صغيرة اعتمدت على أحداث التاريخ، واستفادت من التداعيات التي شهدتها الإمبراطوريات المجاورة.

كانت الإمبراطورية في الجنوب "مصر" قد تراجعت، وإمبراطوريات الشرق الآشورية والبابلية لم تكن قد تمكنت من التكامل، وبسبب هذا الفراغ ازدهرت مملكة داود، كما أن خبراته وطاقاته ومعرفته وأسفاره وإلمامه بالعوامل الاقتصادية أيضًا أدت إلى إمكانية التوسع في مملكته، فقد رأى داود أن يقيم سلطته على طرق التجارة في المنطقة وعقد اتفاقات اقتصادية وتجارية مع مملكة المدينة الغنية "صور"، وكان داود دوليًا بينما كان القادة الذين سبقوه على نطاق ضيق.

ثالثًا: أسس داود عاصمة وطنية دينية له والتي كانت أيضًا ضمن فتوحاته في الوقت الذي لم يتمكن الإسرائيليون فيه من أخذ القدس برغم محاولاتهم التي دامت قرابة مائتي عام، لهذا كانت أهم مدينة استراتيجية على مستوى الداخل، وقد كان يسكن المدينة اليبوسيون الكنعانيون الذين أسسوا المدينة من قبل، ولم يتمكن أبناء مملكة يهودا من طردهم، لكن اليبوسيين سمحوا لأبناء يهودا بالعيش في وسطهم، وظلت القدس تتحكم بالطرق الرئيسية إلى الشمال والجنوب في الداخل، إضافة إلى كونها مدينة التقاطع بين الجنوب والشمال، وعدم تمكن اليهود من أخذها من قبل، كان من أهم العوامل التي أدت إلى فصل التجمعات اليهودية، فأصبحت هناك مملكتان يهوديتان، الأولى في الجنوب وهي مملكة يهودا والثانية في الشمال وهي مملكة إسرائيل.

بضم القدس اعتقد داود أنه قادر على ضم جزئيها في جزء واحد، فمدينة القدس التي نعرفها اليوم كانت قد بنيت على ثلاثة أودية: وادي هنوم في الجهة الغربية، ووادي قدرون في الجهة الشرقية، ووادي الجبانين في الوسط الذي يمتد جنوبًا ليلتقي مع وادي قدرون، مدينة يبوس الأصغر كانت تقوم على الجناح الشرقي، ويقول المؤرخون إن الحفريات التي عرفت بحفريات "كاثرين كينتون" وأن ما جاء وصفه للمدينة في الفصل الثاني من سفر "صموئيل" أصبح معروفًا ماذا حدث أثناء حصار داود للمدينة.

اليبوسيون مثل المواطنين الآخرين من مواطني المدن الفلسطينية الأخرى، مثل حيزر وجبعون ومجيدو قد انشأوا أنفاق سرية تربط داخل المدينة مع عيون (منابع) المياه، ليضمنوا وصول الماء إليهم في حالات الحصار، وقد فكروا بأن هذا يمنحهم القوة وكانوا واثقين بأنهم يتحدون داود، غير أن داود عرف بوجود النفق، فأعلن عن طلب متطوعين وقال في ذلك اليوم: "الذي يتمكن من الوصول إلى المزراب ويحطم اليبوسيين والكفيفين والعرج وكل الذين يكرهون داود، سيكون الرئيس والقائد"، وتمكن يوآب ورجاله من استغلال إعلان داود، فتسلقوا إلى نفق الماء ودخلوه آخذين المدينة على حين غرّة.

كانت تصرفات داود مع المدينة من واقع أهميتها السياسية، لهذا لم يقدم على مجزرة ضد سكانها اليبوسيين أو أنه عمل على طردهم خارج المدينة بل على عكس ذلك تمامًا، فقد كان مهتمًا بتحويلهم إلى مخلصين وتابعين له، أعاد ترميم أسوار المدينة واحتل حصن يبوس أو حصن صهيون كما كان يسمى، وبنى ثكنات عسكرية للرجال الأشداء وقصرًا لنفسه، واشترى من أخر حكام المدينة الأرض التي يمكن أن يجعل منها مزارًا لكافة الشعب اليهودي، ثم احضر تابوت العهد، الذي كان أهم البقايا الدينية الثمينة التي يمتلكها اليهود كرمز لوحدتهم، ووضعه في المدينة تحت رعاية وحماية عرشه وجيشه الخاص، أدت هذه الأعمال إلى تقوية وضعه الشخصي وتميزت الديانة اليهودية الوطنية والتف الشعب حوله.

كان من المفيد أيضًا لداود نقل تابوت العهد إلى القدس، فقد أعطى هذا النقل عاصمته الطابع الديني، فإنه لم يبنِ معبدًا ضخمًا مصاحبًا لتاجه وخطه الملكي ليخصص للتابوت، فالتابوت كان قطعة متواضعة من الأثاث الديني، يحتوي على أصل الميثاق ذاته وكان عزيزًا على بني إسرائيل إذ يذكرهم بأصولهم المتدينة ويقوم مقام العقيدة القديمة وطهارة العقيدة الدينية اليهودية، وقد جاء في التوراة فيما بعد ما يؤكد ويبرر فشل داود في بناء معبد لتابوت العهد، حيث أن الإله "يهوه" لم يسمح له بذلك، حيث أنه كان فوق كل المحاربين، رجل صعب يسفك الدماء، وقد قيل إنه كان منشغلاً جدًّا في الحروب والغزوات وفي توسيع ملكه على حساب الشعوب الضعيفة، وكان الإسرائيليون يسعون إلى الحروب بإطلاق الأبواق، وكان تابوت العهد يتقدمهم إلى ساحات المعارك كشعار للحرب، وكان "يهوه" كما يدَّعون يجلس في التابوت لينصرهم على أعدائهم.

حروب داود كانت من وجهة نظر بني إسرائيل في أعلى درجة من مباركة وموافقة الإله "يهوه"، أما الدور الثاني فهو أكثر معقولية، إذ كان حكم داود في مدينة القدس حوالي ثلاثة وثلاثين عامًا، كان معظمها سلميًّا، فلو أراد أن يبني معبدًا لكان أعطاه الأولوية وقدمه على كافة مبانيه العديدة وأنشطته فيها، إلا أنه من المحتمل أن يكون لا يرغب في تغيير الطبيعة والتوازن في عقيدة بني إسرائيل الدينية.

قديمًا كان تابوت العهد يُمثل المركز المادي لعبادة بني إسرائيل، وكان رمزًا للديمقراطية العقائدية، وعندما أقام بنو إسرائيل في أرض كنعان شكروا الإله "يهوه" وقدموا له القرابين والمصعدات في الأماكن المرتفعة، وأقاموا مذابح المصعدات فوق التلال والجبال وفي المرافق التاريخية، وكانت عبارة عن مباني مسقوفة أو معابد، تمكن مؤخرًا الأثاريون من معرفة عدد منها مثل: شيلو، ودان وبندل، والجلجال ومتسبا وبيت لحم وحبرون (الخليل) وخمسة مذابح أخرى أصغر حجمًا.

يقول المؤرخون إن داود كان يتمتع بضمير كبير من حيث الديانة اليهودية والمجتمع اليهودي، أكثر من الملك طالوت، أو أي واحد من أسلافه مثل: جدعون، فقد اغتنم الفرصة بأن تكون حكومته حكومة دينية وليست حكومة تقليدية، ومن هنا كان الملك داود لا يمكن أن يكون حاكمًا مطلقًا على الطريقة الشرقية التقليدية، ولا حتى الدولة تكون مطلقة أيضًا، على الرغم من أن كل واحد يتحمل مسؤوليات وواجبات المجتمع أو ممثلي الملك أو الدولة ولا تكون في جميع الحالات والظروف المسؤولية غير محدودة على الفرد أيضًا، واليهود بعكس الإغريق والرومان الذين لا يعترفون بهذا المبدأ أو مدينة الدولة، والمجتمع كخلاصات لشخصيات قانونية وامتيازات وحقوق، فإن الإنسان لا يستطيع أن يخطئ أو يقترف الجرائم ولكن لا يجوز اقتراف الجرائم ضد الدولة.

عمل داود هذا على نقل بني إسرائيل من حالة الحرب إلى حالة السلام، ونصَّب نفسه في وقت لاحق ملكًا على كل القبائل اليهودية واستمر ملكًا حاكمًا لمدة أربعين عامًا، بعد وفاته تولى الملك ابنه سليمان وحكم في بني إسرائيل أربعين سنة أيضًا، ظلت المملكة متماسكة بعد وفاة سليمان إلى فترة قصيرة في عهد ابنه "رحبعام"، حتى انهار ذلك التماسك وفشل الاتحاد وانفصل اليهود عن بعضهم البعض وظلوا مشتتين، إلى أن قام الآشوريون باحتلال منطقة الشمال من بلاد كنعان، فسبوا اليهود من هناك إلى بابل في العراق وقد عرف ذلك السبي بالسبي البابلي الأول لبني إسرائيل.

وصفت التوراة داود بأنه كان إنسانًا خارقًا وملكًا عظيمًا، صحيح أنه كان بهي الطلعة جميل المحيّا وسيمًا، يؤمن بالقدر وله إحساس جيد بالتاريخ، تزوج من ابنة طالوت، لكنه كان انتهازيًا من الدرجة الأولى، طموحًا جدًّا، إذ فاق طموحه كل حدود الضمير الإنساني، كان قاسيًا مصابًا بداء العظمة (البرانويا)، وتقول الأسطورة التوراتية إنه قتل جالوت ملك مملكة "جاث" الفلسطينية، فإن كان قد فعل ذلك أو أن في ذلك جانبًا من الصحة؛ كان على الكنعانيين أن يدينوا له بالشكر والعرفان لقتله جالوت، حيث أنه لجأ إلى جالوت في وقت سابق فارًا من (طالوت)، فأجاره وحماه، ثم تفاوض مع جالوت لإقامة تحالف معه ضد اليبوسيين أهل القدس ومؤسسوها، حيث كان دائمًا يحلم باحتلال القدس وجعلها عاصمة مُلكه.

عندما جاء داود إلى القدس على أثر إبرام معاهدة سلام مع اليبوسيين الكنعانيين، وبموجب ذلك السلام ضم جيشهم إلى جيشه واستدعى اللاويين من الشمال، واستطاع عن طريق ذلك التحالف أن يهزم الفلسطينيين في منطقة غزة وأن يحول عدّة حربهم للعمل ضدهم، خصوصًا المنجنيقات التي كانت تستعمل كآلآت لتحطيم الأسوار المنيعة، وبهذا تمكن من إنزال شرّ الهزائم بالممالك الفلسطينية الخمس وضم أرضهم إلى ما سماه "أرض اليهود"، واتخذ القدس عاصمة ملكه، ولما استقر له الأمر في القدس استقدم مهندسين فينيقيين الذين كان قد أقام معهم علاقات طيبة، فبدأوا يضعون المخططات والخرائط الهندسية والمعمارية لإقامة الهيكل الكبير للإله "يهوه" وأقام عبادة "يهوه" ليس فقط بين اليهود وحدهم بل امتد ذلك إلى الفلسطينيين أيضًا.

كان داود شاعرًا يفهم آلهة الآخرين وكان ولاؤه للإله "يهوه" شديدًا، فقد قاد اليهود من نصر إلى نصر ولكنه لم يكن يكره الآلهة عشتروت الأم وسمح بعبادتها وسمح للكاهنات ممارسة الدعارة والزنا كنوع من عبادة عشتروت الأم، وسمح أيضًا للفلسطينيين بعبادة الثور، وكان يردد باستمرار عبارته المشهورة: "هناك الكثير من الآلهة ولكن بين كل هذه الآلهة يأتي يهوه الإله في المقدمة دائمًا"، وكان أيضًا قاسيًا وشديدًا في الحرب، وقد قاد من أطلق عليهم "رجال البأس" إلى النقب الجنوبي، وقصم ظهور العموريين هناك ولم يعترف إلا بالسيادة والسيطرة اليهودية، وفرض على القبائل التي احتل أرضها الاعتراف بالسيادة اليهودية، أو مواجهة الإبادة والفناء.

أما بالنسبة للفينيقيين الشماليين فقد أبقى على علاقة الصداقة معهم نظرًا لحاجته إليهم، باعتبارهم سادة البحار ولديهم الطاقات الفنية والعلمية الواسعة، وتواصل تحالفه معهم مدة طويلة، وكانت تأتي البضائع إلى مملكته على سفن الفينيقيين، وكان لا بد من مصادقتهم حيث كانوا منفذه الرئيسي على بلدان العالم القديم وشريان تجارته.

تجلت شهرة داود الملك في سفر "المزامير" الذي ادعى أحبار اليهود أنه كتبه بنفسه، غير أن العلماء من بني إسرائيل يقولون بإنه عندما جرى تحليل تاريخي للتوراة وجغرافيتها؛ اتضح أن سفر المزامير كان قد وضع في وقت لاحق لوفاة داود، بما لا يقل عن ستمائة سنة، كما شكك علماؤهم في مقدرة داود على الضرب على آلة موسيقية وترية، أو أنه ألَّف بعض أجزاء المزامير أو نقح أجزاء منها، حيث أن عصره كان بعيدًا عن العصور "الهرمونيكية"، أي عصور الطرب والغناء والشعر الإغريقي، فأية مزامير هذه التي نسبت لداود؟ سيظل ذلك بلا شك غامضًا ومجهولاً.

في حالة المقارنة بين موسى وداود وجد المؤرخون أن كُلاً منهما كان مختلف عن الآخر، أما داود فكان الشهوة ذاتها، بل كان لحم اللحم، موهوبًا ذكيًا أصغر الرجال وأكبرهم، أكبر الرجال موهبة وأقلهم نبلاً، كان مغنيًا جيدًا للرب "يهوه"، اغتصب نساء كثيرات وكذب وخدع، كان داود لحمًا وكان الإنسان من اللحم، وهذا بداية الإذلال وبداية الحكمة أيضًا، الحكمة التي تعلمها اليهودي وحاكها في حياته منذ البداية، عندما وضعوا القصة عن مليكهم المحبوب في بيت المقدس جمع اليهود كل كلمات الإطراء، ويقولون "إن هذا الرجل لا نقيمه إلا كما هو ولا نضعه إلا في مكانه الصحيح"، وهنا نلاحظ أن المؤرخين اليهود يحاولون دائمًا تجنب المحاباة والنفاق في وصف عظمائهم، فيعطونهم حقهم في الوصف سواء كان ذمًّا أم مدحًا، بعكس الشعوب الأخرى التي تؤله العظماء وتعطيهم وصفًا أكبر من أحجامهم بكثير، ويظهر ذلك جليًا عند الشعوب الصحراوية حيث أن طبيعة الصحراء تجعل خيال سكانها واسعًا، فإن أحبت هذه الشعوب شيئًا أو شخصًا أمعنت في وصفه، وتمجيده ببلاغة كبيرة، وتأتي الأجيال لتتناقل تلك الأوصاف اللغوية البلاغية، فتأخذ بها بسبب إعجابها بالنصوص.

لهذا تبدأ القصص الوطنية بالتعاظم إلى أن تصل إلى درجات تأليه الأفراد، كما نلمس اليوم في الكتابات أو الأقوال العربية القديمة منها والحديثة فنرى تناقل القصص والروايات العربية تميل إلى هذا النوع من الخيال الواسع، ونرى الناس عمومًا عندما يخبرون عن شيء يميلون إلى الاستشهاد بالأقوال القديمة الغامضة مصادرها وصحتها، فتقول مثلاً إنه: "عن فلان وعن فلان وأن فلان قال كذا وقال كذا"، ونضيف إلى ذلك بأنه قول ثابت وإنه موثق وَرَدَ في مرجع كذا وكذا دون التحقيق في ذلك القول وتلك المراجع ومصادرها، والتي عادة تسير على نهج واحد، مع فارق باختلاف النصوص البلاغية غالبًا.

الفصل السادس : سليمان بن داود



سليمان الوريث لعرش داود كان نوعًا مختلفًا، فبينما كان داود عاطفيًا متدينًا، خطَّاء لكنه تواب أيضًا، سليمان على عكس والده.. كان علمانيًا، رجل يعيش لعالمه وسنه وقلبه إن كان له قلب بالأساس كما يصفه المؤرخون الغربيون، المزامير التي نسبت لداود في الكتاب المقدس أساسها روحي في نكهتها ومضمونها، متقاربة لقلب ديانة يهوه، أما الأدب التوراتي فيما يخص سليمان هو نوع من الأشعار الإباحية مثل "نشيد الإنشاد" الذي يتغزل فيه بزوجاته، وهو شعر يُشبه الكتابات الشرقية القديمة، التي ينقصها التفوقية اليهودية الإسرائيلية ومعرفة الإله "يهوه".

ماذا أصبح سليمان؟ سؤال يطرحه المؤرخون الغربيون المعاصرون ويجيبون عليه بأنه كان ملكًا من ملوك الشرق الأدنى، بمهارة مميزة ولكن شهرته بالحكمة كانت تقوم على الرغبة بأن يكون فظًا غليظ القلب، وهكذا اختار أن يكون كملك ويتصرف كملك أثناء حياة والده داود، وبعد وفاة والده أصبح الحاكم الوحيد الذي لا ينازع على عرش مملكة اليهود، فقام بتبديل الحكومة واتجاهاتها، بعزل جميع الوزراء الذين كانوا في عهد داود، وقتل بعضهم من الذين كان يخشى معارضتهم لتصرفاته، كما أنه أجرى تغيرات هامة في السياسة العسكرية مذكرًا بتمرد "أبشالوم" على داود.

السفر الثاني لصموئيل يميز بين الجبايات القبلية القديمة ورجالات إسرائيل الذين دعموا الابن، والمرتزقة أو خدم داود الذين دعموا الملك، وكان هؤلاء الخدم ذاتهم الذين أكدوا ولاءهم لسليمان

ومكّنوه من القضاء على خصومه فور توليه الحكم، في البداية فرض العمل الإجباري على المناطق الكنعانية وفي الجزء الشمالي من المملكة، واستعمل العمال المسخرين للخدمة في برامجه الإنشائية، كان داود جزءًا من النشاط والحيوية والنمو اليهودي، ولكن إذا كانت الإمبراطورية العظيمة التي أرسى قواعدها هو وابنه سليمان قامت على كاهل المرتزقة الذين تعامل معهم داود، وفضلهم على رجال البأس اليهود، فإن ابنه سليمان كان غنيًا أيضًا حيث أن والده داود قد نهب عددًا من المدن الكبرى لا تقل عن اثنتي عشرة مدينة، وهنا لا بد وأن نعود فنذكِّر برقم 12 السحري والرمزي عند اليهود، وهكذا جمع سليمان الذهب المنهوب من الفلسطينيين وخزنه في خزائنه التي عرفت فيما بعد بـ "كنوز الملك سليمان"، وهذا يؤكد أن داود لم يكن يتحلى بالأخلاق الدمثة وكذلك ابنه سليمان، فهما ليسا أكثر من لصين جمعا ثروة كبيرة نتيجة غزواتهما للمدن الفلسطينية في جنوب فلسطين والسطو على أموالها وممتلكاتها وذهبها.

واصل سليمان علاقته الطيبة مع الفينيقيين في لبنان وشمال فلسطين ودخل مع الملك "حيرام" في مدينة صور اللبنانية الحالية في مشاركة تجارية الأولى من نوعها في التاريخ القديم، ثم بنى سليمان أول مدينة بحرية لتكون ميناء على البحر الأحمر، وهي ما يعرف اليوم بميناء "إيلات" الإسرائيلي، وكان الملك حيرام بعث خبراءه ليبنوا أكبر أسطول تجاري وبحارة من الفينيقيين ليقودوا سفن ذلك الأسطول، وعزز هؤلاء بجنود من اليهود، فكانت مشاريع سليمان التجارية أكثر المشاريع الضخمة الناجحة في ذلك العصر، وانتشرت شهرة سليمان إلى بابل ثم الهند، وكانت الأرباح التي حققها سليمان والملك "حيرام" كبيرة جدًا وفق التصور، وبمساعدة الحرفيين من أهل صور بنى سليمان الهيكل العظيم في القدس، الذي كان والده داود قد وضع مخططه.

وصفت التوراة سليمان بالملك الحكيم ولكن يبدو أن هذا الوصف لا ولن ينطبق على رجل جمع آلاف النساء زوجات له، الأمر الذي ينفي عنه الحكمة، كان سليمان يمثل الجيل الثاني في امتلاك الثروة حيث أن والده داود نهب وقتل وهزم إلى أن أقام إمبراطورية كبيرة، وقد ورث سليمان الثروة عن أبيه، ولكنه لم يرث عنه الحيوية والديناميكية، فأي دليل على ذكاء وإبداع داود، بمعنى أن سليمان لم يكن حكيمًا على الإطلاق ولم يؤلف ذلك الشعر في التوراة المسمى "حكمة سليمان"، فقد كان هذا السفر من أسفار التوراة قد كتب بعد وفاته وكانت الحكمة الاعتيادية لسليمان أنه كان الشخص اليهودي لنوعية الحكمة ذاتها، وعبر التاريخ قلب اليهود الحكمة باستمرار وبشكل لم يتوصل إليه أي شعب من شعوب الأرض نجاحًا لما يخرج من العصر الشبيه بالأسطوري، عصر الأبطال وأنصاف الإله نرى أن اليهود يميلون إلى تمجيد المعلمين والحكماء والعلماء والربانيين الذين تكون فضائلهم الحكمة والمحبة، فكان ذلك يترسب عميقًا في ذهن سليمان بعض الحقيقة.

وهذا يؤكد أن اليهود ورثوا عن أجدادهم الأوائل مثل سليمان وداود التهويل والكذب واللصوصية، ولا غرابة أن نراهم اليوم يسرقون أرض الفلسطينيين، وينهبون بيوتهم وممتلكاتهم كما فعل ملوكهم من قبل الذين كوَّنوا ثروات هائلة وكنوزًا لا زال العالم يصفها بعجائب كنوز سليمان التي احتوت على ما لا يخطر ببال البشر، وكانت من المنهوبات والمسروقات التي برع بها سليمان ووالده داود، علينا أن نلاحظ بأن نشيد الإنشاد الذي لسليمان في الكتاب المقدس لم يكتب إلا بعد وفاة سليمان بحوالي خمسمائة سنة، فكيف يسمى سفر "نشيد الإنشاد الذي لسليمان" وسليمان لم يكتب ذلك السفر في الكتاب المقدس.

كان المال في ذلك الزمان كما هو اليوم، فالمال يستطيع شراء كل شيء، وكذلك الذهب يستطيع أن يذلل العقبات، فكان المال والذهب متوفران لسليمان، الأمر الذي جعله قادرًا على استقدام آلاف المرتزقة ليشكل منهم جيشه، وأحضر مئات العربات وبهذا استغنى عن رجال البأس والحرب من اليهود، لأن عددهم كان قليلاً أولاً، وكانوا عبئًا عليه بسبب كبريائهم وجبروتهم، وكانوا يعرفون بـ "غبوريم" بمعنى الجبارين، ويوجد أعداد كبيرة من جيشه، فلم يكن الإنتاج الزراعي يكفي لسد حاجاتهم الغذائية، وكانت اسطبلاته في مدينة "مجدو" الساحلية من أهم الاسطبلات في العالم، بل كانت من عجائب الدنيا، مدن بكاملها أقيمت لتخزين الشعير والحبوب الأخرى وكانت ألف امرأة غير كافية لتشبع شهوة سليمان، وجاءه من كل أنحاء العالم سواح ودبلوماسيون، حتى عدد من الملوك جاءوا ليروا بأنفسهم عجائب بلاطه، إلا أن كل هذه العظمة كانت على حساب شعبه ولم يكن شعبه كله من اليهود.

وبرغم هذا لم تكن ثروة سليمان بدون حدود، فكان لا بد من فرض الضرائب على الشعب، وعندما توفي تقدمت قبائل يشوع باحتجاج لابنه رحبعام حول الضرائب الباهظة إلا أنه لم يستجب لاحتجاجاتهم، الأمر الذي أدى بالتالي للتمرد وقيام ثورة وتمكنوا من عزله وتنصيب "يربوعام بن نباط" ملكًا عليهم، وبهذا انتهت إمبراطورية اليهود التي دامت في عهد داود وسليمان حوالي 80 عامًا.

بدأ "حوسيا" النبي خطوة جديدة في تطوير "يهوه"، خلافًا لعاموس، فلم يقتنع حوسيا بغضب الإله وعدله حيث أن يهوه كان أيضًا إله المحبة والمصير الذي قرره لإسرائيل "السامرة"، لم يسرّه جدًا بل انعكس عليه بالأسف والحزن حيث أنهم شعبه المختار كما يدَّعون، وكان ذلك تطورًا جديدًا، الإله الذي لا يقدر البتة على تحويل دور التاريخ كما يقول "حوسيا" يهوه اللاإنسان واللاإنساني الذي توسل إليه موسى، الإله الذي كان متقمصًا للطبيعة اللاحسية تحوَّل إلى إله يعرف معنى الألم والمعاناة، إله يقدر أن يبكي على مصير إسرائيل فيقول:

أحببته لما كان إسرائيل صغيرًا

ولما أخرجته من مصر وأسميته ابني

سمعوا صوتي فجاءوا من هناك

قدموا القرابين "للبعاليم"

حرقوا البخور تقربًا من الأصنام

علمت إفرايم الآخر ليخرج من ذلك المكان

تأبطهم من أذرعهم ولم يعرفوا أني أشقيتهم

سجنهم بحباله الرجال مواكب من الحب

وكنت معهم منذ نبذوا نير العبودية

وأعطيتهم الطعام ليأكلوا وينعموا بخيري.

إسرائيل الشمال قد ضاعت، حطمها الآشوريون إلى غير رجعة ومن هنا برزت أسطورة القبائل الأربعة، الذين اقتادهم الآشوريون إلى السبي، ولكن سقوط مملكة "يربعام" لم تكن عشر قبائل قد

سبيت، الذين تم سبيهم فقط الطبقة الأرستقراطية من قبائل إفرايم ومنسّي وجاد في الجليل، أما الارستقراط من قبائل "آشر ونفتالي" فقد فروا والتجأوا إلى المدن الفينيقية المنيعة، الفلاحون والعبيد نهبوا المدن ودمرت والمنازل أحرقت، الأرستقراطية اختفت ليس من العالم ولكن من الأفق اليهودي، لأنهم لم يكونوا يهودًا حقيقيين، ولكن كانوا يشتركون مع اليهود في اللغة والتاريخ تحت مظلة بني إسرائيل، أولئك الأرستقراطيون فضلوا الانخراط في المجتمعات الآشورية وأقاموا بينهم، وتدريجيًا وبسبب الفقر الذي أصاب الفلاحين ممن تبقوا في فلسطين ظهرت تدريجيًا ثقافة جديدة، ذكريات الإله يهوه وما حل بهم عندما أداروا له ظهورهم، رغبوا في استعادة قوانينه وتوراته وكانت أكبر القبائل المتبقية في فلسطين قبيلة "منسّي" التي حاولت إعادة بناء مملكة السامرة على أنقاض المملكة القديمة باتباع ولو خيط رفيع من الأمل عبر التاريخ وحتى هذا اليوم حيث يعيش في دولة إسرائيل الجديدة عدد قليل منهم وهم السامريون آخر بواقي قبيلة "يشوع" والمملكة التي بنوها وهدمها الآشوريون.

أما دور مملكة الجنوب والتي عرفت بمملكة "يهودا" والتي كانت في يوم من الأيام، وفي عهد الملك داود وابنه سليمان إمبراطورية مزدهرة، انكمشت لعدة مئات من الأميال المربعة في جبال وبعض ضواحي مدينة القدس، ويمكن للمرء أن يسير على الأقدام بين شروق الشمس وغروبها من بدايتها إلى نهايتها، وكانت تلك المملكة قد عاشت تلك العظمة حوالي ثلاثمائة عام، وعاشت فيها مجموعة من قبائل بني إسرائيل وغيرهم من الكينات والكلبيون واليمونيون والريزيون والبنياميون واليبوسيون الكنعانيون والفلسطينيون، وكان في القدس قطاع مصري وقطاع "حتّي" وقد تذوبت هذه الأجناس في شعب واحد، إلا أن اليهودي كان يمتاز على باقي السكان بعلاقته مع الإله "يهوه" حسب أقوالهم، يهوه الذي عقد مع إسرائيل كما يقولون ميثاقًا عرف بـ "البريت"، ولم يكن اليهودي يشعر أنه منفصل عن الإله، ولكنه جزء من كل، وكان هذا بفضل أنبيائهم "عسيّا وحبقوق وجرميا"، وجميعهم أنبياء يهود وهم أنبياء مملكة يهودا، الملك في ذلك الزمان يمثل صوت النبي والمحرك للطمع والشر، مما يستدعي حكم "يهوه" وغضبه، ولكن كان هناك استثناءات قليلة جدًا.

قائمة ملوك الثلاثمائة عام تعيد إلى ذاكرة الإنسان المطلع على التوراة التي تفصل بدقة شخصياتهم المصابة بالغرور وداء العظمة واعتداءاتهم الدامية، وعلاقاتهم مع الملوك الآخرين الذين لوثوا البشرية عبر التاريخ، نذكر فيما يلي أسماءهم وفترات حكمهم، لا لسبب بل من باب التوثيق الزمني فقط:

1. رحبعام بن سليمان 933- 917 قبل الميلاد.
2. آبيه 917 – 915.
3. آسا 915 – 875.
4. ياهوشافط 875 – 843.
5. عطاليا 843 – 837.
6. يهوعاش 837 – 798.
7. آمازيا 798 – 780.

8. غوريا 790 – 740.
9. يوتام 740 – 736.
10. آحاز 736 – 720.
11. حزقيا 720 – 692.
12. منسّي 692 – 638.
13. يأمون 638 – 637.
14. يوشيّا 637 – 609.
15. ياهويكيم 609 – 598.
16. يهيوخيم 598 – 597.

أما أخر ملوك مملكة يهودا فقد كان الملك "زدقيا"، هذه أسماء ملوك مملكة الجنوب من بعد عهد سليمان، إلى تاريخ سقوط القدس في أيادي الكلدانيين الذين ساقوا بني إسرائيل إلى بابل في سبي عرف بالسبي البابلي الثاني.

النبي "عسّيا" لا يعرف عن شخصيته الكثير ويقول أحبار اليهود في هذا أن الأنبياء يعرفون بأقوالهم وليس بمن كانوا، كل ما يعرف عن النبي عسّيا أنه كان ينحدر من عائلة ثرية ومن جذور الأرستقراطية اليهودية، وكان هو بذاته الذي نادى بمبدأ التوحيد، وهي الفكرة اليهودية الغامضة عن الإله، بدون رموز "يهوه" إله موسى الذي كان له مكان الصدارة في العقل اليهودي بين الآلهة العديدة، ولكن "يهوه" لم يناقض أو يناهض الآلهة الأخرى جميعها، على الرغم من أن "عشتروت والثور" كانتا معتديتين على "يهوه" وعلى الكهنة اللاويين، ولكنهم قبلوا بعبادة النحوشتان الأفعى وأشبال الأسود (أبو الهول). بعض حكماء اليهود يعتقدون بأن "يهوه" كان الإله القديم لقبائل الكينات، وقد استدلوا على ذلك من أن هيكل سليمان تم تصميمه وبناؤه على شكل الأسد الرابض حتى أن صوت الإله "يهوه" يشبه زئير الأسود، كما يشاهد في هيكل سليمان من خلال تاريخ هذا الهيكل أن الإله "أبو الهول" أي الإله المعروف "بأمهات الأسود" يربض على جوانب الأفعى النحاسية الإله نحوشتان وأيضًا كان في الهيكل الإله "الثور" الخاص بالفلستينوس الذين جلبوه معهم من مكانهم القديم في جزيرة كريت، وكان ذلك للتأكيد على تذوب الفلستينوس في البيئة اليهودية.

الفصل السابع : النبي عسّيا

عندما ظهر النبي "عسّيا"؛ حطم هذه الآلهة الوثنية وفتح مرحلة جديدة في مبدأ الإله "يهوه"، ولأول مرة أشار فيها صوته إلى عدم وجود آلهة أخرى وأن يهوه هو اسم الإله المقدس، الإله الواحد، واعتقد "عسّيا" أن ما فعله الآشوريون بعد أن حطم الآشوريون مملكة الشمال أرسل الإله يهوه الطاعون على جيش سنحريب ملك آشور، فأبادهم وكان انتقام الإله يهوه لشعبه الذي فضله على سائر خلقه لأنه شعب جدير بتحمل المسؤولية كما يدَّعي أحبار يهود.

قام "عسّيا" بحث ودعم الملك "حزقيا" في القدس على تحطيم الآلهة الوثنية الموجودة في هيكل سليمان، وقد سمح له الملك بذلك، فجرجر الإله الأفعى "النحوشتان" وحطمه بالمعاول، ثم أذاب نحاسه أمام الجمهور، وقد شاهد الشعب ذلك دون أن تكون هناك نتائج انتقامية من النحوشتان كما كانوا يعتقدون، وحطم أيضًا الآلهة أم الأسود "أبو الهول"، وجرجر الإله الثور في التراب وحطمه وحطم كل أصنام الهيكل، إلى أن أصبح الهيكل خاليًا من كل هذه الآلهة لأول مرة، فلا آلهة محفورة ولا آلهة منقوشة بعد ذلك الوقت سوى وجود الإله "يهوه" اللامرئي، ولم يأتِ ذلك من النبي "عسّيا" دون أن يسبب بغضًا وكراهية عند الكثيرين من معتنقي تلك الديانات الوثنية، لهذا قام نفر منهم وقتلوه، إلا أن صوت "يهوه" بقى هو الوحي الذي يتردد عبر القرون.

الشخصية التي يصفها أحبار اليهود بالعظيمة من الأنبياء تظهر على المسرح اليهودي بعد "عسّيا" كان "حبقوق" النبي، والمعروف عن هذا النبي ليس كثيرًا، إلا أنه يقال بإن دوره كان كبيرًا في كتابة سفر "تثنية الاشتراع" في التوراة، إلا أن هذا السفر كان قد كُتب قديمًا قبل عصر "حبقوق" بكثير، وهذا ليس المهم في نظر اليهود بل المهم هو تعريفه للإله "يهوه".

الفصل الثامن : النبي حبقوق والنبي جيرميا

قبل ستمائة سنة سبقت مولد السيد المسيح عليه السلام كان الشرق الأوسط يشهد تغيرات سياسية على نطاق واسع، وكانت القوة الأولى آنذاك الآشورية قد بدأت بالتراجع والوهن، وكانت هناك قوة جديدة تلوح في أفق الشرق الأوسط، وهي القوة الكلدانية التي عرفت "بالقوة البابلية" أمة مترابطة من حيث اللغة والعرق والتاريخ، وكان حبقوق في ذلك الوقت شأنه شأن أهل الفكر في زمانه؛ يرى أن أية قوة جديدة وكبيرة في الشرق الأوسط لا بد أن تتطلع إلى القدس، حيث كانت هذه المدينة حلقة الوصل بين قوافل التجارة بين الشرق والغرب، إذ كانت تربط بلاد الرافدين بوادي النيل وشمال أفريقيا، وكانت القدس القلعة الضخمة التي يطمع بالوصول إليها كل حاكم قوي، وكانت الصخرة المنيعة التي تتحطم عليها معظم القوى، وكان اليهود يعدّون الشوكة في تلك الصخرة المتينة، فقد توقع حبقوق أن يقوم الكلدانيون بغزو القدس بهدف التحكم في الممرات التجارية، وكانت النتيجة حتمية كما توقع، لقد كان حبقوق عرَّافًا وفيلسوفًا، وقد سافر إلى بابل ليقيم علاقات طيبة مع ملك بابل "نبوخذ نصر" ونجح في هذه المهمة، وكان تأثره بالبابليين عظيمًا حيث استعمل الطرق البابلية في قراءة النجوم، نظرته كانت عالمية، فأراد اليهود والبابليون أن يكونوا أبناء الإله، وكان حبقوق يقول للناس إن "يهوه" إله عادل وأنه إله كوني وعدله كوني، لا يفرق بين يهودي وبابلي، فكلهم أبناء الله.

هكذا كانت تعاليم النبي حبقوق وهكذا كان وتطور الأخلاق البشرية وتطور الإله "يهوه" معها حيث لم يعد إله حرب كما كان، ولم يعد يستعمل بني إسرائيل أداة حرب ولم يعد يتقدم رؤوس الحرب في تابوت العهد كما كان يفعل، وهكذا حرر حبقوق الإله يهوه من الآلهة الأخرى ومن الهيكل ومن تلال يهودا وأعلنه لجميع الناس، وأصبح اليهود في زمانه على بداية طريق عقيدة التوحيد، والتوحيد في أعلى درجاته هو مبدأ الإله يهوه في وحدة جميع المخلوقات.

تأثر حبقوق كثيرًا بتعاليم النبي "عسّيا"، وفي عهده ظهر نبي آخر اسمه "جرميا"، التقى جيرميا مع حبقوق وتعلم منه الكثير وتعاون حبقوق مع جيرميا في تحطيم أصنام الهيكل والقضاء على الآلهة الوثنية، ورفضا أن يعتقد اليهود بأن الإله "يهوه" اختارهم على بقية خلقه ليكونوا الطائفة التي تسيطر على العالم كله، وليس فقط منطقة يهودا أو فلسطين، وهنا أيضًا لا نستغرب سيطرتهم على دول العالم، خصوصًا العظمى منها في هذا الزمان، ولا نستغرب محاولاتهم لحكم العالم، بإقامة دولة العالم الواحدة الواردة في المخططات الصهيونية المعاصرة، وفي امتلاكهم للطاقة النووية المدمرة، التي ستمكنهم من تحقيق هذا الهدف مستقبلاً. وهذه كانت وجهة نظر "جيرميا" الذي قاسى من عذاب الشك والخوف وهو يبحث عن الحقيقة ويقولها مهما كان الثمن عاليًا. "عسيا" وحبقوق وضعا الأبعاد النهائية للإله "يهوه"، طهَّرا الهيكل وحل محل الأوثان وجود الإله "يهوه"، ولكن بحديث وفكر ذلك الزمان، كان الوجود اللامرئي للإله ميثاقًا يقولون إنه لا زال قائمًا.

لقد أقر جيرميا سياسيًا بحتمية بابل وحث اليهود على عدم معارضة أي غزو كلداني للقدس، وحثهم على أن يسلموا المدينة لهم دون مقاومة، لكي لا يحولوا مدينة يهوه إلى مجزرة تحت تأثير اعتقادهم بأنهم يفعلون ذلك بإرادة الإله يهوه، ولكن اليهود قاوموا بابل، وسقطت القدس ودخلتها

جيوش نبوخذ نصر، إلا أن اليهود لم يذبحوا كما كانوا يتوقعون، ويذكر أن عدد سكان القدس من اليهود في ذلك الوقت كان ربع مليون حسب الإحصاءات التاريخية، وبدلاً من تعذيب الأهالي والانتقام منهم قام نبوخذ نصر بسبي الطبقة الأرستقراطية منهم فقط، أما أرقام السبي الواردة في التوراة فهي مختلفة، ففي سفر "جيرميا" ورد الرقم 3023 يهوديًا تم ترحيلهم من القدس إلى بابل علمًا بأن عددهم كان 4600 ويبدو أن جيرميا أحصى من هم فوق سن 13 سنة، أما العدد الوارد في سفر الملوك فهو أكبر بكثير فقد وصل إلى 35000 بما فيهم الرجال والنساء والأطفال، وقد سبى نبوخذ نصر الأرستقراطيين والحرفيين والفنيين والأطباء والكهان، أي جميع من لديهم مهارات معينة والمتعلمين، ولم يبقَ في أودية القدس سوى الفلاحين الفقراء، هكذا سبي اليهود إلى بابل، في الوقت الذي كانت فيه أثينا وروما قريتين يلفهما الظلام ولم تكن الحضارة قد وصلت بعد إلى أوروبا المركزية التي كانت تقطنها القبائل الآرية.



- نبوخذ نصر ملك بابل -

الفصل التاسع : المنفى

المنفى بالضرورة يعني بالنسبة لليهود الانقطاع عن ماضي القبائل اليهودية الأخرى التي لم تتعرض للسبي، كما حدث ليهودا والسامرة، يقول أنبياء بني إسرائيل "حزقيال وحوسيا وعيسيا وجرميا"؛ إن المصائب التي حلت باليهود كانت نتيجة لخطيئة اليهود في مخالفة القانون (التوراة)، وحيث أن التاريخ القديم والنبوءات كانت قد أقيمت على أساس "الخطيئة الجماعية" أو "الذنب الجماعي" ونسبت إلى الملوك والقيادات الشرور التي جلبت لبني إسرائيل الغضب الإلهي، واليهود ليس لديهم من يوجهون له اللوم وتحميله المسؤولية، إذ تقع المسؤولية الأولى على أنفسهم لما اقترفوه من آثام، وقد كتب حزقيال في هذا أنه لم تعد معاقبة الناس جماعيًا من أجل آثام القادة أو الجيل الحالي لآثام أسلافهم، فالآباء يأكلون الحصرم والأبناء تتلف أسنانهم، ولم يعد ذلك المثل مقبولاً، فقد أخبر الله "حزقيال" بأن كل واحد من بني إسرائيل كان مسؤولاً أمامه وأن الروح التي تقترف ذنبًا يجب أن تموت.

فكرة الفردية كانت دائمًا في العقيدة الموسوية، وحسب الاعتقاد الموروث فإن كل رجل وكل امرأة قد خلقوا على هيئة الله - كما يعتقدون وكما هو مدون في توراتهم - وأكد ذلك بقوة حزقيال النبي وكان حزقيال قد وصل إلى الدرجة القصوى بالقناعة بهذا التصور، بعد ذلك أصبحت خلاصة العقيدة اليهودية من مسؤوليات الفرد اليهودي.

نتائج كثيرة انبثقت عن هذه القصوية، فبين عام 734 وعام 581 قبل الميلاد كان هناك ترحيل لستة من الإسرائيليين، وكثيرًا منهم فرّوا إلى مصر ومناطق أخرى في منطقة الشرق الأدنى، منذ ذلك الوقت فصاعدًا أصبح أغلب اليهود يعيشون خارج ما يسمونه أرض الميعاد، تشتتوا وأصبحوا بدون قيادة وبدون كيان ولا دولة، فكان عليهم أن يجدوا الوسائل البديلة للمحافظة على هويتهم الاجتماعية، فعادوا إلى كتاباتهم وإلى قوانينهم وسجلاتهم التي تدون ماضيهم، ومنذ ذلك الحين أصبح العالم يسمع عن مدونين أكثر، وقد ركزوا في كتاباتهم على التقاليد الشفهية، وأخذوا ينسخون المخطوطات القديمة الثمينة التي أحضروها معهم من الهيكل المدمر، وقد لاقى اليهود معاملة حسنة في بابل، حيث أن المنفى كان حلقة وصل لجهود التدوين، فالكتابات والألواح التي وجدت بقرب بوابة عشتار في مدينة بابل القديمة حصصا دفعت للأسرى وتشمل "يوخين" ملك أرض "ياهود" وهو "يوهايوكيم"، بعض اليهود أصبحوا هناك تجارًا، وأول قصص تحكي نجاحات اليهود في الشتات كتبت هناك، التجارة والثروة موَّلت جهود التدوين، وحافظ اليهود في منفاهم على البقاء على دينهم، فإذا كان الفرد مسؤولاً عن طاعة القانون فإنه ينبغي أن يعرف ما هو القانون، فالمسألة ليست اللمس والنسخ بل التعلم والدراسة أيضًا.

من هنا كان اليهود العاديون منضبطين في الممارسات الاعتيادية لدينهم، والختان الذي يميزهم بصورة لا تغيب عن غيرهم من ما يسمونهم "الكفرة" والمحيطين بهم، غير اليهودي في نظرهم يعتبر كافرًا ويتعاملون معه على أساس هذا الاعتقاد، وكانوا يصرّون على ذلك بشدة، إلى أن أصبح هذا مرسومًا وجزءًا من دورة حياة اليهودي وطقوسه الدينية، مبدأ السبت تقوى كثيرًا بما

تعلمه اليهود من علم الفلك البابلي الذي أصبح يشكل جزءًا من الأسبوع اليهودي و"شبتاي" كان الاسم الأكثر شيوعًا والذي اخترعه اليهود خلال فترة المنفى.

كانت مدة المنفى في بابل قصيرة، بمعنى أنها دامت قرابة نصف قرن فقط بعد سقوط يهودا، فيما كانت قوة خلاقة قائمة، وهنا نأتي إلى نقطة هامة في التاريخ اليهودي، فاليهود كانوا يتمنون أن يطول السبي البابلي، لأنهم تمكنوا خلال فترته أن يجمعوا ثروات هائلة، وأصبح منهم التجار والحرفيين على أعلى المستويات، حيث أن نبوخذ نصر كما سبق وأسلفنا عاملهم معاملة حسنة وفتح لهم باب العمل، وأقام لهم مساكن جميلة في أرقى أحياء بابل، ولم يكن سبيًا بمعنى السبي، بل كان إبعادًا عن مدينة القدس لتخليصها من سيطرتهم على مراكز التجارة بين أفريقيا وأسيا، ويلاحظ أنه عندما سمح لهم الإمبراطور الفارسي "قورش" بالعودة إلى يهودا رفض الكثيرون منهم العودة، وفضلوا البقاء في العراق، ولم يعودوا إلى القدس التي كانوا يتغنون بها، إذ وجدوا في بلاد الرافدين مجالاً أوسع للإثراء، حتى الذين غادروا العراق تحت تأثير الإغراءات الإسرائيلية بعد قيام دويلة إسرائيل عام 1948، يشعرون أنه قد غُرر بهم ويتمنون العودة إلى العراق الذي يتوقون إليه، وكما لاحظنا مسبقًا أنه كان هناك صراع موروث بين العقيدة ودولة إسرائيل، بالمفهوم الديني كانت هناك أربع فترات سابقة كبيرة في تاريخ اليهود، فترة إبراهيم الخليل وفترة موسى خلال وبعد المنفى بوقت قصير، وبعد دمار الهيكل الثاني، الفترتان الأخيرتان تطورتا وهذبتا أو نقتا العقيدة لتصبح اليهودية عينها، ولكن ما كان في فترة من هذه الفترات لليهود دولة مستقلة.

في سلسلة الأحداث التي لازمت اليهود عبر تاريخهم لم يكن أكثر أهمية من السبي البابلي الثاني، فلقد ذهب اليهود إلى هناك كممثلين إقليميين للاتحادات القبلية غير المعروفة التي عاشت في القدس والتلال القريبة منها، وبعد سبعين عامًا تحرروا من ذلك السبي على أيادي الإمبراطور الفارسي "قورش بن احشيورش الاخميني"، وكان يهود السبي البابلي قد أصبحوا نتيجة ذلك السبي يهود متحضرين.. كيف كان ذلك! إنها قصة من أكثر القصص إثارة في التاريخ القديم الذي طمسه اليهود وحاولوا إنكار الحقيقة.

قبل كل شيء تجدر الإشارة هنا إلى أن بابل لم تكن مكانًا غريبًا على اليهود، فهي بالنسبة لهم كما هو الحال بين انجلترا وأستراليا أو كندا، فقد كان اليهود يعتبرون بابل مهد الحضارة الأساسي للإنسان وهي التي تضم برج بابل ومكان نوح وجنة عدن، وهي فوق ذلك كله المكان الأصلي لأساطيرهم المحببة، منها كما يعتقدون جاء إبراهيم الخليل، الجد الأعلى لكل القبائل التي اصطلح العلماء على تسميتها خطأً "القبائل السامية" غرب نهر الفرات أجداد إسرائيل، كان البابليون يتكلمون لغة لا تختلف كثيرًا عن لغة اليهود، وكانت اللغتان العبرانية والآرامية متقاربتين في كثير من مناطق بلاد الرافدين، أما الحقيقة هي أن لغة اليهود المعروفة بالعبرانية هي في أساسها تكوينها "آرامية" خالصة، وقد دونت التوراة بهذه اللغة لدرجة أن لغة التوراة لا زالت تعرف بـ "آرامية التوراة" إلى يومنا هذا، أما الخط العبراني المربع المستعمل في التوراة فهو خط آشوري في أصله، اقتبسه اليهود من الآشوريين ونسبوه لأنفسهم وإن لغتهم الحالية هي مزيج من الآرامية والكنعانية العربيتين القديمتين.

في كل فترة من فترات التطور اليهودي كان هناك يهودًا يسافرون إلى بابل ويحضرون معهم قصص الجمال وما عليه بابل من العظمة والفخامة في أسوارها التي يبلغ طولها 55 ميلاً والشوارع العريضة والجميلة، والقصور ذات البهاء المبنية من الرخام، والحدائق المعلقة والتي

اعتبرت من عجائب الدنيا السبعة، حاول اليهود الاقتباس من بابل وبناء القدس بذات الجمال والديكور البابلي، فبنوا ليس بيوتهم فقط بهذه الصورة؛ بل أقاموا البرك والحدائق والأروقة على غرار بابل، فكانت القدس نسخة مصغرة عن بابل تقريبًا.

أما البابليون من جانبهم فقد عاملوا اليهود باحترام كبير، حقيقة أن نبوخذ نصر كان لا يرحم في تعامله مع أولئك الذين قادوا المقاومة والتمرد ضد بابل عندما غزا القدس، إلا أن القدس استسلمت له وعقد ميثاقًا مع "زدقيا"، ثم عيَّنه ملكًا على القدس، ووقع معهم معاهدة للتعاون والصداقة وعدم الإساءة للإمبراطورية الكلدانية، غير أن زدقيا عاد فنقض تلك المعاهدة وقاد تمردًا، مما أجبر نبوخذ نصر على محاصرة المدينة واحتلالها وأصدر حكمًا بإعدام أبناء زودقيا الثلاثة أمام عينيه، ثم حكم على زدقيا بفقئ عينيه وأن يقضي بقية حياته في السجن، كما حكم على 80 آخرين من نبلاء اليهود من الذين شاركوا في التمرد بالإعدام، ونفذ حكمه فيهم على الفور.

يقول المؤرخون المعاصرون إن هذه كانت أقصى درجات البربرية عند نبوخذ نصر، إلا أنه لم يتخذ أي قرار تعسفي ضد 35000 من اليهود الذين كانوا سباياه ولم يعاملهم معاملة الأعداء، أرادهم نبوخذ نصر خارج القدس فقط حيث لم يكن يريد تحصينات يهودية للمدينة القوية التي تتحكم بالطرق التجارية بين مصر والقارة الآسيوية، فلقد عامل الأسرى بكل لطف واحترام، وكانت القوافل التي حملتهم عبر الصحراء إلى بابل مزودة بكل أنواع الطعام والماء، ولم يقاسِ اليهود أي عذاب أو مشقة في رحلتهم من القدس إلى بابل، وفي بابل بنى لهم مساكن جيدة وحديثة في أحسن مناطق المدينة وزرع لهم أشجار الفواكه من كل الأصناف، وكروم العنب، وسمح لهم بالاحتفاظ بذهبهم ومجوهراتهم التي أحضروها معهم من القدس، ولم يعتدِ على حرياتهم الدينية، بل أكرمهم أحسن إكرام، وبرغم هذا الإكرام كان اليهود يتوقون دائمًا للعودة إلى القدس التي أحبوها.

خلال السنوات السبعين التي عاشوها في المنفى في بابل؛ انصقل اليهودي وأصبح إنسانًا حيًّا، وبعبارة أصح بدأ يكون إنسانًا، فهناك في بابل دوَّن اليهود "التوراة" واستعملوا اللغة الآرامية والخط الآشوري المربع في تدوينها، وفي بابل تعلم الحرفيون اليهود الفنون المعمارية والهندسية التي برع فيها البابليون، وفي بابل بدأ اليهود يعودون إلى الإله يهوه بعد أن اعتقدوا أنه كان يسكن هيكل سليمان، وقد دُمِّر الهيكل ولم يعد له مكان، وأنه لم يرافقهم في سبيهم إلى بابل، فاعتقدوا أنه نقض ميثاقه معهم، ولهذا بدأوا يعودون إلى الإيمان به من جديد، وقد وردت أحاديثه لموسى في التوراة التي دونوها هناك.

بعد عودتهم إلى فلسطين في عهد الإمبراطور الفارسي "قورش"؛ أعادوا كتابة التوراة في "طبريا" بفلسطين، وأدخلوا إلى لغتها مفردات عديدة من الكنعانية العربية، فأصبحت التوراة التي نقرأها اليوم مزيجًا من العربيتين القديمتين، (بنات العربية الأم) الآرامية والكنعانية، بالخط الآشوري المربع.

الباب الثاني

الفصل الأول : التوراة والتلمود - نبذة تاريخية

حوالي العام 586 قبل الميلاد كانت مملكة يهودا تمثل ما تبقّى لبني إسرائيل على أرض كنعان، وتشمل الهيكل الذي تحول إلى ركام وشعائرهم الدينية التي وصلت إلى نهايتها وكان الجزء الأهم من بني إسرائيل قد تم سبيه إلى بابل في بلاد الرافدين، بسقوط مملكة يهودا في يد نبوخذ نصر، أصبحت صرخة اليهود في أرض كنعان وفي السبي البابلي لها ما يبررها وتحولت مدينة القدس التي كانت تعج بالبشر إلى مدينة شبه خالية أو مدينة أشباح.

كانت الأزمة قد بدأت حوالي العام 722 قبل الميلاد بسقوط مملكة إسرائيل الشمالية (السامرة) في يد الآشوريين، واقتياد اليهود إلى السبي الذي عرف بالسبي الأول إلى بلاد الرافدين والذي سبق السبي البابلي الثاني، وكانت مملكة السامرة اليهودية تضم عشر قبائل من بني إسرائيل قام الجيش الآشوري باحتلالها وسبيهم إلى العراق، وقد تذوب معظمهم في البيئة العراقية، ولم يعودوا يعرفون ببني إسرائيل مع مرور الزمن.

يعتقد المؤرخون بأنه لو حدث لليهود في السبي البابلي الثاني كما حدث لهم في السبي الآشوري الأول لما كان لهم وجود اليوم على الإطلاق، ولكانت كارثة ماحقة حلت بهم منذ ذلك الوقت وطمست معالمهم إلى الأبد، الأمر الذي جعل المفكرين اليهود وزعماءهم في بابل يركزون جل اهتماماتهم على قضية البقاء اليهودي وحفظ بني إسرائيل من الانقراض أو التذوب في البيئات الأخرى، وكيف يمكن تجنب ذلك الانقراض الذي أخذ يهدد وجودهم، كما حدث في السبي الآشوري الأول، فكان الشيء الذي يميزهم على الآخرين في ذلك الزمان هو الدين، ولكن السؤال الذي برز أمامهم هو ماذا يعني ذلك التمييز والمحافظة عليه، خصوصًا بعد سقوط البلاد التي كانوا يعيشون فيها، وإقامتهم في بلاد أجنبية تحت نفوذ الغرباء القوي.

مصادر الكتب المقدسة التي تتحدث فقط عن تلك الفترة لا تفي بالغرض المتعلق بالمعلومات المفصلة المطلوبة، حيث أنها فقط تشير إلى تفهم مجرى الأحداث ولكن ليس بالصورة الدقيقة المرجوة، وفي ضوء الحاجة إلى التغلب على هذه العقبة الكأداء التي يواجهها اليهود في سبيهم وتصميمهم على المحافظة على دينهم من أجل بقائهم، فقد ظهر من بين شخصيات السبي البابلي الثاني النبي حزقيال الذي قاد المسيرة اليهودية إلى حل المشكلة، والتي أدت أعماله للمحافظة على الجنس اليهودي من الانقراض، ففي نبوءاته يتحدث حزقيال عن مناسبات عدة وهي اجتماع اليهود في منزله، الاجتماع الذي جرى فيه مناقشة ما كان يدور في عقلية المؤتمرين، وكان الحل الأمثل يتلخص في كلمة واحدة هي (التوراة)، هذه الكلمة العبرية التي ترجمت خطأ إلى (قانون) وهي في حقيقتها تعني التعليم والتوجيه، أما بالنسبة للسببين الآخرين فإنها تعني العقيدة المقدسة المدونة والشفاهية التي انتقلت إليهم من الأجيال الماضية دون السؤال عن أصل وتاريخ أسفار موسى الخمسة المدونة في الكتاب المقدس (البنتاتويخ) وهي سفر التكوين- سفر الخروج – سفر العدد – سفر اللاويين – وسفر تثنية الاشتراع.

ومما يستنتجه المؤرخون المعاصرون أن بعض الايحائات الموسوية كانت بحوزتهم بشكل أو بآخر، كما كان بحوزتهم أيضًا بعض الكتابات النبوية والمزامير، هذه الأثار العقائدية مكّنت اليهود

في بابل العراق من تدوين التوراة اليهودية على أيادي علماء يهود، كان أهم هؤلاء "عزرا" خبير التدوين وكبير الكُتَّاب، فقد تمكن من ابتداع حلول لمشكلة من سبقوه وجاء بنتيجة إيجابية وعملية، التلمود يقارن أعماله لشعبه بما أنجزه موسى اللاوي، وكواضع أكبر للقانون فإنه بذلك صنع أمة من العبيد المحررين بإحضارهم إلى التوراة سواء كان في بابل أو في يهودا، وفيما بعد جعل التوراة مرشدًا حيًّا لبني إسرائيل، ومن كثرة الإعجاب بإنجازاته أعلنه الربّانيون اليهود بأنه يستحق بأن تعطى التوراة لإسرائيل بيديه لو لم يكن موسى سبقه إليها، وحيث أن التوراة تعرضت للنسيان من إسرائيل فإن عزرا الذي خرج من بابل قد أعاد تأسيسها، وعزرا هذا هو مؤسس النظرية العقائدية القائلة "على اليهودي أن تكون له ديانة ليس فقط تميزه عن الكافر ولكن تُذكره دائمًا بأنه عضو من عناصر العقيدة اليهودية"، واليهودي ينبغي أن يميز عن جيرانه ليس بالعقيدة وحدها؛ بل بنموذج حياته أيضًا، وطريقة عبادته يجب أن تكون مختلفة عن الآخرين، بيته يجب أن يكون مختلفًا أيضًا، حتى في الأنشطة العامة في حياته اليومية ينبغي أن تكون لليهودي مقاطع مميزة تذكره دومًا بيهوديته، وأن حياته بكل تفاصيلها تخضع لتعاليم التوراة وللتشريعات الموسوية وتفعيلها حيث أن الظروف متطورة تتطلب منه التطور من وقت لآخر، وبدون وجهة النظر هذه ومعرفتها معرفة دقيقة فإن الربّانيين لن يتكون لديهم الفهم في اتجاه النشاطات وطرق تفسير الكتاب المقدس، الذي هو البذرة الأساسية لنمو التلمود، ولقد جاء هذا بشكل مميز جدًّا في أعمال عزرا، الذي كرس وقته وقلبه لتوراة الرب ليدونها ويدرس القوانين والأحكام الشرعية الواردة في التوراة للأجيال اليهودية.

النصوص اليهودية المقدسة

تكمن أهمية النصوص المقدسة لليهودية بتجاوزها لمغزاها الديني بكثير، إذ أن ما تحويه هذه الوثائق القديمة في طياتها لا يقتصر على تعاليم الدين اليهودي فحسب، بل يشمل كذلك التراث التاريخي والثقافي والاجتماعي لبني إسرائيل، وترى مختلف الفئات في إسرائيل الحالية في النصوص المقدسة معاني متباينة، فالفئات المغالية في التدين تعتبر هذه النصوص دليلاً روحيًا وأخلاقيًا وعمليًا في الحياة اليومية، فيما تعتبرها الفئات العلمانية ذخرًا تاريخيًا وحضاريًا يمكن أن تجرى بشأنه أبحاث ودراسات نقدية.

وتحتل القصص والأفكار والمبادئ الفلسفية الكامنة في النصوص المقدسة والتي تمتد على آلاف السنين من الفكر والدراسة؛ مكانًا بارزًا في الجزء الأكبر من الثقافة الإسرائيلية الحديثة، التي تستمد الكثير من مضامينها من التراث الحضاري القديم، وإن كانت تعبر في نفس الوقت عن مواضيع وقضايا الحاضر.

1- التوراة

التوراة هي أساس كافة النصوص اليهودية المقدسة وتشمل - بالمفهوم الأساسي المحض - الأسفار الخمسة للنبي موسى عليه السلام والتي تسرد قصة الخليقة، وميثاق الله مع إبراهيم وذريته، وقصة الخروج من مصر، والتجلي على جبل سيناء (حيث تم استلام الوصايا من قِبل موسى عليه السلام)، وكذلك تجوال بني إسرائيل في الصحراء (التيه) قبل دخولهم إلى الأرض المقدسة بوقت قصير.

الرسالة الرئيسية للتوراة هي وحدانية "يهوه" المطلقة، خلقه للعالم وسهره عليه، إذ تُعيد سرد تاريخه وتحدد التعاليم الأساسية التي ترشده وتتنبأ بمصيره، وتحمل التوراة في نفس الوقت رسائل عالمية تتعلق بوحدانية الإله وبالسلوك الاجتماعي، كانت لها تأثيرات على الحضارة الغربية، الأمر الذي جعل التمييز بين الحضارات الغربية والحضارات اليهودية أمرًا صعبًا فكلاهما متأثر بالآخر بشكل قوي للغاية، لذلك نرى أن التوراة هي مصدر بعض التقاليد التي لا تقتصر على اليهود وحدهم مثل اعتبار يوم السبت يوم راحة، فإنه يوم راحة أيضًا لدى الشعوب الغربية وغير الغربية..

كلمة توراة تعني "تعاليم"، وتستعمل الأسفار الخمسة كلمة توراة بمعنى مجموعة معينة من التشريعات، وبهذا الاستعمال يكون معناها "قانون"، وكثيرًا ما تترجم بموجب التعاليم اليهودية – كما اعتبرت على مرّ العصور – نصًا من وحي الإله "يهوه"، من جهة أخرى يعتقد الكثير من العلماء والمفكرين اليهود المحدثين بأن التوراة هي نصوص وضعها عدد من المؤلفين وجمعت بالتدريج على مدى فترة طويلة، أي أنهم يعتقدون بأن التوراة بلورت التاريخ اليهودي، وأنها تشكل حصيلة هذا التاريخ بمجمله، بغض النظر عن كونه تاريخًا أسطوريًا.

2- الكتاب المقدس

يعرف الكتاب المقدس (العهد القديم) بالعبرية بـ "التناخ"، وتتكون الكلمة من الحروف الأولى لمجموعات الكتب الثلاثة التي يشملها الكتاب المقدس: الأسفار الخمسة (توراة) الأنبياء (نفيئيم) والكتب المدونة (كتوفيم). يشتمل الكتابان الأخيران على تسعة عشر سفرًا معظمها بالعبرية، ومع ذلك فإن أجزاء كبيرة من الـ "كتوفيم" وردت بالآرامية وقد تم تأليفها خلال مئات السنين، منذ الفترة التي سبقت دخول بني إسرائيل إلى بلاد كنعان (فلسطين) في نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وحتى بعد عودة اليهود من بابل إلى أورشاليم (القرن الخامس قبل الميلاد)، تشمل أسفار الأنبياء نصوصًا تاريخية تمتد على طول الفترة الواقعة بين استيطان اليهود في أرض الكنعانيين العرب، كما تشمل العظات الأخلاقية والدينية للأنبياء (بينهم آرميا وأشعيا وحزقيال)، وتنطوي هذه النصوص على قطع شعرية دينية وعادية وقطع من أدب الحكمة والكتابات التاريخية.

والتاناخ هو مجموعة القوانين اليهودية التي تمت بلورتها بصورتها النهائية في الفترة الواقعة بين السبي البابلي والقرن الأول الميلادي، ولم يشمل الحاخامون الذين شاركوا في تحديد المضمون النهائي للكتاب المقدس، إذ لم يعتبروها ذات إيحاء إلهي، ويختلف الكتاب المقدس اليهودي (العهد القديم)، عن الكتاب المقدس المسيحي (الإنجيل) بأنه لا يشمل العهد الجديد كما أن هناك اختلافًا طفيفًا في ترتيب تقديم الأنبياء وتم تحديد العلامات الصوتية المتميزة (لتبين النطق والإنشاد) في القرن العاشر الميلادي.

يستعمل الناسخون لنصوص الكتاب المقدس التي تستعمل لأغراض الطقوس الدينية في الكنُسُ أدوات عتيقة (الرق والريشة) ويحرصون أشد الحرص على عدم إدخال أي تغيير على النصوص، وأكثر المخطوطات قدمًا المعروفة لدينا هي مخطوطات البحر الميت، التي كُتبت قبل العصر الميلادي بقليل، وهي مطابقة تمامًا للنصوص التي يتم نسخها أيامنا هذه.

لقد حظي الكتاب المقدس بأكبر عدد من الترجمات في العالم، فقد ترجم بأكمله إلى أكثر من مائتي لغة، في حين ترجمت أسفار معينة منه إلى حوالي ألف لغة لتقرأها شعوب مختلفة. وكان أول ترجمة للكتاب المقدس "الترجمة السبعينية" في بداية القرن الثالث قبل الميلاد وهي ترجمة إلى اليونانية قام بها 72 عالمًا يهوديًا في 72 يومًا لتستخدم في مصر القديمة، ومع أن أحدًا لا يدخل أي تعديل أو تغيير على نصوص الكتاب المقدس لكونها نصوصًا دينية، فقد نشأ في القرن التاسع عشر الميلادي فرع أكاديمي جديد يُدعى الدراسة النقدية للكتاب المقدس، ينتهج نهجًا تاريخيًا نقديًا، وأنتج الدارسون في هذا المجال كمية هائلة من الدراسات والتحليلات.

3- تفسيرات الكتاب المقدس

ظهرت في أعقاب التوراة تفاسير عديدة تعد ضمن النصوص اليهودية المقدسة، وتعود التفسيرات اليهودية الأولى إلى القرن الثاني قبل الميلاد، حين حلت الآرامية محل العبرية كلغة متداولة، ومع أن هذه التفاسير تعرف باسم (ترجوميم) أي (تفسيرات) فإنها تحمل صيغة تفسيرية وتشتمل على مقطوعات من التفسير ومن الأساطير، وتوجد تفاسير (ترجوميم) لجميع أسفار التوراة، فيما عدا تلك التي تم تدوين الجزء الأكبر منها بالآرامية.

انتقلت تفاسير الحاخامين من عصر التلمود إلى يومنا هذا، وكانت الغاية منها في كثير من الأحيان تسهيل استيعاب نصوص الكتاب المقدس والتفاسير المتعلقة به للجمهور في القرون الوسطى وبعد ذلك في العصر الحديث أيضًا، وتتناول التفسيرات نواحي مختلفة تتراوح بين النص المقدس، سواء كان ذلك حذفًا أو ظاهرة نحوية غريبة أو خطأ في الكتابة أو حتى ظهور حروف ذي حجم مختلف، وقد تولد عن مثل هذه الأمور كميات كبيرة من التفسيرات، ويعتبر الحاخام سليمان بن يستحق المعروف بـ "راشي" الذي عاش خلال الفترة 1040 - 1105 أشهر المفسرين للكتاب المقدس، وقد حاول إيجاد توازن بين التفسير الحرفي للنص والمواعظ التقليدية للحاخامين.

المعلومات التي توفرت مؤخرًا نتيجة الحفريات والمكتشفات الأثرية القديمة، التي جرت وتمت على أيدي علماء الأركيولوجيا والتاريخ القديم، لا تتفق كليًا مع ما جاء في التوراة، حيث أن التوراة، كما ذكرنا في صدر هذا الكتاب، تسرد تاريخًا أسطوريًا ينقصه أيضًا التسلسل الزمني، أما التاريخ المقارن المكتشف حديثًا فإنه يقوم على حقائق علمية ثابتة نرى أن نستعرض فيما يلي دور النبي موسى عليه السلام:

أسفار التوراة تسرد بإسهاب أعمال النبي موسى عليه السلام خصوصًا أسفار العدد والخروج وتثنية الاشتراع، وتعطي انطباعًا بأن موسى كان الموصل الضخم الذي تدفق من خلاله البهاء الإلهي إلى قلوب وعقول الناس، ولكن المؤرخين والعلماء يرون موسى أنه شخص أصلي أصبح تقدميًا من خلال التجارب التي كانت غالبًا مرعبة ونبيلة في ذات الوقت، فكانت قوة خلاقة قلبت العالم رأسًا على عقب، معتبرين المبادئ اليومية المقبولة للأجيال التي لا تحصى وتحويلها شيئًا جديدًا، وبالتالي ربما يصبح العالم مكانًا مختلفًا، ولن يكون هناك عودة إلى الطرق القديمة لرؤية الأشياء، لقد صوَّر موسى الحقيقة التي اعترف بها كبار المؤرخين بأن الجنس البشري يتقدم بخطى ثابتة وبصورة غير ملموسة، ولكن أحيانًا تحدث قفزات عملاقة غالبًا ما تكون نتيجة الدفع الانفرادي الديناميكي خارج نطاق الشخصية، وهذا ما أثار مجادلات المؤرخ اليهودي الألماني "فيلهاوزن" ومدرسته حول موسى فيما إذا كان خيالاً، وأن القانون الموسوي ما هو إلا فبركة من كهان السبي البابلي، خلال النصف الثاني من الألفية الأولى قبل الميلاد، وجهة نظر لا زال بعض المؤرخين يؤمنون بها، وقد بلغ الشك حدود التعصب وتخريب السجلات البشرية.

سلطة موسى وقوته كانت أبعد من قوة العقل البشري التي تخترع، فقد قفزت قوته من صفحة الروايات في التوراة التي فرضت نفسها على الناس الصعبين والمنقسمين، الذين كانوا على كل حال أفضل من الرعاع المخيفين، لهذا كان من الضروري الملاحظة بأن موسى لم يكن بأي حال إنسانًا مثاليًا في نظرهم، الكُتَّاب والعلماء اليهود يقاومون الرغبة الأثارية لتأليه شخصية مؤسسته خرجت على طريقهم لتؤكد الضعف البشري في فشل موسى، إلا أنه لم تكن هناك حاجة، حيث أن كل هذا موجود في السجلات، ربما كانت أهم المجالات المقنعة من أقوال التوراة بطريقة تُظهر موسى مترددًا وغير ثابت لدرجة اقتراف الخطأ والحماقة والرأس العنيد وسرعة الغضب وإحساسه بالتقصير، فإن ذلك نادر الحدوث لرجل عظيم أن يعترف بهذه الحقيقة إذ يقول: "أنا بطيء في الحديث ولي لسان بطيء أيضًا وعندي نقص في النطق والتعبير مما يعيق إمكانية إعطاء القوانين".

وما يزيد في تخيلات موسى كانعزالي ويائس وشخصية غير مؤهلة لتكافح بإثقال للدور الضخم الذي قبل به رغمًا عن إرادته فكان يفترض أن يؤديه بأمانة، في سفر الخروج الإصحاح 18

يظهره وهو يؤم بممارسة الحكم في بني إسرائيل من ساعات الفجر الأولى إلى الشفق، يستمع إلى القضايا التي يعرضها الناس، حماه (والد زوجته) النبي شعيب عليه السلام وأثناء زيارة له سأله غاضبًا: "لماذا تجلس أنت الوحيد وكل الناس يقفون حولك من الصباح حتى المساء؟" أجاب موسى بقلق: "لأن الناس يأتون إليَّ كي احكم بين الواحد والآخر"، فيقول شعيب: "إن الشيء الذي تفعله ليس جيدًا.. إنك بهذه الطريقة سوف تهلك أنت وهؤلاء الناس سوف يهلكون معك"، وهكذا اقترح عليه إقامة محكمة قضائية دائمة كي يتولى أمرها قضاة محترفون، ويكون موسى رجلاً معتدلاً يتمتع بالشهامة ويعطي الاستشارات الجيدة.. وكما اقترح شعيب فعل موسى.

كما جاء في التوراة أن موسى كان شخصية تتمتع بمزيج من الجاذبية والبطولة، فكان الإنسان الذي تعامل بيقين هائل مما يعطي عدة أنواع من الشك، فيكون أحيانًا في أوضاع محيرة، ونظرًا لوضعه؛ كان عليه أن يحتفظ بواجهة شجاعة من المعرفة غير المحدودة لأنه ينبغي أن يحافظ على الحشد الانقسامي متماسكًا، فكان مرغمًا على أن يثور بثقة حتى عندما لا يكون متأكدًا من قسوة الأمر. هكذا كان تصوره صارمًا وقوله: "دع القانون يطوي الجبل"، هارون كان محبوبًا أكثر من أخيه موسى، حيث أنه عندما توفي هارون؛ الجميع بكوا عليه، ولكن عندما توفي موسى لم يبكِ عليه سوى رجاله، ربما يكون قراء التوراة اليوم لديهم فكرة أوضح عن شخصية موسى، أكثر من الرجال والنساء من أتباعه.

موسى لم يكن الوحيد من ذوي النفوذ والتأثير على اليهود قبل المسيح، إنما كان أيضًا الوحيد الذي له تأثير على العالم القديم، الإغريق خلطوا بينه وبين ألهتهم الخاصة وأبطالهم، خصوصا الإله هيرموس والإله موسانيوس، وإلى موسى يرجع الفضل في اختراع الكتابة العبرانية، وفي التمهيد لمخطوطة فينيقية، وأيضًا كتابات إغريقية أخرى. كما يرجع الفضل إليه في تنظيم الحكومة المصرية وباختراع كل أنواع الآليات الحربية والصناعية، الفيلسوف الإغريقي "أرسطو" اعتقد أن "هومر" و"هسيود" أخذوا الإيحاء من أعماله، فكانت هناك نظرة عامة بين الكثيرين من الكُتَّاب القدماء أن البشرية ككل والحضارة الإغريقية بالذات مدينة بالكثير لأفكاره..



- النبي موسى عليه السلام -

وليس مستغربًا أن يتتبع الكُتَّاب اليهود آثار موسى كمهندس للثقافة القديمة، "يوسفوس" يقول إنه اخترع كلمة "القانون"، التي لم تكن معروفة لدى الإغريق، وكان المشرع الأول في تاريخ العالم. "فيلو" اتهم الفلاسفة الإغريق المشرعين بسرقة أو نسخ أفكاره وما يزيد في التعقيد أن الكاتب الكافر "نامينيوص" في القرن الثاني الميلادي اتهم " فيلو" بأنه موسى المتحدث بالإغريقية، الكُتَّاب القدماء لم يكونوا مقتنعين بوجود موسى فحسب، بل رأوا فيه أيضًا شخصية تكوينية لتاريخ العالم.

هناك ميل من الكُتَّاب الكفرة ومنذ النصف الأخير للألفية الأولى قبل الميلاد أن يروا شخصية موسى شخصية مؤذية، من واقع اعتقادهم بأنه خلق شكلاً من الدين الغريب والانعزالي وغير الاجتماعي، وكان موسى يتهم بشدة في تأجيج معاداة السامية، "هيكانيوس" في القرن الرابع قبل الميلاد كتب تاريخ مصر (المفقود الآن)، اتهمه بعزل أتباعه عن الناس الآخرين، وشجع على كراهية الغرباء. "مانيتو" 250 سنة قبل الميلاد وضع أسطورة تقول بإن موسى لم يكن يهوديًا البتة ولكن كان مصريًا. الكاهن المتمرد في "هيليوبوليس" (مصر الجديدة) أمر اليهود ليقتلوا جميع المصريين وأن ينهبوا ماشيتهم وأن يقيموا حكم الغرباء، ظاهرة هذا الكاهن المتمرد الغامضة أدت إلى تمرد المنبوذين، وفي العصر الحديث جاء الفيلسوف والمفكر اليهودي "سيغموند فرويد" فيقول في كتابه "موسى والتوحيد" الذي صدر قبل وفاته بوقت قصير، إن أفكار وآراء مانيتو صحيحة إذ لم يكن موسى يهوديًا وأردف يقول: "حتى لو افترضنا أن موسى كان يهوديًا إلا أنه لا ولن يتخلق بأخلاق بني إسرائيل الذين نعرفهم الآن، وأن أفكار موسى الدينية استنتجت من توحيد عقيدة "عبادة الشمس" التي كان يتبعها الملك "أخناتون".

السؤال الذي استمر العلماء طرحه هو: من أي مصدر حصل موسى على أفكاره؟ وفيما إذا كانت أفكار دينية أم قانونية؟ في الحقيقة إن أعمال موسى يمكن أن يؤكدها الرفض القاطع لكل شيء مثل هجرة إبراهيم الخليل من "أور وحاران" إلى بلاد كنعان، وينبغي أن لا نخمن أن بني إسرائيل قد هاجروا من مصر حسب املاءات ودوافع معيشية، فتلك الهجرة الجماعية لم تكن بسبب صعوبة العيش، وهناك إشارات في التوراة بأن صعوبات المعيشة يمكن تحملها، فالحياة في مصر على طول الألفية الثانية قبل الميلاد كانت متحملة كما كانت صعوبات معيشة في أماكن أخرى في الشرق الأدنى، لهذا فإن دوافع الهجرة الجماعية لم تكن اقتصادية أو بسبب المعيشة الصعبة، بل كانت حقيقة سياسية، فقد كان بنو إسرائيل في مصر أقلية بليدة، فتح باب الهجرة الجماعية جعل فرعون يقول لشعبه: "إن الإسرائيليين أصبحوا أقوى منا بكثير، تعالوا دعونا نتعامل معهم بحكمة لئلا يتضاعف عددهم بيننا"، كانت مصر تخشى من أعداد اليهود فيها، وكان هذا الخوف هو الدافع لاضطهادهم والذي كان قد صمم خصيصًا ليقلل أعدادهم، الاستعباد الفرعوني لليهود كان استبدادًا قاسيًا، وحتى ما يسمى "محرقة"، يعني وجود شبه مزعج بين هتلر الألماني وبين فرعون مصر كما يدعي الكُتَّاب اليهود.

كانت الهجرة الجماعية من مصر نوعًا من الانفصال السياسي ولكنها أيضًا كانت وفوق كل شيء عمل ديني، كانت بالنسبة لبني إسرائيل مميزة، وكان المصريون يرونهم ويخشوهم كوحدة مميزة، بالضبط لأنهم رفضوا الآلهة المزدوجة من آلهة المصريين ورفضوا الروحانية المصرية كاملة، التي بطريقتها كانت تلوح في الأفق كدين جديد لإسرائيل، تمامًا كما شعر إبراهيم الخليل أن ديانة "أور" كانت وصلت إلى طريق مسدود، هكذا كان لبني إسرائيل زعيمهم موسى الذي وجد المعتقدات الدينية المصرية وممارستهم لا تطاق وبغيضة وشريرة، ولكي يتركوا كان يجب كسر

ليس فقط الاستعباد المادي ولكن كسر سجن روحي بلا هواء يتنفسونه، ويقولون إن رأس إسرائيل كانت تشتهي أوكسجين أقوى من الحقيقة، وطريقة حياة تكون حرة وطاهرة بمسؤولية أكبر، الحضارة المصرية كانت قديمة جدًّا وصبيانية، وهروب الإسرائيليين منها كان من أجل النضج، وفي عملية النضج هذه، كما يدعي بنو إسرائيل أنها كانت بالنهاية ليس لأنفسهم فقط بل لكافة الإنسانية على الكرة الأرضية، اكتشاف التوحيد لا يعني توحيد النفس فقط، بل توحيد العلي القدير "يهوه" من واقع المبادئ الخلقية، والبحث بطريقة منظمة ليفرضوها على الجنس البشري، فكانت واحدة من نقاط التحول في التاريخ وربما أكبرها.

معروف عن المصريين أنهم مهرة فوق العادة في استعمال أياديهم، كما أن لديهم مذاقًا غير معصوم، لكن ظواهرهم كانت غامضة وقديمة لأقصى درجات القدم، فوجدوها صعبة أو من غير الممكن أن يعتنقوا مبادئ عامة لأن لديهم إحساس تراكمي كمعارضين للتكرارية في اعتناق التاريخ، مبادئهم التميزية بين الحياة والموت، بين الإنسان والحيوان كانت هشة وغير مأمونة النتائج، معتقداتهم لها عمومية الديانات الدائرة الخاصة بالشرق وأفريقيا أكثر من أي شيء آخر من المعتاد أن يسموه "ديانة".

السماء والأرض كانتا مختلفتين في الدرجة وليس في النوع، والسماء يحكمها ملك جسّده الملك الإله رعمسيس الثاني، واعتبار فرعون الإعلان الإله الأرضي، المجتمع في السماء والأرض كان مستقرًا وثابتًا، وكان أي شكل من أشكال التغيير يؤخذ على أنه شاذ وشرير، وكانت هذه من خصائص المجتمع الثابت الذي لم يكن لديه إحساس بالقوانين غير الشخصية، لهذا لم يكن أي تدوين لقانون الفرعون المصدر لسيادة القانون وأحكامه، بطبيعة الحال كانت هناك محاكم تلتئم بشكل مفوض لتنفيذ الأحكام التعسفية.

من جهة أخرى كانت وجهة نظر العالم تتجه نحو الثقافات العراقية القديمة (بلاد ما بين النهرين)، خلال الألفيتين الثانية والثالثة قبل الميلاد، وكانت ثقافات أكثر ديناميكية ولكنها أكثر ارتباكًا في ذات الوقت، فقد رفضت شعوب بلاد ما بين النهرين ظاهرة الإله الفرد كمصدر نهائي للسلطة على عكس المصريين الذين كانوا باستمرار يضيفون آلهة إلى الآلهة المتبعة في حالة بروز صعوبات دينية، واعتقدوا أن جميع الآلهة الرئيسية قد خلقت، وأن مجتمعات تلك الآلهة مارست السلطات النهائية في اختيار رئاسة الإله، مثل "مردوخ"، وفي جعل الإنسان لا يموت عندما يرغب بذلك، السماء أيضًا كانت في وضع مستمر من عدم الاستقرار مثل المجتمع البشري الذي كان نسخة طبق الأصل عن الآخر، ولكن الملك الأرضي ليس إلهًا، وكان نادرًا في مجتمعات بلاد الرافدين (العراق)، المجتمع الذي كان في تلك المرحلة يؤمن بالملك الإله، ولم تكن تعتبره هو المطلق بل كان ينتسب إلى الآلهة، الملك لا يستطيع أن ينفذ أو يتصرف بالقانون بتعسف، وفي الحقيقة كان الأفراد يتمتعون بحماية القانون الكوني الذي لا يتبدل.

في مجالات المخطوطات كانت تنتشر في بلاد ما بين النهرين وأصبحت مهمة جدًا، وكان الناس يطورونها إلى أشكال أكثر كفاءة من الهيروغليفية المصرية ومشتقاتها، وقد رأوا أن الاختراع مصدر سلطة وقوة، واعتقدوا أنهم بذلك يكتبون قانونًا مدعمًا بالقوة منذ نهاية الألفية الثانية قبل الميلاد فصاعدًا، وقد نما النظام القانوني بكثافة وتعقيد، ولم ينعكس هذا على الجماهير فحسب، بل وأيضًا على القوانين المرعية المدونة، فانتشار المخطوطات الأكيدية ولغتهم شجعت الحكام على تجميع قوانينهم في مجتمعات منفصلة جغرافيًا مثل "عيلام وتوليا"، وبين الحثيين واوغاريت في

سواحل البحر المتوسط، لذلك كان يعتقد أن أول نسخة من القانون الموسوي عرفت حوالي العام 1250 قبل الميلاد، وأنها كانت تمثل جزءًا من التقاليد القديمة، القانون الأول الذي تم اكتشافه بين النصوص في متحف الشرق القديم في اسطنبول بتركيا يرجع تاريخه لعام 2050 قبل الميلاد. أعمال "اورمامو" ملك سومر وأكاد من العائلة الملكية الثالثة في "أور" تذكر فيما بين الأشياء الأخرى أن الإله "نانا" اختار "اورمامو" ليحكم بالقانون وتخلص من الرسميين غير المخلصين، وكان إبراهيم الخليل يعرف نصوص تلك القوانين، وهناك قانون آخر ربما يكون إبراهيم على علم به أيضًا، يرجع تاريخه إلى عام 1920 قبل الميلاد. والآن يوجد لوحان في المتحف العراقي يرجعان إلى مملكة "اشتونيا" القديمة بكتابات عليهما بالاكيدية، وتشمل حوالي ستين مادة في قانون الملكية الفردية (التملك)، وضعت من قبل الإله "تشكباك"، وانتقلت إلى الملك المحلي فيما بعد.

وهناك ألواح يرجع تاريخها إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد، موجودة بشكل رئيسي في جامعة بنسلفانيا الأمريكية، تتحدث عن قانون الملك "لبت- أشرار" ملك "ايبدي"، مكتوبة باللغة السومرية وأكثر ما يلفت النظر أن قانون "حمورابي" وجد عام 1901 م في "سوسا" شرقي بابل على ألواح يبلغ ارتفاع اللوح 6 أقدام من مادة الديوريت توجد الآن في متحف اللوفر بفرنسا، ويرجع تاريخه إلى الفترة من (1728 - 1686) قبل الميلاد، وهناك أيضًا قوانين أخرى متأخرة تشكل مجموعة من ألواح خزفية اكتشفها الاركيولوجيون الألمان، في السنوات التي سبقت اندلاع الحرب العالمية الأولى في قلعة شيرغات في "أور القديمة" التي يحتمل أنها ترجع إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد والتي ربما تكون الأقرب إلى قانون موسى الأصلي.

أما فيما يتعلق بجمع وتصنيف القانون الإسرائيلي، كان لدى موسى سابقة كافية باعتباره كان متعلمًا وقد أحضر للمحكمة ليضع القانون كتابة وينقشه في الحجر، وكان ذلك جزءًا من العمل التحرري للهروب من مصر، حيث كان القانون الموسوي جزءًا من النظام الأساسي للقانون في آسيا، وهو بالتالي جزء من تقاليد الشرق الأدنى، مع اختلافه عن جميع القوانين القديمة، التي منها الكثير أساسي غير أنه يقال بإنها قوانين روحانية من الله أعطيت للملوك الأفراد مثل: حمورابي أو عشتار، لذلك يكن إلغاء هذه القوانين أو تبديلها في الأساس علمانية، بالتباين مع التوراة فالإله وحده هو الذي وضع القانون والتشريعات الموجودة في أسفار موسى الخمسة وجميعها له، ولم يكن يسمح لأي ملك إسرائيلي ولا حتى أن يحاول أن يشكل قانونًا، موسى وحزقيال النبي فيما بعد نقلا فقط التصحيحات القانونية وكان حزقيال نبيًا وليس ملكًا، ووسيطًا إلهيًا وليس مشرع أحكام. من هنا في قانونه لا يوجد أي تمييز بين المتدين والعلماني فجميعهم واحد أمام القانون أو بين القانون المدني والقانون الجزائي والأخلاقي.

كان لهذا الترابط نتائج عملية هامة، في النظرية القانونية الموسوية أن كسر القوانين فيه الإساءة إلى الإله، وجميع الجرائم هي آثام وهذا قطعًا نوع من الذنوب الخارجة عن سلطة الإنسان، فهي لا تُمحى ولا يمكن التسامح فيها، التعويض أو العودة إلى الوضع السابق للمعنويات التي تعرضت للأذى لا تكون كافية، فإن الإله يطلب الكفارة أيضًا، وهذا ربما يتضمن عقوبات خطيرة، معظم القوانين المدونة لبلدان الشرق الأخرى القديمة هي ملك شعوب المنطقة نفسها، خصوصًا القانون الإلهي المتعلق بقانون الملكية الفردية التي يمكن أن تفقد قيمتها، فهو قانون موجه من الإله، فعلى سبيل المثال الزوج يمكن أن يعفو عن زوجته إن هي اقترفت جريمة الزنا وأن يعفو عن عشيقها. القانون الموسوي بالتباين مع القانون الإلهي يصر على توقيع عقوبة الموت بالزانية وعشيقها،

أيضًا القوانين الأخرى تشمل حقوق الملكية الفردية والعفو حتى في القضايا الكبرى، والتوراة لا توجد علاجًا كهذا ولا تلغي أو تفسخ قانون الاقتناء. على أية حال لا يستطيع المجرم الفرار من عقوبة الموت بدفع المال خصوصًا عندما يكون ضحيته عبدًا من عبيده أو خادمًا من خدمه، وهناك الكثير من الجرائم التي تغضب الإله، ففي هذه الحالة مهما كان التعويض المالي كبيرًا لن يمحو غضب الإله، إذن فإن القوانين تهدف إلى منع القتل والإصابة والسلوك غير السوي، كذلك بالمؤذي في الحالات الاعتيادية يدفع ما قد تقرره المحكمة، وهذا لا يتعارض مع قانون موسى، حين قيام الرجل بضرب امرأة ويتسبب بإجهاض جنينها في حادث ما وفي كل القضايا الأقل درجة فالعين بالعين والسن وبالسن واليد باليد والقدم بالقدم وهي فقرة قانونية أسيء فهمها والتي بكل بساطة تعني أن تعويضًا مشددًا عن الإصابة يصبح مستحقًا على المتسبب. ومن جانب آخر بينما تكون درجة ذنب الإصابة جسمانية وتكون عارضة ففي هذه الحالة تخضع لقانون الجزاء ويجب تنفيذه.. مثلاً إذا نطح ثور إنسانًا وتسبب في موته فإن صاحب الثور يعاقب إذا كان يعرف أن هذا الحيوان (الثور) خطير ولم يقم باتخاذ الإجراءات السليمة، وأن الرجل قُتل نتيجة لإهمال صاحب الثور، يتحمل صاحب الثور عقوبة الموت، وهذا النص يعرف بقانون "الثور الناطح" مما يشهد إلى حد كبير أهمية القانون الموسوي بالنسبة لحياة الإنسان.

هناك مفارقة فيما يتعلق بالعقوبة القصوى في القانون الموسوي، حيث أن الإنسان خلق على هيئة الإله، لهذا فإن حياته لها قيمة، فقتل الإنسان هو اعتداء محزن جدًا للإله يتطلب أقصى العقوبات، وخسارة الحياة يجب أن تتبع، المال لا يعني شيئًا ولا يكفي لعقاب المجرم، حيث أن عقوبة الموت تؤكد قدسية حياة الإنسان، بموجب القانون الموسوي الكثير من الرجال والنساء أفلتوا من عقوبة الموت، بسبب تسهيل القوانين العلمانية في المجتمعات المحيطة بالمجتمع الموسوي، فتلك القوانين العلمانية بكل بساطة سمحت بتعويض الضحية أو عائلته، ولكن العكس هو الصحيح أيضًا ونتيجة إلى نفس البداهة حيثما تقضي القوانين الأخرى بعقوبة الموت للعدوان على الممتلكات مثل: النهب أثناء وجود الحريق في البيت أو تجاوز خطير في الليل لحرمة البيوت أو سرقة الزوجة، حيث القوانين الموسوية لا يكون الاعتداء على الممتلكات تنطبق عليه العقوبة القصوى – عقوبة الموت – حيث أن حياة الإنسان مقدسة جدًا وحيث أن الذي تعرض للاعتداء هي ممتلكات وليس أشخاص، أيضًا يرفض عقوبة "البدل" كما أن الاعتداء على الوالدين لا يؤدي إلى عقوبة الموت للأولاد والبنات أو جريمة الزوج بجنوح الزوجة إلى الدعارة، أبعد من هذا ليست الحياة البشرية وحدها مقدسة ليس لأن الإنسان خلق على هيئة الإله فحسب بل لأنها ثمينة، هذا ويعامل القانون الموسوي جسد الإنسان برفق أيضًا، ويدرج على قائمة مجموعة العقوبات، وتشمل تشويه الوجه الخصي التطويق والجلد حتى الموت، بهذا يقلل من قيمة القسوة وحتى الجلد كان قد حجم وحدد بأربعين جلدة، وأمام القاضي لئلا يزداد الجلادون في هذه العقوبة، ومسألة أخرى حقيقية هي أن القوانين الموسوية كانت إنسانية أكثر من أية قوانين أخرى، لأنها قوانين موحاة من الإله، وبشكل أوتوماتيكي أصبحت موجهة من الإنسان.

الشيء الآخر في الزمن الموسوي والتاريخ الطويل هو "الختان" الذي لم يكن سائدًا بين الكنعانيين والفلستينوس أو الآشوريين أو البابليين، استعمله فقط الادوميون والمؤآبيون والعمونيون، وهكذا فعل المصريون، ولكن لم تعلق هذه المجتمعات أهمية كبيرة على تلك العادة (الختان)، وكان البعض يعتقدون أنها اختفت أو تلاشت في الألفية الثانية قبل الميلاد، وهذا بطبيعة الحال يشهد على

قدم عصور العادات الإسرائيلية ويشد أيضًا على عهد إبراهيم لجزء من ميثاقه وأن ما ذكر مقدمًا يشهد على عمق القوانين اليهودية التي جاء بها موسى عليه السلام.

4- التوراة الشفهية

التوراة الشفهية هي تفسير تحليلي للتوراة المدونة، وتفيد التقاليد الموروثة أن التوراة الشفهية أنزلت على موسى في جبل سيناء ثم نقلت أبًا عن جدّ بواسطة خيرة القوم والزعماء الدينيين، مع بدء القرن الثاني قبل الميلاد وخاصة بعد تدمير الهيكل المقدس الثاني (عام 70 ميلادي) أخذت تقاليد وتفاسير مختلفة تنتشر بين الناس، فبادرت الزعامة الدينية إلى تصنيف التفاسير وتحريرها، وأسفرت هذه المبادرة عن مؤلَّف قام بتحريره وتنظيمه الحاخام يهودا هاناسي (القرن الثاني للميلاد) وَسُميّ "المشنا" وهي كلمة تعني "التكرار أو التعليم"، والحكماء الذين ترد تعاليمهم من المشنا يعرفون باسم "تنائيم"، واستمر عصر التنائيم الذي تم خلاله جمع مواد المشنا منذ تدمير الهيكل المقدس الثاني حتى بداية القرن الثالث للميلاد.

وتنقسم المشنا إلى ستة أبواب يضم كل باب منها فصولاً يقدر عددها عادة بـ 63 فصلاً، ويشمل كل فصل عدة فصول ثانوية، تنقسم بدورها إلى عدد متباين من التعليم يُعرف كل منها أيضًا باسم مشنا (تجمع على مشنايوت) بالعبرية. هناك مواد أخرى من تلك الفترة المتدرجة في المشنا، ولكنها توجد في "التسوفتا" أو في التعاليم الإضافية المعروفة باسم "براتوت" والواقعة ضمن مجموعتي التلمود وتكاد كتابة المشنا والمادة الإضافية تقتصر على اللغة العبرية، وتعتبر المشنا كذلك مصدرًا هامًا فيما يتعلق بطقوس الهيكل المقدس والعادات والتقاليد التي كانت متبعة في تلك الفترة، حين ظهرت المشنا قامت مجموعة من الحاخامين عرفوا بالامورائيم (بين القرنين الثالث والسادس للميلاد) بمناقشة هذا المؤلف والزيادة عليه وإدخال التعديلات والتوفيق بين أمور كانت تبدو كأنها متناقضة، فكانت حصيلة هذا الاجتهاد "الجمارا"، وتشكل الجمارا والمشنا معًا "التلمود" تجمع بالعبرية على "تلموديم" وتعني هذه الكلمة "الدراسة".

هناك تلمودان: التلمود الأورشليمي تم جمعه في فلسطين، والتلمود البابلي، ويشمل التلمود البابلي 37 فصلاً من مجموع 36 بابًا، كما ترد فيه العديد من المؤلفات المتأخرة وهو يشمل 2.5 مليون كلمة في 8944 صفحة، أما التلمود الأورشليمي فإنه يختلف في مبناه وهو أقصر من التلمود البابلي بالغ الإيجاز وقد يكون ملغزًا أحيانًا، ويتركز في الأمور القانونية، في المقابل يحوي التلمود البابلي كمية أكبر من مواعظ الكتاب المقدس وتفسيراته، ومن الأسهل مواكبة مناقشته.

تلتزم الجمارا عادة بمبنى المشنا ولكنها تتفرع بالاستطراد وتداعي الأفكار إلى شؤون أخرى، وهكذا يتكون مزيج من الملاحظات ذات الطابع الحر، قد تكون في القانون أو الأخلاق أو طرائف مختلفة، وجاءت صياغة جزء كبير من التلمود بالآرامية خلافًا للمشنا ونظرًا للطابع الخاص للتلمود وكونه القاعدة للإفتاءات الدينية التي ينطبق الكثير منها على الحياة اليومية فإن التفاسير بشأن هذا المؤلف وافرة، ويتسم الأسلوب المتبع في التلمود بطابع المحادثة أو بأسلوب الحذف على غرار "ملاحظات للمحاضرة" وقد تكون لنصوص التلمود – خلافًا لنصوص الكتاب المقدس - أوجه مختلفة للقراءة، كما تكثر فيها أخطاء الناسخين، والاقتباسات غير الصحيحة والتعابير المنمقة التي تهدف أحيانًا إلى التملص من رقابة متربصة، ويحوي كل من التلمود الأورشليمي والتلمود

البابلي - إضافة إلى الهدف الديني الأساسي – معلومات هامة عن الأحداث والعادات واللغة في ذلك العصر، لذلك فقد كان موضوع دراسة مفصلة وعميقة من جانب الدارسين المحدثين في التاريخ وعلم الديانات وعلم اللغات.

بدأت عملية التنظيم المنهجي للتلمود قبل أن يظهر في صيغته النهائية في بداية القرن السادس الميلادي بعدة أجيال، وتعود أقدم المخطوطات القائمة اليوم في التلمود إلى القرن التاسع، وأصدر دانيال بومبرج وهو مسيحي؛ أول تلمود كامل مطبوع بين عام 1520 – 1523 وابتكرت دار نشره شكلاً شكليًا للتلمود ظل قائمًا حتى الآن دون أن يطرأ عليه أي تغيير، بما في ذلك ترتيب الصفحات والنموذج الطباعي للتفاسير الرئيسية.

وقد تراكمت إلى جانب المشنا والتلمود مجموعة من النصوص المخصصة لتفسير الكتاب المقدس والمعروفة باسم "مدراش" تُجمع على "مدراشيم" في العبرية، وتحوي أقدم نصوص المدراش نصوصًا تفسيرية للحكماء من عصر "التنائيم"، وتخوض هذه النصوص في الهلاخا (الفتاوى الشرعية) والاغدا (الأساطير)، اقتصر تفسير التوراة في عصر الامورائيم على الشؤون المتعلقة بالأساطير (اغادا) وأهم مجموعة لتفسيرات الامورائيم هي (مدراش ربا)، وتأتي فصوله حسب ترتيب أسفار الكتاب المقدس، وتحوي تفسيرات حسب السطور مثلاً: (براشيت – فايكرا ربا – عن اللاويين).

5- تفاسير التوراة الشفهية

ما أن اكتمل إعداد المشنا حتى تبينت الحاجة إلى تفسير لها، فجاءت الجمارا فيما بعد حين ظهر التلمود في صيغته النهائية، واتضح أن هناك حاجة الشرح له، وتبلورت التفاسير المنظمة الأولى للتلمود، (وهي تختلف عن الملاحظات المحدودة) في القرن العاشر، ويُعتبر تفسير راشي (الحاخام سليمان بن يتسحاق) من القرن الحادي عشر، أكثر المؤلفات من نوعه انتشارًا، وأعظمها تأثيرًا. كتب الحاخام موسى بن ميمون (1135 – 1204) أول تفسير شامل للمشنا بكاملها، وهو مؤلف بالعربية ترجم إلى العبرية في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، وتفاسير التلمود، بما فيه المشنا إضافية إلى حد أنها تطبع بحروف صغيرة للغاية فتحتل نصف – إن لم يكن جلّ – الصفحات في مجلد عادي للتلمود. وفي صفحة عادية للتلمود يكون النص قصيرًا محاطًا بتفسيرين، تفسير راشي وتفسير التوسافوت، وهو حصيلة مجهود الحاخامين في الفترة بين القرنين الـ 12 والـ 14، ويشير هؤلاء إلى مواضع أخرى في التلمود، الإيضاح يبدو فيها التباسًا في هوامش الصفحة، ويحيط بالتفاسير المذكورة تصحيحات للنصوص، وأشارت إلى نصوص من الكتاب المقدس وملاحظات تخصصية مختلفة.

6- الكتابات المتعلقة بالهلاخا (التشريعات اليهودية)

مجموعة القوانين هذه لا تشكل المشنا ولا التلمود، ونظرًا إلى أن الزعامة الدينية والجمهور العادي معنيون بمثل هذه المجموعة للأغراض الدينية ولإدارة الطوائف المستقلة؛ فقد قامت الزعامة الدينية في فترة ما بعد التلمود بتطوير نوع من "التحكم" سار في مسارين هما: الأسئلة والأجوبة،

وضع مجموعة الفتاوى الرسمية ويستهدف كل من المسارين إدخال تحسينات على التلمود وصياغته في فتاوى واضحة في مجال السلوك الديني والمدني، تكون مصحوبة برسائل ذات صفة روحية وأخلاقية.

7- الأسئلة والأجوبة

الأسئلة والأجوبة هي بالنسبة لليهود "القانون غير المكتوب"، ويعود نشأتها إلى أسئلة وجهها أشخاص عاديون إلى الحاخامين في فترة التلمود مع حلول القرن العاشر الميلادي، ومع نمو الطوائف اليهودية في أماكن متفرقة من العالم ازداد عدد الأسئلة والأجوبة حتى بلغ عشرات الآلاف، وظهرت أول مجموعة مدونة من الأسئلة والأجوبة في النصف الأول من القرن الثامن الميلادي، إلا أن الحاخامين ذوو صلاحية البت لم يصدروا مثل هذه المجموعات في شكل كتاب، كما يفعل الكثيرون الآن، وزيادة على كون الأسئلة والأجوبة توفر شرحًا لتفاسير السلوك الشرعي والطَقَسي فإنها تُلقي ضوءًا كبيرًا على التاريخ اليهودي، وكلما كان قانون من قوانين الهلاخا يحظى بقبول واسع، اتسع المجال وزادت الحاجة إلى المزيد من الأسئلة والأجوبة، وتم إصدار مجموعات من الأسئلة والأجوبة تتلاءم مع ظروف الحياة المتباينة، وحتى لمواجهة الأوضاع في معسكرات الاعتقال النازية (حد قولهم) وحظي بعض هذه المجموعات بدراسة عميقة حتى أصبح المؤلف يعرف باسم الكاتب الذي أصدره.

8- مجموعة القوانين

مهما كانت مجموعات الأسئلة والأجوبة الشاملة فإنها لا تُشكل بديلاً لمجموعة قوانين ثابتة ومرجعية، وكانت الغاية من بلورة مجموعة قوانين تكون جهازًا قانونيًا للاستعمال العادي، له طابع حاسم وتمتد جذوره إلى المصادر الأولية، فكانت أول مجموعة قوانين ملزمة ومرتبة حسب المواضيع المعروفة باسم (هالاخوت بسوكوت- أي فتاوى) قد ظهرت في القرن الثامن الميلادي.

ويعتبر سيفر ههالاخوت (كتاب القوانين) الذي وضعه الحاخام يتسحاق بن يعقوب الفاسي (1013 - 1103) من معالم الطريق في هذا المجال، فقد تم ترتيبه في 24 فصلاً تلموديًا وهو يعالج القوانين التي كانت مستعملة في ذلك العصر فقط - فهو يُخرج عن نطاق البحث مثلاً، الطقوس الخاصة بالقرابين - بعد ذلك بفترة قصيرة صدر المؤلَّف القيم للحاخام موسى بن ميمون (هارامبام) مشني تورا، هذا الاسم بحد ذاته يشير إلى تكرار التوراة الشفهية وجاءت صياغته بالعبرية المميزة للمشنا، وعنصر الإبداع في مشني تورا يكمن في أنه يتطلع لأن يكون قائمًا بحد ذاته، وكان هارمبام يعتقد بأنه بعد أن يصب التلمود كله في فتاوى حاسمة لن يحتاج اليهود إلى أي مؤلف سوى المشني تورا.

تعرض عمل موسى بن ميمون (هارامبام) لنقد شديد من بعض الأوساط بسبب ما اعتبروه تهورًا من جانبه، وخلال القرون التي تلت صدور مؤلفه؛ عكف الكثيرون من المهاجمين والمدافعين والمعلقين الحياديين على فحص ومناقشة المصادر التي استند إليها في بعض فتاواه، ولكنه لم يذكرها. هذه العملية في حد ذاتها فعلت فعلاً معاكسًا لما طمح إليه هارامبام، ذلك أن الطوائف

اليهودية عامة – باستثناء يهود اليمن - لم تتبنَّ مجموعة قوانينه على أنها المصدر الوحيد لفتاوى الهلاخا.

وهنا أرى أن أكتب نبذة موجزة عن حياة موسى بن ميمون باعتباره فيلسوفًا وعالمًا دينيًا يهوديًا قدَّم الكثير وكان من أبرز الفلاسفة في تهذيب العقلية اليهودية..

ولد موسى بن ميمون في مدينة قرطبة في الأندلس في اليوم الثلاثين من مارس/ آذار عام 1135 ميلادية، وكان واحدًا من أكبر المعلقين اليهود وحفيد الرباني "جودا" جامع المشنا، كان والده قد تقدمت به السن عندما تزوج موسى، ويقال إنه دخل في حالة زيجية نظرًا لأنه رأى في منامه عدة مرات متتالية أنه تزوج من ابنه (جزار) في المنطقة التي يعيش فيها وهي السيدة التي تزوجها فعلاً فيما بعد.

كان موسى الابن الوحيد لوالده، توفيت أمه بعد ولادته، وقد حزن والده عليها حزنًا شديدًا، ثم تزوج بعد حوالي سنة من وفاتها من امرأة أخرى وأنجب من الزوجة الجديدة عدة أبناء، موسى لم يكن يحب الدراسة أيام شبابه، الأمر الذي جعل والده يحزن كثيرًا وكل الجهود التي بذلت لإغرائه بأن يكون دارسًا، فشلت وكان أخوه يناديه بابن الجزار كنوع من التوبيخ على بلادته، وأخيرًا طرده والده من البيت بغضب. وسافر موسى بعيدًا عن بيت والده وكان وحيدًا حزينًا بدون صداقة، وأثناء سفره وقع على ربّاني متعلم وأعجب بحكمته ومعرفته، لهذا قرر أن يدرس بحماس ويحقق نجاحًا، بعد سنوات أعلن عن واعظ جديد سيلقي محاضرة في المعبد وكان ذلك موسى بن ميمون وكان صيته وعلمه قد انتشر عبر إشاعات عديدة حول تعليمه الرائع وبلاغته في الخطابة، والجميع كانوا شغوفين لسماعه في أمور: الخلاص والرغبة والتأثير، وقد برز على أولئك الناس الذين سبق وأن استمع لهم، ولاستغراب والده اعترف الرجال كل الذين كانوا تواقين لتكريم قريبهم المنبوذ في أول تعليق له على المشنا وقد أنهى ذلك بالكلمات التالية: "أنا موسى بن ميمون بدأت هذا التعليق حين كنت ابن 23 عامًا، وأنهيته عندما بلغت الثلاثين من عمري في أرض مصر".

الميمونيون كانوا قد فرّوا من أسبانيا إلى القاهرة بسبب التعصب الديني أو الاضطهاد هناك الذي تلا سقوط الأندلس العربية، وفي القاهرة درس اليونانية والكلدانية وأصبح أستاذًا فيهما، وذاع صيته وشهرته في كل البلاد المصرية، وبمكانته العلمية ومعرفته العامة اعترف بهما على مستوى عالمي، ومؤلفاته لم تقدر من إخوانه في الإيمان فحسب ولكن من كل المثقفين والمتنورين في أيامه.

هرب من القاهرة بسبب تآمر أطباء الملك عليه فأوهموا الملك بأن موسى بن ميمون قد دس له السم في جرعة الدواء، ولكي يثبتوا للملك تآمرهم أحضروا كلبًا أمام الملك وأعطوه الجرعة التي حضَّروها هم بأنفسهم فسقط الكلب ميتًا، فانطلت هذه الرواية الكاذبة على الملك الذي أمر بإعدامه، غير أن موسى بن ميمون طلب مهلة ثلاثة أيام علَّه يأتي بجديد، ووافق الملك على المهلة المطلوبة، وأثناء ذلك فرّ موسى من وجه الملك ولجأ إلى كهف بعيد وهناك وضع مؤلفه الشهير (اليد القوية) "היד החזקה" وقسمه إلى أربعين فصلاً.

في هذا المؤلف الديني؛ بسَّط بن ميمون القوانين والتقاليد الدينية اليهودية ووضحها بشكل جعلها سهلة الفهم للجميع، وكان المؤلف المضني إعداده والذي عرف بـ "مشني توراة" أو "القانون الثاني" الذي جرى نسخه ونشره بقوة، كما كتب أيضًا عدة مؤلفات ضد الكفر وأكد فيها أن الله خلق

الكون من العدم، وعندما وصل سن الخمسين أعطى العالم عمله الكبير ممثلاً في مؤلف باسم "نبوخيم" معلم المحتارين أو معلم الحيارى، توفي موسى بن ميمون عن عمر يناهز السبعين عامًا وأحضر جثمانه ودُفن في القاهرة.

ويعتبر الحاخام يوسف كارو (1488 - 1575) أعظم واضعي مجموعات القوانين في الفترة اللاحقة، فقد جمع بين عناصر كتاب هارامبام وكتاب الفاسي إلى جانب مؤلف يضم أربعة أجزاء للحاخام يعقوب بن أشير، فأصدر مجموعة قوانين جديدة عنونها (شلحان عاروخ) بمعنى منضدة مُعدَّة أو مجهزة، والشلحان عاروخ يتميز بأسلوب أكثر اقتضابًا وهو أكثر شمولاً حتى من مشني تورا وهو يستغني عن ذكر المصادر، كما يستغني عن الملاحظات الأخلاقية وتفاسير القوانين، كذلك فإنه يتجاهل العادات والفتاوى الخاصة باليهود الاشكناز، وبغية إصلاح هذا النقص، وضع الحاخام موشيه ايسرلس (عاش في بولندا 1525 – 1572) كتابا سماه "مفرش" لمائدة الحاخام كارو، نتيجة لهذه الخطوة ولتفسيرين صدرا في القرن السابع عشر – ما بين أبراهام وطوري هزهاف – أصبح الشلحان عاروخ الصلاحية الملزمة لجميع اليهود المتدينين تقريبًا.

9- المذهب الباطني أو التصوف – الكبالا

يهتم المذهب الباطني في اليهودية بشؤون تقتصر على فئات صغيرة وتتجاوز الكتابات المعتمدة على العنصر القانوني، وتعتبر الكبالا مجموع الدراسات في اليهودية في هذا المجال خاصة تلك التي ظهرت في القرن الثاني عشر وبعده، (وكلمة كبالا) مصدرها القابل بكسر الباء ومعناها (المعرفة التي تنتقل بطريق التراث)، حين تستخدم بهذا المعنى الأكثر شمولاً تعني كلمة كبالا المذهب الباطني اليهودي في كلتيه.

الكتابات الكبالية أدت إلى بلورة "بيولوجيا باطنية يهودية" لها فروعها الثانوية ومصطلحاتها الخاصة بها، وهي تبحث عن الألوهية في كل الأشياء وتتقصى أسرارها وتبحث في العلاقة بين ماهية الحياة الإلهية والحياة البشرية، ومن مجالات الدراسة الهامة في الكبالا علم الملائكة وعلم الشياطين، وأوصاف الله وأسماؤه الخفية وعلم الآخرة (أي بوم القيامة) أهم المؤلفات في الكبالا هو الـ (زوهار) بمعنى "التألق"، وهو مجموعة من الكتابات التي تشمل بيانات تفسيرية وعظات ومناقشات انتقائية تعتبر مقابلة لأجزاء التوراة، التي تقرأ وتفسر كل أسبوع، وللجزء الأول من نشيد الإنشاد، وفي حين ترى التقاليد الكبالية أن الزوهار يعود إلى الحاخام شمعون بن يوحاي وزملائه من فترة المشنا، فإن الدارسين المحدثين يعتقدون بأنه تم تأليفه في القرن الثالث عشر الميلادي، وهي الفترة التي عرف فيها، وهم يعتقدون بأن مؤلف الزوهار هو موشيه بن يوم طوف دي ليون الذي عاش في غوادلاكارا، إلى الشمال الشرقي من مدينة مدريد الأسبانية، بعد مرور عدة أجيال على ظهور الزوهار أسفر الأمر عن انطلاقة جديدة في تطور الكبالا في أسبانيا بما في ذلك انتشار التفاسير حين طرد يهود أسبانيا عام 1492، تغلغلت في الكبالا تيارات مرتبطة بمجيء المخلص وبيوم القيامة كما امتد تأثيرها إلى إيطاليا وأفريقيا الشمالية وتركيا وفلسطين، ومن هناك انتشرت الكبالا إلى بولندا وليتوانيا حيث كان لها تأثير على حركة الحسيديم أي حركة المتقين التي توصف أحيانًا بأنها الكبالا التطبيقية.

الزعامة الدينية الاشكنازية المعتدلة لا تشجع على دراسة كتابات المذهب الباطني خاصة لدى الشباب، وربما كذلك نتيجة لما ورد في التلمود من تفاسير بشأن القوة والخطر الكامن في التفكير الكبالي، أما اليوم فإن الكبالا هي موضوع للدراسة الأكاديمية الحديثة، ويعود أكبر فضل في ذلك إلى أبحاث البروفسور جرشوم شالوم وهو صاحب شهرة عالمية في الكبالا.

10- استعمال النصوص اليهودية المقدسة

تنقسم التوراة (الأسفار الخمسة) إلى أربعة وخمسين "جزءًا"، تتم تلاوتها في "السيناغوغ" (المعبد اليهودي) كل يوم سبت على مدار السنة، إذ تبدأ هذه التلاوة وتنتهي بعد عيد رأس السنة العبرية بقليل، وتتم تلاوة أجزاء من كتب الأنبياء ونصوص أخرى من الكتاب المقدس في أيام السبت والأعياد، ويستعمل قراء هذه النصوص علامات الإنشاد التي حددت قبل ألف عام في أنماط إنشادية تتباين بين طائفة وأخرى.

وتكون دراسة التلمود واسعة النطاق في المعاهد الدينية (يشيفوت) كما يُدرس التلمود في الكُنُس وفي بيوت الخاصة - حيث تعتبر هذه الدراسة أحيانًا نشاطًا اجتماعيًا - وفي الجامعات. توجد في معظم الجامعات الآن أقسام للتلمود لدراسة المؤلفات الدينية اليهودية وظهرت في القرن العشرين فكرة يقوم بموجبها أناس عاديون بدراسة صفحة من التلمود كل يوم وهكذا يفرغون من دراسته خلال سبع سنوات تقريبًا. وتحتفظ معظم الكُنُس بمكتبات فيها العديد من النصوص المقدسة القديمة، ومجموعات من الكتب الدينية.

11- نصوص مقدسة في البيت اليهودي

توجد في كثير من البيوت اليهودية نصوص وكتب مقدسة على رفوف المكتبة، فكتاب التاناخ (التوراة) ومعه كتاب تفسير قد يكون موجودًا لدى معظم العائلات العلمانية، (كثيرًا ما يُقدم التاناخ كهدية في المناسبات مثل إنهاء الدراسة أو إنهاء فترة التدريب في الجيش) وفي كثير من العائلات المتدينة (أو غير المتدينة أيضًا)؛ كثيرًا ما توجد - إلى جانب الكتب الأساسية - كتب إضافية مثل كتب التاناخ مصحوبة بتفاسير إضافية والمشنا (مصحوبة بتفاسير أساسية) والتلمود، (وكتب تفاسير ضخمة) الشولحان عاروخ وغيرها من مجموعات القوانين والفتاوى والكتب الخاصة بالفرائض الدينية. إلى جانب هذه الكتب توجد في معظم البيوت كتب في مواضيع قريبة من الدراسات الدينية - مثل كتب الفلسفة، الأخلاقيات، والأحداث العادية - وكذلك مؤلفات تتمشى مع الانتماء الخاص للعادة (حاسيدي- اسفرادي- إشكنازي)، ويحتفظ الحاخامون بمجموعات شاملة من التفاسير التلمودية وكتب الأسئلة والأجوبة، ومجموعات القوانين والفتاوى.

أما كتب الصلاة فهي متواجدة في كل بيت يهودي تقريبًا، والسيدور وتجمع على (سيدوريم) هو كتاب الصلاة اليومية وصلاة السبت، يعكس تطورًا يمتد على أكثر من ألف عام، كانت الصلوات قبله تعتبر جزءًا من تراث شفاهيه تتم تلاوتها عن ظهر قلب، ومع أن تحويل الصلوات إلى نصوص مدونة بدأ في نهاية عهد التلمود، فإن أول سيدور حقيقي وهو سيدور الحاخام عمرام غاؤون، الذي تم تأليفه بناء على طلب يهود أسبانيا يعود إلى القرن التاسع. في البداية كان يقتصر

استعماله على يوم الغفران (يوم كيبور) وأعياد أخرى، لكنه اكتسب مع مرور الوقت إقبالاً واسعًا، حتى أن التعليم الديني في أيامنا هذه لم يعد يشجع على تلاوة الصلاة عن ظهر قلب، في بعض السيدوريم توجد نصوص للشعائر الاحتفالية تتعلق بالطقوس الدينية وكذلك تفاسير بشأن نصوص الصلوات، وهناك صيغ مختلفة للطقوس الدينية وفقًا للطوائف المتباينة (اليهود الاشكناز والحساديم والسفاراديم واليمنيين) وفي بعض كتب الصلاة أضيفت صلاة خاصة ليوم استقلال إسرائيل أدخلتها إدارة الحاخامية الكبرى لإسرائيل.

ومن النصوص الدينية المقدسة التي لا يكاد يخلو منها بيت يهودي؛ الهاجدا (قصة عيد الفصح) ونشيد ليوم السبت، (تصحبه عادة صلاة الشكر بعد وجبات الطعام)، ونظرًا إلى أن مضمون هذه الكتابات يجعلها مقدسة، فإنها حيث تصبح بالية توضع في جنيزا (مخزن أو أرشيف) وبعد يتم دفنها في طقوس خاصة.

12- العصر الحديث والنصوص القديمة

في أعقاب تبلور مجتمع يتكلم العبرية في إسرائيل - هذا مشكوك في صحته على أي حال - تشمل الملايين من الناس؛ أصبحت النصوص اليهودية المقدسة في متناول اليد وظهرت كمية كبيرة من المؤلفات الجديدة باللغة المتداولة الحديثة، ومن أهم هذه المؤلفات تفسير الحاخام (عداين شتانزالس) للتلمود البابلي والمقدسي وتفسير الحاخام بنحاس كيهاتي للمشنا، ومن بين المواضيع التي تتناولها الكتب والتحاليل والمجلات والنشرات المتخصصة في الشؤون الدينية في العصر الحديث، الحياة في دولة يهودية ووجود جيش لهذه الدولة والعلاقات مع أبناء الديانات الأخرى، والتجارة الدولية والزراعة الحديثة ومعالجة موضوع الأغذية وغير ذلك.

ولعبت النصوص اليهودية دورًا هامًا في إحياء الثقافة العبرية في إسرائيل، فدراسة الكتاب المقدس هي الآن جزء من برنامج الدراسة لجميع تلامذة المدارس والعلمانيين والمتدينين على حد سواء (وإن كانت هذه البرامج تُعَدّ بحيث تتلائم مع النهج التربوي ومجالات الاهتمام الخاصة) وتعرض الجامعات إمكانيات متنوعة لدراسة هذه النصوص في إطار مناهج متشابكة، ويتجلى تأثير النصوص اليهودية المقدسة في الأدب والفن الإسرائيلي الحديثين، إذ يتم صبّ القصص والمفاهيم والصور القديمة في صيغ أدبية وفنية جديدة، ومن أبرز المبدعين في الأدب العبري الحديث الشاعر القومي (حاييم نحمان بياليك) والأديب الحائز على جائزة نوبل للآداب (ش. ي. عجنون) وقد استقى كل منهما من المصادر التوراتية في إبداعه الذي حظي بإعجاب عالمي.

ولم تبقَ النصوص اليهودية المقدسة في منأى عن تأثير ثورة الحاسوب، وفي جامعة بار ايلان الدينية في رامات جان، إحدي ضواحي تل أبيب قبل حوالي أربعين عامًا جمع معطيات أساسية بشأن مجموعات الأسئلة والأجوبة، وفي الآونة الأخيرة، قامت جهات خاصة بالمبادرة إلى إنشاء (برامج حاسوب في التوراة) إلى جانب منتجات مثل التلمود على (سي دي روم) وأصبح الكثير من الإرشادات والنصوص الدينية مثل الجزء في التوراة الذي يُدرس كل أسبوع بالتناوب، والنصائح بشأن الالتزام بالفرائض الخاصة بالطعام، من الأمور التي يمكن العثور عليها في شبكة الانترنت، وتتواصل الجهود في إسرائيل الآن لدراسة النصوص اليهودية المقدسة وملائمتها لظروف الحياة الحديثة.

13- الأدوات والطقوس اليهودية

يشتمل المجتمع اليهودي في إسرائيل على مجموعات تتباين من حيث أسلوب الحياة والتمسك بالتراث الديني وممارسة الفرائض الدينية، إذ تتراوح هذه المجموعات بين المغالاة في التدين وحتى العلمانية، في حين تقتصر نسبة الملتزمين بكافة الفرائض الدينية على 20%، فإن غالبية اليهود الإسرائيليين يتبعون قسمًا من الفرائض والتقاليد اليهودية وفقًا لخلفياتهم العرقية والعائلية ولميولهم الشخصية.

وتكاد أدوات الطقوس اليهودية تتواجد في كل بيت، وإن كان بعضها يوجد في بيوت المغالين في التدين فقط، وهي تُعبِّر عادة عن جوانب مختلفة من العادات والمعتقدات والتقاليد اليهودية بالنسبة للمتدينين، وتعتبر أدوات الطقوس اليهودية جزءًا لا يتجزأ من تطبيق الفرائض الدينية اليومية، في حين يعتبرها غير المتدينين تحفًا فنية تحظى بالإعجاب بسبب جمالها أو براعة صناعتها أو مغزاها التاريخي.

كما هو معروف تحظر الديانة اليهودية استخدام الصورة أو التمثال، رغم ذلك – ربما لهذا السبب بالذات – تطورت على مرّ الزمن مجموعة كبيرة من أدوات الطقوس والأدوات الطقسية في أوائل العصر الميلادي، وقد مجدوا الجمال وفي إحدى المناسبات الدينية (عيد العُرش – سوخوت) اعتبر السعي وراء الجمال وصية من الكتاب المقدس، قد تكون أدوات الطقوس مصنوعة من الخزف أو الحجر أو النحاس الأصفر والنحاس والفضة والذهب، كما أنها قد تكون مصنوعة من الخشب، النسيج، الرق أو غيرها من المواد. وتتجنب هذه الأدوات أي شكل شبيه بصورة الإنسان، تمشيًا مع الحظر الديني على استخدام الصورة والتمثال.

ومن الأدوات التي تستخدم كثيرًا في الحياة اليومية وإن كانت تعتبر من الميراث العادي؛ هي ما يعرف بالمزوزا وهي رق مستطيل الشكل تكتب عليه الجمل الملائمة من الكتاب المقدس وعلى الجانب الآخر من الرق تظهر كلمة (شدي) وتلفظ "شداي" وهي أحد أسماء الرب، وتتكون من الحروف الأولى لكلمات ثلاث هي (شومر دلتوت يسرائيل)، أي حامي بوابات إسرائيل، ويتم لف الرق لفًّا شديدًا ثم يعلق على الجانب الأيمن من عضادة الباب في كافة الغرف، فيما عدا غرفة الحمام.

يأمر الكتاب المقدس اليهود مرتين بأن يكتبوا كلمات الرب على أبواب بيوتهم، واكتبها على قوائم أبواب بيتك وعلى أبوابك (تثنية 6:9 و11:2)، وأصبحت كلمة مزوزا العبرية ومعناها (عضادة) تعني أيضًا الغرض نفسه، أي المزوزا (تجمع على مزوزوت) بالعبرية ويتم وضع الرق في شق صغير ضيق يُنحت في عضادة الباب ويغطى بالزجاج أو أي غمد، قد يصنع من البلاستيك أو من مواد أخرى وقد يتخذ الغمد أشكالاً مختلفة فنية وبالإمكان مشاهدة نماذج لشقوق في عضادة الأبواب في أحياء يهودية قديمة في إسرائيل، مثل البلدة القديمة في القدس وفي الخليل، وفي بعض الأحيان كان اليهود يستخدمون المزوزا كقلادة حول العنق.

ونشأت في المجتمع اليهودي المتدين معتقدات متباينة بشأن الصفات الخاصة للمزوزا باعتبارها أداة مقدسة تحمي المكان وأصحابه، وهناك من يلمس المزوزا ثم يقبل أصابعه، ويتم فحص

المزوزا مرة كل سبع سنوات للتحقق من كونها سليمة، كما يفحصها الكثيرون أو يغيرونها في حالة إصابتهم بمحنة شخصية أو جماعية.

14 – العائلة اليهودية في التلمود

التلمود يعتبر العائلة اليهودية هي أساس الحياة الاجتماعية، وأنه الضابط الذي يحافظ على استقرارها ونقائها وطهارتها، معترفًا بمكانة المرأة الهامة في حياة العائلة، وتوافقها مع وضع كل أفرادها، خصوصًا عندما تكوَّنت العلاقة مع الناس الآخرين في المجتمع اليهودي وغير اليهودي أيضًا. لهذا يعطي التلمود تباينًا كبيرًا للمرأة بشكل خاص، ولا يعني هذا أنه لا يهتم بحياة الرجل، بل لأن مجال أنشطة المرأة في مجتمعها يختلف عن مجال أنشطة الرجل، غير أن ذلك التباين لا يقلل من فائدة المصلحة العامة.

الرجل حسب التعاليم التلمودية له سيادة أكبر من سيادة المرأة فيما يتعلق بالنقد العادي، فالرجل ملزم بتقديم ثلاثة أدعية يوميًا وهي: إن الله جعلني إسرائيليًا وأنه لم يجعلني امرأة ولم يجعلني غليظ القلب، من هذا يتضح تمامًا أن الدافع المقوض ليس أكثر من الامتنان لميزة الواجب في حمل تعاليم التوراة والتلمود، وعليه تكون مسؤولية الرجل أكبر من مسؤولية المرأة حسب التلمود، حيث أن المرأة أيضًا معفاة من بعض الواجبات الدينية، مثل عدم السماح لها دخول المعبد بعد الولادة لمدة ستين يومًا أو أنها تدخل إلى مقصورة خاصة خلال أيام أعياد "العُرُش"، وبعيدًا عن بعض الاستثناءات للمرأة فإن التلمود يعترف بعدم وجود تفرقة بين الأجناس ذكرًا وأنثى فيما يتعلق بالمسؤوليات الدينية، فالرجال والنساء متساوون أمام كل قوانين التوراة بأي حال، فإذا استعملت المرأة نفوذها بحيث يضع الزوج والأبناء أنفسهم لاكتساب معرفة متقدمة في التوراة التي عادة يمنعها انشغالها من ذلك نظرًا لواجباتها العائلية، إلا أن المرأة يحسب لها التقدير على تمكين أبنائها من دراسة التوراة في المعابد اليهودية وأن تتيح لزوجها فرصة للدراسة في مدارس الربانيين.

تأثير المرأة في حياة زوجها ومجتمعها جاء التأكيد عليه في الرواية التلمودية التالية، والتي تعود إلى رجل تقي تزوج من امرأة تقية مثله غير أن المرأة التقية تلك كانت عاقرًا ولا تنجب، فحصل بينهما الطلاق وذهب الرجل التقي الصالح وتزوج من امرأة شريرة، وتمكنت تلك الشريرة من أن توجهه نحو الشر بدلاً من التقى والخير، كما أن طليقته التقية تزوجت من رجل شرير ولكنها تمكنت من تهذيبه وقادته إلى العدل والخير حتى أصبح تقيًا صالحًا، وهذا يعني من وجهة نظر التلموديين أن كل شيء يتوقف على دور المرأة وصلاحها أو فسادها، وهذا يقابله في الأدبيات العربية قول الشاعر:

الأم مدرسة إن أعددتها أعددت شعبًا طيب الأعراق

ونحن كأمة مسلمة، تؤمن بأهمية دور المرأة في المجتمع فإننا نؤيد رأي التلموديين بالأم والمرأة، وبدورها الأساسي والهام في مجتمعها، وتأثيرها إن كانت إيجابية بالنسبة للأجيال الجديدة في المجتمعات، إذ لا بأس أن نأخذ من الأمم الأخرى وأعني أهل العقائد الأخرى ما هو صالح وجيد وفيه دعوة إلى الخير والصلاح.

15- الزواج والطلاق في التوراة والتلمود

الزواج وتكوين الأسرة كان أول التعاليم الدينية بل كان الأول الذي فرضه "يهوه" على الرجال، والتلمود جاء يؤكد هذه الفريضة، فالرجل الأعزب يعيش حياته دون فرح وبدون بركة والإنسان غير المتزوج كما يقول التلموديون إنه ليس رجلاً بالمعنى الصحيح، فالله خلق المرأة والرجل وباركهما، والزوجة في نظر التلمود تعني "البيت"، ومن هنا جاء القول بإن بيت الرجل هو زوجته، والتلمود يشجع على الزواج المبكر، ويوصي بسن الثانية عشرة لزواج الرجال، وهناك رأي يقول بإن أنسب سن للزواج هو من 16 – 20 سنة، وفي قول آخر من 16 – 24 سنة، ويضيف التلمود إلى أن الرجل إن لم يتزوج في سن العشرين فإن الرب يباركه، وإذا فشل في تحقيق ذلك فإن الله يلعنه.

أما فيما يتعلق بالفتاة فقد حث التلمود على واجب الأب في إيجاد زوج لابنته وتزويجها مبكرًا، كما جاء هذا أيضًا في التوراة في سفر اللاويين "لا تنجس ابنتك وتدفعها للزنا"، وجاء هذا موجهًا إلى الآباء الذين يؤخرون زواج بناتهم ولا يزوجوهن في الوقت المناسب، فالفتاة لا تعد قاصرًا بعد إتمام سن 12 عامًا من عمرها وذك حسب قوانين التلمود، ولا يجوز للأب أن يزوج ابنته طالما هي قاصر، إلا بعد بلوغ سن الثانية عشرة، وتقول بإنها ترغب بالزواج وتوافق عليه، أما إذا فرض على الفتاة الزواج قبل بلوغ سن 12 عامًا فإنها في هذه الحالة يحق لها بعد بلوغها السن أن ترفض ذلك الزوج، وبحكم القانون يحق لها إلغاء الزواج جملة وتفصيلاً دون الحاجة لإجراءات الطلاق الرسمية.

الزواج عمومًا ليس ترتيب من السماء فقط، بل إنه مرسوم ومقدر للإنسان قبل ولادته، لهذا فإن التلمود يوصي بأن تكون هناك استشارة حكيمة في اختيار الزوجة وعدم التوافق سنًا بين الزوجة والزوج أمر غير محبب وقد نص على ذلك التلمود، فالذي يزوج ابنته لرجل عجوز والذي يتزوج من فتاة صغيرة أو يزوج ابنه بامرأة أكبر منه سنًا لن يعفيه الرب من العقاب، كذلك تشترط قوانين التلمود المشاهدة في حالة الزواج والقبول من الطرفين أي أن تشاهد الفتاة الفتى وهو يشاهدها قبل الزواج أو حتى قبل الحديث في الزواج، وينبغي في حالة القبول من الطرفين إتمام الزواج بطقوسه المعروفة بهدف إشهاره للعلن.

والتلمود حاله حال التوراة يبيح تعدد الزوجات ولكنه يعارضها، فهناك آراء مختلفة حول هذه المسألة ربما تكون قد أزيلت من صفحات الكتابين، تقول بإنه يمكن للرجل أن يتزوج من النساء ما يشاء، شريطة ألا يزيد عدد زوجاته عن أربع زوجات وهناك رأي آخر يقول إن على الرجل إذا تزوج بأخرى غير زوجته، فإنه يحق لزوجته الأولى أن تطلب الطلاق وعليه أن لا يرفض طلبها، إلا أن هناك إجماعًا عامًا على أن الرجل يحق له أن يتزوج من امرأة واحدة فقط، وبرغم أن تعدد الزوجات كان قائما في المجتمع اليهودي قديمًا إلا أنه لا يوجد هناك مؤشر واحد إلى أن ربَّانيًا واحدًا قد جنح إلى تعدد الزوجات.

بموجب القوانين التلمودية وتفسيراتها فإن الزوج والزوجة إذا رغبا بالانفصال عن بعضهما لن تكون هناك صعوبة في حلّ الزواج بالطلاق، فالزوجة غير الصالحة شبهها التلمود بداء "البرص" الذي يصيب الزوج.. فما هو العلاج؟ العلاج هو الطلاق لكي يشفى الزوج من برصه، ويؤكد التلمود على أنه إذا كان للإنسان زوجة سيئة، فإن الواجب الديني يفرض طلاقها من زوجها، كما

يحق للرجل أن يطلق الزوجة لأي عيب يراه فيها أو حتى إن رأى امرأة أعجبه جمالها أكثر من زوجته، فقد أعطت القوانين التوراتية والتلمودية السلطة للرجل وأعطته الحق في طلاق زوجته لأي أمر يراه وبدون موافقتها، كما يأمر التلمود بأن المرأة التي تقترف الزنا يجب أن تطلق وفيما عدا ذلك يكون مبغوضًا ولو أنه مباح.

وحيث أن الهدف من الزواج أساسًا هو تكوين الأسرة وتربية الأطفال فإذا مرت عشر سنوات على زواج المرأة ولم تنجب فإنه يحق للزوج أن يطلقها في هذه الحالة، وإن تزوجت من غيره وانقضت مدة عشر سنوات أخرى دون أن تحمل وتنجب يصبح من حق الزوج الآخر أن يطلقها أيضًا، أما إذا أصيبت الزوجة بمرض الجنون فإن الزوج في هذه الحالة لا يحق له طلاقها، وإذا أصيب الزوج بمرض الجنون أيضًا فإنه لا يستطيع أن يطلقها، والسبب في تشريع هذا القانون أن الزوجة في حالة مرضها فإنها لو طلقت تكون قد حرمت من الرعاية وتصبح فريسة للأشخاص ذوي العقول الشريرة، فالزوج لا يستطيع أن يطلق لأن القوانين اشترطت أن يكون حكم الضمير هو العامل الذي ينبغي أن يتوفر للرجل.

هذا ويحق للزوجة طلب الطلاق في حالات مختلفة أهمها ممارسة الإجبار على أعمال غير لائقة بالزوجة والعقم، وعدم رغبة الزوج أو قدرته على إعالة الزوجة والأولاد إعالة صحيحة، كذلك يمكنها طلب الطلاق إذا كان زوجها قد أصيب بمرض معدي أو مقرف، أو إذا مارس عملاً يجعلها تشمئز منه أو ظهرت عليه عيوب، فالمحكمة في هذه الحالات لا تجبره على طلاق زوجته ولكن في حالة أن تكون العيوب التي ظهرت في جسمه خطيرة فإنه يجبر على الطلاق، وفيما يلي الحالات التي يجبر فيها الزوج على الطلاق:

1- إذا أصيب بمرض البرص.

2- إذا كان يعمل في جمع روث الكلاب (كان روث الكلاب يجمع لاستعماله في صناعة الجلود).

3- إذا كان يصهر النحاس.

4- دباغ الجلود.

ولا يجبر على الطلاق إن وافقت الزوجة على تحمل هذه الحالات أو العيب باستثناء البرص، حيث أن استمرار الزواج يضر المريض، فيجبر على الطلاق، وبامكان الزوجة أن ترفض السفر معه إلى خارج بلدها، أما إذا رفضت السفر معه إلى (فلسطين) فإن القانون يطلقها ويعفي الزوج في هذه الحالة من دفع المهر المؤجل لها، علمًا بأن المرأة اليهودية هي التي تدفع المهر للرجل وتسمى (الندونيا). وفي حالة رغبة الزوج ترك فلسطين ولا ترغب الزوجة بالهجرة معه، فإن المحكمة تجبره على عدم الهجرة، وإذا رفض قرار المحكمة فإنه يجب أن يطلق الزوجة مع دفع مؤخر صداقها (الكوتشبا)، الهجر لا يؤسس أرضية للطلاق بغض النظر عن مدة الهجر الذي ينقطع الزوج فيها عن الاتصال، غير أن الزوجة إن جاءت بشهود شرعيين فإنها تطلق ويسمح لها بالزواج مرة أخرى، وقد اشترط القانون التوراتي والتلمود على شاهدين عدليين لتأكيد حقيقة عدم معرفة مكان الزوج، وقد خُفف هذا مؤخرًا ليصبح شاهدًا واحدًا موثوقًا يشهد بوفاة الزوج تكتفي به المحكمة للأمر بحلّ الزواج.

16- الأطفال

الرغبة في إنجاب الأطفال والأولاد بصفة خاصة هي من طبيعة الإنسان الشرقي ويصورها التلمود بأن الأبناء (بنيم) بالعبرية، هم بناء المجتمع، والرجل الذي ليس له أولاد يعّد رجلاً ميتًا كما جاء في سفر التكوين، حيث أنه فشل في حمل الواجب الرئيسي الذي جاء هو نتيجة له، وإن اسمه سوف يهلك معه دون أن يترك له أثرًا. في حالة الحمل الصعب للمرأة والذي قد يشكل خطرًا على حياة الأم فقد أجاز القانون التلمودي للأم استعمال عقاقير منع الحمل، والقانون الخاص بهذه الحالات يقول: هناك ثلاث فئات من النساء: القاصر – الحامل – الأم المرضعة، القاصر لئلا يسبب الحمل لها الوفاة أو يكون مميتًا، والمرأة الحامل لئلا يؤدي الإجهاض إلى وفاتها والأم المرضع إذا حملت فإنها تضعف الطفل وربما يموت.

17- التعليم

المسؤولية الكبرى تقع على كاهل الآباء في تدريب أولادهم وتعليمهم من أجل حياة أفضل لبناء المجتمع اليهودي، والهدف الامثل هو انخراطهم في تشكيلهم داخل روابط في سلسلة الاستمرارية من أجل التراث الديني الذي ورثوه عن الأجيال السابقة، بحيث ينتقل ذلك التراث غير الفاسد إلى الأجيال اللاحقة، المتطلبات لمثل هذا الإكمال هو غرس معرفة التوراة في الأطفال وبشكل جاد، إذ جاء في سفر التكوين "علِّم أبناءك بجد"، فأخذ هذا بشكل جاد وهام وقد ضمنه الحاخامون اليهود للصلوات التي تؤدى كل صباح وكل مساء، كما جاء في التلمود الكثير من الحث على تعليم التوراة فيقول: "الذي يربي أبناءه على التوراة هو من الذين يتمتعون بالفاكهة في هذا العالم بينما يبقى رأس المال له في العالم الآخر"، كما جاء في سفر التكوين في التوراة اليهودية حول مسألة التعليم: "من له ولد ينشط في تعلم التوراة فكأنه لا يموت أبدًا"، فالذي يعلم ابنه التوراة والنصوص ينسب إليه، كما أنه قد تسلمها على جبل حوريب، "وعليك أن تجعلها معروفة لأبنائك وأحفادك وكأنك تقف أمام ربك في جبل حوريب"، أي كأنه أخذها من الله مباشرة على ذلك الجبل كما فعل موسى اللاوي.

السبب الذي يعطي قيمة للتعليم هو محبة التعليم من أجل ذاته، ويقول المثل اليهودي: "إذا حصلت على معرفة فماذا ينقصك إذن؟ وإذا كان ينقصك المعرفة فماذا تكون اكتسبت؟ فالمعرفة العميقة هي الضمير الذي يعيشه المجتمع، ويتوقف ذلك على انتشار المعرفة بين الناس، واللغة مهما بلغت في دقتها وبلاغتها من النادر أن تنقل مصطلحات أهمية التعليم أكثر من تلك الأقوال المأثورة والأمثلة"، لا تلمس الممسوحين الخاصين بي، ولا تسبب الأذى لأنبيائي، فالممسوحون الخاصون بي هم أبناء المدارس، فنحن لا نستطيع وقف تدريس الأبناء حتى لو كان ذلك من أجل إعادة بناء الهيكل، "المدينة التي لا يوجد فيها أبناء مدارس سوف يغشاها الدمار، اجتمع الكفار بالفيلسوف اليهودي بانيوفاوس وقالوا له خبرنا كيف يمكننا أن نحاول النجاح ضد شعب إسرائيل؟ أجابهم: اذهبوا إلى معابدهم ومدارسهم واستمعوا إلى سحر الأبناء في مراجعة دروسهم فإنكم لا ولن تتفوقوا عليهم حيث أن جدهم إسحق أكد لهم قائلاً: الصوت هو صوت يعقوب والأيادي هي أيادي عيساو"، ويعنى أنه عندما سمع صوت يعقوب في بيت الاجتماع فقد أصبحت أيادي عيساو

ضعيفة، (وهذا يرجع إلى رواية الغش الذي استعملته رفقه أم يعقوب ضد أخيه عيساو، لاقتناص البركة من أبيه إسحق له بالتزوير، كما خططت رفقه حسب رواية التوراة وطبيعي أن تكون هذه الرواية ملفقة من أساسها، وهنا نشير إلى أننا هنا نذكر ما جاء في كتب اليهود الدينية وعلى رأسها التوراة والتلمود مع التشديد على أننا كمسلمين قد جاءنا من العلم الإلهي ما لم يجيء لأمة أخرى ولنا وجهات نظر مغايرة لآرائهم حول الأنبياء والرسل الذين نبرأهم من البدع والافتراءات، التي دونوها في غياب الأنبياء والرسل المكرمين.

الحاخامون يقولون أيضًا إن من يتعلم التوراة في صباه يبدو وكأنه حبر مكتوب على ورق نشاف، ومن يتعلم التوراة أيام شبابه فإن كلماتها يمتصها دمه وتخرج واضحة من فمه، أما إذا تعلم التوراة في كبره فإن كلمات التوراة لا يمتصها دمه ولا تخرج واضحة من فمه. لهذا فإن الحاخامين يبجلون كثيرًا المعلمين ويضعونهم في مكانة الأنبياء، حيث أنهم يقومون بصناعة أجيال تعرف ما في التوراة من تعاليم للمجتمع اليهودي، فلهم التكريم والاحترام على كافة المستويات الاجتماعية في البيئة اليهودية باعتبار أن عملهم هو امتداد لتعاليم الإله العلي، واجب تكريم الآباء هو التزام ديني يحتل مكانة رفيعة في التلمود، فهو أحد الوصايا حول القول بإن الرجل يتمتع بالفاكهة في هذا العالم ويتمتع برأس المال في الحياة الآخرة، فنصوص التوراة تفرد مساحات لتكريم الآباء من قبل الأنبياء على أسس المساواة مع تكريم الله القدير كما جاء في سفر الخروج: "أكرم أباك وأمك وأكرم الرب بجوهرك"، فهذا الاحترام للأبوين يضع المساواة في مستوى مخافة الله، فالمطلوب منك أن تخاف من كل رجل، أمه وأبيه وأيضًا تخاف الرب الإله، وهذا دليل على أن احترام الوالدين هو أشد منه للإله.

وعلى هذا الأساس فإن تكريم الأبوين يأتي بالدرجة الأولى من واجبات الأبناء تجاه الآباء والأمهات وطبيعي أن هذا أيضًا لا يلغى تكريم الرب بأي حال من الأحوال، حيث أن الرب يأمر إسرائيل بأن يقدم تكريم الأبوين على تكريمه، لأنهما يأتيان في المقدمة، فيما يتعلق بتعليم الأبناء ورعايتهم والسهر عليهم أيام طفولتهم، فإعطاء الولد تربية دينية صالحة ينبغي أن يكرم الرجل عليها حيث يساهم في بناء مجتمع جيد ومتكامل.

الأب والأم متساويان في تقوى الأبناء، وحسب القانون التلمودي إذا كان هناك خلط في فهم واجبات الابن تجاه كل منهما، على الابن في هذه الحالة أن يعطي الأفضلية في التكريم لوالده حيث قضى الربانيون أن الابن والأم عليهما إكرام الأب، وفيما إذا كان هناك خلاف فيما أعطاه الله لهما فإن الرجل الذي يكرم أمه وأبيه يقول الرب أسجلها كأني أقيم معهم، وأنهم أكرموني، ولكن عندما يحزن الرجل أبويه يقول الله "حسنًا فعلت أني لم التصق بهم ولو أقمت معهم لكنت قد حزنت". حتى لو جاء استفزاز من الأبوين للابن، فإن على الابن أن يتحلى بالصبر وألا يكون قليل الاحترام والإكرام لوالديه.. التوراة والتلمود يشددان جدًّا على احترام الوالدين بالتركيز على احترام الأم بصفة خاصة، ويحكى أن أمًا ذهبت تتمشى في الحقل وتبعها ابنها وبينما هي كذلك انخلع نعلي حذائها وكانت أرض الحقل وعرة وفيها أشواك، فما كان من ولدها إلا أن وضع راحتي يديه تحت أقدام أمه وجعلها تمشي عليهما إلى أن وصلت بيتها، ونقل خبرها إلى أحد الربّايين العارفين بوصايا التوراة فقال: مبارك هذا الابن إلا أنه بفعلته هذه لم يقدم سوى ربع أوامر الرب في احترام الأم.

18- الحياة الاجتماعية – الفرد والمجتمع

لم يخلق الفرد ليبقى وحيدًا بل ليكون عضوًا فاعلاً في مجتمعه فإنه وحدة قائمة في الإنسانية كما يقول التلمود، وإن هذا الوضع يجعل واجبات كثيرة تترتب على الإنسان وطبيعية، فحياته ليست ملكه الخاص ليفعل ما يحلو له بها، فسلوكه يؤثر في جيرانه ومن هم حوله كما أن سلوكهم يؤثر فيه كما جاء في سفر العدد من التوراة.

الوضع الذي يترتب على الفرد اتباعه نحو مجتمعه لخصه الرباني "هلليل" بقوله: "إذا لم أكن أنا لغير نفسي فمن يكون لي وأكون لنفسي كما أنا"، قبل كل شيء ينبغي أن يكون الإنسان معتمدًا على تجنب الاتكال على الآخرين، فبينما يكون إعطاء الصدقات للمحتاجين غير أن يكون المرء طالبًا الصدقة من الآخرين، ففكرة اعتماد غير المحتاج على صدقة فإن ذلك يعتبر أشد أنواع الاشمئزاز. كما أن هلليل حث بني إسرائيل على العمل بقوله المأثور "اسلخ جلد جيفة في الشارع واكسب قوتك ولا تقل إنك رجل عظيم الشأن وأن العمل لا يليق بكرامتك وكبريائك"، وفي أقوال أخرى من التقاليد الدينية اليهودية التي وضعها الرّباني "هلليل" والتي تعكس ذات الفكرة التي تحث على العمل منها: "العالم يكون مظلمًا لذلك الذي يعتمد في معيشته على طاولة الآخرين فإن حياته لا يمكن أن تكون حقيقية".

من الواجبات الأساسية المترتبة على اليهودي كما يقول الربانيون اليهود، ليس فقط أن يعمل الإنسان من أجل الكسب وتلبية احتياجاته واحتياجات عائلته فقط بل من أجل أن يشارك ويكون له دور فاعل في مجتمعه، بمعنى أن على الإنسان اليهودي أن يهتم إلى جانب عمله وكسبه بدراسة التوراة، ويقول الربّانيون اليهود إن العالم لا يمكن أن يعيش إلا إذا كرس الرجال جميعًا جهودهم في دراسة التوراة وقالوا في ذلك: "الشيء الممتاز للإنسان هو دراسة التوراة مصحوبًا بالعمل"، وجميع الدراسات للتوراة تؤكد أنه بدون العمل لا تكون النهاية مثمرة بل تصبح سببًا في ارتكاب الخطيئة، فإن كان الرجل يتعلم فقرتين من فقرات القانون (التوراة) في الصباح ومثلهما في المساء، ويكون منكبًا على عمله طوال اليوم فإنه يكون موفيًا بحق التوراة عليه فكم هو كبير وعظيم الذي يستمتع بثمار عمله أكثر من الذي يخاف من السماء.

ويواصل التلمود في كل أجزائه في الطرق على مسألة العمل والعمالة باعتباره الجزء الأهم في مشروع عبادة الإنسان لخالقه، ويقول إن الذي لا يعمل والكسول يأتيه الموت سريعًا.

19- الصدقات

من بين الأمور التي تميز الحياة المعنوية والخلقية هي الرغبة في المساعدة بقدر الإمكان للإخوة من المخلوقات الذين يحتاجون المساعدة والعون من إخوانهم، والصدقة كما يصورها التلمود بما يلي: العطاء حسب تعليمات التلمود والذي حدده ودعاه "الصدقة"، هذا يشير إلى الصدقات المالية لمساعدة الفقراء التي يحث عليها الربانيون اليهود ويقول الربانيون إن المعنى الحقيقي للصدقات هو "التقى" وتقول التوراة في ذلك في سفر دانيال "حطم خطيئتك وظلمك بالصدقة والرحمة على الفقراء"، ويضيف الربانيون بأن إعطاء الصدقات إلى الفقراء هو فضيلة يكتسبها المتصدقون، فكل ما يملكه الإنسان ما هو إلا قرض من خالق الكون الذي يملك الأرض جميعها، وبالصدقة يضمن

الإنسان توزيع هبة الله للبشرية (وهنا أود أن اذكر بأن الصدقات عند اليهود لا تجوز إلا على اليهودي دون غيره من البشر).

20- الشرف

الشرف فضيلة تميز الحياة المعنوية بنزاهة الأعمال التجارية، وقد علَّق التلمود على الشرف في التعامل أهمية كبيرة، وهناك قول بإن الإنسان الذي يحضر إلى المحاكمة بعد موته أول سؤال يوجه إليه: "هل كنت شريفًا في معاملاتك التجارية؟"، وفيما يتعلق بتعلم اليهودي أن يكون شريفًا وأمينًا في معاملاته التجارية فمن يكون شريفًا يكون محبوبًا من قِبل إخوانه من بني البشر ويكون قد أوفى بتعاليم التوراة، وقد كانت النتائج المدمرة في حياة المجتمع اليهودي كما في القول المأثور "إن القدس دمرت بسبب انتهاء وجود الرجال الشرفاء فيها"، وقد وضع التلمود القوانين لعالم التجارة ومنها: على صاحب الدكان أو البقالة أن يمسح معايير الموازين مرتين على الأقل في الأسبوع وأن ينظف ميزانه بعد كل وزنة، أما في وسائل قياس الأرض فلا يجوز أن يجري القياس في الصيف على غرار القياس في الشتاء، أما بالنسبة لقياسات الثقل على الإنسان أن لا يضع سوائل تنتج الرغوة فإن هذا لا يعطي وزنًا جيدًا للأشياء الموزونة.

21- العفو والتسامح

الانسجام الذي ينبغي أن يحكم في المجتمع يكون على مراحل حول الخلافات التي قد تنشأ بين الأفراد في المجتمع، وينبغي بالتالي بأن تكون رغبة المواطنين الصالحين حل المشاحنات والخلافات وإنهائها بسرعة باستعادة العلاقات السلمية فيما بينهم، أولاً: على الطرف المخطئ أن يعترف بخطئه ويطلب العفو والسماح من الشخص الذي أساء إليه واخطأ بحقه، أما إذا توفي الشخص الذي تعرض للإساءة فإن على المسيء أن يذهب إلى قبره وقت الدفن ويقول أمام الناس "أنا تصرفت خطأ نحوك وإني اطلب عفوك وغفرانك لي"، غير أن طلب الغفران والعفو لا يجوز أن يكون لأكثر من ثلاث مرات.

22- المحاكم – القانون الجنائي والإجراءات المدنية

حسب التلمود كان هناك نظام شامل للمحاكم القضائية في وقت دمار الهيكل في ما يسمى "أرض إسرائيل"، بشأن الأسئلة المتعلقة بالممارسات الدينية ومحاكمة المسيئين للقوانين والأنظمة المعمول بها آنذاك، وكذلك من أجل تسوية الخلافات التي تنشأ بين أفراد وجماعات المجتمع اليهودي، وكان هذا النظام له وجود متصل منذ بداية الحياة الوطنية، فنجد في التوراة أنه كان هناك تعاقب للمحاكم من أيام النبي موسى عليه السلام، وكانت هذه المحاكم تدار من قبل شخصيات مرموقة ذكرت أسماؤهم في الكتاب المقدس وكانوا من مشاهير بني إسرائيل في ذلك الوقت على اعتبار أنهم محكمون عدليون بموجب القوانين التوراتية في القضايا القائمة بين الناس في مجتمعهم.

23- السنهدرين الأعلى

كان "السنهدرين الأعلى" اليهودي في مملكة يهودا "أي مجلس الكهان الأعلى"، وهو مجلس الحكم الذاتي اليهودي ليهود فلسطين الذي منحه الرومان لهم، بأن يديروا شؤون المجتمع اليهودي بأنفسهم بسلطة تعتبر نوعًا من الحكم الذاتي مستقلاً عن الحكم الروماني، وكان السنهدرين الأعلى يتكون من 23 حاخامًا من الربانيين اليهود يمثل المحكمة العليا لليهود في مملكة يهودا ومقره مدينة القدس، وكان له فرع آخر يتكون من 71 عضوًا آخر خارج مدينة القدس، فأوكلت للمجلس الأعلى، أو مجلس الحكم الذاتي الأعلى مهمة تسوية نقاط الخلافات التي قد تنشأ بين الأفراد والجماعات وينظم علاقة اليهود مع الحكم الروماني ويدير المناطق التابعة له بسلام، وقد أعطى الرومان لبني إسرائيل الأمن والأمان..

المفكر اليهودي الكبير يوسفوس يذكر باستمرار في كتاباته السنهدرين إلا أن وصفة للسنهدرين وأعماله وواجباته لا تتفق مع ما جاء في أدب الربانيين اليهود، ولا مع المعلمين المسيحيين، مثل المعلم "شورر" الذي ذكر بأن التلمود ما هو إلا وصف خيالي غير تاريخي وأنه وصف لمؤسسة لم تعد موجودة، فالربانيون التلموديون في الأجيال اللاحقة يخلعون على السنهدرين الصلاحيات والواجبات التي لا يمتلكها، أما السلطات الدينية اليهودية تجادل حول إمكانية التوفيق بين التلمود ونظرية "يوسفوس"، على اعتبار أن نظرية يوسفوس تعني أن هناك تلمودين متباينين يعملان جنبًا إلى جنب، الأول سياسي والآخر ديني ومع ذلك، قد يكون ذلك، إلا أنها تقع ضمن نطاق هذا العمل لوصف المحاكم، إذ إنها تصور في أدب الحاخامين بأن له تأثير هام على دور هذا الموضوع على ما يلي: في النزاعات الأولى في إسرائيل والفصل فيها إلا من قبل محكمة 71 في غرفة السنهدرين، وغيرها من المحاكم المكونة من 23 عضوًا والتي كانت في مدن أرض إسرائيل وغيرها من المحاكم الثلاث. كانت هناك ثلاث محاكم في يهودا (واحدة في السنهدرين، واحدة على جبل الهيكل وواحدة في المدن الأخرى غير القدس)، فإذا سمعوا ما في (الهلاخا) وهو الجزء التشريعي في التلمود ما كان مطلوبًا فالشخص يذهب إلى المحكمة في مدينته، إذا لم يكن هناك أحد في مدينته يذهب إلى المحكمة في أقرب مدينة، وإذا كان القضاة قد سمعوا ما في الهلاخا كان به، وإلا هو وخبير المحكمة يسرعان إلى المحكمة التي تقع على جبل الهيكل، وإذا أعلنوا أنهم سمعوا الهلاخا كان به وأعلنوا لهما، وإلا فإنهما الاثنان يسرعان إلى محكمة السنهدرين التي في القدس، كما أن هناك ثلاثة أنواع مختلفة من المحاكم: الأولى من ثلاثة أعضاء والثانية من 23 عضوًا والثالثة من 71 عضوًا، جميع المحاكم على حد سواء تقوم بدور القاضي وهيئة المحلفين، وكان هناك المهمة الأساسية في توفير معلومات عن الأسئلة والتهم الجنائية.

24- المحاكم المدنية

في عصر الهيكل الثاني كانت هناك تقوم محاكم مدنية تتكون في معظم المدن الفلسطينية بأيام محددة لعقد جلساتها، ويذكر أن المحكمة الرئيسية تلتئم يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع ولا تنظر فقط في القضايا المدنية ولكن أيضًا في الادعاءات بالأضرار ونوع القضية المطروحة توكل إلى هذه المحكمة. القضايا المدنية التي تقررها محكمة الثلاثة والتي يقع ضمن صلاحياتها

الإصابات الجسمانية، التعويض عن الأضرار كلها أو نصفها، دفع الخسارة الرباعية أو الخماسية، الاعتراضات، الإغواء والقذف وهذه هي وجهة نظر الربّاني "ماير" إلا أن الربّانيين الآخرين أعلنوا أن الاتهام بالقذف يجب أن تجرى محاكمته في محكمة الثلاثة والعشرين حيث أنه ربما يشمل عقوبة الإعدام، على سبيل المثال عندما تكون ابنة الحاخام قد قذفت كما هي شخصيتها المعنوية، فإذا كان الاتهام صحيحًا فإنها تحكم بالإعدام حرقًا، أما إذا كان المدعي قد ثبت أن اتهامه كان باطلاً فإنه يحكم بالموت أيضًا.

بعد سقوط الدولة استمرت محكمة الثلاثة ولكن تحولت أو تطورت إلى محكمة تحكيم وطريقة دستورها يتلخص في الشروط الآتية: القضايا المدنية تقررها محكمة الثلاثة وحسب الربّاني "ماير" فإن كل طرف من أطراف النزاع يختار قاضيًا واحدًا، وهما يختاران الثالث، ويؤكد الربانيون بأن يعين القضاة الاثنان القاضي الثالث، ولكل طرف الحق في رفض تعيين القاضي الثالث بشرط أن لا يكون القاضي الثالث من ذوي القربى أو أنه أصبح غير مؤهل.

يوقع الأطراف على وثيقة يؤكدون بموجبها على تقديم القضية لقرار القضاة الثلاثة الذين تم اختيارهم، وهذه الوثيقة تعرف بالكومبروميسا، وهذه يظل في القضايا التي يجري النظر فيها بأقل من ثلاثة قضاة من جانب، فإذا كان قاضيان يحكمان في القضايا المدنية فإن جميع السلطات تتفق على أن يكون قرارها غير نافذ، وفيما يتعلق بالقاضي الواحد فيذكر بأن القاضي ليس وحيدًا حيث لا يجوز الحكم من قبل واحد سوى الله، ومع مرور الزمن عندما أصبح رجال الفصل قلة في هذه الحالة فإن القانون نُحي جانبًا، وفي القضايا المدنية التي يعترف بها الجمهور فإن خبيرًا يمكن أن يقرر فيها منفردًا.

25- السنهدرين السياسي

السنهدرين السياسي الذي تقدم ذكره هو بشكل رئيسي "صدوقي" في تركيبته وأعضاؤه ينبغي أن يكونوا من العائلات الدينية والاستقراطية بالتركيز على أنه "المحكمة الصدوقية"، ولم يذكر التلمود كثيرًا عن هذا المجلس من حيث أعماله ومهامه.

أما بخصوص السنهدرين الديني فصلاحياته في غاية المسؤولية، فالأنبياء الكذبة أو الذين يدَّعون النبوة، والحاخام الأعلى يمكن محاكمته من قبل السنهدرين الديني المكون من 71 عضوًا، فالحرب مثلاً يمكن أن تعلن إذا تقررت في محكمة السنهدرين، كما أن الجهة التي تقرر إضافة أي أرض إلى حدود مدينة القدس أو إلى محيط الهيكل، وهو الذي يعينه الأعضاء الثلاثة والعشرون للسنهدرين الخاص بالقبائل اليهودية، وأن يجد القرار بشأن المدينة التي تقترف ذنب الصنمية، أما السنهدرين الأعلى العام فإنه يتكون من 21 عضوًا من كبار رجال الدين اليهود، حيث تقول التوراة إن حكماء إسرائيل هم سبعون، بإضافة موسى يصبحوا 71 حكيمًا.

المعلومات التالية تخص دستور السنهدرين وتشكيله والإجراءات التي يقوم بها: يجلس الأعضاء في هذا المجلس بشكل شبه دائري بحيث يستطيع كل واحد منهم أن يرى الآخرين، الرئيس يجلس في الوسط والحكماء على يمينه ويساره بالترتيب حسب السن، اثنان من سكرتيري القضاة يجلسان أمامهم، واحد على اليمين والآخر على اليسار، ليدونوا الكلمات الخاصة بالمبرئين وبالمدانين.

الرباني يهودا يقول هناك ثلاثة بالإضافة إلى الاثنين المذكورين، الثالث يقوم بتسجيل الكلمات الخاصة بالتبرئة وتلك الخاصة بالإدانة، كما أن هناك حكماء يجلسون أمامهم كل واحد في المكان المحدد له، أحدهم يكمل العدد المطلوب، يأمرونه من الصف الأول ثم آخر من الصف الثاني يتقدم إلى الصف الأول وآخر من الصف الثالث يتقدم إلى الصف الثاني ثم يختارون واحدًا من المجلس ليحل في الصف الثالث، ولا يأخذ مكان الشخص السابق ولكنه يجلس بصفته الشخصية، وعلى الرغم من أن المحكمة تتكون من 71، ويشترط في استكمال نصابها القانوني أن لا يقل عدد الحضور فيها عن 23 عضوًا، وإذا أراد عضو أن يخرج عليه أن يتأكد بأن العدد لا ينقص عن 23 عضوًا وإلا لا يجوز أن يترك المجلس، وجلسات هذا السنهدرين الرسمية من حيث الوقت تكون من الصباح حتى المساء، أما أيام السبت وأيام الاحتفالات الرسمية فإنهم يدخلون إلى "بيت الدراسة" في جبل الهيكل، وإذا كان هناك سؤال وجه لهم وإنهم سمعوا ماذا كان في الهلاخا، فإن عليهم إعلانها وإلا طرحت المسألة للتصويت.

سلطات السنهدرين دمرت على يد الجنرال الروماني "غابينيوس" في منتصف القرن الأول الميلادي، وقسَّم مملكة يهودا إلى خمس مناطق، وعيَّن خمسة مجالس تحكم في الناس، المجلس الأول في القدس والثاني في غدارا والثالث في "حمات" والرابع في أريحا والخامس في الجليل الأعلى، السنهدرين في "حمات" أشير إليه في التلمود، ولكن مجلس القدس تمتع بالقدر الأكبر من التعاظم في كافة الأمور الدينية والمدنية ويشهد التلمود أربعين سنة قبل تدمير الهيكل أن السنهدرين كان قد استمر على جبل الهيكل وقد صمد أمام انهيار الحكومة، وواصل المسيرة بشكل أو بآخر إلى نهاية القرن الرابع الميلادي، وقد عانى السنهدرين من عشرة تنقلات من غرفة الهيون ستون إلى المحطة التجارية، ومنها إلى القدس ومن القدس إلى حمات ومن حمات إلى "أوش" بعد ذلك إلى شافرام ومن شافرام إلى "بيت شيريم"، ومن بيت شيريم إلى "سفوريس"، ومن سيفوريس إلى "طبريا"، وجميع هذه المدن كانت في فلسطين القديمة.

26- اليهودية – اليهود

اليهود هي التسمية التي تدل على بني إسرائيل السابقين واللاحقين أو حسب ادعاءاتهم جميع نسل يعقوب الذي أطلقوا عليه اسم إسرائيل وهذا بطبيعته على النقيض من الحقيقة، كما يعتقد الكثيرون من المؤرخين الباحثين والعلماء المعاصرين الذين بحثوا وكتبوا الكثير عن بني إسرائيل، وجذورهم وتاريخهم الحافل بالأحداث، عبر الصحاري العربية وحروبهم وشقاقهم بين بعضهم البعض، إضافة إلى دسائسهم ومؤامراتهم ضد الشعوب غير اليهودية وأحيانًا ضد أنفسهم.

أما اليهودية فهي العقيدة الدينية والعبادة وطقوسها الخاصة باليهود وهي عقيدة تختلف في مضمونها وجوهرها عن المسيحية والإسلام أو المحمدية، وسوف نتعامل في هذا البحث مع اليهودية بوضعها الديني المتعلق بالتواصل مع نظامها الخاص بالإيمان والطقوس والعادات.. الخ، مع التحفظ الشديد والإشارة إلى أن رأي الديانات الأخرى حتمًا يكون متباينًا بشكل كبير، مما يتعين علينا تغطية تاريخ بني إسرائيل منذ العودة من السبي البابلي الثاني، وما تلا تلك العودة إلى بلاد كنعان من أحداث وتطورات.

يمكن تقسيم هذا التاريخ إلى فترات مختلفة وفقًا للمراحل الرئيسية التي قد تكون مميزة في وجود العرق اليهودي منذ عودتهم إلى بلاد كنعان في العام 538 قبل الميلاد، ففي شهر تشرين الأول/ أكتوبر 538 قبل الميلاد فتحت بابل أبوابها للجيش الفارسي بقيادة الإمبراطور "قورش بن احشيورش الاخميني"، وبعد أسابيع من فتحه لبابل كان من بين الأعمال الرسمية للحاكم الجديد في بابل إعطاء الحرية لليهود في المنفى، وسمح لهم، بل ساعدهم أيضًا، على العودة إلى منطقة يهودا في بلاد كنعان، وقد جاءت قصة مساعدة "قورش" لبني إسرائيل بالعودة إلى بلاد كنعان والإغداق عليهم بالمال والذهب وتوفير راحة مسيرتهم في طريق العودة، في سفر استير في الكتاب المقدس، وقد جاءت القصة مفصلة في التلمود أيضًا، وكان هناك عدد من المثقفين استفادوا من مساعدة قورش لهم، وكان الإمبراطور الفارسي قد عهد لزعيمهم زوروبابل سليل العائلة المالكة في مملكة يهودا باعتباره الرئيس الديني لمجتمع العائد إلى القدس وشكلوا هناك في القدس مجلسًا للشيوخ من اثني عشر حاخامًا، وكان هذا المجلس الذي يرأسه زوروبابل من مهامه توجيه الشؤون الداخلية للمجتمع اليهودي وتحت سلطات بلاد فارس وتمكن المجلس أيضًا من إقامة المذبح الجديد وكان على استعداد للاحتفال بعيد "العُرُش" سنة 537 قبل الميلاد، ولم ينفذ المجلس الطقوس الدينية خارج الهيكل بل قام بوضع الأساس للهيكل الثاني في الشهر الثاني من السنة الثانية بعد العودة، ولكن لم يحرز أي تقدم لأكثر من ستة عشر عامًا وذلك لأسباب تزييف الحقائق وإيجابية ملوك الفرس تجاه السامريين الذي رفضوا أية مشاركة أو أعمال في إعادة بناء الهيكل.

27- الأعياد الدينية عند اليهود

لكل عيد من أعياد اليهود الدينية حكاية ورواية، معظمها نصوص فلسفية وروايات مجازية تتعلق بطقوس تلك الأعياد وما جاء لبني إسرائيل في التوراة وفي شروحات التلمود، لهذا سأحاول اختصارها بقدر الإمكان بسبب طولها وكثرتها.

1- عيد الفصح (פיסח بيسح):

وهو عيد الخبز غير المخمر أو (الفصح)، يبدأ من مساء يوم الرابع عشر من نيسان/أبريل، ويقام في ذكرى الأجداد وتحررهم من العبودية في مصر، ذكرى أبدية دائمة، وخلال هذه الذكرى يُحرّم على اليهودي استعمال أي شيء مخمّر إذ خاطب موسى الإسرائيليين باسم الإله يهوه قائلاً: ابتعدوا وخذوا لأنفسهم حَمَلاً.."، بالمحافظة على هذا المبدأ فإنهم يستحقون إرادة الإله وهو الذي يحررهم من عبوديتهم، لأنه عندما تكلم كانوا (عراة حفاة). ابتعدوا وخذوا لأنفسكم حَملاً – الحمل هو صغير الخروف – أي ابتعدوا عن الأوثان التي تعبدوها مع استعبادكم من المصريين، العجول والخراف من الحجارة والمادة الصلبة وبواحد من ذات الحيوانات أنتم تذنبون، استعدوا لتعملوا بوصايا إلهكم.."، البرج الرمز لشهر نيسان/ أبريل هو "الحمل" بهذا فإن المصريين ربما لم يفكروا أنه من خلال قوى الحمل قد أزاحوا نير العبودية وهم لا يدرون، وعليه فقد أمر الله شعبه إسرائيل ان يأخذوا لأنفسهم حملاً ويأكلوه.

قال الرب لموسى: "قل لبني إسرائيل أن يقترضوا من المصريين الذهب والفضة لكي لا يقال فيما بعد إنهم يستعبدوهم وإنهم يعذبوهم ويبتلوهم ولكن الذي سيخرجون به هو كبير الموضوعية. عندما أخبر موسى بني إسرائيل بأنهم ينبغي أن يخرجوا من مصر مع الموضوعية قالوا وهل سنخرج

خاليين اليدين مثل الخادم السجين، غدًا يقول السجان سوف أطلق سراحك وأعطيك مالاً وفيرًا، يرد السجين فيقول: دعني اذهب اليوم ولا تعطني أي شيء، وفي اليوم السابع من الفصح عبر بنو إسرائيل البحر الأحمر إلى سيناء وأغرق جيش الفرعون في مياه "بحر سوف"، والرواية المجازية في هذا تقول:

"كان رجلاً مسافرًا ومعه ابنه الصغير، وكان ابنه في الطريق قد سبق الأب، وبينما هما سائران ظهر لص في الممر فوضع الرجل ابنه خلفه وفي الأثناء جاء ذئب من الخلف فما كان من الأب إلا أن يرفع ابنه الصغير ويحمله بين ذراعيه، كان البحر أمام بني إسرائيل وكان المصريون يتبعونهم، لهذا فقد رفع الإله يهوه أبناءه وضمهم إلى ذراعيه، وعندما عانى إسرائيل من حر الشمس نشر الإله فوقه غمامة تغطيه، وعندما جاعوا أنزل عليهم يهوه خبزًا من السماء وعندما عطشوا فتح لهم فيضانات من صخرة، فجعلوا ذلك فصحًا يحتفلون به في ذكرى خروجهم من مصر وانتهاء عبوديتهم.

2- عيد العنصرة – عيد الأسابيع – חג-השבועות:

هذا العيد يأتي في اليوم السادس من الشهر العبري "سيبان" وهو شهر حزيران في التقويم القمري، ويسمى عيد الأسابيع لأنه يستمر لمدة 49 يومًا أو سبعة أسابيع، ينتهي في اليوم التالي من عيد الفصح، وحكايته تقول: عندما قدمت لهم "غمرا" من الشعير الأخضر (وهذا كان أيام الهيكل)، وفي الاحتفال قدم رغيفان من الخبز غير مخمّرين صنعا من دقيق محصول القمح، وهو أيضًا عيد تسلم الوصايا على جبل سيناء.

في قديم الزمان كانوا يسمون الرجال "الحكماء" الذين وضعوا إيمانهم واعتمادهم على الكواكب، وقد قسموا ذلك إلى سبعة أقسام، كل واحد منها موزع على أيام الأسبوع، بعض الأمم اختارت الشمس تعبدها، وبعضها اتخذ القمر، وهكذا عبدوا هذه الأشياء وصَلّوا لها وهم لا يعلمون أن الكواكب متحركة ومتغيرة حسب دورة الطبيعة التي خلقها العلي، ومن الطبيعي أن يكون قادرًا على تغييرها حسب إرادته، وبأفكارهم الجاهلة دخل فيها كثير من بني إسرائيل، لذلك اعتبروا الكواكب سبعة وأن الله خلق أشياء كثيرة اعتمادًا على هذا الرقم (7) ليرى بنو البشر أنه خلقها وهكذا خلق الكواكب.

اليوم السابع من الأسبوع عمله "السبت"، والسنة السابعة عملها سنة الراحة بعد السبعة أوقات أو السنة السبتية، وفرض "اليوبيل" أو سنة "الانعتاق" وأعطى سبعة أيام احتفال أعياد الفصح، وسبعة أيام لعيد "العُرُش" وسبعة أيام في ذكرى حصار أريحا وسبعة كهنة أخذوا الأبواق السبعة وطافوا بها حول أسوار أريحا سبع مرات، وفي اليوم السابع انهارت أسوار المدينة ودخلوها وذبحوا كل من فيها من رجال ونساء، حتى الحمير والبقر، ولكن استحييوا امرأة كانت قد خبأت جواسيس يشوع بن نون واسمها "راحاب الزانية" حسب الرواية التوراتية، لذلك بعد تعداد السبعة أسابيع في وقت نضوج الحبوب كان على اليهود أن يمسكوا بدعوى مقدسة للتسبيح بحمد الواحد الأحد الذي بمقدوره أن يمنع كل الأشياء، والذي لا يمكن لأحد أن يمنعه، الذي يستطيع أن يبدل كل شيء ولا يتبدل. اليوم الأول كان الإسرائيليون قد تحرروا من العبودية والخرافات، في اليوم الخامس أعطيت لهم التوراة لتكون هادية لهم في حياتهم.

تقول الأسطورة إن الله عرض التوراة على أبناء إسماعيل فسألوا: ماذا تقول هذه التوراة؟ قال: تقول لا تسرقوا! قالوا كيف يمكننا أن نقبلها وقد كان آباؤنا وأجدادنا مباركين بقوله: يدكم يجب أن تكون ضد كل إنسان؟ وذهب الله إلى أبناء عيساو وسألهم: هل تقبلون التوراة؟ فسألوا: ماذا تقول وجاءهم الجواب "لا تقتلوا"، قالوا لن نقبلها وأضافوا لهذا العمل باركنا أبونا إسحق وقال بالسيف تعيشون، ولما سأل إسرائيل بأن يقبل التوراة أجاب الشعب "سوف نفعل ونطيع".

3- السنة الجديدة (רוש השנה):

في اليوم الأول من الشهر العبري (تشري) أكتوبر، ذكرى خلق الكون، ينفخ في البوق معلنًا للناس أن السنة الجديدة قد بدأت، ويحذرهم لمراجعة سلوكهم، وأن يعدلوا أو يصلحوا الأخطاء في سلوكهم أينما يحتاج إلى تعديل أو إصلاح.

أليس الإنسان العاقل يعلم أنه يجب أن يقف أمام المحكمة ليحاكم ويعد نفسه لهذا، سواء في القضايا المدنية أو الجنائية، وأنه لا يستطيع أن يحصل على استشارة قانونية وماذا أكثر، إذن يكون شغله وحده أن يُعد للقاء ملك الملوك الذي تنكشف أمامه كل الأشياء، لا تفيده الاستشارات في قضية التوبة والإخلاص والصدقة، فهذه هي التي تنفعه، لذلك على الشخص أن يبحث في أعماله ويُكَفِّر عن آثامه قبل يوم الحساب الأكبر، في شهر أيلول عليه أن يراجع ضميره من واقع مخافته من العدل الذي ينتظر البشرية جمعاء.

هذا هو الموسم الذي يغفر الله فيه لبني إسرائيل الذين عبدوا العجل المصهور بعد أن أمر موسى أن يصعد مرة أخرى إلى الجبل ليتسلم اللوح الثاني إذ كان قد حطم اللوح الأول، فقد قال لموسى في شهر أيلول "اصعد إليَّ في الجبل"، وصعد موسى وتسلم اللوح الثاني في نهاية الأربعين يومًا، وقبل أن يصعد أمر بالنفخ في البوق في المخيم، ومنذ ذلك الوقت أصبح النفخ في "الشوفار" (البوق المصنع من قرن الكبش) في المعابد اليهودية لتحذير بني إسرائيل من يوم الحساب بأنه يقترب ويقترب معه يوم الغفران، ومن هذا يتبين أن يوم الحساب الأكبر عند بني إسرائيل هو يوم رأس السنة الجديدة من كل عام، لهذا تقام صلوات استرضائية واسترحامية واستعطافية مرتين في اليوم في الصباح وفي المساء من اليوم الثاني من شهر أيلول حتى مساء يوم الغفران، الفترة التي تمثل الأيام الأربعين التي قضاها موسى على جبل سيناء، لما تصالح مع إسرائيل وعفا عن آثامهم بعبادة عجل الذهب الربّاني أليعازر قال: ولد إبراهيم ويعقوب في شهر "تشري" أكتوبر، وفي شهر "تشري" ماتا، في اليوم الأول من تشري خلق الله الكون وخلال الفصح ولد "إسحق"، وفي أول تشري "السنة الجديدة" سارة وراشيل وهن العاقرات قد حدثت زيارتهن، وفي الأول من تشري خلق آدم الذي من وجوده نعدّ سنواتنا، وكان اليوم السادس في الخليقة، وفي ذاك اليوم أيضًا أكل من الثمرة الممنوعة، لذلك فهو موسم التوبة حين قال الله لآدم "هذا سيكون العلامة للأجيال المستقبلية وسوف يحكم على سلالاتك في ضوء هذه الأيام وسوف يعيشون أيام العفو والمغفرة، أربعة أيام في السنة يذكّر الله فيها بمراسيمه".

- السنة الأولى: من "تشري" أكتوبر يتم حساب جميع المخلوقات البشرية للسنة القادمة.
- السنة الثانية: اليوم الأول للفصح، فيه تقرر ندرة أو كثافة المحصول.
- السنة الثالثة: عيد العنصرة.. يبارك الإله ثمار الأشجار أو يأمرها بأن لا تثمر كثيرًا.

- السنة الرابعة: عيد "العُرُش" (الخيام) يقرر فيه الإله فيما إذا كان المطر سوف يبارك الأرض في موسمها أم لا.

الإنسان يحكم عليه في يوم السنة الجديدة والمرسوم يصدر نهائيًا يوم الغفران، "الربّاني تاتان" قال: إن الإنسان يحاسب في كل وقت وهكذا يقول الرباني "عكيفا".

لماذا توصي التوراة بإحضار "غمر" من الشعير يوم الفصح؟ لأن الفصح هو موسم حصاد الحبوب.. يقول يهوه "قدموا لي رزمة من الشعير يوم الفصح لكي أبارك الغلال في الحقل".

لماذا تقول التوراة احضروا رغيفين من القمح الجديد يوم عيد العنصرة (عيد الأسابيع)؟ لأن الثمار في عيد العنصرة تكون قد نضجت ومن أجل أن يبارك الإله الثمار على الأشجار.

لماذا كانت الوصايا بتقديم تقدمات مشروبات من الماء في الهيكل في عيد "العرش"؟ لأن ذلك سيكون موسم الشتاء ويقول الرب: احضروا مشاريب الماء لي لكي أبارك مطر السنة.

لماذا يصنعون البوق من "قرن الكبش"؟ لكي يتذكر الإله الكبش الذي قدمه أضحية بدل إسحق.

في السنة الجديدة يقرأون عن ربط إسحق لذات الغرض بينما يكون الإله رحيمًا بخلقه ويعطيهم فرصة للتوبة لكي لا يهلكوا وهم أشرار، وخلال السنة يختار الإنسان أن يكون قاسيًا وصلبًا فيما يتعلق بآثامه، لذلك فإن البوق ينفخ فيه لإيقاظ ضمير الإنسان وتذكيره بأن الوقت يمر سريعًا "انهض من نومك فساعات الزيارة تقترب"، ثلاثة أصناف من الناس يستدعون للحساب: الصالح والشرير واللامبالي، أما الصالح فيكافئه الرب بحياة سعيدة، والشرير يدينه، واللامبالي يمنحه مهلة من أول السنة إلى يوم الغفران ويعلق حسابه، أما إذا تاب بصدق فيصنف مع الصالحين لحياة سعيدة، وإن لم يتب فسوف يستمر مع الشريرين.

4- عيد يوم الغفران (יום חג כיפור):

قلوب جميع الذين يخشون الإله، وانعكاس المخلوق للخالق الذي يحاسب على الأعمال إن كان خيرًا أو شرًا، والإله دائمًا مستعد ليستمع لمن يعترف بالتوبة الصادقة، والتوبة حسب التوراة والتلمود تأتي على سبع درجات:

- الدرجة الأولى: الإنسان التقي هو الذي يستغفر لعمله السيء وسوء سلوكه فور معرفته بالخطئية التي ارتكبها وهذا هو أفضل التوابين.

- الدرجة الثانية: الإنسان الذي عاش حياته في الخطيئة وحتى حين كان في أيام عنفوانه يتنازل عن الطرق المسلكية السيئة في حياته، ويتغلب على رغباته الذاتية التي تقوده إلى الخطيئة، كما قال الملك سليمان "تذكر خالقك في أيام شبابك وعنفوانك واترك طرقك الشيطانية حين تكون في مقتبل عمرك".

- الدرجة الثالثة: الإنسان الذي منعته الظروف لأي سبب من الأسباب في التفكير بالخطيئة ويستغفر عن نواياه الشريرة "سعيد هو الذي يخشى الإله"، كما جاء في المزامير الكلمة استعملت لتعبر عن قوة إرادة أولئك الذين يتوبون وهم ما زالوا في ريعان الشباب.

- الدرجة الرابعة: الذي يتوب عندما يشيرون إلى خطيئته ويبلغونه بها ويوبخ من أجلها، كما كان حال من سكنوا "نينوى"، لم يتوبوا ويستغفروا إلى أن قال لهم نبيهم جونا "يا رجال نينوى آمنوا

برحمة الخالق ولكن الأمر كان قد صدر بحقهم برغم أنهم طلبوا المغفرة لكنهم تأخروا فيها، إذ رأى الإله أنهم عادوا عن طرقهم الشريرة والإله لم يلزم نفسه بالشر الذي قال فيه إنه سوف ينزله بهم ولكنه لم يفعل، لهذا يقول الربانيون إخواننا الذين لا يعيشون في "الخيش" والذين يصومون، سوف يكسبون المغفرة من ذنوب تيه القلوب وبالأعمال الصالحة، فقد رأى الله صيامهم ورأى عملهم بعودتهم عن طرقهم الشيطانية.

- الدرجة الخامسة: أولئك الذين يتوبون عندما تداهمهم المشاكل والاضطرابات، فعندما يكون الإنسان في محنة شديدة تكون هذه الأمور قد غشيته، وفي هذه الحالة ليس أمامه إلا الرجوع إلى خالقه، وقد بُني على هذا مثل القائل "التوبة والأعمال الصالحة تشكل درعًا ضد العقاب".

- الدرجة السادسة: التوبة عند الكبر، وحتى حين يصل الإنسان إلى سن الكبر سن الشيخوخة والوهن فإن تاب بصدق فإن المغفرة سوف تحل عليه كما جاء في المزامير "عودوا أنتم يا أبناء الرجال" وتعني أن الإنسان ممكن أن يتوب في أي زمان وفي أي عمر. الربّانيون يقولون على الرغم من كون الإنسان تقيًا صالحًا في أيام شبابه وعنفوانه، لكن إن هو تمرد على إرادة ربه في كبره فإنه يخسر حتى استحقاقاته السابقة التي سجلت له عندما كان صالحًا، ولكن الإنسان الذي يكون شريرًا أيام صباه ويشعر بالأسف الشديد ويطلب التوبة في كبره يجب أن لا يسمى شريرًا بعد ذلك.

- الدرجة السابعة: وهي الدرجة الأخيرة في التوبة، وهي للذي يكون متمردًا على خالقه على طول أيام حياته ويعود إلى الله فقط عندما يكون الموت قد خيم عليه، يقول الربانيون إن كان الشخص مريضًا وساعات وفاته تقترب فإن من واجب الذين حول فراشه ساعات الموت أن يقولوا له: "اعترف بذنوبك لخالقك". هؤلاء الذين يقتربون من نقطة الموت، عليهم أن يعترفوا بتقصيرهم، فالإنسان الذي يمثل أمام محكمة العدل يستطيع أن يحضر محامين للدفاع عنه وعن قضيته ولكن من يدافع عمن يقفون أمام الله، لا يجدوا من يدافع عنهم سوى التوبة وطلب المغفرة.

هكذا تكون سبع درجات مختلفة للتوبة، ومن يهمل هذه الدرجات سوف يعاني في الحياة، لهذا على اليهودي أن يوفي بالواجبات الملقاة عليه ويتوب، طالما كان قادرًا على التصحيح، كما يقول الربانيون: "تب عن ذنبك كأنك في غرفة موصلة للأخرى حيث تدخل غرفة الدولة"، عد أنت.. عد أنت عن الطريق الشريرة، كأنك ستموت، يا بيت إسرائيل صاح النبي "حزقيال" فماذا يعني هذا التحذير بدون التوبة فإنكم ميتون. وهكذا تصور الرواية المجازية التالية التوبة: "ذات مرّة كانت سفينة كبيرة تبحر لعدة أيام في مياه المحيط وقبل أن تصل إلى مكان وجهتها ثارت رياح عاصفة وعاتية فحولتها عن مسارها إلى أن هدأت الرياح أخيرًا، فوجدت نفسها بقرب جزيرة جميلة المنظر بأزهارها ورياحينها وفاكهتها اللذيذة بوفرة وفيض كاملين، أشجار باسقة تعطي الظلال وتنعش المكان بنسيم عليل، وكما بدا لركاب تلك السفينة فقسموا أنفسهم إلى خمس مجموعات، المجموعة الأولى أصرت على أن لا تترك السفينة وقالوا: "ربما تأتي رياح قوية فترفع المرساة وتبحر السفينة مرة أخرى وتتركنا خلفها، وعلينا أن لا نخاطر بفقدان المكان الذي نتجه إليه من أجل سعادة مؤقتة تتوفر لنا في هذه الجزيرة".

المجموعة الثانية نزلت إلى الشاطئ لفترة قصيرة واستمتعت بعطر الزهور وتذوقت الثمار وعادت إلى السفينة سعيدة ومجددة نشاطها فوجد أفرادها أماكنهم في المواقع التي تركوها فيها ولم يخسروا

شيئًا بل اكتسبوا صحة وروحًا جديدة من الفسحة وزيارتهم للشاطئ.

المجموعة الثالثة أيضًا قام أفرادها بزيارة الجزيرة ولكنهم بقوا فيها مدة طويلة إلى أن هبَّت رياح قوية فأسرعوا عودة ولما وصلوا السفينة كان البحارة يرفعون المراسي وبعجلة وارتباك شديد فقدوا أماكنهم عليها، ولم يكونوا مرتاحين خلال ما تبقى لهم من الطريق إلى المكان الذي يقصدونه. عمومًا هؤلاء كانوا أكثر حكمة من أفراد المجموعة الرابعة الذين بقوا في الجزيرة وتذوقوا بعمق السعادة فيها والسرور لدرجة أنهم لم يسمعوا صوت أجراس السفينة تقرع منذرة بالإبحار دون أن يستمعوا لها وقالوا: لا زال أمامنا متسع من الوقت لتوجيه الأشرعة، فدعونا نستمتع ونمتع أنفسنا وقتًا أطول، مرة أخرى قرعت الأجراس ولكن لا زالوا غير سامعين وقالوا: قبطان السفينة لن يبحر بدوننا، وهكذا بقوا على الشاطئ إلى أن رأوا السفينة تتحرك فسارعوا سباحة وتسلقوا جوانبها ولكنهم أصيبوا بكدمات وإصابات لم تشفَ طوال فترة رحلتهم المتبقية، أما بالنسبة للمجموعة الخامسة فقد أكلوا وشربوا بشهية ونهم ولم يسمعوا صوت الأجراس ولما أبحرت السفينة كانوا هم المتروكين خلفها، إلى أن جاءت وحوش الجزيرة فافترستهم، أولئك الذين فروا من هذا الشر هلكوا من سموم التخمة والانتفاخ الذي أصابهم بسبب عدم الاتزان فيما أكلوا.

السفينة هي أعمال اليهودي الصالحة التي تنقله إلى مثواه الأخير في السماء، الجزيرة تمثل السرور في الحياة الدنيا التي رفضت المجموعة الأولى أن تتذوقه أو حتى تنظر إليه، ولكن الذين استمتعوا مؤقتًا مثل المجموعة الثانية جعل حياة اليهودي كلها سعادة وسرور دون إهمال واجباته، حقيقة ممكن أن تعود مثل المجموعة الثالثة بينما يكون هناك وقت بمؤثرات سيئة قليلة، ولا حتى كالمجموعة الرابعة في الساعة الحادية عشرة سلموا ولكن بكدمات وإصابات لا تشفى تمامًا،{ولكن اليهودي قد يتعرض للخطر كما حدث مع المجموعة الأخيرة، قد يقضي بقية حياته في اتباع الباطل، ناسيًا المستقبل، ويهلك بسبب السموم المخبئة في الحلويات التي تجلبه لها، فمهما جمع الإنسان من مال وخزَّن من الذهب سوف يترك كل شيء على بوابة النصر الكبيرة الأزلية، ولا يمكن لذهبه أو فضته أن تتبع روحه، فقط الأعمال الصالحة والثقة بالله تكون الهادية للأرواح.

5- عيد العُرُش أو عيد الظلال - סוכות (سوخوت):

يبدأ هذا العيد في اليوم الخامس عشر من شهر تشري/ أكتوبر، ويستمر سبعة أيام، ويترتب على بني إسرائيل أن يسكنوا في خيام أو عُرُش أو عشوائيات من البوص لكي تظل ذاكرتهم حيّة تذكرهم هذه الخيام أنها كانت بيوتهم أثناء تيههم في الصحراء بعد خروجهم من مصر، ورموز احتفالهم بهذا العيد هي فروع النخيل المربوطة بأغصان الريحان الشامي وفروع الصفصاف.

قال الإله: "هذا لا يكون لكم صيامًا مثل يوم الغفران، كلوا واشربوا واستمتعوا وضحّوا بتقدمات سليمة فيه.."، وتقول التوراة سبعة أيام للرب يهوه، لذلك على اليهودي ومن خلال استمتاعه أن يفرد أفكارًا مهمة للرب أمرنا الإله القدير أن نغادر مساكننا الدائمة وأن نعيش السبعة أيام في "العشوائيات". هذا المبدأ يعلمنا بأن الإنسان يجب أن لا يضع ثقته بالمباني الفخمة التي زينها بقيمة الزينة حتى الحكام في هذه الأرض عليهم الاعتماد على العلي القدير الذي قال للكون كن فكان، الله وحده القوة والملك وهو الذي لا يتغير إلى أي شيء غير الذي أعلنه عن نفسه كما هو مكتوب، الله ليس رجلاً يمكن أن يكذب فهو وحده الذي يؤكد على حماية بني إسرائيل من كل الشرور.

عيد العُرُش هذا يقام في فصل الخريف بعد أن تكون ثمار الحقول قد تم تخزينها في المستودعات، حسب ما جاء في التوراة "عيد العُرُش عليهم أن يقيموه لأنفسهم سبعة أيام بعد جمع المحصول وتخزينه في المخازن"، في الوقت عندما يرى الإنسان الكثير حوله ربما يتعجرف ويشعر بأنه يثري بيته بالفخامة ولهذا السبب فرض عليه أن يتركه وأن يسكن العشوائيات، ليتذكر بأن كل ما يملكه يرجع إلى الله وأنه لم يملكه بذكائه أو قوته.

هذه المساكن في العشوائيات أيضًا تعيد ذاكرة بني إسرائيل إلى الأربعين يومًا التي عاشها أجدادهم في الصحراء بعد خرجهم من مصر، إذ يعتقدون أن يهوه يرافقهم في أجيالهم، وقد حماهم من الشرور، ولا زال يقف إلى جانبهم حيث أنه شعبه الذي اختاره لنفسه كما تقول الروايات التوراتية والتلمودية.

حسب آراء بعض الربانيين فإن بني إسرائيل لم يسكنوا في الحقيقة في عشوائيات صحراوية بالمعنى الصحيح، حيث كانوا محاطين بالغمام (سبع غيوم) واحدة على كل جانب، والخامسة كانت ظلال لحمايتهم من حر خيوط الشمس الحارقة والسادسة كان عمودًا من نار يضيء عليهم في الليل، والسابعة تتقدمهم في رحلتهم وتنير طريقهم.

ترك بنو إسرائيل مصر في شهر نيسان/ أبريل وحصلوا فورًا على تلك العشوائيات والتي استفادوا بالإقامة فيها لمدة أربعين عامًا، وهكذا كانوا سكان العشوائيات خلال دورة السنة الكاملة ولهذا يمكن إحياء ذكرى هذه الحقيقة في الربيع كما في الخريف وفي الصيف كما في الشتاء، لماذا جعل الله الخريف لإحياء الاحتفال ولم يجعله في الربيع أو الصيف؟ لأنه كما تقول أساطير بني إسرائيل لو عشنا في العشوائيات في الصيف يكون هناك السؤال فيما إذا كنا في ذلك نطيع الله أو من أجل امتناننا الخاص، لأن الكثير من الناس يبحثون عن التراجع خلال هذه الفصل، ويكون في الخريف عندما تتساقط أوراق الشجر ويبرد الهواء، ويأتي الوقت الذي تهتم فيه بيوتنا وبعدها لاستقبال الشتاء، إذن بالإقامة في هذه المساكن المؤقتة فإننا نؤدي عبادة ونعمل بما أمرنا به الخالق.

عيد العُرُش أيضًا هو عيد الحصاد لنشكر الله على الرحمة التي وهبنا إياها والكنز الذي باركنا به موسى بن ميمون في أدبياته، وقد سبق وأن ذكرنا تعريفًا ببعض أعماله في صدر هذا الباب) والتي يسميها المرشد من الحيرة، ويوضح بأن الله أمر بني إسرائيل ليأخذوا هذه الأربعة شعارات خلال الاحتفال ليذكرهم بأنهم اخرجوا من الصحراء التي لا تتوفر فيها الثمار ولا يعيش فيها بشر، وينقلهم إلى الأرض التي تفيض لبنًا وعسلاً، والمياه العذبة (فلسطين) من أجل هذا أمرهم يمسكوا بأياديهم ثمار الأرض الثمينة، وهم يتغنوا تسبيحًا بحمد الواحد الذي قدَّم المعجزات بالنيابة عنهم، والذي يطعمهم مما تنتجه الأرض الطيبة أرض كنعان. الشعارات الأربعة تختلف في المذاق والمظهر واللون تمامًا مثل أبناء الرجال يكونون مختلفين في السلوك وفي العادات.

أشجار الكباد هي أشجار مثمرة بفواكه ذات قيمة، إنها جيدة للعام ولها لون يسر الناظرين تقارب بالرجل الذكي الصالح في سلوكه نحو الإله، ونحو إخوانه أبناء ملته، رائحة ثمارها هي من أعمال الإله الطيبة، لذلك تذكر في المقدمة وتأخذ بنفسها بيد واحدة.

فروع النخيل تنتج فاكهة ولكن بدون رائحة، إنها تقارن بأولئك الناس الطيبين الذين يتصرفون بشكل سليم تجاه الإله وتجاه الناس ولكنهم غير متعلمين. صفصاف الغدير ليس لها ثمار ولا رائحة.. وتقارن بأولئك الناس الذين تنقصهم المعرفة ولا يقومون بأعمال جيدة.

إذا جمعوا الجميع سويًا وقدموا التضرعات إلى العلي فإنه سوف يستمع إلى تضرعاتهم، ولهذا السبب قال موسى لبني إسرائيل "وأنتم سوف تأخذون على أنفسكم" بمعنى لفائدتكم، ولتسبحوا الله خلال السبعة أيام من أيام الاحتفال مع هذه الشعارات وترددوا (خلقنا الآن) وتشكروا الله على رحمته وتحمله الأبدي.

يقول الربانيون إن من يفشل بالمشاركة في الاحتفال بعيد العرش في القدس قد فشل في تذوق المتعة الحقيقية في الحياة، اليوم الأول من أيام الاحتفال يمر بعبوس كبير، وفي أيام السوط بفرح وسرور بالطرق المختلفة والتسلية العامة.

الهيكل في القدس ألحق به مقصورة خاصة بالنساء، والتي أطلق عليها اسم "شقة النساء" الرجال يجلسون تحتها كما هي العادة في المعابد، الرهبان الصغار يملئون "الثريات" بالزيت ويشعلونها جميعها ليكون الضوء منعكسًا منها على شوارع المدينة، التراتيل والتسابيح يرددها الأتقياء واللاويون يسبحون لله بالقيثارات والأبواق والطبول والناي وآلات أخرى من آلات النفخ الموسيقية، يقفون على خمس عشرة درجة خشبية لتوصل من الطابق الأرضي إلى مقصورة النساء، ويغنون خمس عشرة أغنية من أغاني المزامير أثناء صعودهم، تبدأ بأغنية الدرجات وتصدح أصوات الكورس معهم، وكان الربّاني "هليل" اعتاد أن يخطب في المجتمعين بهذه المناسبة ويقول:

"إذا كان الله يسكن هنا إذن هل أنتم هنا؟ كل واحد منكم وإذا كان الله يغيب من وسطكم فإن ذلك بعصيانكم، ومن يكون هنا ويضيف: أيها الرب إذا رغبت بأن تحضر إلى بيتي إذن أنا احضر إلى بيتك ولكن إن رفضت أن تزور سكني فأنا أيضًا سوف أهمل دخول سكناك، فيقول الرب كما جاء في سفر الخروج "في كل مكان اسمح فيه بذكر اسمي أنا احضر إليك وسوف أباركك"، ثم يجيب بعض الناس "سعيد فكرنا لأننا نتوب من ذنوب أيام شبابنا"، هذا الاحتفال أيضًا يسمى "احتفال زعب الماء" حيث كان أيام ودود الأخير يجرى احتفال خاص في اليوم الثاني من الاجتماع في الخيام، ويسمون ذلك الاحتفال "احتفال زعب أو سحب الماء من الآبار"، وكان هذا يقام على أساس كلمات النبي "وانتم يجب أن تسحبوا الماء بسرور وفرح من نوافير الخلاص من العبودية".

6- عيد الحنوكا – أو عيد الاهداءات:

يقام لمدة ثمانية أيام خلال شهر ديسمبر في ذكرى الاهداءات للهيكل بعد أن تم تنجيسه من قِبل "انطوخيوس والهشمونيين" كان الله دائمًا يرسل المعجزات والعجائب نيابة عن أبنائه في ساعات حاجتهم لها، لذلك عرض قوته التي لا تضاهى لأمم العالم وكان ذلك لمنع الإنسان من أن يصبح خائنًا مرتابًا وينسب كل السعادة لدورة الطبيعة، الله الذي خلق الكون من العدم لقادر على أن يبدل الطبيعة التي صنعها، فعندما حقق الشمانيون بعون الله نصرهم وأقاموا بسلام وانسجام في أرضهم، وكان عملهم الأول تطهير الهيكل الذي كان قد دنس، وابتداوا من اليوم الخامس والعشرين من شهر "كيسيليف" ديسمبر في إطاعة تعاليم الربانيين احتفال الإهداء بإشعال المصابيح والشموع التي كانت قد أعدت لهذه المناسبة، وفي اليوم الأول يشعلون واحدة ثم واحدة أخرى إضافية كل ليلة تالية على استمرار أيام هذا العيد الثمانية، كما يحتفلون به بترانيم الشكر والحمد لله.

هذا العيد قد ورد ذكره في نصوص سفر العدد عندما لاحظ هارون قرابين أمراء القبائل وحريتهم العظيمة، وكان ضميره يشعره بالأسف لأن قبيلته لم يكونوا قادرين على الانضمام إليهم، لكن هذه

الكلمات قيلت كتهدئة له "يا هارون استحقاقك أكثر من استحقاقاتهم لأنك أشعلت وأحضرت المصابيح المقدسة".

وقال الله لموسى: هكذا تقول لهارون في الأجيال القادمة سوف يكون هناك إهداء آخر، وإشعال المصابيح ومن خلال الخَلَف تقوم العبادة، المعجزات والخوارق سوف تتبع ذلك الإهداء، لا تخشَ عظمة الأمراء في قبيلتك، أثناء وجود الهيكل أنت سوف تضحي ولكن إشعال المصابيح تبقى أيضًا إلى الأبد، فإن القرابين سوف تزول لكن إشعال مصابيح إهداءات الهشمونيين لن تتوقف، الربانيون طلبوا هذا الاحتفال بإشعال المصابيح ليجعلوا معجزات الله معروفة لكل الأجيال القادمة، وأنه من واجبنا أن نشعل نفس المصابيح في معابدنا وفي بيوتنا أيضًا.

7- عيد البوريم (הפורים):

هذا العيد يحل في اليوم الرابع عشر من شهر آذار/ مارس في ذكرى خلاص العبرانيين من مكيدة "هامان"، من خلال عون الله لمردخاي واستير، كما أن الله يهدد بني إسرائيل لكي يتوبوا عن آثامهم وقد أغراهم في زيادة مكافأتهم.

على سبيل المثال.. الأب الذي يحب ابنه ويرغب في أن يرى سلوكه حسنا فإنه يعاقبه على سوء أعماله، ولكنه عقاب مشفوع بالمحبة التي وهبها له، وفي هذا قال مرتد عن الدين قال للرباني "سافرا" إنه مكتوب.. من أجل أعرفكم أكثر من جميع أمم الأرض، لذلك فإني أزوركم ويكون استفساركم.. كيف ذلك؟ إذا كان شخص يملك حصانًا شرسًا من المحتمل أن يضع على ظهره أعز أصدقائه لربما يلقي به أرضًا ويؤذيه؟

أجاب الرباني "سافرا" أتفرض أن إنسانًا أعطى قرضًا من المال لشخصين، واحد منهما هو صديق له، والآخر عدو، سوف يسمح لصديقه بتسديد المبلغ المقترض على دفعات أي على أقساط، لكي لا يكون القرض عبئًا شاقًا على صديقه، ولكن من عدوه يطلب المبلغ كاملاً، فما قلته ينطبق عليهما، أنا أحبك فأنا أزورك وأزور مظلمتك بمعنى أنا سوف أعاقبك على القرض كما يحدث قليلاً، وذلك يعني ربما يكون لديك مخالصة وسعادة في العالم القادم.

"هامان" الذي كان وزير الإمبراطور "احشيورش الاخميني" إمبراطور بلاد فارس، كان له تأثير على اليهود أكثر من المبادئ والتحذيرات من الأنبياء الثمانية والأربعين الذين حاضروا بهم مبكرًا ومتأخرًا، ألبسوا أنفسهم قماش الخيش، وندموا واستغفروا بجد بالدموع والصيام وقد أشفق الله عليهم ودمر هامان.

أيضًا قراءة سفر "استير" في عيد تلبزريك ليس نصًا في أسفار موسى الخمسة ولكن هذا ملزم لنا ولأحفادنا، لذلك تحدد يوم الاحتفال والسرور وتبادل الهدايا أيضًا للفقراء لكي يفرحوا.

كل ما تقدم يحاكي الروايات التوراتية والتلمودية التي وضعها أحبار اليهود على مدار ما يزيد عن ألفين وخمسمائة عام، وهو ما ارتأوه لتدوين تاريخهم ودياناتهم ومعتقداتهم وسير طوائفهم وأدوارهم في الحياة العامة لمنطقة الشرق الأدنى، غير أن المؤرخين المعاصرين يؤكدون بأن اليهود هم أكثر شعوب الكرة الأرضية عنادًا وتشبثًا بالأساطير في التاريخ، ويقولون بإن هناك في بلاد الكنعانيين مدينة الخليل أو "حبرون" تقع على مسافة 20 ميلاً جنوب مدينة القدس التاريخية، وترتفع حوالي 3000 قدم عن سطح البحر وتقوم على عدد من التلال الجبلية، وهناك في هذه

المدينة كهف يعرف بكهف "الماكفيلة"، الذي يضم قبور ما يسمى الآباء الجوالين، وفي مقدمتهم ضريح إبراهيم الخليل عليه السلام، الذي يضم رفاته، والذي ادعى اليهود دون برهان قاطع على أن إبراهيم الخليل هو المؤسس الأول للعقيدة الدينية اليهودية والجنس اليهودي، وضريح إبراهيم يزدوج معه ضريح سارة زوجته وابنة أخيه "ناحور" وفي ذات المبنى قبران آخران لابنه إسحق وزوجته "رفقه"، وبالفناء هناك قبران آخران الأول لحفيد إبراهيم "يعقوب" وزوجته "ليئه"، وفي الساحة الخارجية للمبنى قبر "يوسف" ابن يعقوب وهذا يشير إلى تاريخ مضى عليه اليوم أكثر من 4000 سنة.

يصف المؤرخون مدينة الخليل بأن لها جمال خلاب، وأنها تعطي الزائر انطباع السلام والسكون، الذي غالبًا يكمن في المقدسات القديمة في المدينة، وحجارة هذه المقدسات هي الشاهد الصامت على الكفاح الطويل يعتقد أنه كان على مدار ألفيات أربع من النزاعات الدينية والسياسية المستمرة، وكانت بدورها مزارًا ومعبدًا يهوديًا وكاتدرائية بيزنطية ومسجدًا وكنيسة ثم مسجدًا مرة أخرى، أقام حولها الملك هيرودس سورًا ملكيًا يرتفع إلى أعلى حوالي أربعين قدمًا، بحجارة مجدوعة يبلغ طول بعضها ثلاثة وعشرين قدمًا، وقد زين صلاح الدين الأيوبي في وقت لاحق مزار إبراهيم الخليل عليه السلام بمنبر للوعظ والخطبة الأسبوعية في المسلمين..

يدعي اليهود أنه كانت هناك مجزرة اقترفها العثمانيون في مدينة الخليل طالت اليهود عام 1518، غير أن العلماء أفادوا بأنه كانت هناك طائفة يهودية صغيرة قد تأسست وحافظت على وجود لها ضعيف يتكون من اليهود الأرثوذكس (المتعصبين دينيًا) وتلموديين وطلاب المذهب الصوفي الباطني الذي عرف بمبدأ "الكبالا"، كما ضمت الطائفة اليهودية هناك الزاهدين الذين كانوا يجلدون أنفسهم بقسوة حتى تسيل دمائهم على الحجارة المقدسة، وكانوا جميعًا ينتظرون مجيء "المسياح" المخلص، وفي زمن الانتداب البريطاني وعام 1929 بالتحديد تعرض اليهود في الخليل إلى هجوم شرس من أهل المدينة العرب، وهجوم عربي آخر عام 1936 ولاقى العديد من اليهود حتفهم في الهجومين، خصوصًا "طلاب التوراة" من اليهود المقيمين في الخليل، واليهود الوافدين لدراسة التوراة والعقائد الدينية اليهودية، حيث كانت الخليل تضم أكبر كلية دينية في العالم في ذلك الحين.

هكذا عندما يزور المؤرخ مدينة الخليل في هذا الزمان يسأل نفسه أين كل أولئك الناس الذين أقاموا يومًا في ذلك المكان؟ أين الكنعانيون؟ أين الاديمويون؟ أين الهيلونيون القدماء؟ وأين الرومانيون وأين البيزنطيون؟ لقد اختفوا جميعهم مع الزمن، لكن ظل اليهود هناك في الخليل، لذلك أصحبت الخليل تعدُّ مثالاً عن العناد اليهودي على مدار أربعة ألاف عام، وهي أيضًا تمثل تناقض اليهود الفضولي نحو ملكية الأرض والاحتلال، ليس هناك من حافظ لفترات طويلة على الوجود، وبالتعلق بزاوية معينة على سطح الكرة الأرضية كاليهود، فكانت الخليل أول مكان سجله تاريخ بني إسرائيل في قضية شراء الأرض، الإصحاح الثالث والعشرون من سفر التكوين في التوراة يتحدث عن كيف تمكن إبراهيم الخليل من شراء كهف "الماكفيله" والأرض المحيطة به ليدفن فيه زوجته سارة، واعتبروا أن إبراهيم الخليل أرسى بهذا مبدأ امتلاك الأراضي في بلاد الكنعانيين.

المؤرخون المعاصرون يتساءلون: من كان إبراهيم هذا، ومن أين جاء إلى الخليل؟ ما جاء في سفر التكوين فقط هو الإثبات الوحيد أن إبراهيم كان موجودًا، وكانت نصوص ذلك قد جمعت على شكل كتابه ربما بعد حوالي ألف سنة من أيام حياته المفترضة، وقيمة الكتاب المقدس كسجل تاريخي كانت مسألة جدل مكثف على مدى القرنين الماضيين التاسع عشر والعشرين، وكانت حتى العام

1800 وجهة النظر السائدة بين العلماء وغير العلماء أيضًا أن الكتاب المقدس هو مجموعات من روايات التوراة استلهمت إلهيًا وأنها مفصلة أحيانًا وغامضة أحيانًا أخرى، غير أن علماء كثيرين من اليهود والمسيحيين قد حافظوا لقرون عديدة عليها واعتقدوا أن أسفار الكتاب المقدس العهد القديم احتوت على مقاطع تفهم على أنها حقيقة رمزية أو استعارة أدبية.

ومنذ بداية القرن التاسع عشر الميلادي برز هناك وبازدياد نقد مهني خطير للتوراة، فالعلماء الألمان مثلاً رفضوا فكرة الاعتراف بالعهد القديم كسجل تاريخي، وصنفوا أكبر أجزائه كأساطير دينية، الأسفار الخمسة "البنتاتويخ" التي نسبت لموسى عليه السلام قدمت الآن كأساطير شفهية تناقلتها القبائل العبرانية المختلفة، والتي وضعت كتابة بعد المنفى البابلي في النصف الثاني من الألفية الأولى قبل الميلاد.

الفصل الثاني: السحر والمعتقدات الدينية اليهودية

لم يكن موسى عليه السلام الوحيد الذي تكلم مع الله وجهًا لوجه، ولم يكن وحده يمتلك قوة المعجزات الخارقة، فقد كان يقوم بالأعمال السحرية ومنها استعمال العصى التي تتحول إلى أفعى كبيرة وكذلك الحبال تتحول إلى أفاعي صغيرة، حيث كان هذا السحر يمارس في عالم الشرق الأدنى منذ القدم، حيث كان السحر يشكل أيضًا جزءًا من ديانات الإسرائيليين، وأصبح من الأعمال المقدسة في عصر موسى وهارون كما يقول الربانيون اليهود، الأنبياء السابقون على الأقل كان يتوقع منهم أن يقوموا به وكان هناك غالبًا أدوات للسحر، وكل إسرائيلي يعرف العباءات أو الجلابيب التي يرتديها الساحر حتى إن "صدقيا النبي" قد صنع لنفسه "شوفارا" من قرون الكبش (الشوفار هو البوق الذي ينفخ فيه فيحدث صوتًا مجلجلاً) وايليجا ارتدى حلة السحر ثم ورَّثها من بعده لـ "اليشا" شمشون صور المعتقد بأن الشَعر كان مصدر القوة، وكان ذلك ينعكس سلبًا على التراتيل الدينية، فلربما كان الأنبياء يستعملون حالات النشوة وربما استعملوا البخور أو المواد المخدرة لإثارة الإعجاب، في أحد أسفار التوراة ذكرت الخدعة المغناطيسية وخدعة الماء لإيقاع المرض ومعالجته، والتعرض للسموم وإعادة الحياة للأموات، وتسبب البرق وتوسيع جرار زيت الطعام ليكفي حشدًا من الناس.. الخ.

الإسرائيليون القدماء هم أول من جاءوا بمبدأ تسبيب الأسباب بانتظام لتدخل في الأسئلة الدينية، من عهد موسى فصاعدًا عبر تاريخهم المركزي للتوحيد وهذا بحد ذاته فإذا كانت هناك قوة غير أرضية؟ فكيف ستكون؟ هل هي إشعاع من الخصب أو الربيع أو الأنهر والصخور؟ إذا كانت حركة الشمس والقمر والنجوم يمكن قياسها واتباع قوانين اعتيادية لها فكيف تكون هذه الأشياء مصدر سلطة غير طبيعية في الوقت الذي يكون فيه الموضوع جزءًا من الطبيعة؟ ومن أين تأتيها القدرة؟ والسؤال الذي طرحوه في ذلك الوقت فيما إذا كان الله على قيد الحياة كيف تكون قدرته؟ هل تكون قوة استبدادية تعسفية وغير متساوية مع الألوهية؟ فكرة إله محدود هي فكرة متناقضة حين تطبق عملية تسبيب الألوهية وعلى فكرة الروح وعلى الإله الشخصي القدير.

لهذا فإن الفضيلة توجه باستمرار وبأعماله بموجب مبادئ منهجية منظمة وأخلاقية، فإذا ما تتبع الإنسان المسألة العقائدية اليهودية بالنظر إلى معتقدات القرن العشرين، يرى أن اليهودية هي أكثر الديانات تحفظًا أو تمسكًا بها، ولكنها كانت في أصلها أكثر من دكتاتورية متمردة.

ويقول الربانيون إن الله القدير منح مبدأ الروح واستنتج الإسرائيليون أن الله لا يمكن أن يكون كما تكون الآلهة الكافرة، ولم يكن جزءًا من الكون، ولا حتى كل الكون، ولم يكن واحدًا من القوى التي تصون الكون وتنظمه، بل إن أبعاده أكبر من كل هذا الكون، وأكبر من خلقه ومخلوقاته، لهذا أعطى الإسرائيليون وصفًا لقوة عظيمة للخالق أكثر من أية ديانة من ديانات الصنمية، فالله مسبب كل الأشياء من الهزات الأرضية إلى الكوارث السياسية والحربية والطبيعية، وليس هناك مصدر قوة أخرى تفوق قدراته، مخلوقات الجن من صناعة الله والألوهية وحدة فريدة لا تتجزأ، وبما أن الله ليس مجرد أكبر من العالم، ولكن بشكل غير محدود أكبر من كل شيء، وأن فكرة تمثيله أو

تقليده هي فكرة خسيسة ومهينة لعظمته، الإسرائيليون حرموا الهيكلة إلا أن ذلك لم يكن جزءًا من ديانتهم القديمة، فقد برز ذلك إلى الوجود بعد عقيدة التوحيد التي جاء بها موسى عليه السلام.

هناك تناقضات أخرى مع ما جاء في التوراة، فالعلماء المعاصرون يتساءلون كيف يمكن أن يكون الإنسان خُلق على هيئة الله كما تقول التوراة إذ أن هيئة الله لا يمكن تصورها، ولا أحد يعرف ما هي هيئة الله، لذلك فإن من غير المعقول أن يكون الإنسان نسخة مصغرة عن الله القدير، وبما أن الإنسان خُلق على هيئة الله كما جاء في الإصحاح الأول من سفر التكوين في التوراة، فإنه في هذه الحالة ينتمي إلى الله، وأن جسمه مؤجر حيث أنه لا يمتلك نفسه بشكل دائم وكامل، عدا عن كونه يحصل على مقومات معيشته من الله، ومن غير الممكن أن يحصل على أجوبة من الله حول ما يجري له في حياته، ولكن المبدأ أيضًا يعني أن الجسم (الإنسان) ينبغي أن يعامل باحترام وكرامة، وللإنسان حقوق غير قابلة للمصادرة أو التحويل، القانون الموسوي هو قانون ليس فقط قانون واجبات ولا قانون حظر ومنع، ولكنه أيضًا القانون الجنيني للحقوق، وأكثر من ذلك أنه الإعلان البدائي للمساواة، وليس فقط الرجل خلق على شاكلة الله وجميع الرجال الأفراد هم أيضًا خلقوا على هيئة الله، وبهذا المعنى هم متساوون، وليست تلك المساواة ظاهرة غريبة بل حقيقية أمام القانون الإلهي، الذي للجميع بغض النظر عن عدم تطابق الخصائص التي ربما تكون موجودة. جميع أنواع الامتيازات ضمنية وصريحة في القانون الموسوي، ولكن تقوم على مبدأ عدم التمييز بين المختلفين مع العقيدة، الجميع إضافة إلى ذلك شاركوا في قبول الميثاق وكان قرارًا شعبيًا وديمقراطيًا.

وهكذا كان الإسرائيليون يصنعون نوعًا جديدًا من المجتمع، وقد استعمل يوسفس المصطلح "سُلطة دينية"، بوضع السلطات في يد الله، الحكماء اليهود يسمونها "أخذ نير ملكوت السماء"، ربما كان لدى الإسرائيليين قضاة من نوع واحد أو آخر، ولكن أحكامهم لم تكن البديلة أو المباشرة حيث أن الله وضع القوانين ويتدخل دائمًا للتأكد بأن قوانينه تطاع، وحيث أن الجميع كانوا متساويين أمام القانون كان النظام الأول ينحصر في تجسيد الاستحقاقات المزدوجة لأحكام القانون والمساواة أمام القانون، وقد سمي ذلك الفيلسوف فيلوا الديمقراطية والتي وصفها بأنها الأفضل في الالتزام بالقانون المنبثق عن الدستور.

في عصر موسى عليه السلام كان الإسرائيليون يقوون أنفسهم مؤكدين ميلهم إلى تخريب النظام القائم، فقد كانوا شعبًا مضطهدًا قاموا ضد سيدهم المصري، الملكية القديمة الاوتوقراطية الأكثر في العالم القديم، وهربوا إلى الصحراء وتسلموا قوانينهم في مؤتمر شعبي جماعي وليس في مدينة قائمة، ولكن على سفوح جبل من زعيم لم يسمي حتى نفسه ملكًا.

يقول المؤرخون المعاصرون: "نحن لا نعرف أين كان جبل سيناء.. لربما لا زال بركانًا نشطًا، المعبد الحالي في سيناء كان دائمًا موقعًا مسيحيًا ويعود تاريخه إلى القرن الرابع بعد الميلاد، وربما يكون قبل قرنين من ذلك الوقت، وحتى لو كان ذلك قبل 1450 سنة نزل موسى من الجبل ومن المحتمل أن يكون الإسرائيليون قد أفاضوا في بلاد الكنعانيين فقد بقيت سيناء الموسوية كموقع ممتاز للأجيال ولكن التقليد قد انتهى وأصبح المكان مكان ذاكرة، وليكن هناك احتمال أن قدامى المسيحيين قد ذهبوا إلى المكان الصحيح. في ذات السياق هذا المكان الدراماتيكي بجماله الخلاب له ملائمات شعرية، إنه المكان الصحيح لتنفيذ ثورة شعبية للذين لا يعرفون قوة المدن في ذلك الوقت، والذين كانوا غير قادرين على التصور بأن هناك نظام أخلاقي للعالم.

في وقت لاحق وفي رسالة دراماتيكية عبر "ديترو عسيا" عن تمجيد اليهودية من اللا قوة في شخص خادم الله في التعبير عن المعاني التي انتصر فيها للنهاية، القديس بولص سأل: ألم يقترف الله حماقة العالم؟ ويذكر في نصوص الكتاب المقدس "أنا سوف أدمر حكمة الحكيم ولن أقدم لا شيء لفهم حكيمهم"، وكان هذا التقليد انفتح في سيناء.

بخبرتهم الطويلة كونهم غرباء أو رحالة لم يكن ضياعهم في سيناء، البلاد الجميلة والصحراوية شيئًا جديدًا أو طارئًا عليهم، غير أن هذه القصة التي دامت حوالي نصف قرن كانت تعني إثبات وحدانيتهم وطابعها الفريد في نوعه كما يشير المؤرخ اليهودي "سالو بارون" والذي يقول: "إن الله الذي يعبدونه بالرغم من عيد الغطاس على جبل سيناء ظل قابلاً للنقل كما كان في أيام إبراهيم، سكن في التابوت وهو نوع كبير من التفاصيل، أو كان حاضرًا في الخيمة النقالة، وهذا يعني أنه صلب المتحرك وأنه كان حاضرًا حتى في فترة الهيكل، والفكرة أن الله ليس له مسكن دائم، وكان ذلك قد استؤنف بعد سقوط الهيكل الذي كان الأعظم منذ قيام اليهودية. وهذا يتوافق مع الظاهرة اليهودية في كل مكان في الكون الواسع، ولكن الله يظل غير مرئي (خفي) مما يعكس التكيف غير العادي في الشعب، لهذا فإن اليهود أصبحوا مولعين باحتلال أماكن الآخرين والتوسع في أماكنهم على حساب الغير، على اعتقاد أن الله يتقدمهم في تابوت العهد وينصرهم على الآخرين.

الباب الثالث

التمهيد

في الأبواب الأولى من هذا الكتاب بحثنا بعض المواضيع التاريخية في المنطقة وعلاقة بني إسرائيل بها، وبما أن البحث ككل في هذا الكتاب يدور حول الوجود اليهودي في تاريخ الشرق الأدنى عامة وفي الحضارتين المصرية والبابلية بصفة خاصة؛ فقد رأيت أن استعرض جانبًا من تاريخ هاتين الحضارتين العريقتين، المصرية والبابلية، كل على حدة لما لهما من آثار سلبية أحيانًا وأحيانًا أخرى إيجابية، وعلى اعتبار أن جميع حضارات المنطقة مستمدة من بعضها البعض الآخر، بوجود قواسم مشتركة بينها في النواحي الفكرية والإنسانية والتاريخية والجغرافية.

الفصل الأول : الحضارة البابلية

تعريف جغرافي

الأرض الواقعة بين نهر دجلة ونهر الفرات فيما عُرف سابقًا بـ "ميسبوتاميا" واليوم يعرف بالعراق أو بلاد الرافدين أو بلاد ما بين النهرين، تتكون تلك الأرض من سهول واسعة تمتد من جبال كردستان شمالاً إلى خليج بحر العرب جنوبًا، وهي مناطق تصل مساحاتها إلى مئات الآلاف من الأميال المربعة، والتكوين الجيولوجي للجزء الشمالي من هذه المنطقة يختلف تمامًا عن تكوين الأجزاء الجنوبية منها، فالجزء الشمالي يختلف ارتفاعًا عن الجنوبي الذي يُشبه إلى حد كبير الصحراء السورية، التي تقع غربي منابع نهر الفرات وتعرف بمنابع "البليخ".

الجزء الجنوبي من بلاد الرافدين يتكون من الطمي الذي يتجمع من نهري الفرات ودجلة وفروعهما على مدار القرون التي لا تحصى، فبعد أمطار الربيع الغزيرة؛ تنمو هناك كميات من الحياة النباتية التي توفر مراعي خصبة للأغنام والجمال، وبما أنه لم تكن هناك أية وسائل ريّ منهجية، كان دائمًا من غير الممكن نمو محاصيل زراعية في أي جزء من هذه الأرض الصحراوية، ومن ناحية ثانية كون التربة في الجزء الجنوبي أو الجزء المنخفض من السهول المكونة من الطمي المخصب ترويه مياه دجلة والفرات والقنوات المتفرعة من تلك الأنهر مكَّن سكانها منذ الزمن السحيق من إنتاج محاصيل الحبوب هناك، كما مكنهم من زراعة السهول بنجاح فائق، زرعوا أيضًا أنواع أخرى من الأشجار المثمرة، السهل الواسع بين دجلة والفرات الممتد في الجنوب الشرقي والذي يحلو لبعض الكُتَّاب أن يطلقوا على الجزء الشمالي منه اسم "ميسبوتاميا"، والجنوبي "بابلونيا"، أين ينتهي الجزء الشمالي في الجنوب أو الجزء الجنوبي أين يبدأ في الشمال غير معروف، والسهل الممتد بين دجلة والفرات يشبه إلى حد كبير السهول حول نهر النيل في مصر والجزء الجنوبي من الدلتا المصرية، ويعتقد أن السهل يتكون نتيجة تجمع كميات كبيرة من الطمي من نهرين كبيرين، والسهل المصري تكون من كميات الطمي التي حملها نهر النيل، حيث أن الحياة في مصر كانت تعتمد دائمًا وأبدًا على النيل ذاته، لهذا فإن الشعوب التي أقامت بنجاح في بابلونيا مدينة بوجودها إلى التطور الكامل للنهرين الكبيرين خصوصا نهر الفرات كما كان الحال في مصر أيضًا.

سكان بابلونيا الأوائل عرفوا بالسومريين، وكانوا يسمون نهر الفرات بـ "يورانون"، كما كان قدماء المصريين يسمون نهر النيل (ياؤر) أما البابليون والآشوريون فكانوا يسمونه "بوراتو"، والفرات يتكون من ملتقى نهرين في ديادين، وهما كما كان السكان يسمونهما في ذلك الوقت "كاراسو ومرادسو"، اللذان صعدا صعيده إلى علو يزيد على 11000 قدم فوق سطح البحر، الأول كان حوالي 275 ميلاً طولاً والثاني 415 ميلاً، وطول نهر الفرات من منبعه إلى مصبه يبلغ 1800 ميل وينحدر مجراه قدمًا واحدًا كل ميل، على طول مسافة قدرها 1200 ميل، يبدأ منسوب المياه فيه بالارتفاع في نهاية شهر مارس/ آذار وفيضانه في نهاية شهر مايو/ أيار، يلتقي مع نهر دجلة وجداوله المتفرعة في بلدة "القرنة" العراقية الحالية قرب مدينة البصرة في المنطقة التي تعرف بـ "شط العرب" ويصب في خليج بحر العرب الذي يبعد عن القرنة حوالي 80 ميلاً إلى الشرق، في الزمن القديم كان رأس الخليج يمتد حوالي 130 ميلاً في الأرض، وهذا ما أثبتته الآثار التي وجدت في مدينة "ايريدو" التي كانت على ساحل البحر.

دجلة قرب بحيرة "غيولجيك"، في مكان يبعد عدة أميال فقط عن "مرادسو" يرتفع عن سطح البحر حوالي 5000 قدم وقد تشكل من التقاء نهرين صغيرين في "تيل" ومن هناك إلى "القرنة" حيث يلتقي مع نهر الفرات كما سلف ذكره، وطوله حوالي 1150 ميلاً، وفي العصور القديمة كانت له روافد على ضفته الغربية تعرف بـ "ثارثار وأسيس أمير"، أما على ضفته الشرقية فهي زيبح الكبير وزيبح الصغير وديالا، وكان السومريون يسمونه "انديغا" مضيفين بعض الأحيان إليه "إد دنغال –لا" أي النهر العريض باللغة السومرية واسمه عند البابليين والآشوريين كان "إدي-بك-لاب".

يبدأ نهر الفرات بالارتفاع في نهاية شهر سبتمبر/ أيلول، وفيضانه الكبير يحدث في شهر مايو/ أيار، ويرتفع منسوب المياه فيه بسرعة كبيرة عندما تذوب الثلوج التي تسقط على التلال وفي أماكن أخرى خصوصًا على ضفته الغربية، ومياهه تغمر عدة أميال من البلاد، والعواصم الآشورية "نينوى وكالا"؛ كانتا قد أقيمتا على ضفته الشرقية، و"كالعادة شاركت" مدينة آشورية على ضفته الغربية، ويبدو أن نهر دجلة يخترق عدة بلدان ومن المحتمل أنه كان في القرنين السابع والثامن بعد الميلاد، قد غير مجراه إلى القنال في المقابل لمدينتي "الكوت والعمارة" الحاليتين، هذا القنال يبدو أنه بدأ نتيجة لاندفاع الماء من قناة "نهروان" التي تدفقت من دجلة قرب تكريت وروت كل الأراضي على ضفته الشرقية وعلى مسافة طولها 200 ميل، ودجلة دخل إلى ذلك القنال المعروف اليوم بـ "شط الحية" أو نهر الأفعى ويجري عبر البلاد ويمر في المحافظة العراقية المشهورة "واسط"، وأخيرًا يصب في المستنقع الكبير الذي تأتيه المياه أيضًا من نهر الفرات، والمستنقع الكبير يبلغ طوله حوالي 200 ميل وعرضه 50 ميلاً ويصل جنوبًا إلى مدينة البصرة، عندما امتلأ شط الحية لسبب أو لآخر بالطمي، ربما لإهمال القناة وعدم الاهتمام بها، عاد دجلة إلى مجراه الأساسي، حوالي القرن الخامس عشر الميلادي.

الفصل الثاني : ملوك ميسبوتاميا وحروبهم

في الفترة الزمنية الصعبة التحديد صارت "لاغاش" مدينة قوية إبان فترة حكم "اورنينا" حوالي 3000 قبل الميلاد، ربما كان ذلك بسبب التصدع الذي أصاب سلطة ورثة "ميساليم" الذي آل حكمه إلى ملوك حكومات مدن أخرى "اورنينا، غوندودو"، والذي لم يكن بمولده من أصل ملكي، وكان عمله الرئيسي ينحصر في إعادة بناء أسوار مدينة "لاغاش"، كان تقيًا ورعًا متعبدًا لآلهة مدينته ولم يكن قد أصلح أو استبدل نظام القنوات التي عادت بالفوائد الكبيرة على شعبه، خلف اورنينا في الحكم ابنه "إكورغال" الذي جاء بعده أيضًا "إرناندو" الذي كان يعتبر أعظم ملك في عائلة "لاغاش" الملكية، وفور مباشرة حكمه كان الملك "أوما" لا يلتفت إلى الاتفاقية القديمة، فقام بنهب منطقة تخص الإله "نتينوغيرسو"، الأمر الذي دعا الملك "إيماندو" ليجمع جيشه ويلتحم في معركة مع المعتدي، الذي تراجع وجيشه إلى مدينتهم ومعهم منهوباتهم، وأعطى الإله العظيم "نيبور" رجال "لاغاش" النصر ومكنهم من تدمير أعدائهم، في تلك المعارك خاض الملك بنفسه المعارك، تمامًا مثل الفرعون "رعمسيس الثاني" في مصر، الذي حمل على أعدائه وقتل منهم 3600 محارب.

"الملك اوما" الذي كان يسمى "أوش" هرب ثم قُتل، وعقد "إينياندو" اتفاق سلام مع خليفه "اوما" (بنكالي)، ورسّم حدودًا جديدة لمملكته وكرس المزارات إلى "إنيليل" وإلى "نينخارساغ" و"نيغيرسو" و"بابار" ولكي يخلد انتصاراته أقام في مكان بارز من مدينته كشاهد يعرف اليوم "بشاخص النسور"، وفي إحياء الذكرى كانت هناك النحوت للآلهة للمشاهد الأسطورية التي تصور الأحداث الرئيسية لحروبه. جزء من هذا الشاخص لا زال محفوظًا في المتحف البريطاني، وعلم أيضًا أنه حصل على المياه لمدينته بإغراق الآبار، هزم قوات الملك "كيش" وسار عبر مدينته وأصبح ملك سومر وأكاد، وكان أكبر ملك في العائلة الملكية، وفي ظل حكمه حصلت "لاغاش" على ازدهارها وقوتها الكبيرة.

جاء إلى الحكم من بعده أخوه "إينانادو الأول" الذي رأى منذ البداية أن يشهر السلاح ضد الملك "اورلوما"، الذي حطم الشواخص التي كانت اتفاقية السلام نُقشت عليها، وحرق قطعًا منها ودمر المزارات الخاصة بالآلهة الحارسة، ثم غزا أراضي "لاغاش". سرق الشعب ونهب محاصيلهم وممتلكاتهم، والمقاومة التي قادها "إنانادو" لم تكن مؤثرة ولم يتمكن المقاومون من كسر قوة الملك "اورلوما"، وهنا بدأت قوة لاغاش بالتراجع في ظل حكم "إنانادو"، وخلفه في الحكم ابنه الأكبر "إنتمينا" الذي وجد نفسه في حالة حرب مع "أورلوما"، وتقابل مع أورلوما وجنوده وحلفائه على حدود "لاغاش"، وحمل عليهم ففروا من ساحة المعركة مخلفين وراءهم ستين قتيلاً في أرض المعركة. لاحق انتيمنا الفارين وغزا أراضي "اوما" ودخل المدينة واحتلها دون مقاومة، وذبح اورلاما وضم اوما إلى مملكته، وعين الكاهن "إللبي" ملكًا عليها وأمره أن يدير المنطقة المكتسبة وأن يجمع ويرسل إلى "لاغاش" الجزية من الحبوب التي احتاجها من سكان "اوما"، وأمر بنقش مآثره على شاخص يوضع في مكان بارز في المنطقة وأن ينقش على مجموعات من قطع الخزف

التي دفنت في أساسات المباني، واستعاد بذلك عظمة "لاغاش" وقوتها خلال حكمه الذي دام 29 عامًا ووهب جزية "اوما" لشعبه.

من بعده تولى حكم "لاغاش" ابنه "إنانادو الثاني" الذي لا يعرف الكثير عنه، أما الملك الذي جاء بعد "إنانادو الثاني" كان "اوركاغينا" الذي حكم عام 2700 قبل الميلاد، ولكن بين حكم "إنانادو الثاني" و"اروكاغينا" كانت مدينة شيربورا تحكم من قِبل إنيتارزي ولوغال، ولكن حكم هؤلاء كان قصيرًا وجميعهم كانوا من الكهان في المعابد وكانوا متعصبين دينيًا. عندما حصل "اورروكاغينا" على السلطة العليا نصَّب نفسه ملكًا، ولكن بعد بضع سنوات رفض هذا اللقب وأعلن نفسه ملكًا على "شيربورا" فقط، كما رفض الأجداد السابقين ووجه صلواته إلى الإله "نينشاخ" بدلاً من "نينغريسو"، من كتاباته يستدل على الانتهاكات الخطيرة التي أصابت الخدمات الإدارية للمدينة، الحيوانات المقدسة والملكية استعملت لأغراض علمانية، الرشوة والقمع والقسوة مورست بشكل وافر وتفشت في كل مكان. عمل "اورروكاغينا" على تجنب كل تلك الانتهاكات واستعاد ممتلكات الآلهة لاستعمالها بالطرق الصحيحة، واهتم كثيرًا برفع المظالم عن شعبه وتجنب امتيازات الكهّان، فقلل أعداد الرسميين في جميع الدرجات وجعل حياة طبقة الفلاحين أكثر أمنًا وراحة، وألغى كل ما هو خطأ، مستوحيًا الإله "نينغريسو" ليعينه في إنجاح أعماله، ورسم مجموعة من القوانين التي سبقته، القوانين الشبيهة جدًا بقوانين حمورابي التي سبقته بحوالي ستمائة عام، بنى وأصلح عدة معابد وأقام أضرحة وحسن نظام القنوات الخاصة بالمدينة، وبنى خزانًا ضخمًا للماء، أصلح سور المدينة وعمل الكثير لتحسين وضع لاغاش، وفي حماسه من أجل استفادة الفلاحين أو العمال في الأرض قام بتقليص سلطات الرسميين الكبار واحتفظ بجيش لحماية مدينته ضد الهجمات التي ربما تقوم بها دول المدن المجاورة، ضعف لاغاش كان قد ابتدأ قبل أن ينصب اوروكاغينا نفسه ملكًا عليها وما كان متوقعًا قد حصل، ملك "لوغال زاجيسي" كان يراقب الأحداث والتطورات التي تجري في "لاغاش" وعندما سنحت له الفرصة قام بغزو المنطقة وخرب المدينة ودمرها، وهكذا انتهت لاغاش كحكومة مدينة، وعزا "لوغال زيجيسي" انتصاره هذا إلى "إنليل" الإله الكبير لنيبور، وكرس الإله الذي يعبده للمعبد، وكان يقول إنه ملك إيريش وملك الأرض، وكل البلاد هي ملكه من مكان شروق الشمس إلى مكان غروبها، ومن البحر المنخفض والفرات ودجلة إلى البحر المرتفع، بهذا التصريح الأخير فكر البعض أن حكمه امتد من الخليج الفارسي جنوبًا إلى البحر الأبيض المتوسط غربًا، وتلك كانت مملكته تشمل "أكاد وميسوبوتاميا الشمالية"، وفيما إذا كان الأمر كذلك أم لا لأن من الواضح أن "لوغال- زاجيسي" كان حاكمًا قويًا وأنه كان ملك الجزء الأكبر من "بابلونيا"، وليس معروفًا كم عدد السنين التي حكم فيها، إلا أن البعض يفكرون أنها زادت عن 24 سنة.

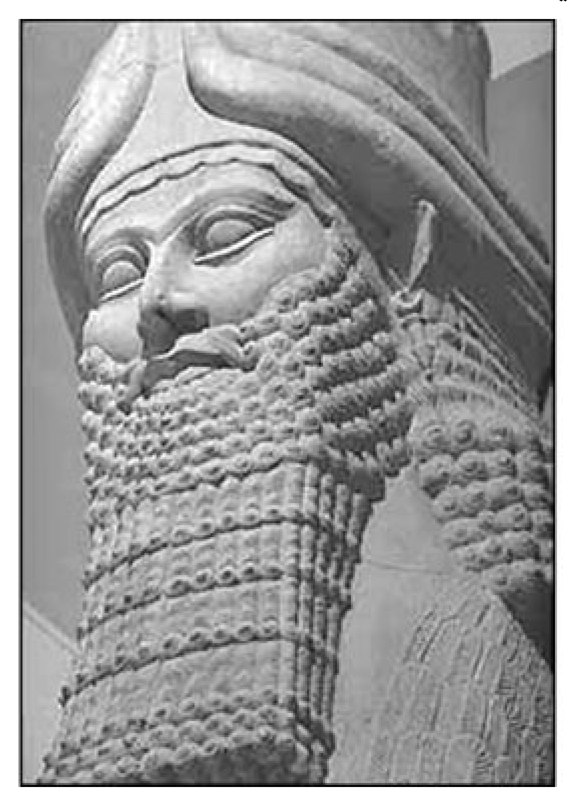
خلال حكم "لوغال – زاجيسي" وتطور قوة السومريين نمت قوة الساميين في أكاد، ومدينتهم كيش احتلت أهمية كبيرة، أكبر الملوك الذين حكموها كان المحارب الشديد "شارو- كين"، المعروف باسم "سرجون" الذي حكم فيها لمدة 55 عامًا، فكانت فترة حكمه من (2637 – 2582) قبل الميلاد، وكان هناك جدل كثير يدور حول حكمه، حيث أنه ذكر في اسطوانة "نابونيدوس" في المتحف البريطاني أن "مرام – سن" أحد خلفاء "سرجون" قد حكم حوالي العام 3750 قبل الميلاد.

"سرجون" هزم "لوغال – زاجيسي" وجعل نفسه السيد الأعلى لكل دول المدن السومرية، ونصَّب نفسه على "أجيد" الموقع الذي لم يكن معروفًا من قبل، وسار بجيشه إلى ميسوبوتاميا العليا وهزم الممالك التي كانت في غرب نهر الفرات وشرق دجلة، ويقال إنه وصل البحر الأبيض المتوسط واحتل جزيرة قبرص، وحسب الأسطورة التي كانت شائعة في آشور كان هو نفسه ابن أحد الفلاحين.

أسطورة مولد سرجون أغيد

(من صفائح المعهد البريطاني المرقمة 44601 و3401)

أنا سرجون الملك القدير ملك أغيد كانت أمي من الطبقات المتواضعة وأنا لا أعرف والدي، شقيق والدي (عمّي) كان من سكان الجبال (رجل غابات)، مدينتي هي: أزوبيريني التي تقع على ضفة نهر الفرات، "آكي" الرجل الذي يروي الحقول جعلني بستانيًا له وعندما كنت بستاني وقعت الآلهة "عشتار" بحبي، وحكمت المملكة لأربع سنين. الأم المتواضعة حملت بي وأنجبتني سرًّا، وضعتني في سلّة مصنوعة من البوص ودهنت بابها بالقار، ووضعتني في النهر الذي لم أغرق فيه، حملني النهر إلى "آكي" الرجل الذي يروي الحقول بالماء "آكي" الرجل الذي يروي الحقول التقطني واتخذني ولدًا له.



- سرجون الثاني -

عالم الأثار البريطاني "رولنسون" وضع نسخة من هذه الأسطورة على لوحة في المتحف البريطاني في 7 سبتمبر/ أيلول عام 1867 وقام جورج سميت بتحرير نص اللوحة هذه في كتابه "ترجمة مجتمع اركيولوجيا التوراة" وعزا العالمان هذه الأسطورة لسرجون الذي كان بطلاً قوميًا ومحبوبًا على مدار ألفي عام.

سرجون أجاد خلفه ابنه ريموش 2581 قبل الميلاد الذي سمى نفسه "ملك كيش"، ويبدو أنه لم يتمكن من إضافة أي شيء إلى المنطقة التي اكتسبها والده، قتل من أحد حراس القصر، إبان حكمه

وحكم أخيه "مانيشتوسو" 2572 قبل الميلاد الذي جاء بعده، تمرد العيلاميون عليه وساعدهم شعب "باراخوسو"، النصب التذكاري "اوبليسك مانيشتوسو" الذي وجد في "كتابات شوش أو شوشان أو سوسا الطويلة" كان تسجيلاً لشراء الملك أراضي معينة، إخماد التمرد في عيلام كان مسألة صعبة للملك الذي أجبر على محاربة اتحاد من 32 شخصًا كانوا يعيشون قرب الخليج الفارسي، ويبدو أنه وضع شاهدًا لتسجيل انتصاره عليهم في مدينته "أجادي" أو "أكد"، تماثيل الملك وجدت في "شوش" وعلى إحدى الكتابات ذكر أنها أحضرت من "أكاد" من قبل "شتروك ناخوني" واحدة منها تقول إن الملك نفسه أحضرها من "اشنوتكو"، الاثنتان تمثلان بطولات الحرب.

خلفه في الحكم ابنه "نارام – سن" الذي حكم بين 2557 – 2520 قبل الميلاد كما ذكر في صيغ الفال في الفترة المتأخرة أنه كان محاربًا عظيمًا وفاتحًا كبيرًا، وقد وصف نفسه بأنه "ملك الزوايا الأربع للعالم" احتل مدينة إبيراك وهزم ملك "ريشو – اداد"، وفتح أرض ماجان غرب بابلونيا، وتقول الكتابات التي وجدت على نصبه التذكاري أنه خاض تسعة حروب في سنة واحدة في البلاد إلى الشمال الشرقي لعيلام، وهزم اتحادًا من الشعوب التي عارضت تقدمه، وأقام شواهد في أكاد ليحيي ذكرى انتصاراته وأقام منحوتات تصوِّر قوته في المعارك، وجدت هذه الشواهد في "شوش" وبالإضافة إلى كتابات "مارام – سن" التي تقول أيضًا إنه كان أحضر بدون شك بطولات الحرب إلى شوش من قبل شاتروك نخاخوتني ملك ملوك العيلاميين.

مرام سن أعاد بناء معبد "عنليل" في نيبور ومعبد إله الشمس في "سيبار" وقدم هدايا للمعابد الخاصة وعدَّه آلهة من آلهة "لاغاش"، كما وجد في بير حسين بقرب ديار بكر شواهد معتبرة لنارام – سن تذكر بأن الملك هزم أعداءه في زوايا العالم الأربع وتمثالاً وأهداه إلى الإله "انكي" أو "إيا" هذا التمثال يظهر أن حكم نارام – سن امتد إلى المنطقة في أعالي مياه نهر دجلة وتأكيد على إنجازاته العسكرية العظيمة ورثة نارام – سن كانوا "شار – غالي – شاري" (2519 – 2496 ق. م) أجيجي 2492 ق.م نانوم عيلولو وابنه شودرول 2471 ق. م، فبينما كان نارام – سن يضيف بلدًا وراء بلد إلى مملكته كانت قوة "أكاد" تتراجع وبعد وفاته مباشرة بدأ الجوثنانيون الذين يعيشون على ضفة دجلة الشرقية غزوهم وما كان "شار-غالي- شاري" قادرًا على صدهم فخسر المنطقة تلو الأخرى حوالي عام 2457 ق.م، وهكذا انتهت العائلة الملكية لسرجون بعد 181 عام، الجوثيون بالنهاية فتحوا أكاد وحكمت عائلتهم الملكية البلاد لمدة 125 سنة، أسماء حوالي عشرين منهم عرفت وطرد السومريون الحوثيين من البلاد بقيادة الملك "إيريش" اورو – خيغال وكان أخر ملوكهم تريجان، من عائلتهم الملكية خمسة ملوك حكموا لمدة لا يعرف طولها بالضبط، ولم تكن هناك سلطة مركزية في بابلونيا، وكل ملك أو زعيم كان يعمل ما يراه من وجهة نظره الشخصية حسنًا، ملك "لاغاش" استعاد تدريجيًا بعض الشيء من سلطانهم السابق، وخلال وقت قصير أصبحت المدينة غنية ومزدهرة وقد عرفت أسماء أربعة عشر ملكًا من ملوك "اغاش" أو القليل منهم كانوا على مقدرة كبيرة ومتعددة وكانوا مثقفين ثقافة عالية، الملوك لاغاش الجديدة المبكرين كانوا "لوغال- اشوم غالي – أوري بوزور – ماما، اوجمي واورماما" ولكن لا يعرف الكثير عنهم. الملك الثاني كان "اوربا" الذي وسع معبد "إرنونو" والمعبد الكبير "نيجيرسو" في لاغاش وأقام لنفسه نصبًا تذكاريًا صغيرًا فيها وأعاد بناء أو وسَّع معابد أخرى كثيرة وكرَّس جهوده لتوحيد قوة مدينته ولم يحاول أن يقوم بفتوحات خارجية.

الملك المهم الذي جاء من بعده كان "جوديا" في عهده وصلت المدينة أعلى درجات الازدهار، إذ كان رجل أفكار كبيرة وباذخ كما تشهد على ذلك مبانيه وتماثيله، ولم يدخر وسعًا في جعل مدينته جميلة حيث أن قدراته المعمارية كانت عظيمة، وإلا ما كان نجح بدون شك، المواد التي استعملها في البناء جلبت من عدة بلاد بعيدة، ومن ضمن هذه المواد خشب الأرز والذهب والفضة والنحاس والرخام وأخشاب غالية الثمن ومن أصناف متعددة، قوافله تاجرت مع السوريين والعرب والعيلاميين وأحضر صنادل بحرية وانشأ الطرقات إلى مقالع الحجارة، في الحقيقة كان ملك تجارة، والتجار الذين تعامل معهم في البلاد البعيدة لم يكن لديهم الشك حول قدراته المالية، تماثيله وجدت في "تل لوح"، وهي نماذج مرموقة من القبور السومرية، وكان من صنعوها أو نحتوها يدويون على مستوى رفيع من المهارة والحرفية، سلندرات الطين المشوي الآن توجد في متحف اللوفر بفرنسا، وقد سجل عليها أعماله وهي أفضل تذكار له برغم أن ما فيها لم يذكر إلا القليل من المعلومات التاريخية، فهي تأليفات متصلة كاملة بذاتها ولها قيمة لا توصف لطلاب اللغة السومرية.

هذه الأجسام وجدت في "تل لوح" وتبين منها أن جوديا أحب المباني وكان غرضه الرئيسي في الحياة أن يجعل مدينته جميلة، فكان راعيًا للفنون والمهن الفنية اليدوية في عصره، وفي سبيل تطوير هذه الفنون المهنية أنفق ثروة كبيرة من تلك التي حصل عليها من تجارة القوافل، وعلى أي حال كان هو بالنسبة إلى "لاغاش" كالفرعون أمنحوتب الثالث بالنسبة لمصر، جاء من بعد جوديا ابنه اورنينغرسو وكانت فترة حكمه قصيرة وبموته انتهت سلطة وقوة لاغاش.

الحكام المتعاقبون لبابلونيا كانوا الملوك الخمسة في أور، والذين دام حكمهم عشر سنوات (2294-2187) قبل الميلاد، الأول من هؤلاء كان "اوراغور" أو "اورمامو" الذي حكم 18 سنة، قام خلالها بتحصين المدينة وهاجم مدن "تيريش ولارسا زونيبو" وأصبح سيد الدول الجنوبية في "أكاد"، بنى المعابد لآلهة المدن التي احتلها وضمن دعم كهانها، جاء من بعده ابنه "دونجي" أو "شولجي"، الذي حكم حوالي 45 سنة، وخلالها مد حدود بلاده في "عيلام"، وعلى طول الضفة الغربية لنهر دجلة، وثبت حكمه على "أكاد" ولسبب أو لآخر أحيا عظمة وأهمية "إنكي" إله "يرودو القديم"، وهي مدينة تقوم على ساحل البحر لغرب رأس الخليج الفارسي، وكانت من أقدم المدن السومرية، ولم يكتفِ باحتلال "أكاد" إذ سار إلى بابل ونهب معبد "ي- زيدا" ونهب المدينة وخرب مزار الإله فيها، وطبيعي أن ينزل درجات كهانها وأن يقيم القانون والنظام في تلك البلاد غزو بلد وتجريدها وتركها والعودة إلى وطنه بعد تخريبها لم يكن جزءًا من حساباته السياسية، فقد حدث الأوزان والموازين لبابلونيا وأسس نظام تأريخ الوثائق، "دومجي" ألَّه نفسه وتبع أحفاده من بعده مبادئه، كان قد ورثته ابنه يوسن أو "أمار- سن" وحفيده "عميل – سن" أو "شو – سن"، "إبي – سن" خلال فترة حكمه القصيرة التي دامت ثمان سنوات فقط، لم يقدم الكثير لبلاده ويبدو أنه كان مسالمًا أو لديه نزعة الكسل. ابنه "غميل – سن" الذي كانت فترة حكمه قصيرة وجد الساميين من الشمال يزحفون على ممتلكاته، فكان مرغمًا على بناء سور عظيم على الجانب الغربي لمدينة أور ليمنع أو يعيق غزوهم لأراضيه، عمومًا العائلة الملكية في "أور" انتهت ليس من الزحف من الساميين الشماليين ولكن من "العيلاميين" الذين أغاروا على "أور" وأخذوا "إبي – سن" أسيرًا، ولم يكن هناك أحد في أور ليرثه، وهكذا فإن سيادة بابلونيا انتقلت من أور إلى "إيسين" التي

تحولت إلى مدينة ملكية، أما موقع المدينة الصحيح فهو غير معروف، لكن من المحتمل أنه يقع قليلاً إلى الشمال من "نيبور".

كان مؤسس العائلة الملكية في "إيسين" "اشبي – ارا" الذي حكم 32 سنة من (2186 – 1961) ق.م، وأهمهم كانوا "اشمي – داجان" و"ليبيت عشتار" و"أور- إنورتا" و"بور – سن"، أما العائلة الملكية المعاصرة مع الساميين في "إيسين" كانت عائلة "لارسا" التي تكونت من ستة عشر ملكًا، حكموا 287 سنة (2187 – 1901) قبل الميلاد، مؤسس هذه العائلة الملكية كان "نابلاتوم"، حوالي 1997 قبل الميلاد عندما كانت قوة ملوك "إيسين" تنخفض بسرعة، الملك العيلامي "كيدو- مابوغ" الذي جعل نفسه سيد أراضي بابلونيا الشرقية؛ نصَّب أبناءه "وأراد – سن وإرم – سن" ملوكًا على "لارسا" وحكما هناك 12 عامًا و6 أعوام على التوالي. "إرم – سن" حطم قوة ملك "إيسين" واستولى على مدينته وممتلكاته في "سيبار" وفي "بابل" أيضًا.

حوالي عام 2057 قبل الميلاد بدأت أول عائلة ملكية سامية تحكم في مدينة "بابل"، مؤسس هذه العائلة الملكية هو "صبواني" الذي حكم ثلاث عشرة سنة، وتكونت هذه العائلة من أحد عشر ملكًا، وجميعهم حكموا لمدة ثلاثمائة سنة تحت حكم الملوك "صموليلو – صابوم – بين – سن وسن – موباليت"، ازدهرت سلطة البابليين بشكل كبير، ولكنها كانت من خلال حكم حمورابي الذي كان الملك السادس في العائلة الملكية، والذي حكم حوالي 42 سنة، حيث وصلت بابل في عهده إلى أوج نفوذها وبهائها، وكانت المدينة الأولى في بابلونيا، فقد سار بجيشه ضد "رم – سن" الذي كان قد احتل "إيسين" وأخذ لارسا وملكها أسيرًا، وهكذا انتهت قوة "لارسا" وقام بحملات على "سومر" في بابلونيا العليا وآشور وكان منتصرًا في كل مكان، ومن ضمن المدن التي خضعت له كانت نينوى وآشور فلم يكن محاربًا كبيرًا فحسب، بل كان أيضًا حاكمًا منظمًا وفكَّر أن لا شيء أهم من مصلحة مملكته مهما كان صغيرًا أو غير مهم يستحق المراقبة الشخصية، رغبته كانت أن يجعل شعبه شعبًا يحترم القانون الذي جمعه، وكان من الواضح من ذلك القانون أن لا مملكة يمكن ألا تتحمل حكم العدالة المزدوجة بالحكمة والإنسانية، فكان بدون شك أعظم ملك في بابلونيا، وربما أعظم رجل أنجبته البلاد.

كان قانونه يقوم على أساس القوانين السومرية القائمة، بعض الكُتَّاب يفكرون أن حمورابي يجب أن يقارن بـ "امرافل" ملك "شنعار" الذي مع "اريوش" من "الإيليسار" "شيدورغامير" ملك عيلام وتيدال ملك غوييم غزوا فلسطين (حسب سفر التكوين – الإصحاح الرابع عشر) الذي ربما يكون شكل مشوه لاسم حمورابي وتيدال، الذي يبدو أنه اسم "حثي"، وذكر ملك بابل مع ملك "حثي" لا يفاجئ أحد، فهناك حلقة عيلامية في صوت "شيدورلامور"، بالرغم من أن "إيليسار" ربما يمثل "لارسا" ملكها "ارنوخ"، من الصعب تعريفه ولكن يحتمل أن يكون بيان سفر التكوين في التوراة اليهودية له أسس سياسية، أما النص الذي جاء في الإصحاح الرابع عشر من سفر التكوين فهو كما يلي:

"وحدث في أيام امرافل ملك شنعار واربوك ملك لاسار وكدرلعومر ملك عيلام وتدغال ملك جوييم أن هؤلاء صنعوا حربًا مع "بارع" ملك سدوم وبرشاع ملك عمورة وشناب ملك أدمه وشمئبر ملك صبوئيم وملك بالع التي هي صوغر، جميع هؤلاء اجتمعوا متعاهدين إلى عمق السديم الذي هو بحر الملح، اثنتي عشرة سنة استعبدوا كدرلعومر والسنة الثالثة عشرة عصوا عليه، وفي السنة الرابعة عشرة أتى كدرلعومر والملوك الذين معه وضربوا الرفائيين في عشتاروت قرنايم،

والزوزيين في هام، والأميين في شوي قرنايم، والحوريين في جبلهم سعير، إلى بطمة فاران التي عند التربة، ثم رجعوا وجاءوا إلى عين مشفاط التي هي في قادش، وضربوا كل بلاد العمالقة، وأيضًا الاموريين الساكنيين في حصون تامار".

وباعتبار أن حمورابي وامرافل ملك شنعار التي تتحدث عنهما التوراة في سفر التكوين كان عصرهما في بداية الألفية الثانية قبل الميلاد ولم يكن موسى صاحب سفر التكوين قد جاء إلى الحياة بعد، حيث أن عصره هو القرن الثاني عشر قبل الميلاد، أي في الربع الأخير من القرن الثاني قبل الميلاد، أي أن بين موسى وامرافل وحمورابي لا يقل عن 600 سنة، كما أن التوراة كتبت في بابل العراق بعد وفاة موسى عليه السلام بحوالي سبعمائة سنة، وبهذا يكون الفارق الزمني بين سفر التكوين وحمورابي وامرافل ما لا يقل عن 1300 عام. فكيف يكون موسى قد كتب ذلك النص قبل ولادته؟ وهذا ما يؤكد أن مدونوا التوراة قد وضعوا هذا النص في البنتاتويخ من بنات أفكارهم وعلى أسس سياسية محضة، كما لا توجد هناك في تاريخ ميسبوتاما أي إشارة إلى قيام حمورابي بغزو فلسطين ولم يحتل أي مكان في أرض كنعان كما جاء في التوراة، وسوف نعود لهذا الجزء من البحث لاحقًا في هذا الكتاب حين نعرض إلى فصل يتعلق بادعاءات اليهود والمبالغات فيها.



- حمورابي -

رسائل حمورابي ومنقوشاته تؤكد أنه كرَّس الكثير من اهتماماته لشؤون مملكته وأن القرارات التي اتخذها تظهر بأنه عامل الشعب بالعدل وباحترام لما هو يعتقد به أن يكون رعاية مصالحهم، إذ كان يصر على تحويل المسائل الصعبة إليه شخصيًا ليتخذ بشأنها القرارات المناسبة ولم يترك أي تفصيل إداري مهما كان صغيرًا أو غير مهم إلا ويهتم به، وقد أدى ذلك كما يتبين من رسائله التي حررت بإعجاب من قبل (L.W. King) في مجلداته الثلاثة "رسائل ونقوشات حمورابي" والتي صدرت في لندن بين (1898 – 1900 ميلادي).

المثال التالي من أعماله أن أحد صفائحه الموجودة في المتحف البريطاني تحت رقم 12812 تفيد أن الملك "سن –اندينام" قد أبعد من وظيفته "جميلوم" ونقل خدماته إلى دائرة أخرى، وكتب حمورابي إلى "سن – ادرينتام" يخبره أنه تسلم تقريرًا من "ايني مارتو" النقاش للوحات "ايمتبالوم" بخصوص الخبازين الأربعة، (الذين يشوون الطين لتحويله إلى خزف)، وَرَدَّ "ايسن ايدنام" أن الخبازين الأربعة كانوا عينوا لديه بموجب سلطة الختم (وثيقة تحمل ختمًا) وأنه كان يرسل واحدًا من الشوايين وهو جيميلوم ليمثل أمام الملك حمورابي، وفي الوقت الذي وصل فيه جيميلوم وعلى وشك أن يكون في حضرة الملك، ذكر بقضيته حمورابي، الذي استمع إلى ما قاله جيميلوم واستفسر عن صحة أقواله، فقرر إعادته إلى وظيفته التي كان يشغلها بين الشوايين، وعليه أمر بالكتابة إلى "سن – يدينام" يخبره أن جيميلوم يجب أن يعود إلى عمله، وأن يرسل شخصًا آخر مكانه في الدائرة.

الفصل الثالث : مدينة بابل

اسم مؤسس بابل وتاريخ تأسيسها غير معروفين، موقعها جعلها منذ أقدم العصور السوق المركزية للقوافل التجارية من الغرب والشمال والشرق، والقوافل من الجنوب أيضًا وكانت في جميع فترات مراحلها المحطة النهائية للقوافل، بعض الأشياء التي اكتشفت في أعمق طبقات الأثار هناك تشير إلى أنه كانت هناك مستوطنة تقوم في فترة العصر الحجري الحديث، وبابل تدين بكل شيء لموقعها الجغرافي وهذا الذي جعل المدينة تصمد أمام سلسلة من الهجمات المدمرة التي واجهتها خلال الأربع أو الخمس آلاف سنة من وجودها، قيمتها الحقيقية اعترف بها رجال القانون العظماء والحكماء، حمورابي الذي وسَّعها وقواها واتخذها عاصمة له، يخبرنا في مخطوطاته الأولية من القوانين أنه عمل من أجل معبد "ايليل" في نيبور، وكيف استعاد مدينة "ايريدو"، وهي ربما تكون أقدم مدينة في بابليون، ويواصل قوله إنه ضخم اسم بابل وأسعد قلب الإله "ماردوك" وماذا فعل لأعظم معبد في بابيلون معبد "ايساغيلا".

السومريون سموا المدينة "أكاد دنغيرا" بمعنى بوابة الإله، وأيضًا تنتيرا بمعنى "أيكة الحياة"، الآكاديون البابليون الساميون ترجموا الاسم السومري "أكاد دينغيرا" بـ "بابيلو"، وهو أيضًا يعني بوابة الإله، حاخام يهودي يذكِّر بتبلبل الألسن فيها الذي حدث عندما توقف البناء في برج بابل، الجغرافيون العرب عرفوا تمامًا أين كان موقع مدينة بابل، ولكن من بين الجوالين الأوروبيين واحدًا من الأوائل تعرف على موقعها وكان هذا "بنيامين تودلا"، الحاخام اليهودي الذي زارها عام 1173 وجاء من بعده "بيتوس اودوريكوس" ودون إلدرد ورالف فتش وليديس وجون ستيوري ورالف في القرن السادس عشر الميلادي بيترودلا فالي، عمانوئيل القديس وكثيرون غيرهم في القرن الثامن عشر الميلادي..

وهنا لابد من السؤال لماذا كان هذا الاهتمام اليهودي بهذه المدينة؟ هل لأنها كانت خالية من اليهود الذين تم سبيهم إليها كما تقول التوراة؟ أم أن هناك أهدافًا من وراء تلك الزيارات والتنقيب عن الأثار فيها؟ هل كان لفبركة وجود لبني إسرائيل هناك، خصوصًا وقد لاحظنا أن الإصحاح الرابع عشر في سفر التكوين يخلط بين أسماء المدن في فلسطين وأسماء مدن ميسبوتاما؟ سؤال نتركه للإجابة عليه لاحقًا في هذا الكتاب!

السكان اقتادوا "بيوكامبس" إلى تحت الحفريات للمباني القديمة التي يعرفونها عندما كانوا يقومون بالحفر وأطلعوه على "الأسد البازالت" (البازالت هو نوع من الحجارة البركانية) الذي كان لا يزال رابضًا هناك، مثل "بيارو ولا فالي" أخذ بعضًا من الطابوق الآجر وشحنها إلى أوروبا، وفي عام 1811 ميلادي فحص القنصل البريطاني الأول في بغداد كما حفر في بعض الأماكن الأثارية ورسم خارطة لتلك الأماكن، "لايرد" 1850 ميلادية ورولستون في عام 1854 ورسّام في 1878 قاموا أيضًا بحفريات في بابل، ولكنها لم تكن حفريات منظمة، حتى جاء الدكتور "كولديوي" الذي حضر هناك في الفترة من 1899 – 1912 وكان خلال هذه الفترة الزمنية قد أنجز حفر نصف الموقع، أكبر تل في بابل هو تل "ببيل" الذي يبلغ ارتفاعه 22 مترًا، ومساحة أرضه عند القاعدة تبلغ 250 مترًا وتحتوي على بقايا قصر أو قلعة "بابل" التي بناها نبوخذ نصر

الثاني، والتي سماها "كولديوي" شارع بيبل الذي عبده الملك نبوخذ نصر، بألواح طول الواحد ثلاثة أقدام ونصف القدم، وكان فيه أيضًا جدران من طابوق لمَّاع، وتزدان بصور الأسود والحيوانات المختلفة وبالقرب من بوابة "عشتار" أسوار بارتفاع 12 مترًا لا زالت قائمة وعليها نقوش ثيران وحيوانات رائعة، التنين له رأس أفعى وقرون وأمشاط حلزونية، والذيل ذيل أفعى، الأرجل الأمامية أرجل حيوان والأرجل الخلفية أرجل طير، إلى الشرق من بوابة عشتار يربض معبد "نينماخ" وبئر في الصحن الأمامي من الأثار، خارطة المعبد وضعت في بناية في القلعة الجنوبية تحتوي على البئر (حسب كولديوي) بثلاثة محاور تحيط بالماكينات لرّي الحديقة المعلقة المشهورة والتي كتب عنها الكثير، والبناية ذاتها تمثل البناء الملحق بالحديقة المعلقة بصعود إلى الشرفات المرتفعة ستة أقدام و32 مترًا عرضها و400 طولها، تبدو وكأنها سلالم عظيمة طائرة أو مثل طبقات من مقاعد في مسرح، زرعت بالأشجار والزهور وكانت تسقى بمسامير هيدروليكية تمتد من أعلى شرفه إلى منسوب الفرات، كل من شاهد هذه الأثار لا بد وأن يعترف بأن حديقة من هذا الحجم والنوع لم تكن موجودة في بابل، ربما كان هناك شرفة بأشجار ونباتات من نفس النوع مثل "بايت غباري" التي صنعها "انابونيدوس" لابنته في "أور" والتي ربما كانت نساء المعبد تستعملها كشرفة في أور.

في القصر توجد قاعة كبيرة طولها 52 مترًا وعرضها 17 مترًا وجدار واحد تبلغ سماكته 6 أمتار، رسام والحفارون الآخرون اقترحوا أن يكون هذا "بيت أفراح" أو بيت احتفالات الذي شرب فيه "بلشزار" النبيذ أمام الآلاف من ألهته، ورأى الكتابات على الجدار في الزاوية الجنوبية الغربية من القصر، ووجد "كالديوي" نعشًا كبيرًا من الخزف، ويعتقد أن الذي دفن في ذلك النعش كان والد الملك "نابوبلسر"، بين القصر والخندق المائي جدار "امجور- بيل" الاباندا أو القصر الفارسي، وجنوبًا معبد البرج الذي كان يسميه البابليون "بيت الأساس الحجر للسماء والأرض"، ولكن المعرفة العامة له هي برج بابل، المساحة التي يقوم عليها لها بابان وعشرة بوابات مخارج تجمعها سلسلة من البيوت المخصصة للكهان والحجاج، وعدة غرف مستودعات هيرودوت يقول إن في الضاحية الوسطى كان يوجد برج من الحجارة الصلبة يرتفع عليه برجًا آخر وعلى ذلك برج ثالث وهكذا حتى يصل عدد الأبراج عليه إلى ثمانية.

مدينة بابل كانت ضمت إلى ضاحية كبيرة على الضفة الغربية لنهر الفرات (الموقع الذي يقوم على جزء منه مدينة الحلّة الحالية)، يربطهما كبري طوله 123 مترًا، أرصفته تبعد عن بعضها 9 أمتار وطولها 21 مترًا وعرضها 9 أمتار، يتصل بها شارع تحويل كان قد عبَّده نبوخذ نصر الثاني بخط مباشر مع "برج بابل"، يقوم ايسادجيلا معبد بيل ماردوك الكبير وفي الوجهة الشمالية يقوم مزار الإله "إيا" الذي كان طوله 70 مترًا وفي الواجهة الغربية كان مزار "ماردوك" الذي كان طوله حوالي 85 مترًا، على الجدران في المجموعات الثلاث كانت الأبراج وعلى كل جانب جدار بوابة لحماية البرج "إلي" وشرفتها توجد بقايا معبد "إينورتا" الذي يرجع تاريخه إلى عهد "نابوبلصر" وقريبًا من الشمال كانت المكاتب وبيوت خدم الحكومة، أكوام الحمرة تشير إلى موقع معبد عشتار في "إكد" والمسرح الإغريقي الذي يرجع تاريخه إلى عهد الإسكندر المقدوني الذي كان مكونًا من كتلة ضخمة من حطام آثار معبد بابل الذي دمره "كسركس"، الإسكندر الكبير أراد أن يعيد بناؤه وأعطى أوامره بذلك وأزال الحطام ولكن العمل انتهى عندما مات الإسكندر الكبير وبقي المبنى مدمرًا.

كثيرون وصفوا الجدران العريضة في بابل ومقاساتها، ولكن لا أحد يتفق بأنه الإثبات المأخوذ من هيكلها كما يقول "هيرودوت" إن المدينة كانت مربعة بقياس 120ميلاً في كل اتجاه، على سبيل المثال إن الحلبة كانت 480 أو 54 ميلاً وهذا غير ممكن، آخرون قالوا إن الحلبة كانت 360 أو 365 ميلاً، وأكثر مقاساتهم تتفق مع تلك التي وضعها "كالديوي"، مرة أخرى "هيرودوت" يعطي عرض الجدران في بابل بأن يكون 50 ذراعًا ملكيًا ويقول إن ذلك يعطي ملجأ على طول كل جانب، تاركًا مسافة كافية لعربات بأربع خيول تمر من بينها، وحيث أن الذراع الملكي كان يعادل نصف متر كانت الجدران بعرض 25 مترًا أو 83 قدمًا، والآن "كولديوي" يقول إن سور بابل الكبير يتكون من جدارين بعرض (7 و 7.8 مترًا على التوالي ولكن هذه الجدران كانت تبعد عن بعضها البعض بحوالي 12 مترًا وأن المساحة بينهما كانت قد امتلأت بالتراب بعرض مجموعه 26.8 مترًا، المسافة بين الجدران 12 مترًا أو 40 قدمًا وهي كافية لتمر من بينها عربات الخيول، هكذا فإن تقرير "هيرودوت" حول عرض الجدران هو تقريبًا صحيح، وخارج هذا الجدار المزدوج كان الخندق المائي، كل جانب منه كان مبطنًا بطبقة من الطوب المشوي بسماكة 10 أقدام مطلي بالقار، وكانت الجدران الخارجية قد بنيت بنفس المادة، الجدار الداخلي بني بطوب غير مشوي، وقبل حكم نبوخذ نصر الثاني، مجموع الأسوار كان 18 كيلومترًا أو 10 أميال وليس 25 كيلومتر كما اعتقد هيرودوت.

السومريون والبابليون يشتركون مع المصريين والشعوب الأخرى في الأثار القديمة، وباستمرار توقعوا أصل السماوات والأرض والأشياء بما فيها أنفسهم، ومن المعروف أن مفكرين مختلفين في أجزاء مختلفة من بابلونيا توصلوا إلى نتائج مختلفة في تأملاتهم، في النصوص المسمارية كما جاء في سفر التكوين في التوراة اليهودية، هناك شكلان لصفة الخلق ومقاطع مختلفة في الأساطير التي وصلتنا يتبين أن هناك إصدارات عديدة، الإصدار الأقصر والأبسط المعروف بإصدار "ثنائي اللغة" من أسطورة الخلق وجدت على ألواح في المتحف البريطاني تحت رقم 93.014 تبدأ بوصف الوقت الذي لم يكن فيه وجود للآلهة، ولم تكن فيه الأشجار موجودة، ولا كانت البيوت أو المدن قد بنيت، وعندما لم يكن المخلوق قد فصّل، كان ذلك الوقت بعيدًا جدًّا لأن يكون معبد ايليل نيبور ومعبد إريش قد بنيا، وحتى "ايرودو" أقدم مدينة في الأرض لم تكن تأسست في الوقت الذي كانت فيه مقدسات "بيل مردوخ" في بابل قد اكتملت. "لوجال – دول – ازوجا" شكلاً من أشكال مردوخ، خلق آلهة "أنوناكي" التي أحبوا أن يسكنوها، العالم خلقه مردوخ، شكَّله بعجن الأرض ونثرها على حصيرة فوق سطح الماء، مما شكَّل مكانًا ملزمًا للآلهة، الذين بدورهم استحسنوه ووافقوا عليه، بعد ذلك قام "مردوخ" بتشكيل الرجل والإله "أرورو" ومعه خلق بذرة الجنس البشري، وهو الذي خلق وحوش الغابة وكل المخلوقات الصغيرة في الحقل، خلق نهري دجلة والفرات، وحدد مكانهما في الأرض وأعلن عن اسميهما، هو أيضًا خلق النباتات والحبوب التي تنتج النبات والأعشاب والنجيل والطرق الأرضية والمستنقعات وخلق البقر والعجول وخلق النعاج والحمل والخروف والحدائق، وأرض الأعشاب وخلق الماعز الذكر والماعز الجبلي المتوحش وخلق الإله مردوخ البرزخ في البحار وأغلق المستنقعات وخلق النباتات والأشجار وبنى بالطوب وانشأ البيوت وأوجد المدن وخلق سكانًا لها. خلق مدينة "نيبور" وبنى برجها "ايكور" وعمل "ايريش" بنى معبد "إينا".

من المهم أن يلاحظ الباحث أن هذا النص مثل القصة المصرية حول الخلق، كما تبين من "بابيرص" من نوسي – امو في أساطير الآلهة الموجودة في لندن منذ عام 1112ميلادية صفحة (2 ف ف) والتي كانت بعض الأحيان تستعمل للتعزيم في الشعوذة، وكان من المعتقد أن قراءتها تُعطي نتائج هامة، إصدار آخر من قصة الخلق وجد على الألواح السبعة للخليقة والتي حفظت بنسبة كبيرة منها في المتحف البريطاني، وحسب هذا لم يكن في البداية شيء موجود سوى كتلة من المياه بمدى غير محدود يسمى "أسبو"، قدامى الكُتَّاب لم يحاولوا أن يتبينوا كيف جاء هذا إلى الوجود، من "أسبو" جاء الشياطين البشعين بأشكال مُركَّبة والآلهة بأشكال الرجال، المكان الذي تعيش فيه الآلهة تسميها السماء، والمكان الذي تحته تسميه الأرض، الإلهان القديمان اللذان جاءا من أسبو كانا "لخمو ولخامو" ولكن لا يعرف عنهما شيئًا، بعد مدة طويلة وغير محددة ظهر الإله "اتشار" ثم الإله كيتشار، وتلا ذلك السماوات والأرض كمؤسستين منفصلتين وبعدهما جاء إلى الحياة "آيو" والإله "إيا" إله البيت والماء وعدة آلهة أخرى.

وفيما يتعلق بإبراهيم الخليل وجذوره البابلية وما أوردته التوراة حول قيام الملك النمرود بحرق إبراهيم، فالملك النمرود المزعوم هذا ذكر في التاريخ البابلي بشكل مقتضب جدًا، وجاء ذكره في معرض الحديث عن بقايا البرج الذي يقال إنه بناه، وأن هذا الملك كان معاصرًا لزمن "أبراهام" أي في بداية الألفية الثامنة قبل الميلاد، وكان النمرود قد بنى ذلك البرج ليصعد به إلى السماء ويرى الله، نمرود كما جاء في المكتبات التاريخية اضطهد "أبراهام" الأب الجوال ولكن الله نجى أبراهام منه ودمر البرج الذي أقامه، إذ أرسل عليه نارًا من السماء حوَّلت البرج إلى رماد، ومات نمرود بشكل تعيس للغاية حيث دخلت نملة إلى رأسه عن طريق الأذن أو الأنف جعلته يتألم كثيرًا ثم ما لبث أن مات.

هذا كل ما ذكر عن ملك اسمه نمرود وعن رحالة اسمه أبراهام، وبطبيعة الحال لم يكن اسم "أبراهام" من الأسماء المتداولة في بلاد ما بين النهرين في ذلك الحين، كما أن ذكر ملك اسمه النمرود كان يقصد به ملك بابل، والتوراة اليهودية تذكر قصة الملك النمرود أنه كان في "أور" وأن أور كانت كلدانية، علمًا بأن "أور" كانت مدينة سومرية أكيدية وليست كلدانية، ومن هنا نستنتج أن قصة النمرود مع "أبراهام" هي من ضمن الروايات الأسطورية الملفقة في التوراة اليهودية، وإذا ما تابعنا البحث وتقصي تاريخ بلاد ما بين النهرين لا نجد أي ذكر لإبراهيم الخليل عليه السلام أكثر من الفقرة التي ذكرناها آنفًا، والتي يعتقد أن المؤرخين الذين جاءوا في وقت لاحق أضافوا هذه المعلومة المقتضبة ليثبتوا علاقة إبراهيم ببابل وبالملك النمرود، وهنا لا بد من التذكير بأن المؤرخين الأواخر كان معظمهم من الربانيين اليهود الذين أكثروا من رحلاتهم إلى بابل خلال القرون الأخيرة، وهذا يعيدنا إلى السؤال الذي طرحه الأركيولوجيون والمؤرخون المعاصرون وهو: من أين جاء إبراهيم الخليل ومن هو إبراهيم؟ إذ لا يعقل أن يكون إبراهيم قد تحدى ملكًا عظيمًا من ملوك بلاد الرافدين، وتأتي التوراة بقصة حرق إبراهيم بأسلوب مثير وغريب، ولا نجد في المكتشفات الأثارية البابلية وغيرها ذِكرًا لهذا الرجل العظيم؟ كيف يكون ذلك؟ والإجابة على هذا السؤال هي أن ما جاء في التوراة حول إبراهيم الخليل إنما هي قصة ملفقة لا أساس لها من الصحة، الأمر الذي يفرض على الباحث العودة إلى كتابات العموريين لقصة إبراهيم الحقيقية، والتي كما أسلفنا كانت قبل حوالي 1400 سنة من التوراة اليهودية.

إضافة إلى هذا أن أور لم تكن عاصمة بابلوينا في تلك الحقبة التاريخية، حيث كان العيلاميون قد أغاروا عليها وأخذوا ملكها "ابي – سن" أسيرًا، ولم يكن أحد في أور ليرث ملكها، وهكذا انتقلت سيادة بابلونيا من أور إلى إيسين التي تحولت إلى مدينة ملكية، وكان مؤسس الأسرة الملكية في إيسين الملك "اشبي – ارا" الذي حكمها 32 عامًا من (2186 – 1961)، وأهمهم كانوا "اشمي – داجان" و"ليبيت عشتار" و"أور- إنورتا" و"بور – سن"، أما العائلة الملكية المعاصرة مع الساميين في "إيسين" فقد كانت عائلة "لارسا" التي تكونت من ستة عشر ملكًا، حكموا 287 سنة (2187 – 1901) قبل الميلاد، مؤسس هذه العائلة الملكية كان "نابلاتوم" حوالي 1997 قبل الميلاد عندما كانت قوة ملوك "إيسين" تنخفض بسرعة، الملك العيلامي "كيدو- مابوغ" الذي جعل نفسه سيد أراضي بابلونيا الشرقية نصَّب أبناءه "وأراد – سن ورم – سن" ملوكًا على لارسا وحكما هناك 12 عامًا و6 أعوام على التوالي، "إرم – سن" حطم قوة ملك "إيسين" واستولى على مدينته وممتلكاته في "سيبار" وفي "بابل" أيضًا.

حوالي عام 2057 قبل الميلاد بدأت أول عائلة ملكية سامية تحكم في مدينة "بابل"، مؤسس هذه العائلة الملكية هو "صبواني" الذي حكم ثلاث عشرة سنة، وتكونت هذه العائلة من أحد عشر ملكًا وجميعهم حكموا لمدة ثلاثمائة سنة تحت حكم الملوك "صموليلو – صابوم – بين – سن وسن – موباليت"، ازدهرت سلطة البابليين بشكل كبير، ولكنها كانت من خلال حكم حمورابي الذي كان الملك السادس في العائلة الملكية، والذي حكم حوالي 42 سنة، حيث وصلت بابل في عهده إلى أوج نفوذها وبهائها، وكانت المدينة الأولى في بابلونيا..

ومن هذا يتضح أن الملك الذي كان في الفترة التي ادعى بنو إسرائيل أنها كانت فترة إبراهيم الخليل عليه السلام هو الملك "حمورابي"، وليس ما يسمى نمرود كما يتضح من تاريخ ميسبوتاميا المدون.

الفصل الرابع : الحضارة المصرية

الهكسوس

الهكسوس كانوا غزاة جاءوا من أواسط آسيا الصغرى، وتمكنوا من احتلال مصر السفلى، وحكموا فيها منذ العام 1730 إلى العام 1580 قبل الميلاد، وقد ترجم المؤرخ الإغريقي كلمة هكسوس إلى "ملوك الرعاة" ولكن الترجمة الأكثر دقة هي "الملوك الأجانب"، وجود الهكسوس في وادي النيل شكَّل جزءًا من هجرة تدفقت في كل أنحاء آسيا الصغرى في ذلك الوقت، إذ تمكن الحثيون من تأسيس أنفسهم في "الأناضول" والكيشيين كانوا يؤسسون عائلة بابل الملكية، والحوريون كانوا ينتشرون على طول ميسوبوتاميا في حزام يمتد من كركوك إلى المدن العمورية التجارية القديمة في حلب وكاركميش العنصر الأهم من بين الحوريين هم الميتانيون، كان زعماؤهم قد أقاموا لهم مملكة لعبت دورًا مهمًا في الشؤون المصرية، كانوا آريين من ذات الملّة وكان تدفق الارستقراط الهندو-أوروبي وكل الموجات الكاملة للحركات الشعبية كانت قد نسبت مباشرة لهم.

يبدو أن الهكسوس كانوا أقرباء مع التكتل العنصري للحوريين، والحوريون كانوا بالتأكيد الرعاة الرواد للفن الجديد، فن المركبات الحربية (العربات الحربية) التي استعملها الهكسوس بفعالية كبيرة ضد المصريين، أشكال أسمائهم تشير إلى أنهم كانوا ساميين، ولم يكن هناك شك بأنهم من أصل سامي، إذ لم يكونوا في حقيقتهم حوريين، ولكنهم كانوا محبي حروب مثل البدو الفلسطينيين الذين وجدوا طريقهم شمالاً وشرقًا، في اتحاد مع الحثيين والحوريين، واستمروا جنوبًا وغربًا، يمكن الملاحظة بأن الرمسيسيين كانوا من العائلة الملكية التاسعة عشرة التي كانت قد زحفت من العاصمة القديمة للهكسوس "تاريس" فكانوا الرعاة لإله الهكسوس "سيت".

في البداية كان احتلال الهكسوس لمصر منحصرًا في منطقة الدلتا ولكن بوصول الموجة الآسيوية بزعامة ما يسمى "السلطان" قاموا بحملة ضد مصر العليا، وسيطر الهكسوس على الجنود المصريين من جانب الروح المعنوية ومن جانب التكتيكات السريعة لحرب العربات.

لم تكن مصر العليا مع ذلك تُدار بشكل منظم من قبل الدخلاء الذين كانوا قانعين بجمع الجزية السنوية فقط، وكان من المحتمل أن لا تكون حياتهم أفضل من حياة رؤساء البدو المختلفين، المؤرخ القديم مانيتو رأى مناسبًا أن يكافأهم بتسميتهم "العائلة الخامسة عشرة والعائلة السادسة عشرة" مثل الكيشيين في بابل، يبدو أن الغزاة لم يعوِّدوا أنفسهم على الحياة الحضرية، كانت عاصمتهم قبل أن يتحركوا إلى ممفيس قلعة على شاطئ الدلتا تسمى "افاريس" أو "الزوان" التي كانت عبارة عن معسكر محاط بأسوار وقوات مسلحة تسليحًا ثقيلاً، وهي نقطة مغادرة للإرهابيين البرابرة الذين كان إرهابهم مؤثرًا لدرجة أن "مانيتو" قارنهم بالآشوريين الذين كان اسمهم يقترن بالقوة في العالم القديم، وأخيرًا أصبح المصريون يبغضون الهكسوس، ولكن بعد رحيلهم أخذوا يقيمون علاقات ودية مع البلاد التي يحتمل أنهم جاءوا منها، ولا يوجد أي أثرٍ لساش من طيبه الذي كان ملك الهكسوس، ربما يكون الضرر الذي نجم بسبب الهكسوس قد أثَّر في الكرامة الوطنية أكثر من الممتلكات المادية، وفي رأي المصريين أنه إذا جاءت هزيمة الهكسوس من الفرس والآشوريين فإن ذلك يكون مغفورًا ولكن إن جاءت من قبل حشود البدو كان إهانة لا نهاية لها.

كان الهكسوس الممقوتون قد نجحوا في إسهامين في الحضارة المصرية، تمثل الأول في عربات الخيول الحربية التي لم تكن قد عرفت في مصر قبل ذلك حيث لم تكن هناك حاجة ماسة لها، نهر النيل كان يمثل الطريق السريع وعمل المصريون على استعمال النيل كشريان للنقليات ببناء المزيد من القوارب البحرية، وكان الهكسوس سريعين في تطوير وسائط النقل بإدخال عربات الخيول إلى الساحة المصرية، كما أن المصريين لم يكونوا بطبيعتهم قد فهموا إمكانيات عربات الخيول، فلم يكونوا بطبيعتهم ولم يستعملوا الخيول للركوب إنما استعملت لجر العربات، حتى المحاربين النوبيين من العائلة الملكية الخامسة والعشرين اعتادوا على ركوب ظهور الخيول بعد أن ادخلها الهكسوس إلى مصر.

أما الإسهام الثاني للهكسوس كان فكريًا، ففي الزمن الملكي لم يكن دخل إلى مصر غزاة من الخارج، فالهكسوس جعلوا الانعزالية المصرية تعرف الآفاق الواسعة، ومن هنا كانت الطموحات تنحصر في وادي النيل أو امتداده النوبي، باستثناء غزوات المناجم والمحاجر أو مقالع الحجر (الدراكيل)، فالمصري لم يكن قد اعتاد التجوال بعيدًا عن نهر النيل، أما بعد مجيء الهكسوس بدأ اهتمامه يزيد بالتعقيدات في الشؤون الآسيوية، فإذا استطاع الآسيويون غزو مصر، فلماذا لا يقوم المصريون بإقامة إمبراطورية لهم في آسيا؟ وأبعد من هذا كان من الواضح أن مصير أراضي آسيا ومصر مرتبط بالأحداث في آسيا.

الفصل الخامس : الأسر الملكية في مصر القديمة

السور أو سور الأمير كما كانوا يسمونه أقيم شرق الدلتا وقد أثبت أنه غير فعال في وجه الهجمات، كما تكون دائمًا خطوط الدفاع سلبية، وكان واضحًا أن أفضل وسيلة للدفاع ضد أي هجوم خارجي هو المعاهدات والتحالفات مع المعتدين المحتملين في آسيا الصغرى.

في عام 1680 قبل الميلاد عندما كان الغزاة لمدة تزيد على نصف قرن لهم وجود في دلتا النيل ومصر السفلى؛ أصبحت مسيرات طيبة بارزة لاعتبارها عائلة ملكية منفصلة (العائلة السابعة عشرة) ومرة أخرى كانت مسيرات تسمى "انتف" كما كانت الفترة الأولى المتوسطة التي كانت وسيلة في تجسيد المصريين في مصر العليا والتي يمكن أن تصبح قوة تحرر، مكتب المسيرة في هذا الوقت كان قد استعاد مبادئه الوراثية التي كان حرم منها "سستريس الثالث" عندما اكتشفت مومياء "سيكنينرا" في وادي الملوك، كان يبدو في الرأس عدد من الجروح البليغة وكان من المعقول أن تكون هذه الجروح حدثت في المعركة، ابن سيكنينرا "كيميش" اتخذ إجراءات انتقامية نفَّذها في الحرب بشكل قوي، خلَّص فيها مصر السفلى من قبضة "أيوبي" لدرجة الوصول إلى ممفيس، الجهود الكبيرة المتناسقة لطرد الغزاة لم تثمر حتى عهد حكم "أحمس" الذي جاء بعد "كيسيس".

أحمس كان فرعونًا بطبيعة قيادية، بدء العائلة الملكية الثانية عشرة (158 – 1320) قبل الميلاد وهي العائلة الأكثر فعالية في العودة إلى المملكة الجديدة (1580 – 1085) قبل الميلاد، مصر دخلت هذه المرحلة بقوتها الملكية في آسيا الصغرى، التي جعلتها أقوى قوة في العالم وأصبحت زعيمة الأمم، وتدفقت عليها ثروات طائلة وسيطرت على موارد لا حدود لها من الطاقات البشرية والمواد مع الصفات الأصيلة.

أول مهمة لتحتمس (1580 – 1558) قبل الميلاد كانت استعادة النوبة من أيادي الحكام الفطريين (أبناء البلد)، الذين سادوا خلال الفترة المتوسطة الثانية، بنشاط لا يعرف الكلل تمكن من إعادة النوبة إلى الإدارة المصرية بعد ثلاث حملات عسكرية، وعندما أنجز هذه المهمة غامر في فلسطين وبهذا قد وضع حجر الأساس لإمبراطورية كبيرة، وذلك بضم موانئ فينيقيا الثرية والاستراتيجية إلى إمبراطوريته، وبقيت العاصمة في "طيبة" تحت حكم تحتمس القوي وأحفاده، أولاً: كان سادة المدينة قد طالبوا بادعائهم الذي لا ينازع بالزعامة العسكرية والمعنوية، ثانيًا: كهانة "آمون – رع" الإله المحلي لطيبة الذي قاد الجيوش المصرية في مناسبتين كانتا تبرزان كعامل سياسي قوي جدًا في الدولة، تحتمس عمل بالتقليد الملكي بالزواج من أخته غير الشقيقة "نفرتيتي" التي كانت حملت بالفرعون "امينونيس الأول" (1557 – 1530) قبل الميلاد، ويبدو أن نفرتيتي كانت امرأة محبوبة جدًا من عائلتها ومن الشعب، وبقيت عبادتها غامضة لقرون عديدة، كانت الأولى في سلسلة النساء الملكيات اللواتي لعبن أدوارًا هامة في تاريخ العائلة الملكية، ابنها امينوفيس واصل سياسة والده الخاصة بالنوبة ولكن محاولاته في آسيا كانت مجهولة، من المحتمل أن حملاته هناك كانت واسعة حيث ذكر خليفته "تحتمس الأول" (1530- 1520) منذ بداية حكمه أن كانت حدود مصر نهر الفرات، تحتمس كان ابن "امينوفيس" من سريته (المحظية) غير

أنه سارع إلى تقوية ادعائه بأحقية العرش بزواجه من أخت "أحمس" ابنة أبيه من الملكة الشرعية، في النوبة تغلغل عميقًا في العقد الثالث، وأنشطته في آسيا سارت في نفس الاتجاه مثل أسلافه، أخذ جيوشه عبر طرق معدة بغرض إشاعة الرعب في القبائل وفرض الجزية عليهم، ولم تكن هناك أية محاولة لإقامة سلسلة من الحصون والقلاع أو خطوط اتصالات ولا محاولات لتنظيم الإدارة الاستعمارية.

تحتمس الثاني مثل أبيه وجده (1520 – 1505) قبل الميلاد لا يعرف عنه الكثير، فيما عدا أنه كان يستدعى لقمع التمردات في النوبة وفي سوريا، مما ترك سؤال وراثة العرش في وضع غير مقرر، مرة أخرى السلالة الملكية تكونت من ابنتين شرعيتين وابن واحد غير شرعي من "السرية" أو المحظية، في هذه الحالة كانت القضية معقدة حيث أن الولد غير الشرعي كان ابن ست سنوات عندما توفي والده. عمومًا وبعد تخطي كل الخلافات الملكية كان الصبي الصغير قد أعلن وريثًا للعرش وهو "تحتمس الثالث"، وباعتباره كان صغير السن كانت عمته حتشبسوت (1505-1484) وصية على عرشه، خلال فترة الوصاية تكونت لديها شهية للسلطة حتى أصبحت شهوتها جامحة فركبت العرش وأعلنت نفسها "فرعون"، وركزت في التأكيد على أصولها الشرعية وأصرت على أن أباها تحتمس الأول كان يعدها دائمًا للتاج، وادعت أنها من إنجاب "آمون – رع" شخصيًا، وقالت لا بد من تخفيض تصوير الإله بالاقتران مع والدتها وكانت تصور نفسها في ثياب الرجال، وبجسم بدون أثداء لتتشبه بالرجال، واتبعت في حياتها تقليد الرجال، أحاطت نفسها بطغمة من أفراد أذكياء، شملت الوزير والكهان الكبار التابعين لـ "آمون – رع" برغم طبيعتها الهائلة كانت حتشيبسوت امرأة ذات مزاج وتمييز، كحاكمة كانت قادرة وغير مولعة بالحروب إذ كان من الصعب على امرأة أن تقود جيوشها شخصيًا في ساحات القتال، وفي مجال العلاقات الخارجية اكتفت بمشاريع تجارية سلمية.

القادة العسكريون غضبوا من الخمول وكانوا متعطشين لتكرار مآثر فراعنة العائلة الملكية، في الوقت المناسب شكلوا عصبة أحاطت بشخص الفتى تحتمس الثالث (1505 / 1484 – 1450) ق.م، وجعلوه عزيزًا على الجيش، وقد أغضب الأمير عمته ولكنه كان في سن الثلاثين عندما تخلص من وصايتها وكان ذلك إما بوفاتها أو أثر انقلاب عسكري عليها.

وما أن تقلد تحتمس الثالث السلطة حتى بدأ على الفور حملاته المتواصلة، فكان أحد العظماء العسكريين في التاريخ وكانوا يسمونه "نابليون مصر"، مومياءه تؤكد أنه كان قصير القامة كما كان الإمبراطور الفرنسي، الذي كان بينهما من المواهب أكثر من الإرادة والقوة، فقد قام بأكثر من سبع عشرة حملة مميزة تخللها رحلات منتظمة للتفتيش على الإمبراطورية القوية، سجلات مفاخرته بالسلاح كانت منحوتة إلى جدران الكرنك التي كان لها نصيب الأسد من الغنائم التي أعادها الملك إلى وادي النيل، الحملة الأولى كانت واحدة من الأكثر أهمية حيث أنها انتهت مع معركة "مجيدو"، كان من الطبيعي أن تكون مريرة على نحو غير عادي طال أمدها بالشجار مع العالم القديم، الذي هزم بها الفرعون الكثير من الائتلافات التي تشكلت لمقاومته، بعد ذلك ضم أراضي المحاصيل الغنية السورية وأرسل الحيوانات البرية وعينات نباتية إلى مصر، أبناء العائلات المالكة في سوريا أرسلوا إلى طيبة ليس فقط رهائن من أجل سلوك مستقبلي لآبائهم، ولكن أيضًا من أجل تلقينهم الأخلاق المصرية، وضمن الموانئ الفلسطينية كنقاط لتنقلات جيوشه وهكذا أعلن عن قبضته على السلطة البحرية المهمة، أوج مشروعه جاء في العام الثالث والثلاثين

من حكمه، حين كان عمره تسعة وثلاثين عامًا كسب معركتين ضاريتين في "كاركمش" وفي "حلب"، أرسل جيشه عبر نهر الفرات على عوامات وتقدم نحو أراضي الميتانيين ليهزم أعداءه اللدودين في أوطانهم وعلى أراضيهم، ثم عاد فعبر النهر وأقام شواهد لجده تحتمس الأول، ليحدد نهر الفرات كحد شرقي لإمبراطوريته، وامضي تسع سنوات منشغل في القضاء على التمردات الصغيرة، ولكن في عام 1464 قبل الميلاد حطم أخر ائتلاف "ميثاني" باحتلال حصون "طونيب وقادش" وظل يجبى الجزية من المحافظات التي دانت له إلى أن توفي، بينما كان البابليون والآشوريون والحثيون والميتانيون والكريتيون من جزر البحر الأبيض المتوسط يرسلون له الهدايا الفاخرة والثمينة وكان لديه الوقت لغزو النوبة، كانت رغبته الملحة دائمًا مضاهاة الأعمال التي كان يقوم بها "سيسوس فقهس الثالث" من العائلة المالكة الثانية عشرة، الذي بنى له معبدًا في "سيمنا".

الثروة التي فاضت على مصر من الإمبراطورية؛ كانت سببًا في مستوى المعيشة العالية كانت قد جعلته معفي من ضرورة مراقبة الشؤون الداخلية، وبنى صفًّا من الأعمدة في الكرنك، وأقام زوجًا من مسلات الجرانيت التي كان مغرمًا بإقامتها على طول البلاد، إحداها في مصر الجديدة وهي "مسلة كليوباترا" الموجودة على ضفاف نهر التيمز في بريطانيا، بينما توأمها يقوم في الحديقة العامة المركزية في مدينة نيويورك الأمريكية، بعد وفاته انضم إلى أسلافه في وادي الملوك خارج مدينتهم الأصلية.

لكي يتجنب المنازعات حول الخلافة التي سبق وأن عانت منها الأسرة الملكية، فقد اتخذ تحتمس الاحتياطات برفع ابنه "امينوفيس الثاني" (1450 – 1425 ق. م) إلى العرش كحاكم مشترك، وذلك قبل سنة من وفاته، "أمينوفيس" كان طويل القامة، شابًا عريض المنكبين، يختلف عن أبيه من الناحية الجسمانية وقد كان يقال إن لا أحد يستطيع لوي ذراعه، الأمراء السوريون الذين اغتنموا الفرصة بموت تحتمس بالتمرد، امينوفيس سحق التمرد وألقى القبض على سبعة من زعماء التمرد الذين ساقهم إلى طيبة، وهناك ضحى بهم أحياء أمام نصب الإله "آمون- رع" معلقًا على المشانق ستة من أجسامهم على أسوار المدينة وأرسل السابع ليلقى نفس المصير في ناباتا البعيدة كتحذير للنوبيين، بهذه الوحشية المكشوفة أثبت نفسه أنه ليس فقط لا يستحق أن يكون تحتمس الثالث، ولكن أثبت الروح السائدة في مصر القديمة، عمل كهذا لم يكن غالبًا في سجلات الأسر الملكية، تحتمس الرابع (1425 – 1405) ق.م الذي كان الابن الأكبر لاميخاهس الثاني قام بجولة في إمبراطورية آسيا وزار النوبة، فعزز بذلك الاتحاد مع الميتانيين الذين كانوا يواجهون عدوًّا جديدًا من الحثيين، بالزواج من الأميرة موتيمويا ابنه الملك ارتاتاما فكانت أم امينوفيس الثالث.

امينوفيس الثالث (1405 – 1370) قبل الميلاد كان يكنى ملك مصر القديم "قيصر أغسطس" خلال السنوات العشر الأولى من حكمه قاتل حملة نوبية وجعل لنفسه سمعة كصياد مقدام، واحتفل بقتل مائة وعشر أسود، بعد هذه الجهود الأولية سقط في السبات وفي الشهوانية كأي حاكم شرقي مستبد، تزوج امرأة من عامة الشعب تدعى "تيي" التي منحها لقب "الزوجة الملكية العظيمة" وكانت واحدة من متعته أن يسافر مع "تيي" في قاربه "بهاء آتون" في البحيرة الاصطناعية على أرض قصره. تيي كانت ذاتها من دم آسيوي مثل الزوجات الملكيات "غولوخيبا وتادوخيبا" بنات ملوك الميتانيين "شوتارنا وتوشراتا أو ابنة تارخوندارا من ارزاوا في سيليسيا". بنهاية حكم ابن

"موتيمويا" كان الدم الذي يجري في عروق الأسرة الملكية المصرية الحاكمة كان غالبًا دم الغرباء، وبرزت أيضًا أمزجة الأزياء الآسيوية في اللباس والأخلاق مع الديانة المشئومة الآسيوية، الآلهة الكبار مثل "فيردك العظيم واريان" آلهة الميتانيين وغيرها بدأت في التغلغل بين الأرستقراطية المصرية، ويلاحظ أن اسم يخت المتعة الخاص بامينوفيس "بهاء آتون" مما يبدو مؤكدًا أن عبادة آتون الإله القريب من إله عبادة الشمس الخاص بالميتانيين بدأت تتقدم إلى المقدمة في فترة حكم "امينوفيس" فالاتونومية بمبدأ التوحيد كانت الدافع في ذلك الوقت من قبل كهان مصر الجديدة، غيورين من المعاملة الطيبة التي منحت لعدة سنين "آمون – رع" في طيبة، كعذر بعد الآلهة الغريبة، كان بإمكانهم أن يوحدوا التشابه بين عبادة إله الشمس في كل من مصر وآسيا الصغرى، ولكن في هذا كما في الأمور الأخرى امينوفيس فضل أن تأتي إليه آسيا بدلاً من أن يذهب هو إليها ولم يقتنع للقيام بالجولات إلى الإمبراطورية التي أسسها تحتمس الثالث، وحافظ بدقة لنصف القرن على خلفائه الاثنين، حكومة امينوفيس الاستعمارية لا تعفى في الحقيقة أن الحثيين قد وجدوا ملكًا محاربًا عظيمًا بشخص شوبيلوليوما مراقبة هذه الإمبراطورية الشاسعة الأطراف التي تضم أجناس عديدة تتطلب ملكًا حذرًا، وبينما كان امينوفيس يتشمس تحت أشعة الشمس في مملكته كان هناك على بعد في الشمال غيوم عاصفة تتجمع. "شوبليليوما" كان منشغلاً في تشجيع اتحاد أمراء سوريا وفلسطين الذي كان ينبغي أن يبدأ العمل بقوة خلال حكم ابن "امينوفيس" الضعيف، بينما كان الفرعون يتدهور في الخرف الشيخوخي، يعمل على راحته في القصر في طيبة الذي كان صديقه بناه له بدعم من امنحوتب الذي بدوره أيضًا انشأ كنيس الجنائز وكذلك معبد الأقصر الرائع، لا يمكن الإنكار بأن حكم "امينوفيس الثالث" كان مميزًا وكان بحق عرضًا اغسطوسيًا وجلاليًا.

القصة التي يحتفي بها بشكل درامي هي قصة حكم تجلب اللمسات المثيرة للشفقة في الرواية التاريخية. في السنة الرابعة من حكم "أمينوفيس الرابع" (1370- 1352) قبل الميلاد غيَّر اسمه من امينوفيس الرابع إلى "اخناتون" امينوفيس تعني "الإله آمون مكتفي" بينما اخناتون تعني "بهاء آتون"، أبحر الملك من طيبة إلى أواسط مصر ليجد عاصمة جديدة تسمى "اخيتاتون" بمعنى "أفق آتون"، قرب القرية الحديثة "العمارنه" في اخيتاتون انشأ معابد للإله آتون الذي عبده بالمعارضة لـ "آمون- رع".

حيث أن آتون كان يعبده والده وجده كإله واحد بين الآلهة الكثيرة. "آتون" يمثل المبدأ الخلاق للشمس كمصدر الحياة وخالق الكون المادي، وعلى الرغم من التخليد الذي كان يفترض أن يجسد عبادة إلهه الجديد، عمل اخناتون ضد الإله "آمون - رع"، اسم "آمون – رع" أزيل من كل نصب تذكاري نقش أو نحت عليه، وحتى في أي اسم سابق للاسم الملكي "اخناتون" بذاته، الملك تحوَّل إلى كاهن كبير ونبي للطائفة الجديدة وكرَّس سلسلة من الترانيم، إلى جانب الدوافع الدينية كان اخناتون مندفعًا في حربه الدينية لاعتبارات سياسية، كان يرغب في كسر السيطرة الحديدية التي لدى كهنة طيبة، ويبدو أن زوجته "نفرتيتي" أقرنت نفسها بطموحاته، فقد دعمت زوجها في معاداة "آمون – رع" بل كان تفانيها لمبدأ "آتون" يفوق تفاني زوجها "اخناتون".

من الممكن أن تكون نفرتيتي مدفوعة في المسألة بالحقيقة أنها ربما كانت أميرة ميتنانية، وكان يقال إنها كانت "تادوناهبا" المرأة الصغيرة التي أرسلت لتتزوج من "امينوفيس الثالث" الذي توفي قبل أن يقوم بمراسم الزفاف، فتزوجت من ابنه، "تيي" الملكة الأم كانت وجهة نظرها محافظة من

حيث تداعيات الخلافات حول الآتونية، وكان يحزنها تفشي الانقسام، فقامت بمحاولات لتصلح ابنها مع كهان طيبة وقامت بدور الوسيط، الأمر الذي أدى أخيرًا إلى إذعانه. الاستسلام ما كان بسبب الضغط الاقتصادي، فعزل الملك نفسه في صحراء قاحلة وكانت مصاريفه تفوق دخله بينما تحكم الكهان في مصادر الدخل الحكومي وبالذات الذهب، من المحتمل أيضًا أن يكون الرأي العام إلى جانبهم من البداية، حيث أن المصريين لا ينظرون إلى اقتلاع نظامهم الديني الكامل، في النهاية بقيت قوة الإرادة وسلطة الملك متدنية عن سلطة الكهانة، ولم يستطع بأي حال من الأحوال أن يسود على المعارضة العنيدة المزودة بالمعرفة والمدعمة بألفي عام من الاعتقاد التقليدي.

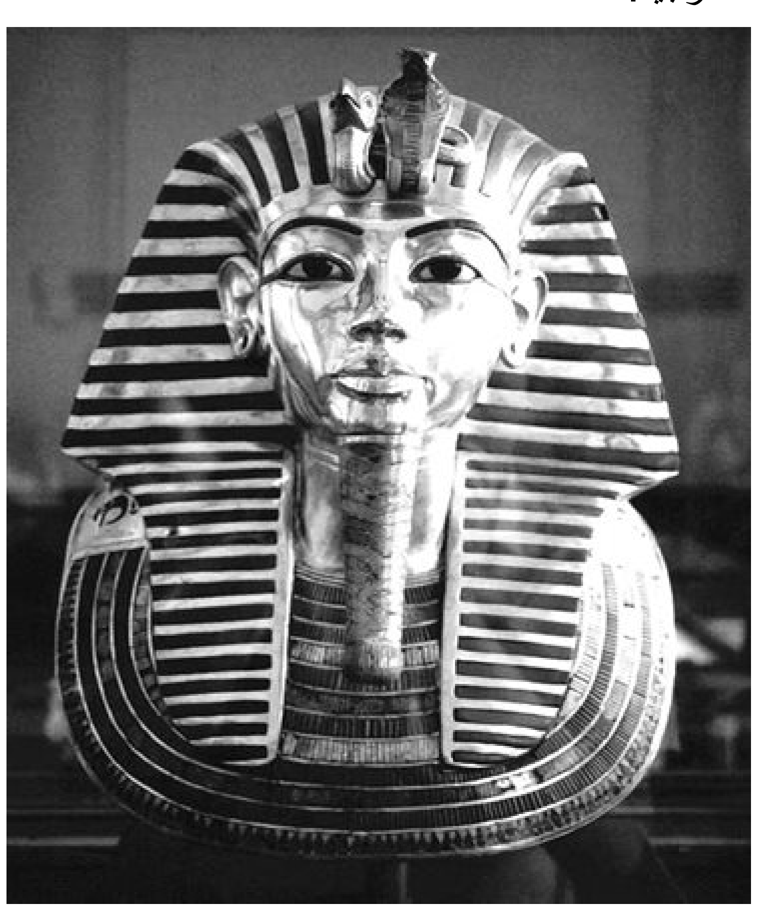
اخناتون كان له جسم ضعيف أنهكته مثاليته القوية وحرارة السباق، أرسل صهره إلى طيبة ليبحث شروط الإذعان، وأكملت نفرتيتي مأساته الشخصية بفصل نفسها عنه وأخذت صهره الآخر الصغير ليعيش معها في القصر بضواحي "اخيتاتون"، وسمَّت القصر بشكل استفزازي "قلعة آتون".

أثناء ذلك كان الآسيويون المدفوعون من الحثيين يزيلون الأصفاد المصرية، وقام أمير قادش باحتلال السهل السوري، وأمير امورو احتل فينيقيا والفلسطينيون احتلوا مجيدو والقدس، المصيبة المتزايدة للإمبراطورية المصرية تروى في رسائل العمارنة، هذه الرسائل التي تم العثور عليها خلال الحفريات الحديثة في "أخيتاتون"، تتضمن الخطابات الرسمية المستلمة ونسخ من رسائل متبادلة بين الحكومة المصرية وبين أمراء آسيا بما فيهم ميتاني وبابل وآشور، الرسائل مكتوبة على ألواح خزفية صغيرة بلغة ذلك الوقت الدبلوماسية الاكيدية المسمارية، وهي تُغطي فترة هامة من السياسة الخارجية، خلال فترة حكم "امينوفيس"، وتعكس الائتمان على فهم الشؤون بخسارة أولئك الملوك للإمبراطورية الآسيوية وجزيتها كانت ضربة خطيرة لمصر، التي وصلت إلى حد الاعتماد بشكل قوي على الثروة التي تأتي من الخارج، نتج عنها حالة من المجاعة في وادي النيل، إضافة إلى الخلافات المميتة بين زعماء البلاد، من المحتمل أن يكون اخناتون حتى في زمن حياته قد صبت عليه اللعنة كما حدث في السنوات الأخيرة، حيث تجنب أسوأ إهانة لهزيمته بوفاته.

"سيمنخارا" الشاب الذي أرسله اخناتون إلى كهان طيبة لم يبقَ على قيد الحياة بعد وفاة حماه، والفتى البالغ من العمر عشر سنوات المدعو "توت عنخ اتون" الذي كانت نفرتيتي تحتفظ به إلى جانبها في اخناتون قد ورث العرش، أصول كل من "سيمنخارا وتوت عنخ اتون" كان غامضًا، ويبدو أن اخناتون ونفرتيتي مشتركين في زيجات كثيرة في الأسرة المالكة، ولم يكونا قادرين على إعطاء الأسرة الملكية وريثًا ذكرًا فكان معظم نسلهما من الإناث، فقد تزوجتا اثنتين من البنات الست "ميرتاتون وانخسن بعاتون" وقد اختارتا سمنخارا وتوت عنخ اتون" أزواجًا لهما، من الممكن أن يكون "سيمنخارا" ابن "تيي" ولكن لا يوجد هناك أي دليل في تاريخ أسرة "توت عنخ اتون"، تمكنت نفرتيتي من إبقاء الصبي معها لمدة ثلاث سنوات أخرى ولكن بنهاية المدة لم ينكره الكهان فاحضروه إلى طيبة، وهناك تغيَّر اسمه من توت عنخ اتون إلى "توت عنخ امون" بمعنى "صورة آمون الحية" وهو تعليق ساخر عن تغيير اسم أبيه قبل عشرين عامًا، واسم "آتون" العدواني أزيل أيضًا من اسم زوجة "توت عنخ امون" انخيسن بعاتون، التي أصبحت بعد ذلك تسمى "انخيسن آمون"، عاشت في آمون، أما نفرتيتي التي بقيت وحيدة في القصر توسلت إلى ملك الحثيين "شوبيلوليوما" ليرسل ابنه كزوج لها وأسباب هذا التوسل غير معروفة، ربما تكون نفرتيتي مدفوعة بأفكار الخيانة والانتقام والخلط بين المسألة الحساسة بالفعل لوراثة العرش، أو

ربما تكون نفرتيتي السيدة غير السعيدة تشعر بالوحدة وتشتهي رفيقًا وسيمًا وصغيرًا من أصولها الآسيوية، بعد تردد من ملك الحثيين في "كاركامش" لبى طلبها، غير أن الأمير الصغير تعرض إلى كمين وقُتل وهو في طريقه إلى مصر، مؤلف هذه الوثيقة كان كما يعتقد الجنرال المتميز "هوريمهاب" الرئيس العبقري لمجموعة طيبة وزعيمًا للثورة الآمونية المضادة. هوريمهاب استعاد مكانة الهيبة المصرية في آسيا بعدة حملات قوية خلال فترة حكم "توت عنخ امون" وعندما توفي الملك الصبي نصب الجنرال مرة ثانية على العرش تمثلت في شخص "آي" كاهن مسن من النوع المتودد، "آي" أذعن أيضًا بعد فترة قصيرة وتخلى بعدها "هوريمهاب" عن سماحته الرمادية وأعلن نفسه الفرعون الجديد.

قبر تعيس الحظ توت عنخ امون بقي غير منزعج لمدة ثلاثة ألاف سنة حتى ظهر للنور في وادي الملوك عام 1922 م لصوص قاموا بمحاولة فاشلة في الأثار لسرقة القبر، غير أن المجموعة الأخيرة من أختام المسؤولين في جبَّانة المملكة الجدية بقيت مصانة وسليمة على الأبواب الخارجية.



- الملك توت عنخ امون -

أما غرفة الانتظار فقد تراكمت فيها كتل من الأجسام العشوائية، تشبه مستودعًا ضخمًا تكومت فيه الحاجات الشخصية للملك المتوفي، كانت هناك جواهر والكراسي الذهبية، الكراسي العالية، العربات، والأسلحة وأصناف القوارب.. كان هناك الكرسي المشهور بتمثيل الملك مع زوجته

"انخيسن آمون" كابينات مطعمة تحتوي على هذه الأشياء مثل الملابس وموميات طيور، باب آخر مشموع يحرسه تمثالان بحجم الإنسان الطبيعي للملك، تقود من الملحق إلى غرفة دفن اعتيادية، وكانت هناك قطع رخام كبيرة داخل الضريح الذهبي مقاسها الخارجي يبلغ سبعون قدمًا وعرضها أحد عشر قدمًا.

يقوم ضريح رابع بجانبه تظلله رايات من الكتان وفي داخل الضريح الرابع التابوت الحجري، التابوت الحجري نفسه يحتوي على ثلاثة توابيت، الثالث منها يتكون من عشرين حجرًا من الذهب الخالص، مغطى بالبيد التركوازي والعقيق وحجارة كريمة أخرى، الملك كان قد وصف بأنه يحمل شارة وظيفته الكبيرة ملفوفة في الأجنحة الذهبية للآلهة الحارسة، وعلى مومياء الملك قناع رائع، عندما أزيل القناع تمكن الحفارون من معرفة كم كان الصناع القدماء مخلصين في تطويع صور سيدهم، وفي غرفة أخرى يوجد صندوق الكابونية وهو صندوق يحتوي على أجسام العبادة تحرسها انوبس والحقائب التي وضعت فيها هذه الأشياء، مثل مروحة جميلة من العاج بريشها وقد وجدت محفوظة وفي حالة جيدة للغاية.

بالإجمال فإن قبر توت عنخ امون يمثل الاكتشاف الأكبر بقايا العالم القديم، ومن غير المحتمل الحصول على موجودات مقارنة تمثل نفسها كما هو وضع قبر توت عنخ امون، الأشياء التي وجدت فيه تقف شاهدًا بعدم وجود فن منافس للأسرة الملكية الثامنة عشرة، وما كان هناك أي مدلول على الجنازات والمآتم لصبي في الثامنة عشرة من عمره أهمل من قبل طبقة النبلاء واحتقر من قبل الكهان، ثم دفن على عجل في قبر مقترض وفي تابوت حجري مكسور، الذي كان ينبغي أن يكون من الروائع الجنائزية لمقيم لامع في وادي الملوك.

"هورمهاب" (1330 – 1320) قبل الميلاد كان من أحفاد أمراء الاباسترونبوليس، يبدو أنه كان رجلاً ذو شخصية خشنة ومتصلبة، فرض عقوبات قاسية على الإله "آتون" والتابعين له، مغتصبًا لنفسه النصب التذكارية "لاخناتون وتوت عنخ امون"، وكانت بداية حكمه من تاريخ وفاة امينوفيس الثالث، وقد جاء بِنيَّة محو وإلى الأبد من عقول الناس تجربة الذاكرة الكارثية الآتونية. وبكفاءة ضابط الأركان العامة وضع في يديه قضية إصلاح الإدارة المدنية في البلاد وهناك سبب وجيه لاعتبار التشخيص القاتم كأول ملك من ملوك الأسرة التاسعة عشرة الملكية (1320 – 1200) ق.م، وهي الأسرة التي يهمنا جدًّا التركيز على دورها في الحياة المصرية، بهدف الوقوف على حقيقة العلاقة بين بني إسرائيل وهذه الفترة الملكية، خصوصًا وأن ادعاءاتهم جاءت تتهم رمسيس الثاني باستعبادهم، وكان هذا الملك قد اختار صديقًا جنرالاً يدعى رمسيس الذي ينتمي إلى عائلة تنيتية كانت بكل تأكيد تنحدر من جذور الهكسوس الذين سبق وأن تذوبوا في البيئة المصرية وأصبحوا جزءًا منها، لَقَبه الرئيسي يخبرنا بأنه خدم كرئيس أركان فرقة الرماة ووزيرًا، ثم كاهنًا كبيرًا للإله "سيث"، وخلال حكمه الذي دام سنتين فقط واصل تنشيط سياسات "هورنمهاب" وأرسل ابنه على رأس جيش إلى النوبة.

ابنه سيتي الأول (1318 – 1298) ق.م الذي قبل توليه السلطة شغل نفس الوظائف التي شغلها والده، سيتي تعامل بحزم مع القبائل المحلية في فلسطين الذين كانوا استولوا على التحصينات الكثيرة على طول طرق التجارة الرئيسية، ثم بعد ذلك ذهب ليقاتل أبرع حملة في التاريخ المصري، مدفوعًا من الحثيين والعموريين والآراميين، الذين سلكوا طرقًا منفصلة ليلتحقوا بجيش الأمير حماث مما حدا بسيتي اتخاذ قرار في ضوء ذلك بتقسيم قواته إلى ثلاثة فيالق (فيلق آمون

وفيلق رع وفيلق سيث) وأرسلهم ضد العدو، تكتيكاته الجريئة أثبت نجاحها التام فوجد نفسه يسيطر على جزء كبير من فلسطين ومدن التجارة في فينيقيا، حارب منتصرًا ضد جيوش الملك الحثي غير أنه لم يتمكن من قمع السيطرة الحثية في سوريا، كان بناءً عظيمًا ومعبدًا رائعًا في "ابيدوس"، من هذا المعبد جاءت قائمة الملوك في طيبة وابيدوس تحتوي على أسماء سبعة وستين فرعونًا، من اعتلاء مينيس وسيتي الأول، ثم ساهم في القاعة العملاقة في الكرنك وبدأ رمسيس الأول يعد لنفسه قبرًا كبيرًا في وادي الملوك، تابوته المرمر الفخم موجود في متحف السير جون سون في لنكولن بانجلترا، ابن سيتي رمسيس الثاني كان دائمًا كبيرًا في حسابات مصر القديمة، المفكرون المصريون خلعوا عليه لقب "الكبير" لأنه ورَّث الأجيال اللاحقة سلسلة من النُصب التذكارية المقامة بنطاق مذهل، ومن بينها كانت معابد الصخرة في السودان ورماسيوم في طيبة، أنماط القاعة الكاملة في الكرنك والإضافات الواسعة في الأقصر وإعادة إنشاء مدينة تانيس ومجلسه العائلي كان مغتصبًا فخمًا للمباني الخاصة بالذين سبقوه، وصانعًا لا يكل للمسلات والتماثيل الضخمة، تمجيد الذات في نصبه التذكارية وطبع التباهي في منحوتاته جعل المصريين يروه بعين الاستهجان، الأدلة على إنجازاته واضحة للجميع، أضاف إعلان العظمة بإنجاب أكثر من خمسين بنتًا ومائة ابن، أربع سنوات بعد اعتلائه العرش صغيرًا كان متعطشًا للشهرة، فقاد قوة جبارة إلى فلسطين، المأزق الحثي- المصري الذي دام حولاً من السنين بعد جهود سيتي الأول كان يقترب من النهاية.

"مواطاليش" ملك الحثيين سدد ضرباته بإقامة ائتلاف من أكثر من عشرين دولة وتقدم رمسيس بشكل سري لمقابلتهم، جيشه توزع إلى أربع فيالق، الملك ذاته تولى رئاسة فيلق "آمون" وتابع على مسافة بضعة الأميال من فيلق رع، بينما كانت فيالق بتاح وسيث كونت الحراسة الخلفية، أخذ الفرعون جيش آمون عبر اورونتيس وعسكر قبالة قادش، الجسم الرئيس للحثيين كان يراقب انتشار القوات المصرية، فقام بتنفيذ مناورة مخادعة، وتسللوا تحت جنح الظلام بين القوات المحاصرة والنهر، وجد رمسيس نفسه مواجهًا لقوات متفوقة بجيشه نصف الجيش والفارين من خدمة فيلق رع، ولم يتمكن من إضافة معنويات ولو قليلة لفيلق آمون، وفي الأثناء كانت فيالق بتاح وسيث على مسافة ميؤسة بعيدًا في الجانب الخطأ لاورونتيس، رمسيس حزم نفسه من أجل قتال ممتاز معاملاً قواته البرية بهدوء وشجاعة، في النهاية تراجعت المعركة ولم يحقق أي من الجانبين فائدة برغم أن المصريين كانوا أفضل قليلاً، لتلك اللحظة المبادرة السياسية بقيت مع الحثيين الذين خسروا في ذات الوقت بعث تمرد في الأراضي المحتلة المصرية، حيث كان رمسيس حازمًا في إجابته. فقد خفض معاقل التمرد في كنعان واتجه شمالاً إلى نهارينا منتظر الانتصارات الكثيرة التي حققتها الأسرة الملكية الثامنة عشرة، ودفع الحوثيون بقوات كبيرة للدفاع عن مدينة "تونيب" التي أخذها رمسيس سريعًا بطاقة وعزم ملك شاب، وبدرجة ما أعاد خلق إمبراطورية تحتمس الثالث، تبع هزيمته للحثيين وحلفائهم في أرض المعركة سلام هش، حيث أن الجانبين رأوا تزايد عدم الاستقرار بتعديات الآشوريين، فعندما قامت قوات أشور تحت إمرة المحارب الكبير الملك "شالمانصر الأول" ابتلعوا "ميتاني" ووصلوا إلى الفرات، رمسيس وملك الحثيين الجديد "حتوشليش الثالث" قرروا أن الوقت قد حان لرأب الصدع في العداوات القديمة والاتحاد ضد العدو المشترك.

عام 1277 قبل الميلاد أرسل ملك الحثيين لوحًا من الفضة إلى رمسيس منقوش عليها بالمسمارية مسودة معاهدة للتحالف، كانت شروط المعاهدة بعد ذلك قد كتبت على جدران الكرنك أقسمت فيها الأطراف المتعاقدة لسلام أبدي، ووعد كل طرف الطرف الآخر بالمساعدة المشتركة في حالة أي عدوان خارجي، ووضعوا نصًا حول تسليم الأسرى السياسيين، هؤلاء الأسرى استسلموا بوعد بأن يعاملوا إنسانيًا، سوريا كانت قد قسمت بعناية فائقة إلى أجواء من النفوذ، وبعد أربع عشرة سنة من توقيع الاتفاقية، قام ملك الحثيين "هتوشيليش" بزيارة حليفه شخصيًا مُحضرًا معه إلى مصر واحدة من بناته لتكون عروسًا لرمسيس، وهذه المناسبة أحييت باحتفالات كبيرة، والعلاقات الودية بين القوتين الكبيرتين حققت لآسيا السلام لأكثر من نصف قرن، وكانت حتى الموقعين الملكيين على المعاهدة قد كبروا في السن، مما فتح الباب أمام اضطرابات بدأت بما كان عجزًا عن التعامل معها، أفواج من المهاجرين والجنود المغاوير كانوا يتدفقون عبر سهول أسيا الصغرى من البلقان والبحر الأسود، راقب رمسيس الأحداث من وادي النيل بعين قلقة، متممًا بذلك ستين سنة من برنامج البناء وحلمه بقادش، المعركة التي أصبحت نصرًا مشهورًا في كل سنة مرت، وهكذا دام حكم رمسيس الثاني حوالي 32 سنة.

أحد أبنائه "مينا بتاح" تولى الحكم بعد والده رمسيس الثاني عام 1232 قبل الميلاد، وقد ورث المشاكل التي أربكت والده، وفي أسيا ابن شلمانصر الأول "توكولتي- نينورتا الأول" اجتاح بابل، في النهاية لحكم طويل لأخر ملك حثي قوي. "تودهاليجاس الرابع" ابن "هاطوشيليش الثالث"، كان الحثيون أثناء ذلك يمرون بتجربة حول أزمتهم الداخلية المتواصلة، التي كانت في تلك المناسبة تنذر بزوال وجودهم كأمة، ويبدو أن مينبتاح قد أخمد تمردًا في فلسطين في بداية حكمه قام بإرسال شحنة من القمح إلى الحثيين المتهاويين، ولكن كان ممكنًا من الغرب أن استدعيت مصر لمواجهة أخطر أعدائها الليبيين الذين سبق لسيتي حاربهم بلقاء حاد، والذين أصبحوا بعد ذلك مدعومين من شعب البحار.

الليبيون ساروا إلى ممفيس ليقطع أوصالهم جيش مينيبتاح، رمسيس الثاني كان عند وفاته يبلغ المائة عام من عمره، ومينيبتاح ابنه الثالث عشر لم يكن صغيرًا عندما أصبح فرعونًا، إذ تحمل مسؤولياته بجدارة في حين كانت ثروات مصر في التراجع، ومن هناك كانت مصر التي سارت ضد آسيا والأسرة الملكية التاسعة عشرة وصلت إلى نهاية كئيبة، ومن المفارقات الكافية أنها كانت مرتبكة أكثر لأن يترك رمسيس مائة ولد أكثر مما كان لمينوفيس الأول أو تحتمس الأول بأن لا ينجبا أبناء على الإطلاق، المغتصبون مينبتاح- سبتاح وسيتي الثاني الذين حكم كل منهم ست سنوات كانوا أحفاد الجنس الملكي لرعمسيس.

أخرهم كان سوري عاق اسمه "يارسو" مجموعة مذلة من الشؤون التي يمكن استحضارها حول الاختلال المطول في العجلة السياسية، وأخيرًا بعد مرور حولين من الارتباك والحيرة ظهر شخص قوي اسمه "سيتناخت" استولى على السلطة 1200 قبل الميلاد وأسس الأسرة الملكية العشرين، بحكم قصير دام سنتين أنجز خلالها إحياء الحكومة المركزية القوية.

الفصل السادس : الوجود اليهودي

كان من الضروري استعراض جزء بسيط من تاريخ بلاد الرافدين وتاريخ بعض الأسر الملكية المصرية في هذا الكتاب لسببين:

الأول: لتتبع أصول وجذور إبراهيم الخليل عليه السلام في بلاد ما بين النهرين كما جاء في التوراة اليهودية، حيث ادعى اليهود بأن إبراهيم الخليل كان يعيش في مدينة أور الكلدانية وأنه حرق أصنام والده مما أغضب الملك النمرود كما تقول التوراة، ولدى الاستعراض الدقيق لتاريخ "ميسبوتاميا – العراق" تبين أن ذلك التاريخ العميق لم يتطرق إلى ذكر ملك هناك اسمه النمرود على الإطلاق باستثناء بضعة سطور تفيد بأن نمرود كان يضطهد إبراهيم، لا أكثر من هذا، وهناك اعتقاد بين المؤرخين أن هذه الفقرة البسيطة أضيفت إلى التاريخ العراقي مؤخرًا من قبل كُتَّاب ومؤرخين يهود أرادوا الإشارة إلى وجود ملك اسمه النمرود وأبراهام بن تارح في بلاد ما بين النهرين، بهدف الربط بين إبراهيم وبني إسرائيل، فلو كان الأمر صحيحًا كما تقول التوراة؛ لكان التاريخ لم يغفل هذه الناحية على الإطلاق خصوصًا وأنه حدث مهم في تاريخ المنطقة إذ انبثقت عنه أحداث جسام، واحتل مكانة رفيعة بين ما ورد في الكتب السماوية، صحيح أنه جاء أيضًا في القرآن الكريم قصة حرق إبراهيم، ولكن القرآن الكريم لم يبين المكان أو الزمان الذي وقع فيه ذلك الحدث الكبير ولم يذكر القرآن أن الذي أمر بحرق إبراهيم كان ملك اسمه "النمرود" كما ادعى اليهود في توراتهم وتلمودهم.

أما فيما يتعلق بالتاريخ المصري القديم، فقد أورد تاريخ بعض الأسر الملكية بالتركيز على الأسرة الملكية التاسعة عشرة التي ادعى اليهود أن الملك رعمسيس الثاني، عميد تلك الأسرة استعبدهم في مصر وسومهم سوء العذاب! ويتبين من تاريخ الأسرة التاسعة عشرة والملك رعمسيس الثاني أن الإمبراطورية المصرية في عهده كانت فلسطين ضمن حدودها وكانت تابعة لمصر في ذلك الوقت، صحيح أن رعمسيس الثاني كان مغرمًا ببناء القصور الفخمة والكبيرة وكان يستخدم عمال كثيرين لهذه الغايات وكان يأتيه العمال من كل أنحاء الإمبراطورية ومن شمال أفريقيا، وكان في أصوله وجذوره هكسوسيًا، وكان مع الهكسوس في مصر عائلة واحدة تدعى عائلة اللاوي ولم تكن أعداد هذه العائلة تتجاوز 500 نفر بين شاب وكهل وامرأة وطفل تذوبوا مع الزمن بالهكسوس، وبعد هزيمة الهكسوس في مصر السفلى تذوب الهكسوس أنفسهم أيضًا في البيئة المصرية واللاويين معهم، فأصبحوا جميعًا مصريين، ورعمسيس الثاني ينحدر منهم، والتاريخ المصري القديم لا يذكر أي شيء عن تحويل مياه نهر النيل إلى دم أحمر، ولم يذكر أيضًا تسليط الداء على أبقار المصريين لتموت، انتقامًا لتعذيبهم بني إسرائيل، ولم يسلط ذلك الوباء على أبقار الإسرائيليين، حيث كان مكتوب بالبنط العريض على وجوه بقر اليهود أوامر لجراثيم الوباء – بقرة يهودية محصنة فتجنبيها أيتها الجراثيم – ولم يرسل على المصريين الضفادع والقمل والحشرات وكل الأراجيف التي تناولها اليهود في توراتهم، فمن نصدق التاريخ المدون أم الأساطير الملفقة.

المزاعم اليهودية

درج بنو إسرائيل منذ أقدم العصور على إلصاق أنفسهم بالعظماء أحياء كانوا أم أموات، وقد سلكوا هذا المسلك بهدف تحقيق أطماع لهم في الحصول على الاعتراف بهم، وقبولهم بين شعوب الأرض التي ينتمي أولئك العظماء إليها، أو بين الشعوب التي تتعاطف معهم، وفيما يتعلق بأطماعهم في بلاد كنعان (فلسطين) نظروا فوجدوا أن إبراهيم الخليل عليه السلام وابنه إسحق وحفيده يعقوب وأبناء يعقوب (الأسباط) عاشوا ودفنوا في تلك البلاد، فكان لا بد أن ينسبوا أنفسهم إلى إبراهيم الخليل وأبنائه عليهم السلام ليكونوا مقبولين لدي الكنعانيين للإقامة في وسطهم، ولكن الادعاء الأكبر كان قد جاء بادعائهم بوجود إله لهم فقط دون غيرهم من خلق الله اسمه "يهوه"، وأن هذا الإله البدعة كان يعيش بينهم ويظهر لهم بمناسبة وغير مناسبة، وأنه كان يتقدمهم في حروبهم ضد الشعوب غير اليهودية، وكللوا هذا الادعاء بوعد من ذلك الإله الأسطوري - الذي لم يكونوا اتفقوا على تسميته بعد - بأن خصص لهم أرض الكنعانيين ملكًا خالصًا لهم، وجاءت الرواية التوراتية الملفقة حول هذا الوعد تقول:

"إن إسحق بن إبراهيم أنجب توأمين، الأول وهو الذي تقدم أخيه ولادة واسمه "عيساو" واسم الثاني يعقوب لأنه ولد متعقبًا أخيه، فكان البكر هو "عيساو" وحسب التقاليد التي كانت قائمة في بلاد كنعان أيامها أن يكون البكر هو الوريث الطبيعي لمكانة والده في ترأس القبيلة بعد وفاة الأب، وحيث أن إسحق عليه السلام كان نبيًا من أنبياء الله الصالحين كان لا بد أن يبارك الابن الذي سوف يليه من بعده في قيادة القوم، وكان من الطبيعي أن يبارك "عيساو" باعتباره الابن البكر له، أي الأكبر من أخيه، ولو بدقائق معدودة. وكان إسحق عليه السلام متزوجًا من امرأة عراقية الأصل تدعى "رفقه"، وكانت رفقة تحب يعقوب أكثر من عيساو لأن يعقوب كان ضعيف البنية نحيل الجسم، وكان يخاف من هبة ريح، أي أنه كان لين العريكة، هادئًا غير مشاكس بعكس أخيه عيساو الذي كان صيادًا يعتمد في حياته على صيد البر وكان دائمًا يتجول في البراري بين الأدغال في عمليات الصيد، فكان قوي الإرادة صلب العريكة، وحين كان إسحق في نهاية أيامه، استدعى ابنه عيساو وأغلق عليهما باب الخيمة وقال له "لقد منحني الرب بركة وعليَّ أن أحول هذه البركة لأحد أبنائي قبل وفاتي وأنت ترى يا ولدي أن أجلي يقترب جدًا، ولهذا أريد ان أمنحك تلك البركة لكي تتولى الأمر من بعدي، لأني أعرف أنك أهل لهذه المهمة المقدسة، ولكن يشترط أن تذهب إلى الحقل وتصطاد صيدًا سمينًا تقدمه طعامًا لي، وبعد أن أتناول الطعام أمنحك بركتي تلك"، وكانت رفقه زوجته في هذه الأثناء تقف وراء الباب تسترق السمع لما يدور بين الأب وابنه البكر، وذهب عيساو إلى البراري ليحصل على صيد سمين يقدمه لوالده حسب شروط البركة كما اتفقا عليه، وكانت رفقه تريد تلك البركة لابنها يعقوب دون عيساو، فأسرعت ونادت يعقوب وقالت له: "استمع إليَّ جيدًا، إن والدك يريد منح بركته الربانية إلى أخيك عيساو باعتباره الابن البكر له، ولكني أريد هذه البركة أن تؤول إليك أنت لتحل مكان والدك بعد وفاته، وشرحت له ما دار بين الاثنين داخل الغرفة المغلقة، وأضافت سوف اعمل لك أكلاً دسمًا تدخل به على والدك وتقول له إنك "عيساو" وأنك نفذت طلبه وأحضرت له الصيد السمين ليأكله". قال يعقوب: "أخي عيساو شعور الجسم وأنا جرودي أي ليس بجسمي شعر كأخي عيساو"، قالت: "لا تهتم بذلك فسوف أكسو يديك بشعر ماعز

وعندما يمد والدك يده إليك ليتأكد أنك عيساو تمد له ذراعك المكسوة بجلد الماعز وبهذا يعرف والدك أنك عيساو فيباركك، وهنا لا بد من الإشارة إلى أن إسحق عليه السلام كان كفيف النظر لا يرى مما جعل رفقه تستغل الموقف وتزيف ابنها من أجل الحصول على البركة، وفعلاً أعدت له جديًا صغيرًا بالطريقة التي تعرف أن إسحق يحبها، وأرسلت ابنها يعقوب إلى أبيه بالصيد المزور، ولما دخل عليه الغرفة قال إسحق: من أنت؟، قال أنا عيساو ولدك، جئت لك بما طلبت من صيد لتمنحني البركة كما اتفقنا، قال له اقبل علي ولما وصله مد إسحق يده ليتحسس جسد ابنه عيساو فمد يعقوب له يده المكسوة بشعر الماعز، فقال اسحق: الجسم جسم عيساو والصوت صوت يعقوب، ولكنه اضطر لمنحه البركة لأنه اعتقد بأن لا أحد يعرف بهذه المسألة غيرهما هو وعيساو، خرج يعقوب من غرفة أبيه بعد أن نجح التزوير الذي ابتدعته أمه رفقة، ولكنه فر من المنزل بعيدًا في الحقل خوفًا من انتقام أخيه عيساو منه على فعلته القذرة، وبعد يومين جاء عيساو إلى أبيه بالصيد السمين وقال له لقد جئتك بالصيد الذي طلبته، قال إسحق من أنت؟ قال أنا عيساو قال إسحق: من ذلك الذي جاءني بصيد سمين قبل يومين وانتزع مني البركة التي كانت معي؟، وتأكد الاثنان أن الذي قام بهذا التزوير هو يعقوب، فذهب عيساو إلى يعقوب فلم يجده وكان يخاف عليه من الوحوش باعتبار أنه ضعيف البنية ولا يستطيع أن يقاوم الأخطار التي قد يتعرض لها، ولما استدل على مكانه وجده نائمًا في ظل شجرة من أشجار الحقل، فجلس عند رأسه ولم يوقظه لأنه لم يكن يريد أن يزعجه، ولما فتح يعقوب عينيه رأي أخيه عيساو يجلس أمامه فقال في نفسه عدوي جاء يقتلني هنا في الحقل، قال له عيساو: انهض لقد خفت عليك من الأذى فجئت لأنقذك! قال سامحني يا أخي على ما فعلته بك، قال عيساو لا تخف لا فرق بيني وبينك فأنت أخي ابن أمي وأبي، ولكن لو أخبرتني بذلك قبل أن تقوم بهذه الفعلة، لتنازلت لك طوعًا عن تلك البركة، فليتصور الإنسان أن يعقوب النبي الذي اصطفاه الله وآله على العالمين تجعله توراة بني إسرائيل يزوِّر ويكذب، أليس هذا افتراء على يعقوب وعلى الله تعالى؟.

بعد وفاة إسحق التقى يعقوب وعيساو ليتقاسما تركة ابيهما فقال يعقوب: "ترك لنا والدنا تركة من نوعين: النوع الأول يتمثل في قطيع المواشي والنوع الثاني هو أرض كنعان، وعليك يا أخي أن تختار واحدة من هذه التركة، إما قطيع الماشية وإما الأرض، فطلب عيساو من أخيه أن يمهله يومين ليفكر في الأمر، وذهب عيساو إلى عمه إسماعيل عليه السلام وعرض الأمر عليه وطلب الاستئناس برأيه في هذه المسألة. فقال إسماعيل يا ابن أخي إن أرض كنعان لها أصحاب وهم أقوياء ومن المحتمل أن لا يتنازلوا عنها مطلقًا، ثم لو حصل ذلك فإنه يحتاج إلى مئات السنين، فأرى أن تأخذ قطعان المواشي من التركة وتترك الأرض ليعقوب ليحلم بها كما يشاء، فأخذ عيساو بمشورة عمه إسماعيل وذهب إلى يعقوب وأبلغه بقراره، فقال له يعقوب دعنا نوقع صكًا بيننا، وجاء بجلد غزال (رق) وكتبا عليه الموافقة بتقسيم التركة على أن تكون الأرض ليعقوب والمواشي لعيساو، وأودع يعقوب ذلك الرق "الاتفاقية" في أحد الكهوف المجاورة لمدينة الخليل، وسوف نعود في موضع آخر في هذا الكتاب للحديث عن الادعاء الذي أقامه بنو إسرائيل حول أرض كنعان واعتبروها ميراثًا أزليًا لهم باعتبارهم أبناء يعقوب.

كان بنو إسرائيل يحلمون دائمًا بأرض كنعان التي تصفها التوراة بأنها أرض تفيض لبنًا وعسلاً فنسبوا أنفسهم إلى إبراهيم الخليل عليه السلام، ولا ندري كيف صدَّق العالم رواية انتسابهم لإبراهيم الذي سبقهم بأكثر من ألف سنة، وكيف أصبحوا أحفاده وأنه الجد الأعلى لهم، رواية ملفقة

من أساسها ولكن لا بأس بأن نطرقها للتعرف على مدى التزوير الذي برع به بنو إسرائيل على مرّ العصور، تقول التوراة اليهودية في الإصحاح الثالث والعشرين من سفر التكوين: بأن إبراهيم اشترى من الحثيين العرب كهف الماكفيلة والحقل الذي يحيط به في مدينة الخليل لدفن زوجته سارة عندما انتقلت إلى الرفيق الأعلى، وذلك حسب النص التالي:

"وكانت حياة سارة 127 سني حياة سارة. وماتت سارة في قرية أربع التي هي في حبرون (الخليل) أرض كنعان. فأتى إبراهيم لندب سارة ويبكي عليها. وقام إبراهيم من أمام ميتة وكلم بني حثّ قائلاً: "أنا غريب ونزيل عندكم. أعطوني ملك قبر معكم لأدفن ميتي من أمامي"، فأجاب بنو حثّ إبراهيم قائلين له: اسمعنا يا سيدي أنت رئيس من الله بيننا. في أفضل قبورنا ادفن ميتك. لا يمنع أحد منا قبره عنك حتى لا تدفن ميتك، فقام إبراهيم وسجد لشعب الأرض لبني حثّ وكلمهم قائلاً: "إن كان في نفوسكم أن ادفن ميتي أمامي فاسمعوا لي والتمسوا لي من عفرون بن صوحر أن يعطيني مغارة المكفيلة التي له في طرف حقله بثمن كامل، يعطيني إياها في وسطكم ملك قبر. وكان عفرون جالسًا بين بني حثّ. فأجاب عفرون الحثّي إبراهيم في مسامع بني حث لدى جميع الداخلين باب مدينته قائلاً: لا يا سيدي، اسمعني الحقل وهبتك إياه والمغارة التي فيه لك وهبتها. لدى عيون بني شعبي وهبتك إياها. ادفن ميتك، فسجد إبراهيم أمام شعب الأرض وكلم عفرون في مسامع شعب الأرض قائلاً: بل إن كنت أنت إياه فليتك تسمعني. أعطيك ثمن الحقل، خذ مني فأدفن ميتي هناك، فأجاب عفرون إبراهيم قائلاً له: يا سيدي اسمعني. أرض بأربعمائة شاقل فضة ما هي بيني وبينك.. فادفن ميتك، فسمع إبراهيم لعفرون ووزن إبراهيم لعفرون الفضة التي ذكرها في مسامع بني حث، أربع مائة شاقل فضة جائزة عند التجار.

فوجب حقل عفرون الذي في المكفيلة التي أمام ممرا، الحقل والمغارة التي فيه وجميع الشجر الذي في الحقل الذي في جميع حدوده حواليه، لإبراهيم ملكًا لدى عيون بني حث بين جميع الداخلين باب مدينته، وبعد ذلك دفن إبراهيم سارة امرأته في مغارة حقل المكفيلة أما ممرا التي هي حبرون في أرض كنعان فوجب الحقل والمغارة التي فيه لإبراهيم قبرًا عند بني حثّ"، هذا ما كتبه اليهود في التوراة التي نسبوها لموسى عليه السلام، فمكان القبر أصبح بلاد كنعان كاملة من وجهة النظر اليهودية طبعًا، ونحن نعرف حسب العادات والتقاليد العربية القديمة والحديثة أن "الهبة" التي يهبها إنسان إلى إنسان آخر لا يتقاضى لها ثمنًا والا لا تصبح هبة، وهنا يقول عوفر لإبراهيم "الحقل وهبتك إياه والمغارة التي فيه لك وهبتها" فكيف يتقاضى ثمنها أربع مائة شيقل كما تقول التوراة؟ غير أن هذا الأمر لا يعنينا كثيرًا بقدر ما يعنينا ورود ذكر "الشيقل" في هذه الرواية وهذا يعني أن العملة التي كانت متداولة في زمن إبراهيم عند القبائل الكنعانية هي "الشيقل" وهذا يدل دلالة واضحة على أن "الشيقل" هو عمله كنعانية عربية أعاد اليهود استعمالها بعد إقامة إسرائيل على أرض فلسطين مدعيين بأن الشيقل هو عملتهم القديمة، وهذا أيضًا يأتي في قائمة التزويرات العديدة وادعاءاتهم الكاذبة.

لهذا وجد اليهود بانتسابهم زورًا إلى إبراهيم الخليل وأحفاده فرصة للادعاء بأحقيتهم في مدينة كريات أربع (الخليل الفلسطينية) وتمكنوا إبان فترة الحكم العثماني الأخيرة في فلسطين أن يقيموا مستوطنة داخل حدود مدينة الخليل أطلقوا عليها اسم (كريات أربع) وهو اسم مدينة الخليل القديم، حيث سميت باسم ملك الفلسطينوس "أبو أربع العناقي"، غير أنهم نسبوا هذا الاسم لأنفسهم ودوَّنوه في التوراة التي لفقوها عن قصد لأسباب سياسية وليست دينية على الإطلاق.

نعود هنا إلى رواية تقاسم التركة بين يعقوب وعيساو، فبعد أن تمَّت التسوية وعقد الاتفاق بين الأخوين قال يعقوب لأخيه عيساو: باعتبار أنك أخذت نصيبك من التركة وهو قطيع الماشية فإنه لا يحق لك أن تُبقي هذا القطيع على أرضي، عليك أن ترحل إلى مكان آخر خارج أرض كنعان، فارتحل عيساو شرقًا إلى أن وصل مع عشيرته وماشيته إلى شرق شبه جزيرة العرب، وأقام هناك على ساحل عمان من مسقط إلى حضرموت، وتكاثرت قبائله هناك إلى أن تذوبت في بيئة أهل البلاد الأصليين..

اليهود حوَّلوا اسم يعقوب إلى إسرائيل بموجب التوراة اليهودية كما تقدم ذكره في الباب الأول من هذا الكتاب، واستمروا بعد كتابة التوراة وتلفيق ما جاء فيها يحلمون بالعودة إلى أرض كنعان لما فيها من خيرات لا تحصى، وكانت عيونهم ترنوا إليها دائمًا ويأملون بالوصول إلى تلك الأرض يومًا من الأيام، وقد تحقق لهم ذلك عدة مرات في الماضي بسبب غزواتهم لفلسطين أكثر من مرة إلا أنهم لم يتمكنوا من الاحتفاظ بتلك الأرض لسبب بسيط وهي أنها ليست ملكًا لهم، فتشتتوا في أرجاء الأرض، والشتات الأخير لهم كان لحوالي ألفي عام بدأ سنة 70 بعد مولد السيد المسيح عليه السلام في بيت لحم بفلسطين، وكان ذلك التيه والتشرد قد تم على أيادي الحاكم الروماني لمدينة القدس "تيطوس".

يتساءل المؤرخون الغربيون من هو إبراهيم الخليل ومن أين جاء إلى بلاد كنعان باعتباره لاجئًا بينهم، لا يوجد إثبات على جذوره غير ما جاء في سفر التكوين من التوراة اليهودية والتي جمعت في شكل كتاب بعد وفاة إبراهيم بأكثر من ألف سنة، يقول المؤرخون أيضًا أن التوراة كسجل تاريخي كانت موضع جدل كبير لأكثر من مائتي عام، بالتحديد لغاية عام 1800 ميلادي، وكانت وجهات النظر السائدة أن روايات الكتاب المقدس كانت نوعًا من الإيحاء السماوي إلا أن العديد من المؤرخين من يهود وغير يهود ولعدة قرون، يعتقدون أن أسفار التوراة القديمة، تحتوي على نصوص ينبغي فهمها على أنها رمزية أو مستعارة أكثر من كونها حقائق.

خلال القرن العشرين الميلادي ظهرت انتقادات كثيرة للتوراة تقول بإن العهد القديم (التوراة) كسجل تاريخي؛ ينظم الأساطير الدينية اليهودية، وأن ما جاء في الأسفار الخمسة الأولى فيه (البنتاتويخ) أي أسفار موسى، هي أساطير منقولة عن القبائل اليهودية المختلفة والتي جاءوا بها بعد المنفى خلال النصف الثاني من الألفية الأولى قبل الميلاد، ويستمر الجدل بهذا الموضوع على أن أساطير الأسفار الخمسة الأولى حررت بدقة وعناية فائقة وتم كتابتها لتكون مبررًا تاريخيًا وإجازة سماوية للمعتقدات والممارسات والشعائر اليهودية بعد المنفى، فالأفراد المذكورون في الأسفار القديمة لم يكونوا أناسًا حقيقيين، ولكن أبطالاً أسطوريين يمثلون كل قبائل بني إسرائيل.

ولنأخذ على سبيل المثال بأن الكلدانيين الذين ورد ذكر إبراهيم الخليل أنه ينحدر منهم، لم يتدفقوا إلى جنوب العراق إلا في أواخر الألفية الثانية قبل الميلاد، وأن عصر إبراهيم الخليل كان قبل ذلك بكثير، والكلدنيون ذكروا في التوراة لتعريف قرائها بمدينة "أور" وذلك في بداية الألفية الأولى قبل الميلاد، مما يؤكد أن إبراهيم الخليل لم يكن كلدانيًا، وهذا يعيدنا لتذكر ما ورد في كتابات العموريين عن إبراهيم الخليل وعن أبنائه إسحق ويعقوب والأسباط، بشكل لا يختلف كثيرًا عما جاء في توراة بني إسرائيل، وأن تلك الكتابات العمورية كانت قد سبقت كتابة التوراة بما لا يقل عن 1400 عام، الأمر الذي دعا بعض المؤرخين الغربيين إلى الاستنتاج بأن إبراهيم الخليل كان عموريًا خلافًا لرواية التوراة بأنه كان كلدانيًا وأنه الجد الأعلى لبني إسرائيل.

كما أن الادعاء بأن إبراهيم الخليل عليه السلام ينحدر من قوم نوح، فقد أثبتت الحفريات الحديثة التي أجراها اركيولوجيون بريطانيون بعد أن احتلت بريطانيا العراق في بداية العشرينات من القرن الماضي في أعقاب الحرب العالمية الأولى، إذ تمكنوا من كشف خوذة عظيمة صنعت على شكل باروكة شعر من الذهب الخالص، مزينة بصدفات اللازوردي، كما وجدوا أيضًا "زقورة" عملاقة، والبرج الذي يقوم على نصفين مزدوجين يوحي بقصة برج بابل، وكان هذا من أعمال "اورنامو" من العائلة الملكية الثالثة، التي حكمت بابل بين الفترة الواقعة بين 2060 – 1950 قبل الميلاد.

يقول المؤرخون إن هناك احتمالاً بأن إبراهيم الخليل ترك مدينة أور الكلدانية بعد الطوفان في عهد "اورنامو"، حاملاً معه إلى بلاد كنعان قصص "الزقورة" ورواية الطوفان التي كانت قبل ذلك بكثير، ومن أهم الروايات المتناقلة عن إبراهيم الخليل بأن الله اختاره وسلالته لدور خاص في مملكة الله، وفي مقدمة ذلك الدور الذي هو هبة الأرض التي كان فيها إبراهيم وذريته لاجئين وجوالة، وهي أرض كنعان كما تقول الروايات التي جاءت مع إبراهيم إلى بلاد كنعان.

فإذا كانت الروايات التي جاءت في التوراة ومنها ذكر الكلدانيين وأن ذكرهم إنما جاء في التوراة لتعريف قرائها بمدينة "أور"، فإن هذا يدل على أن هناك روايات عديدة جاءت في توراة اليهود ليس لها أصول حقيقية بل جاءت على صورة (مجازية) فكيف لنا أن نؤمن بأن الله اختار إبراهيم وسلالاته لدور خاص في مملكة الله وأن ذلك الدور يتلخص في هبة أرض كنعان لسلالاته من بعده، بينما هو جاء لاجئًا في وسط الكنعانيين سكان البلاد الأصليين، والسؤال الذي يطرح في هذا الموضوع هو لماذا لم يهبه الله أرضًا في بلاد الرافدين التي هي أرض مولده كما تقول التوراة؟، أو في بلاد حران التي ذهب إليها في تجواله ورحيله عن العراق؟ هل كانت إرادة الله سبحانه - وهو المنزه عن ذلك – أن يزرع الفتنة بين الناس بهذه الطريقة التي أقل ما يقال عنها بمفهومنا الحالي إنها فتنة استعمارية، والتي جعلت أرض كنعان مسرحًا للحروب وسفك الدماء على مدار آلاف السنين، وسوف تستمر كذلك إلى يوم القيامة بسبب هذه الهبة المزعومة من إله مزعوم أيضًا.

الباب الرابع

الفصل الأول : فلسطين في الماضي والحاضر

تبلغ مساحة فلسطين الكلية حوالي 16000 كيلومتر مربع، وتقع على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، ولها تاريخ طويل من حيث المساحة والسكان وملكية الأرض، احتلتها إسرائيل منذ عام 1948 وطردت أصحابها الأصليين العرب من أراضيهم وبيوتهم، وما لبثت أن صادرت كل ممتلكات الفلسطينيين الذين حولتهم إلى لاجئين سكان مخيمات يعيشون على صدقات هيئة الأمم المتحدة. وفي عام 1967 أكملت احتلالها للأراضي المتبقية من فلسطين التاريخية، ولكنها لم تتمكن من تفريغها من سكانها كما حدث عام 1948 نظرًا لتمسك السكان بأرضهم وبوجودهم، وعدم الرضوخ للتهديدات والإجراءات القمعية والمعاملة التعسفية لهم من قبل القوات المحتلة، ولا زالت إسرائيل تحتل كامل فلسطين التاريخية رغم كل القرارات الدولية الصادرة عن هيئة الأمم المتحدة، التي تدعوها فيها بالانسحاب من الأراضي التي احتلتها عام 1967، يحد فلسطين من الشرق نهر الأردن، والمملكة الأردنية الهاشمية، ومن الغرب البحر الأبيض المتوسط، ومن الجنوب برية سيناء المصرية، ومن الشمال لبنان وسوريا..

فلسطين واسمها التاريخي "كنعان" عامرة بأهلها المنحدرين من الأصول الكنعانية العربية على نحو غير منقطع منذ عشرات الآلاف من السنين، ولا زالت الحفريات في فلسطين والمكتشفات الأثارية فيها تدل دلالة واضحة على وجود الكنعانيين العرب فيها منذ أقدم عصور التاريخ، فمدينة أريحا مثلاً تحكي الكتابات التي تم اكتشفاها مؤخرًا بأن تلك المدينة الكنعانية يرجع تاريخها إلى ثمانية آلاف سنة قبل مولد السيد المسيح عليه السلام، وهذا يؤكد أن عمر المدينة المعروف حتى الآن يصل إلى عشرة آلاف سنة ونيف، كما تشير المكتشفات إلى أن أريحا أقدم موضع للزراعة التي مارسها الكنعانيون فجعلوا منها أغنى مدن العالم القديم.

تشير السجلات الأثارية إلى أن أصل اليهود يعود إلى القبائل الغازية لفلسطين، وهناك اعتقاد بأن قبائل تدعى القبائل العبرانية هجرت بلاد ما بين النهرين واستقرت في وقت لاحق في بلاد كنعان، ما بين 1800 – 1500 قبل الميلاد، وكانت البلاد آنذاك تضم إلى جانب أهلها الأصليين "الكنعانيين" قبائل مختلفة منها: الحثيون والفلسطينيون أو "الفلستينوس" من ذوي العروق اليونانية، إذ أنهم قدموا إليها فيما بعد، وهم من الشعوب التي هاجرت من الجزر اليونانية والشعوب اليونانية القديمة واستقرت في سيناء ثم انتقلت من هناك إلى المناطق الجنوبية من فلسطين، والتي تعرف اليوم بمنطقة غزة ومدينة "حبرون الزاهرة" أو مدينة الخليل الحالية.

الكتاب المقدس "التوراة" يشير إلى أن موسى عليه السلام قاد القبائل الإسرائيلية أو قسمًا منها من مصر، وغزا فلسطين بقيادة يشوع بن نون، واعتمادًا على رواية الكتاب المقدس فإنه يمكن التخمين بأن الملك داود أيضًا كان قد غزا القدس حوالي عام 1000 قبل الميلاد وأقام مملكة يهودية على معظم الأراضي الكنعانية وأجزاء من الضفة الشرقية لنهر الأردن.

بعد وفاة سليمان بن داود تم تقسيم مملكة يهودا إلى يهود الجنوب ويهود الشمال، وظلت القدس مركز السيادة والعبادة عند اليهود في جميع الأوقات التي كان لهم فيها سيادة على البلاد.

الآشوريون العراقيون قاموا باحتلال بلاد كنعان في عام 720 قبل الميلاد، كما غزا البابليون البلاد الكنعانية نحو عام 586 قبل الميلاد، وقد ترتب على الاحتلال الآشوري السيطرة على شمال بلاد كنعان حيث ساق الآشوريون بني إسرائيل سبايا إلى بلاد ما بين النهرين (العراق)، فكان السبي الأول لبني إسرائيل، أما السبي الثاني فكان على أيادي البابليين الذين احتلوا منطقة القدس وسبوا اليهود إلى بابل أيضًا، فكان السبي البابلي الثاني بعد حوالي سبعين عامًا على الغزو البابلي لفلسطين، غزا ملك بلاد فارس "قورش الاخميني" مملكة بابل وواصل احتلاله غربًا إلى البحر الأبيض المتوسط، وسمح لعدد من اليهود في بابل بالعودة إلى القدس للاستيطان فيها، وبقى عدد كبير من اليهود في بابل ليشكلوا أول تجمع يهودي وقاموا بإنشاء محمية يهودية هناك.

في المنفى البابلي الثاني حافظ اليهود على صِلاتهم مع السلطات الفارسية الحاكمة، والتي دام حكمها لبلاد ما بين النهرين وفلسطين من عام 530 - 331 قبل الميلاد أي حوالي مائتي عام إلى أن قام الإسكندر المقدوني الإغريقي باحتلال الإمبراطورية الفارسية، وفي عام 323 قبل الميلاد وبعد وفاة الإسكندر المقدوني اقتسم قادة جيشه الإمبراطورية الإغريقية وتمكن أحد هؤلاء القادة وهو سلوقي من تأسيس حكم لأسرته في جزء كبير من فلسطين، عام 200 قبل الميلاد، وفي البداية سمح الحكام السلوقيون لليهود في بلاد كنعان بممارسة شعائرهم الدينية واستمروا كذلك حتى عهد الملك السلوقي "انتيوخوس الرابع" الذي منعهم من ذلك في وقت لاحق، وفي عام 167 قبل الميلاد ثار اليهود بقيادة المكاعبيين ضد السلوقيين بهدف إخراجهم من فلسطين، أو لإحراز قدر كبير من الاستقلال الذاتي، وتشكيل مملكة يهودية تكون عاصمتها القدس، وتم لهم ذلك بدعم من الإمبراطورية الرومانية، وأكد الرومان عام 164 قبل الميلاد دعمهم لليهود، وحسب المؤرخين الرومان قالوا "إن يهوذا المكاعبي صديق للشعب الروماني ومجلس الشيوخ" اليهود بطبيعتهم يستجيرون بالدول الكبيرة والقوية عسكريًا لحمايتهم، باستدرار عطفهم بعد التمسكن وإذلال أنفسهم، وقد تمسكنوا لروما في تلك العصور كما يفعلون اليوم بتمسكنهم لأمريكا ودول العالم القوية من أجل الحصول على الدعم والتأييد.

الفصل الثاني : من الحكم الروماني إلى الحكم العثماني

في العام 61 قبل الميلاد قام الرومان بغزو منطقة الشرق الأدنى، وتغلغل الرومان في فلسطين وحاصروا القدس، فأصبحت بذلك مملكة يهودا تابعة لروما وقد حكمتها بداية أسرة "هيدوريان" اليهودية الموالية لروما، وجرى تقسيم الأرض إلى مناطق يهودا والجليل وبؤر صغيرة في شرقي الأردن، وكانت هذه المناطق اليهودية تخضع للسيطرة الرومانية المباشرة وكانت تشمل القدس باسم يهودا.

ولد السيد المسيح عليه السلام في بيت لحم، أي في يهودا خلال السنوات الأولى لوجود الرومان في فلسطين، وفي عام 70 ميلادي أخمد الحكام الرومان تمرد اليهود ضدهم وقاموا بطرد اليهود من القدس على أثر تمرد الزعيم اليهودي "كوشيا" ضد روما، بعدها أطلق الرومان اسم "فلسطين" على تلك المنطقة، لهذا فإن الاسم فلسطين أصبح فيما بعد "فلسطين سورية"، في إشارة إلى كامل الجزء الجنوبي من سورية الحالية، واليهود الذين يريدون مواصلة شعائرهم الدينية فروا من فلسطين، أو تم نفيهم بالقوة على أيادي الرومان، وأيامها تشكل الشتات اليهودي الثاني، غير أن بعض الجماعات اليهودية بقيت في الجليل في شمال فلسطين بصورة أساسية، وهنا يلاحظ المرء أن هذه القبائل اليهودية تتميز بالتمرد ضد من يحسنون إليها، وأن العصيان صفة تلازمهم في كل زمان ومكان، وعلى هذا الأساس فإن احتمال تمردهم على الولايات المتحدة والدول التي تساندهم حاليًا، أمر وارد عند اليهود من واقع طبيعتهم الخبيثة، ولا نستغرب حدوث ذلك إن شعروا بالأمان والسلام في إسرائيل الحالية ولم يعودوا بحاجة لدول أجنبية في دعم مشاريعهم العدوانية..

حكمت الإمبراطورية الرومانية في فلسطين حتى القرن الرابع الميلادي، تلتها الإمبراطورية البيزنطية، وفي عهد البيزنطيين انتشرت المسيحية آنذاك في معظم المناطق الفلسطينية، وفي أوائل القرن السابع الميلادي وبعد ظهور الإسلام في جنوب الجزيرة العربية تحركت الجيوش العربية الإسلامية لفتح مناطق عديدة في الشرق الأدنى، وتمكنت من التغلب على معظم بلاد الشرق الأوسط بما فيها فلسطين، وتم فتح القدس عام 638 ميلادية في عهد الخليفة المسلم "عمر بن الخطاب" الذي أعطى الأمن والأمان لسكانها وسمح الحكام المسلمون منذ ذلك الوقت للمسيحيين واليهود بالبقاء على دياناتهم، وقبل معظم المسيحيين الإسلام واعتنقوه كما اعتنقوا الثقافة العربية الإسلامية تدريجيًا، وأصبحت القدس موقعًا مقدسًا عند المسلمين، حيث أسرى بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم إليها، ومنها عرج إلى السماء وتم بناء المسجد الأقصى فيها في عهد الدولة الأموية الإسلامية وكذلك قبة الصخرة المشرفة.

السلاجقة الأتراك احتلوا القدس عام 1071 ميلادية غير أن حكمهم لم يدم طويلاً فقد انتهى بعد 30 عامًا حيث حل مكانهم الفاطميون، بعد أن تحالف الفاطميون مع الصليبيين سنة 1098 واستولوا على القدس ويافا ومناطق أخرى من فلسطين، غير أن الصليبيين نقضوا التحالف مع الفاطميين وغزوا فلسطين بعد حوالي عام واحد، فاحتلوا يافا والقدس في عام 1099 ميلادية، وذبحوا الكثيرين من اليهود والمسلمين، وحرَّموا على اليهود العيش في القدس، وظل الصليبيون في القدس إلى سنة 1187 ميلادية، وفي تلك السنة هاجم صلاح الدين الأيوبي الفاطمي مدينة

القدس وحررها من أيادي الصليبيين، ومن هناك بدأ النفوذ الصليبي يتقلص تدريجيًا على الساحل الفلسطيني بموجب معاهدة مع صلاح الدين، إلا أن الصليبيون نقضوا عهدهم كما كانوا ينقضون العهود السابقة، وسعت الحملات الصليبية المتتالية للاستيلاء على القدس، ولم تتمكن من ذلك.

شل نفوذ الصليبيين بشكل نهائي عندما احتل المسلمون مدينة عكا الساحلية المحصنة بأسوار منيعة، إلا أن الصليبيون استمروا في غارات كثيفة وكبيرة على فلسطين مما أجبر المسلمين على سحب مواطنيهم بعيدًا عن السواحل، فدمروا المدن الساحلية والمزارع لمنع الصليبيين من الاستفادة منها بالحصول على الغذاء، وهذا ما أفقر بالتالي شواطئ فلسطين وحرمها من سكانها لعدة قرون.

في أواسط القرن الثالث عشر الميلادي انشأ المماليك - وهم جنود أرقاء للعرب – في مصر إمبراطورية منطقة فلسطين وكان المسلمون الناطقون بالعربية يشكلون معظم سكان المنطقة التي حملت اسم فلسطين، وفي القرن الرابع عشر الميلادي جاء إلى القدس وأجزاء أخرى من الأرض الفلسطينية يهود من أسبانيا وبلدان حوض البحر الأبيض المتوسط.

في سنة 1517 هزمت الإمبراطورية العثمانية المماليك وصارت فلسطين جزءًا من الإمبراطورية العثمانية، ودعا السلطان التركي اليهود الهاربين من محاكم التفتيش الكاثوليكية الأسبانية إلى الاستقرار في الإمبراطورية التركية بما في ذلك العديد من المدن الفلسطينية.

غزا نابليون بونابرت الفرنسي أرض فلسطين في العام 1798، وأدت الحرب مع نابليون وما تلاها إلى ضعف سيطرة الحكام المصريين والعثمانيين في فلسطين، وهرب العرب واليهود إلى مناطق أكثر أمنًا وازدهارًا، ولعل ثورات العرب ضد الحكم العثماني في مصر كانت آنذاك عاملاً مساعدًا على تحفيز المشاعر الوطنية الفلسطينية، تلا ذلك إعادة تنظيم الإمبراطورية العثمانية في انفتاحها على الأجانب من أجل الحفاظ على ما أمكن من النظام، لهذا سمح العثمانيون ببدايات الاستيطان اليهودي تحت قيادة حركات صهيونية عديدة، فازداد عدد العرب واليهود في عام 1880 م، حيث أصبح يعيش في فلسطين زهاء 24000 يهودي من أصل مجموع السكان البالغ نحو 400،000 نسمة، في ذلك الوقت فرضت الحكومة العثمانية قيودًا صارمة على الهجرة اليهودية وعلى شراء الأراضي، وبدأت بدعوة نشطة للمسلمين من مناطق متعددة في الإمبراطورية العثمانية للاستقرار في فلسطين وشملت الدعوة الشركس والبوسنيين.. الخ، وتملص اليهود من القيود المفروضة عليهم عن طريق دفع الرشاوى لضعاف النفوس من الحكام المحليين.

الفصل الثالث : دور الصهيونية

لم يتوقف تدفق اليهود بأعداد صغيرة من جميع أنحاء المنافي اليهودية إلى فلسطين، إذ ظلت فلسطين بالنسبة لهم مركز عبادتهم الأول، وجزءًا من الثقافة اليهودية، وبرغم هذا الارتباط الروحي بفلسطين والقدس، فقد كان في مجمله ارتباطًا نظريًا في انتظارهم الخلاص على يد "المسياخ" اليهودي المنتظر، في القرن التاسع عشر الميلادي نشط اليهود في أوروبا خصوصًا بعد الثورة الفرنسية التي أخرجت اليهود من معازلهم إلى العالم الحديث، ووضعتهم أمام أفكار جديدة، فاختلطت مفاهيمهم الليبرالية الحديثة مع أفكارهم التقليدية فيما يخص إسرائيل وصهيون، فقد ظهر الارتباط الوثيق بين (محبة صهيون) وبين المفاهيم القومية الحديثة، خصوصًا بين اليهود الشرقيين في أوروبا المعروفين بـ "السفراديم" وبعدها أصبحت فكرة العيش فيما يسمى أرض إسرائيل ثابتة في عقولهم، وجعلوا صهيون هدفًا عمليًا أكثر من انتظار المسياخ المخلص.

خلال الأربعينات من القرن التاسع عشر الميلادي شاعت بين عدد قليل من يهود أوروبا اللغة العبرية، واستثار تحرر اليهود حركة سياسية واجتماعية معادية لليهود في أوروبا، سيما في ألمانيا وأوروبا الشرقية، ففي ألمانيا قام اليهود بتسميم آبار مياه الشرب في منطقة "شفارتس فالطن" مصدر مياه الشرب في ألمانيا وعاصمتها المحلية مدينة "فورتس بيرغ"، الأمر الذي أثار غضب الألمان وأثار اضطهاد اليهود وكذلك في أوروبا الشرقية، وكان ذلك حافزًا دفعهم للهجرة إلى فلسطين، أو أنه عجَّل في هجرتهم إلى بلاد كنعان.

الحركة الصهيونية نشأت كمنظمة رسمية لقيادة اليهود في العالم عام 1892، بانعقاد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بازل السويسرية، بزعامة الصحافي المجري تيودور هرتسل، غير أن تيودور هرتسل والأشخاص الذين دعاهم إلى الاجتماع في سويسرا ما هو إلا امتداد لحركة يهودية أقدم وأعلى مكانة من الحركة الصهيونية، وهي حركة لا زالت حتى يومنا هذا تعد من الأسرار اليهودية، وغير معلن عنها رسميًا كما هو حال الحركة الصهيونية التي كشفتها البروتوكولات التي عرفت ببروتوكولات حكماء صهيون، على أثر تسربها إلى روسيا، وقيام صحفي بريطاني في موسكو بترجمتها إلى الإنكليزية، ونشرها في روسيا عام 1905، ولم تكن الحركة معروفة قبل ذلك التاريخ.

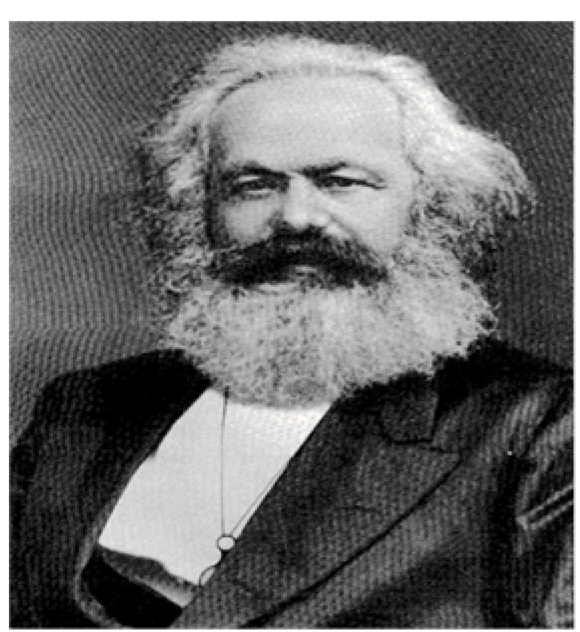


- آدمز فايسهاوت مؤسس حركة النوارنيين في ألمانيا عام 1776 -

أما الحركة الأم تعرف بحركة "الليموناتي" بمعني حركة النورانيين، أسست بادئ ذي بدء في مدينة فرانكفورت الألمانية، بعد أن قامت عائلة انشولم الألمانية عام 1776 باستدعاء الكاردينال اليهودي المتنصر (آدمز فايسهاوت) وطلبت منه ترك النصرانية والعودة إلى دينه اليهودي، وقامت العائلة المذكورة بإرساله لدراسة القانون في جامعة "إند ستوب البريطانية"، وبعد إنهائه دراسة القانون عاد إلى ألمانيا وبدأ بتكليف من عائلة انشولم العائلة الألمانية اليهودية، بدأ بالعمل على تحديث المخططات اليهودية القديمة الرامية إلى العودة إلى ما سمي "أرض الميعاد"، في فلسطين وإلى تمكين حركة الليموناتي من حكم العالم وإقامة دولة العالم الواحدة، وقام آدمز فايسهاوت بتحديث المخططات القديمة خاصة تلك المخططات التي اتخذها مؤتمر المكعابيين اليهود في مدينة الإسكندرية المصرية عام 940 ميلادية، والتي كان من أهم قراراته دعوة اليهود في العالم لاعتناق ديانات الشعوب التي يعيشون بينها، ونتج عن ذلك أن اعتنقت طائفتان يهوديتان "الإسلام" في مصر في ذات العام أي قبل 1170 من يومنا هذا، كما اعتنق العديد من اليهود في العالم الغربي المسيحية وكان يهدف من هذا القرار الدخول إلى الديانات الأخرى لنخرها من الداخل، خاصة الدين الإسلامي الذي استعصى عليهم كثيرًا، فجاءت الفكرة بأنه إذا أراد الإنسان أن يفسد عقيدة معينة عليه أن ينتمي إليها أو يعتنقها صوريًا ليتمكن من العمل على إفسادها من داخلها ويكون مقبولاً لعامة الناس، ولقد رأينا في عالمنا الإسلامي بكل أسف الكثير من التفسيرات الإسلامية لديننا الحنيف دُست علينا من قِبل أناس لا نعرف أصولهم ولا جذورهم، ادعوا أنهم مسلمون بعد أن تتلمذوا على أيادي أهم المراكز الدينية الإسلامية، وأصبحوا موضع ثقة الأمة، ولا يتسع المجال للدخول في تفاصيل عن هذه العمليات الصهيونية ضد الأمم، ويكفي أن نشير إلى أن الذين خططوا

ونفذوا زرع الشيوعية في روسيا على سبيل المثال كانوا من اليهود المتنصرين صوريًا بموجب قرارات مؤتمر المكاعبيين اليهود في الإسكندرية، حيث جرى تحديث تلك المقررات من قبل آدمز فايسهاوت ووضعت موضع التنفيذ مرة أخرى بعد أن تداعت سابقًا، ونذكر منهم على سبيل المثال: كارل ماركس (موردخاي)، ولينين وتروتسكي وجوزيف ستالين.. الخ، وجميعهم عملوا لخدمة حركة الليمواتي أم الحركة الصهيونية الحالية، واليوم نرى حركة الليموناتي هذه تحكم قبضتها على العالم بل وتحكمه بشكل خفي، وسوف تعلن قريبًا عن بدأ خلق دولة العالم الواحدة يحكمها ملك من نسل داود أي ملك يهودي من بني إسرائيل، حتى لو تداعى الكيان الصهيوني القائم حاليًا في فلسطين، لأن دولة إسرائيل لا تعني أكثر من إقامة تجمع يهودي مؤقت للحركة الأم "الليموناتي" فإن أهداف الليموناتي أبعد بكثير من إقامة كيان صغير في الشرق الأوسط، بل لأبعد من هذا بكثير وهو السيطرة المطلقة على شعوب الكرة الأرضية بشكل علني، وأن لا تظل سيطرتها خفية كما هو الحال في هذا الزمان، وما دولة إسرائيل إلا لذر الرماد في العيون وإبعاد أنظار العالم عن المخططات الليموناتية الخفية.

عمومًا كانت الحركة الصهيونية التي بعثها تيودور هرتسل عام 1892 تهدف إلى إقامة وطن لليهود في فلسطين في ظل سيادة تركية أو ألمانية، بداية لم يكن وجود السكان العرب في فلسطين يشغل بالهم إذ تجاهلوا ذلك الوجود واعتقدوا بأن العرب الفلسطينيين لا يمانعون الانتقال طوعًا إلى بلدان عربية مجاورة، فأنشأ الصهاينة مزارع تعاونية في مناطق متعددة من فلسطين مثل مستوطنات: بتاح تكفا (مفتاح الأمل) إلى الشرق من تل أبيب الحالية و"زخرون ليكوف" بمعنى ذكرى ليعقوب و"ريشون لتسيون" بمعنى الأولى لصهيون. وغير هذه المستوطنات الزراعية ثم بعد ذلك أقاموا مدينة تل أبيب الساحلية قرب مدينة يافا الفلسطينية العربية، وبدأوا في بنائها عام 1909 وكانت في بدايتها ضاحية من ضواحي مدينة يافا العربية، وبعد عام 1948 انعكست الصورة وأصبحت يافا أو ما تبقى من يافا ضاحية من ضواحي تل أبيب.



- كارل ماركس (موردخاي) اليهودي الإنكليزي المتنصر -



- ثيودور هرتسل : مؤسس الحركة الصهيونية -

الفصل الرابع : الحرب العالمية الأولى

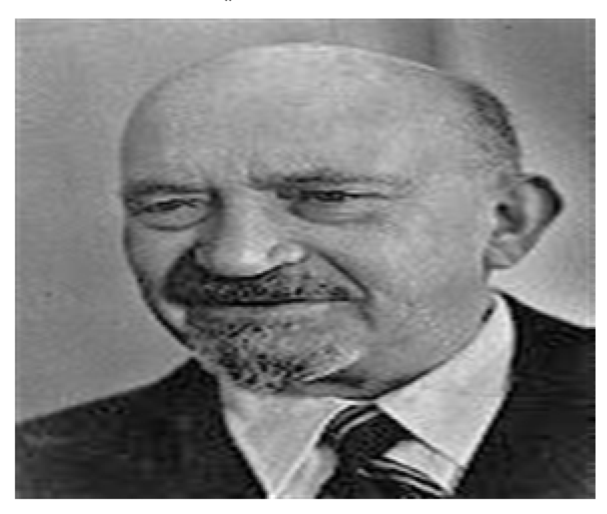
انضمت الإمبراطورية العثمانية إلى ألمانيا في الحرب العالمية الأولى التي نشبت عام 1914 وانتهت عام 1918، وواجهت تركيا معسكر الحلفاء وكانت في فلسطين آنذاك حكومة عسكرية عثمانية، وكانت الحرب قاسية على العرب واليهود بسبب تفشي وباء الكوليرا، ولكن كان ذلك أكثر صعوبة على اليهود، وقد أمر الحاكم العسكري التركي بترحيل جميع الرعايا الأجانب عن البلاد، حيث كان في فلسطين إذ ذاك عدد كبير من اليهود الروس الذين تمكنوا من الدخول بموجب الامتيازات التي منحتها تركيا للروس، وقد استغل اليهود هذه الامتيازات للتغلب على القيود المفروضة على الهجرة واحتفظوا بالجنسية الروسية لتجنب تجنيدهم في الجيش التركي، وهكذا فإن عددًا كبيرًا من اليهود أجبروا على الفرار من فلسطين بسبب الحرب.

وخلال فترة الحرب أسست مجموعة يهودية صغيرة في فلسطين تنظيمًا باسم (نيلي) وهو اختصار للعبارة العبرية "ينتسح يسرائيل لو يشقر" (ינצח ישראל לא ישקר) وتعني هذه العبارة "لن تسقط إسرائيل حتى الأزل"، وكان هذا التنظيم يعمل سرًا بتقديم خدمات استخباراتية للبريطانيين من أجل تحرير الأرض من الحكم التركي، وتمكن الأتراك في نهاية المطاف من القبض على أعضاء هذا التنظيم، غير أن المساعدات التي كانوا يقدمونها للبريطانيين ساعدت كثيرًا في نجاح الغزو البريطاني.

في أعقاب الحرب العالمية الأولى واحتلال البريطانيين والفرنسيين لبلدان الشرق العربي تقاسموا ممتلكات الإمبراطورية العثمانية فيما بينهم، ودعا اتفاق سايكس بيكو عام 1916 إلى إخضاع جزء من فلسطين للحكم البريطاني، وإخضاع جزء آخر منها للحلفاء على أن تكون سورية ولبنان لفرنسا، غير أن بريطانيا عرضت بعد الحرب دعم المطالب العربية في الاستقلال عن العثمانيين، وذلك مقابل الدعم العربي للحلفاء، في عام 1916 ثار العرب ضد العثمانيين بقيادة البريطاني"ت.ي. لورانس" والذي عرف بلورانس العرب فيما بعد، لورانس العرب بالغ كثيرًا في الأعمال البطولية ضد تركيا كما بالغ في ذلك الخبير البريطاني "لويل توماس"، علمًا بأن لورانس كان مصابًا بالشذوذ الجنسي، وقد نال منه رجال القبائل الصحراوية العربية ما نالوا من هذه الناحية، من الطبيعي أن تأتي النتيجة بتنكر بريطانيا لوعودها مع العرب وأصرت على تنفيذ وعد بلفور لليهود الذي ينص على إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين.

الفصل الخامس : الاستعدادات والمداولات السياسية التي سبقت الحرب العالمية الأولى

خلال الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى كانت الاستعدادات والمداولات السياسية الرامية إلى رسم خارطة جديدة لبلدان الشرق الأدنى التي تنوي الدول الغربية احتلالها وإلى مساعدة الحركة الصهيونية في إقامة وطن يهودي في فلسطين، كانت المناقشات تقوم على قدم وساق، سرّية أحيانًا وعلنية أحيانًا أخرى، وكانت تدور هذه المناقشات والاتجاهات والمداولات على مستوى الدولة والوزراء مع زعماء الحركة الصهيونية العالمية التي تولى أمورها "الدكتور حاييم وايزمان" الذي أصبح أول رئيس للكياني الصهيوني في فلسطين بعد إعلان قيام دولة إسرائيل في فلسطين عام 1948، وفيما يلي سوف أوجز تلك الاستعدادات والمناقشات التي سبقت الحرب العالمية الأولى فيما يتعلق بدور الصهيونية في تلك الحرب.



- حاييم وايزمان أول رئيس لدولة إسرائيل ورئيس الحركة الصهيونية الدولية بعد هرتسل -

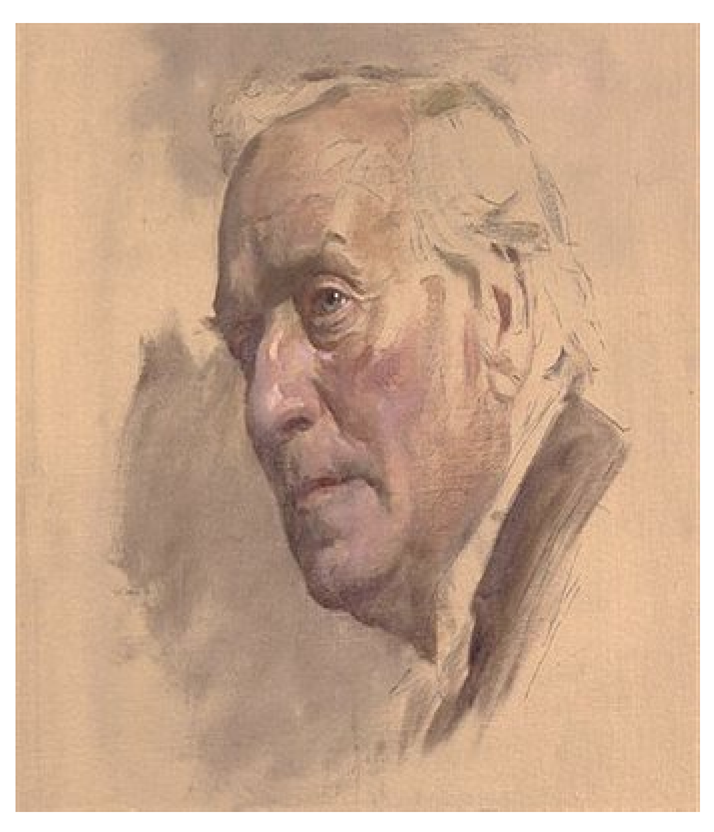
في التاسع من شهر نوفمبر، تشرين الثاني لعام 1914 كان رئيس وزراء بريطانيا السير "أسكويت" ألقى خطابًا في قاعة "غيلدهول" في العاصمة البريطانية لندن، أعلن فيه صراحة بأن تركيا أقدمت على الانتحار بسبب تحالفها مع ألمانيا ودفعت قيصر ألمانيا لوقف دعمه للحركة الصهيونية، وتمكن ذلك التحالف التركي – الألماني أن ينجح في وقف ذلك الدعم.

مقابل هذا ألزم السلطان العثماني نفسه لنصرة ألمانيا فيما لو وقعت حرب ضدها وكان على وشك إعلان الجهاد الإسلامي، وفي الجانب الآخر من المشهد الدرامي للحرب فقد كان "اسكويت" يرغب في منع مائة مليون مسلم من رعايا الإمبراطورية البريطانية من الانضمام إلى تركيا، وكان في خطاباته قد ألزم بريطانيا بتحقيق هزيمة للإمبراطورية العثمانية وتحرير شعبها من الاستعباد التركي حسب وصفه، تمامًا كما فعل الأمريكيون في احتلال العراق، حيث زعموا وأشاعوا عن طريق الإعلام المأجور أن القصد من احتلال العراق هو تخليص العراقيين من حكم حزب البعث

برئاسة صدام حسين الذي أطلقوا عليه لقب "جزار بغداد" وكان ذلك للتغطية على حقيقة أطماع الأمريكيين باحتلال منابع النفط العراقية التي كان صدام حسين قد أعلن تأميمها.

رئيس وزراء بريطانيا "السير اسكويت" كان بذلك يضيف دون أن يشعر، على الأقل وضعًا صعبًا إلى بانوراما الدولة الصهيونية وكان يعتقد أنه بزوال الحكم التركي عن فلسطين فلن تكون عوائق أمام إقامة وطن قومي لليهود هناك، بمعنى أن التخطيط لإقامة دولة يهودية واغتصاب الأرض الفلسطينية كان يداعب الفكر البريطاني.

وقد عملت بريطانيا منذ بداية القرن العشرين على تنفيذ الأحلام اليهودية بوطن يهودي في فلسطين بشكل عملي وتعاوني بين الحركة الصهيونية العالمية وبين الدول الغربية وعلى رأسها بريطانيا وفرنسا وروسيا أيضًا، وكان رئيس وزراء بريطانيا يأمل من اليهود التطوع في صفوف الجيش البريطاني لقتال الألمان والأتراك أن يساندوا القوات البريطانية والفرنسية والروسية في الحرب المخطط لها.

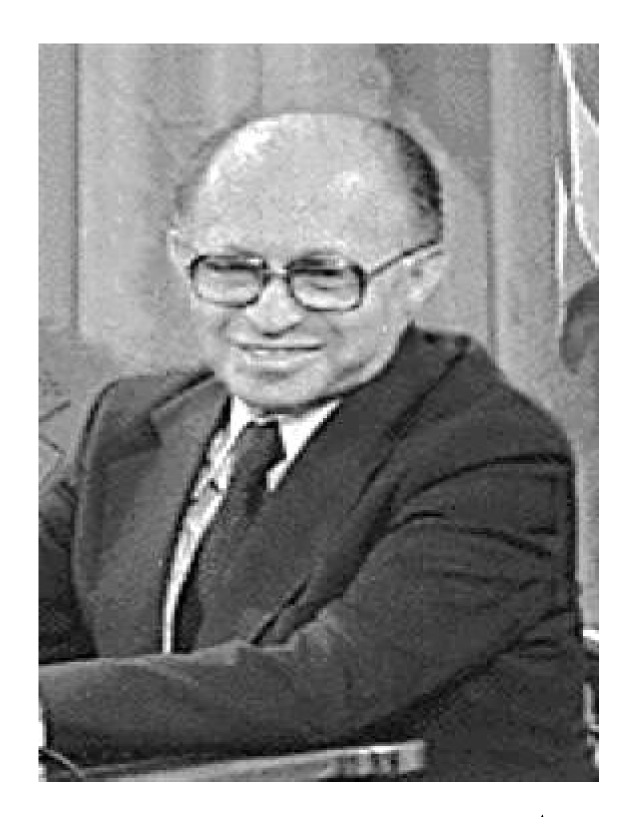


- رسم زيتي للسير هيربرت هنري اسكويت رئيس وزراء بريطاني سابق-

إلا أن ظاهرة غامضة برزت للوجود، إذ أن اليهود لم يكونوا راغبين في التطوع لمقاتلة الألمان، حيث كان العدو المميت لهم هو قيصر روسيا، وكان الجيش الألماني ينتظر أن يهزم القوات الروسية، فقام اليهود الذين يتكلمون اللغة الألمانية والذين قادهم "ماكس كيثرمان" بالتوقيع على عريضة بدعم ألمانيا في حربها ما عدا العالم اليهودي "اينشتاين" وكان الوحيد من طبقة المثقفين اليهود الذي رفض التوقيع على تلك العريضة، وهكذا تواصلت الاسترضاءات والتهديدات أحيانًا

لليهود للانضمام إلى هذا المعسكر أو ذاك، غير أن اليهود بطبيعتهم الماكرة ظلوا ينتظرون ليروا كفة الميزان إلى أين تميل ليميلوا معها.

ولما بدأت الحرب عام 1916، تمكنت القوات الألمانية من دحر الجيش الروسي في معركة "تانينبرغ" واندفع الألمان إلى قلب بولندا واستقبلهم يهود بولندا باعتبارهم منقذين ومخلصين، والذي تزعم حركة الاستقبال هذه كان "زئيف دون بيغن" والد "مناحيم بيغن" الذي كان رئيسًا لأركان الجيش الإسرائيلي بعد قيام دولة إسرائيل، ثم رئيسًا للوزراء في إسرائيل، وبقي كذلك إلى أن جرى اغتياله على يد يهودي سفرادي متطرف، كان زئيف يتحدث إلى جانب الألمانية والعبرية عدة لغات منها البيدش التي كان يتداولها اليهود الاشكنازيون وكان زئيف يفضل التحدث بالألمانية برغم أن البيدش هي رطانة ألمانية قديمة، وكان يسمي هذه اللغة "لغة معاداة السامية"، زئيف لعب دورًا مهمًا في توجيه ابنه "مناحيم" وقال له يومًا: "انظر يا بني الألمان سوف يجيئون، إنها ثقافة مختلفة فهي غير روسية، والجيش الروسي أثناء انسحابه ضرب نطاقًا حول اليهود واقتادهم تحت السياط إلى سيبيريا، وذلك من ضمن النوايا الشريرة لسياسة "جوزيف ستالين" الخاصة بالأقليات، لقد شاهدنا الكوزاك وهم يحرقون القرى اليهودية، ولكن عندما جاء الألمان عاملوا اليهود بشكل رائع، كانت في فلسطين في ذلك الوقت عدة مستوطنات ألمانية وأغلبها كانت مستوطنات زراعية، كما أن الكثير من المستوطنين اليهود في فلسطين كانوا يفضلون اللغة الألمانية على العبرانية، وطالبوا بأن تكون الألمانية هي لغة التدريس في المدارس اليهودية أما الحركة الصهيونية فقد قبلت بدون نقاش أن تكون لغة المؤتمر الصهيوني الألمانية وأن تكون برلين المقر الدائم للحركة الصهيونية العالمية، وكان أعضاء هذه الحركة يفضلون أن تكون ألمانيا هي الحامية لهم، أو أن يكون اليهود تحت الحماية الألمانية في فلسطين وكذلك العرب المسلمين في حالة تغلب الألمان على بريطانيا وفرنسا، الكثير يعتقدون أن الجالية اليهودية الكبيرة في "سالونيكا" هي التي ساعدت تركيا لتدخل الحرب إلى جانب ألمانيا في الحرب العالمية الأولى.



- مناحيم بيغن -

كان وايزمان المحرض الأول لبريطانيا على تقويض الإمبراطورية العثمانية، وكان وايزمان قد خلف تيودور هرتسل في زعامة الحركة الصهيونية، وأصبح أهم شخصية صهيونية مؤثرة في سياسة بريطانيا ودول العرب عمومًا، وقد كتب وايزمان بعد خطاب السير "اسكويت" (علينا أن نبلغ العالم بوضع يهود فلسطين المأساوي).

كان وايزمن الذي أصبح أول رئيس لدولة إسرائيل بعد إعلانها عام 1948 من الشخصيات المهمة جدًا في تاريخ اليهود المعاصر، وكزعيم صهيوني كان ماهرًا ونشطًا مثل "هيرتسل" في التعامل مع الزعماء السياسيين في العالم، إضافة إلى أنه كان يجيد مخاطبة يهود الشرق.

من حيث أصوله كان والده يعمل في قطع الأشجار في الغابات وينقلها عبر النهر إلى بحر البلطيق ومن هناك يتم تصنيع الأخشاب من جذوع الأشجار، حفظ قوانين "كارو" عن ظهر قلب وكان كتابه المفضل هو "مرشد الحيارى" لمؤلفه اليهودي القديم "موسى بن ميمون" الذي عرضنا لذكره في الباب الثاني من هذا الكتاب. هناك من يؤكدون أن وايزمان كان يعاني كثيرًا من أجل اكتساب المعرفة عن طريق التعليم الحديث، ولم تكن في بيته صحف، وكان مدير مدرسته يُهرب كُتبًا عبرية تبحث في علوم الطبيعة تحت غطاء التعليم الديني ودراسة سير الأنبياء السابقين.

كانت حكومة القيصر قد وفرت 10 مدارس يهودية ابتدائية في المدن التي كان 50% من سكانها من اليهود، وكان كل شيء قد ابتدع ليحول بين اليهود وبين الوصول إلى الجامعات، فقد كتب وايزمان في وقت لاحق: "كلما يقرأ الإنسان سنة بعد سنة الأمور المعقدة التي تدفقت من بيترزبيرغ يتكون عنده الانطباع بأن جميع الآليات المرهقة للإمبراطورية الروسية الشاسعة قد

صنعت خصيصًا لغرض وحيد، وهو اختراع تضخيم القواعد والأنظمة التي تحيط بمعيشة الرعايا اليهود"، لذلك فقد شمل التعليم مغالطات لا تنقطع من الخداع والإهانات..



- الفيلسوف اليهودي الأندلسي موسى بن ميمون -

اكتسب وايزمان صبرًا ومواظبة إلى أن وصل إلى إدارة معهد برلين للفنون المتعددة وهو واحد من أفضل المؤسسات التعليمية في أوروبا ولاحقًا انتقل إلى سويسرا، وحصل هناك على درجة الدكتوراة في الكيمياء من جامعة "وايبورغ" عام 1899.

بعد حصوله على الدكتوراه من سويسرا غادر إلى بريطانيا وأصبح هناك مدرسًا للكيمياء في جامعة مانشستر، ووجد نفسه في مهمة استغلال وجود الإمبراطورية البريطانية المتعاطفة مع الطموحات الصهيونية، ووجد خيرة طبقاتها الحاكمة وتعرف على الكثير من الشخصيات الهامة في الدولة ليحيي من خلال هذه المعارف والنفوذ قضية الوطن اليهودي، وحصل وايزمان على الجنسية البريطانية عام 1910، وفي انجلترا أقام علاقات مع آرثر بلفور زعيم المحافظين ومع "ونستون تشرشل"، كما قدمه "اسكويث" أيضًا لأعز أصدقائه السياسيين "السير لويد جورج"، جميع هؤلاء كانوا من الداعمين للحركة الصهيونية، والتقى وايزمان عضو البرلمان البريطاني "هربرت صموئيل" الذي كان عضوًا في المؤسسة اليهودية، كان صموئيل برغم معارضته للحركة الصهيونية قد استمر في إيمانه باليهودية وارتباطه بالمعبد ودفع مستحقاته، وكان يفخر بأنه يهودي، ولما أصبح وزيرًا عام 1909؛ كان أول يهودي يحصل على منصب وزير في بريطانيا.

كان صموئيل هادئًا، صامتًا ومحافظًا، احتفظ بآرائه لنفسه حتى أن صديقة الحميم حاييم وايزمان لم يكن يعرف أنه صهيوني، وصموئيل برغم هذا كله ابتدع خطة ليستغل التدخل التركي مع الألمان

وفي اليوم الذي ألقى فيه "اسكويت" خطابه اتصل صموئيل بالسير "ادوارد غريه" وزير الخارجية البريطاني وأجرى معه محادثة خطيرة وحساسة.

سأل غريه ما رأيك في وطن لليهود في الشرق الأدنى؟ كانت الفكرة تقابل على الدوام بعاطفة قوية، وكان غريه مستعدًا لتحقيق ذلك إن جاءت مناسبة مواتية، تناقش مع صموئيل في التفاصيل غير أن صموئيل حذر وزير الخارجية من أن منطقة الوطن اليهودي ينبغي أن لا تشمل بيروت ودمشق، على اعتبار أن في المدينتين أغلبية عربية كبيرة ويخشى على اليهود هناك من التذوب في البيئة العربية، وأضاف "إنها فكرة جيدة أن تكون سوريا من نصيب فرنسا، ومن الأفضل للسوريين أن يجاوروا قوة أوروبية من مجاورة الإمبراطورية العثمانية، وكانت هذه الفكرة أساسًا قد وردت في معاهدة سايكس بيكو السرية في "فرساي" بين بريطانيا وفرنسا حول تقاسم المنطقة بعد احتلالها من العثمانيين، فتكون سوريا ولبنان من نصيب فرنسا وفلسطين وشرق الأردن والعراق من نصيب بريطانيا..

عمل صموئيل على مساعدة السير "لويد جورج" الذي كان وزيرًا للمالية في بريطانيا، وأخبره بأنه مهتم جدًا برؤية دولة يهودية تقوم هناك في فلسطين، ومن هنا أطلق حاييم وايزمان وهربرت صموئيل الحملة الرامية إلى هزيمة تركيا، تمهيدًا لإقامة الوطن القومي اليهودي على أرض فلسطين، وأخذت آمال الحركة الصهيونية بزعامة وايزمان تتطور وتتحول من المثاليات النظرية إلى سياسات الواقع العملي، وكان هناك أمام الحركة طريق طويل عليها اجتيازه حسب التخطيط الصهيوني.



- السير هربرت صموئيل الصهيوني عضو البرلمان البريطاني -

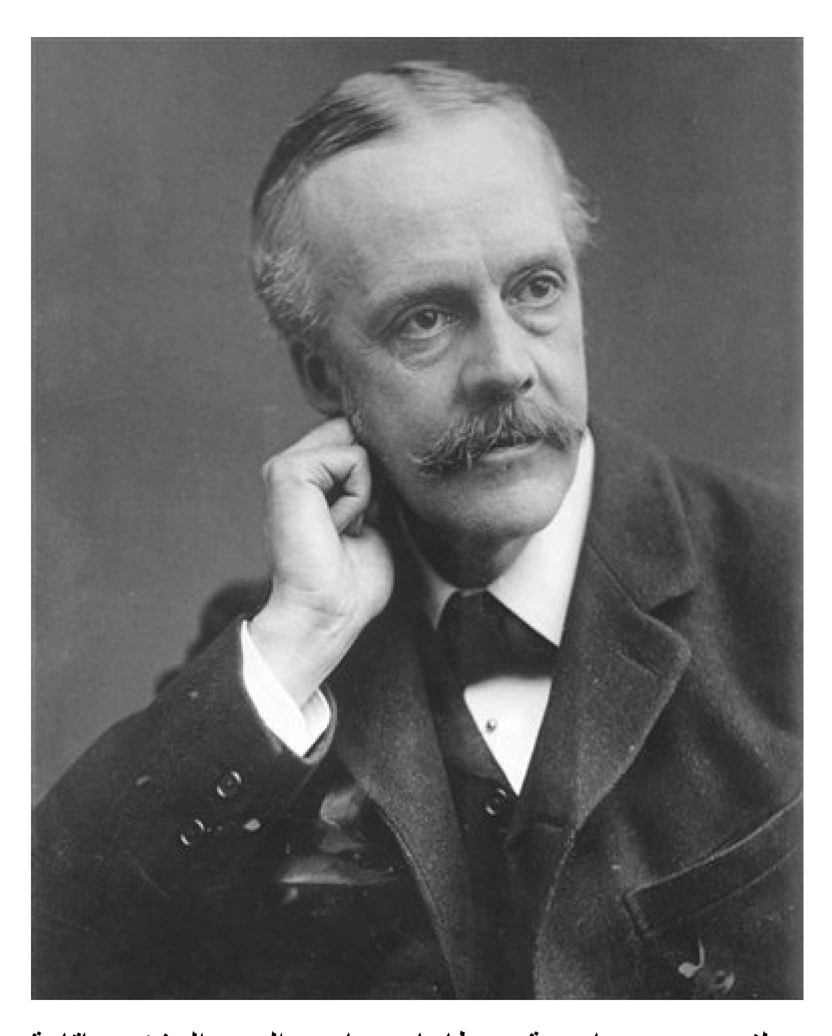
في شهر يناير عام 1915 كتب صموئيل رسالة إلى عشيقته اليهودية "فانيتا ستانلي" قال فيها: "ربما نزرع في منطقة الشرق الأدنى ما بين ثلاثة إلى أربعة ملايين من اليهود، وسوف يكون لهذا العمل تأثير جيد على أولئك الذين تركوا خلفًا، أنا اعترف أني لست منجذبًا إلى اقتراح إضافة المزيد إلى مسؤولياتنا لكن أصبح ذلك ضروريًا ومهمًا".

مرة ثانية بتاريخ 13 مارس عام 1915 أكد صموئيل عواطفه الجياشة بشأن اليهود المشتتين وقال إن بامكانهم أن يتجمعوا من كل زوايا الأرض ليحصلوا في الوقت المناسب على وطن يهودي أو على حكم ذاتي على الأقل.

على كل حال سارت الأمور بثبات لصالح الحركة الصهيونية، غير أن رئيس وزراء بريطانيا كان قد فوجئ بخلافات حادة بين الزملاء اليهود ويقول إنه ذهل من الوضع، وما أذهله أكثر هو ما أدلى به وزير الدفاع اللورد "كيتشنر" بقوله: "فلسطين لن تكون بأي شكل ذات فائدة لنا"، لكن لويد جورج وزير المالية تمكن من الجمع بين وزير الدفاع وزعيم الحركة الصهيونية حاييم وايزمان بشكل رسمي، غير أن كيتشنر كان في مهمة طويلة في روسيا تولى خلالها "لويد جورج" مهام وزير الدفاع، وكان هذا مؤشرًا حسنًا لبدء تحويل المصادر إلى شرق البحر المتوسط، مما جعل فلسطين أكثر احتمالاً، ووجد وايزمان سهولة في رؤية الأعضاء الكبار في الحكومة، وقال في مكتب وزارة الخارجية في 18/8/1916: "بصدق كبير إنه حتى في هذه البلاد يترتب على اليهودي دائمًا أن يعطي تفصيلاً عن وجوده، وفيما إذا كان إنجليزيًا أو يهوديًا، وأن لذلك الشيء كانت النتيجة أكثر خطورة من بلاد أخرى، أنا لست رومانسيًا فيما عدا أن اليهود يجب أن يكونوا دائمًا رومانسيين حيث أنه بالنسبة لهم تكون الحقيقة دائمًا رهيبة جدًا".

من بعد "اسكويت" تولى رئاسة الوزراء في بريطانيا "لويد جورج" الذي كان يشغل منصب وزير المالية في حكومة اسكويت، لويد جورج عيَّن فور استلامه رئاسة الوزراء "بلفور" وزيرًا للخارجية، وكان هذا أمر قاطع وكان اسكويت مخطئًا فيما يتعلق بلويد جورج، إذ استنكر روتشيلد في الماضي ولكنه كان مأخوذًا باللورد روتشيلد الأول، الذي استدعاه مع عدد من الممولين إلى وزارة المالية مع بداية الحرب العالمية الأولى وخاطبه: "لورد روتشيلد! لقد كان لدينا بعض الأوضاع غير المريحة سياسيًا"، أجابه روتشيلد: هذا ليس وقت استعادة تلك الأشياء.. بماذا أستطيع المساعدة؟.

وايزمان وجد أن لويد جورج كان متعاطفًا مع مبدأ الوطن اليهودي، رئيس الوزراء الجديد كان عاطفيًا، فعندما دفع بخطته كأنه دائمًا يشير إلى فلسطين باعتبارها بلاد بحجم مقاطعة "ويلز"، وكان لويد جورج متدينًا وهذه نقطة أخرى جيدة لصالح الصهاينة، عندما كان وايزمان يتحدث عن فلسطين، دأب جورج على ذكر أسماء الأماكن المألوفة له توراتيًا في فلسطين.



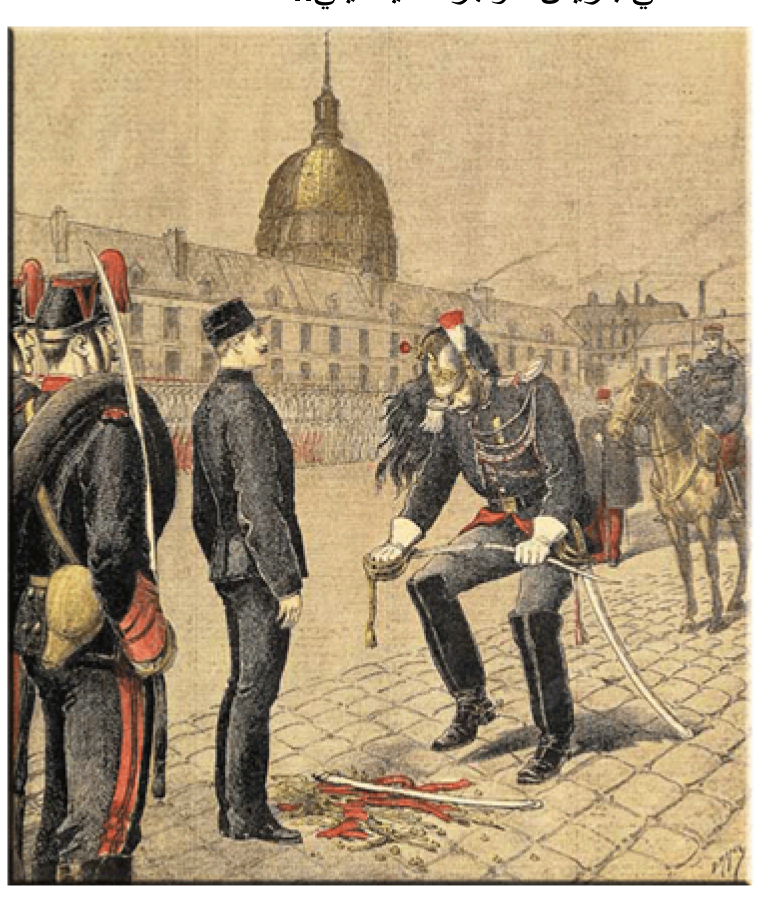
- بلفور وزير خارجية بريطانيا وصاحب الوعد المشئوم بإقامة وطن لليهود في فلسطين -

كان بلفور حليفًا مهمًا لأن خلف الطرق المختلفة تتأصل إرادة فولاذية لازمته للتغلب على تردد الزملاء الرسميين في وزارة الخارجية، وحال اقتناع بلفور بقضية يكون رجلاً صعبًا في الانحراف، وكان رجل وايزمان المتحول المهم، كان الرجلان يتحدثان أولاً بشكل مطول خلال انتخابات عام 1906، عندما وبَّخ وايزمان لرفضه أوغندا كوطن قومي لليهود بديلاً عن فلسطين، قال يومها بلفور: "كان يجب أن أقدم لك لندن أو باريس بدلاً من أوغندا.. هل ستحب ذلك؟ لكن لندن لنا وهذه حقيقة، لكن لدينا أيضًا القدس عندما تدخلها القوات البريطانية"، دار بينهما نقاش حاسم في 12 ديسمبر عام 1914 يستحق إعادة التذكير به لأنه يصور مهارات وايزمان كإنسان مقنع في أسلوبه، فبعد أن وضع وايزمان قضية الصهاينة في مجال العمل، أخبره بلفور بأن المسألة اليهودية سوف تظل بدون حل إلى أن تصبح طائفة في فلسطين أو يصبح اليهود متذوبين في البيئة التي يعيشون فيها، وأضاف بقصد الإغاظة أنه تناقش في هذا الأمر مع سيئة السمعة من تعادي السامية "كوسيما واجنر" عام 1942 ووافقت، نعم أجاب وايزمان: دعني أخبرك بالضبط ماذا قالت! إن اليهود يأخذون ثقافتنا وعلومنا وصناعاتنا وهي النقطة الأساسية التي يغفلها اليهود، والتي تُشكل صلب جوهر المأساة اليهودية"، إن أولئك اليهود الذين يعطون طاقاتهم وأدمغتهم للألمان يفعلونها بوصفهم ألمان وأنهم يثرون ألمانيا وليس اليهودية التي يهجرونها، عليهم أن ينكروا

يهوديتهم لكي يضعوا أدمغتهم وقدراتهم تحت تصرف الألمان، فهم إلى حد ليس قليل مسئولون عن عظمة الألمان، وهكذا نحن نقف هناك كأناس مستغلين وغير مفهومين.

قام بلفور بمصافحة وايزمان وعينه تذرف الدموع وقال: إن الأسلوب الذي يتبعه بمعاناة أمة عظيمة قد أنار طريقه، لهذا أصبح بلفور حليفًا صهيونيًا شديدًا في وزارة الخارجية البريطانية متحركًا باتجاه التزام بريطاني معين نحو اليهود، ففي يناير عام 1917 بدأت القوات البريطانية بغزو فلسطين من الجنوب عبر برية سيناء، حيث كان البريطانيون قد سيطروا على مصر، وفي نفس الشهر انهارت حكومة القيصر، مزيلة بذلك أكبر عقبة في دعم اليهود عالميًا. الوزير الانتقالي "كيرنسكي" أنهى معاداة السامية في روسيا، وفي نهاية الشهر بدأت ألمانيا معارك غير مقيدة بالزوارق جعلت التدخل الأمريكي إلى جانب الحلفاء أمر حتميًا، وأصبحت الحكومة الأمريكية أقوى الداعمين لمبدأ الوطن القومي لليهود في فلسطين.

كانت هناك بعض العقبات، فالفرنسيون يبغضون أفكار اليهود وهكذا كان البريطانيون البروتستانت بدلاً من الكاثوليك (والكفرة) الفرنسيين في القدس، وحسب مارك سايكس الذي كان يناقش سرًا معاهدة الحماية ومعارضه جورج بيكو تحدث عن مذابح باريس في ذكرى قصة الكابتن "درايفوس" التي كانت ما تزال حيّة في عقول الحركة الصهيونية، ولكي أوضح للقارئ ما هي تلك القصة في باريس، أوجزها فيما يلي..



- الكابتن درايفوس الذي سرب أسرار البحرية إلى الإنكليز وأعدم في فرنسا بسبب خيانته -

الفصل السادس : ثيودور هرتسل وحاييم وايزمان الحركة الصهيونية العالمية

"ثيودور هرتسل" الصحفي المجري الأصل انتقل مع والديه إلى النمسا وكان قد تخرج من جامعة فينا في الصحافة، كان والده يهوديًا ثريًا وكان ثيودور مدللاً غير مبالي، همه الأول كان السكر والعربدة وملاحقة النساء الجميلات وممارسة المجون بكل أشكاله، لإشباع رغباته التي ما وقفت عند حدود، بعد تخرجه من جامعة فينا بالصحافة عرضت عليه إحدى المجلات النمساوية العمل معها بوظيفة مراسل لها في باريس، فقبل العرض حيث وجد فيه فرصة للابتعاد عن عيون والديه ورقابتهم لممارساته المجون في بلد السحر والجمال باريس، أقام في باريس وأعجبته الحياة هناك كثيرًا مما زاده انغماسًا في ملذاته ومجونه، وحدث أن مرَّ يومًا أمام المحكمة فسمع أصواتًا عالية تأتي من داخل قاعة المحكمة الباريسية، وكانت الأصوات تطالب بإعدام المتهم الماثل أمام القضاء، فدخل إلى المحكمة لعله يجد خبرًا أو قصة للمجلة التي يعمل لحسابها، عندما دخل إلى القاعة في المحكمة ذهل لما رأى المتهم قائدًا يهوديًا في سلاح البحرية الفرنسية برتبه أدميرال، وهو الكابتن درايفوس الذي اقتيد إلى المحكمة بتهمة الخيانة العظمى، وذلك بإفشاء أسرار البحرية الفرنسية للبريطانيين الأمر الذي أدى إلى هزيمة الأسطول الفرنسي في معركة "ووترلوو" الشهيرة.

أخذ يتردد على المحكمة كل يوم لمتابعة قضية "درايفوس"، وكان يسمع هتافات الجمهور الفرنسي في المحكمة منددة باليهود ومطالبة بتوقيع عقوبة الإعدام بحق الخائن "درايفوس"، وظل كذلك إلى أن حكمت المحكمة على درايفوس بالإعدام، عاد إلى بيته وهو يفكر أنه لو كان لهذا الرجل دولة أو كيان يحميه لما استطاع الفرنسيون محاكمته بهذه الصورة المهينة، وفكر بأنه يجب أن يكون لليهود دولة، لئلا يستمر اضطهادهم بهذه الصورة البشعة دون أن يجدوا من يدافع عنهم وعن حقوقهم، وأخذ ورقة وقلم رصاص وكان ثملاً كتب فيها أحد عشر بندًا لنظام دولة لليهود في فلسطين باعتبارها أرض الميعاد، وبعد فراغه من كتابة الورقة وبعد أن وضع الأسس لإقامة دولة لليهود، نظر إليها وسخر من نفسه ثم قال: "إن من يقرأ هذه السطور يعتقد أن الذي كتبها رجل معتوه أو به خلل في عقله، ولكن سوف تصبح دولة لليهود حقيقية وليست على الورق فقط بعد خمسين عامًا من اليوم".

بعدها استقال من عمله وتفرغ لزيارة البلدان التي يكثر فيها اليهود لإجراء محادثات معهم ومناقشتهم في مسألة إقامة دولة لليهود في فلسطين، وكان أسلوبه في الحديث معهم مقنعًا، الأمر الذي جعلهم يعقدون مؤتمرًا لهم كان الأول تحت اسم الحركة الصهيونية الدولية في مدينة "بال" السويسرية عام 1892، وصدر عن المؤتمر ما صدر من بروتوكولات نسبت إلى "حكماء صهيون".

توفي هرتسل في عام 1904 عن عمر يناهز الثانية والأربعين عامًا على أثر نوبة قلبية حادة، أصابته بسبب رفض السلطان التركي استقباله في اسطنبول، ورفضه السماح بهجرة يهودية إلى فلسطين، تولى من بعده إدارة الحركة الصهيونية الدكتور حاييم وايزمان، ويذكر أن قضية محاكمة

الكابتن درايفوس كانت الدافع الأساسي والمحرك لانطلاق الحركة الصهيونية على يد مؤسسها "ثيودور هرتسل".

كان هناك أيضًا تحركات معارضة من قِبل المصالح العربية أو تلك الدوائر الحكومية التي تمثلهم، لكن العرب أنفسهم كانوا بطيئين في تحركاتهم ولم يقدموا أي شيء له قيمة إلى الجهد الحربي، باستثناء تمرد متواضع، وأكثر من ذلك الذي قاد التمرد العربي ضد الأتراك كان الكولونيل البريطاني "ن. ي. لورانس"، والذي عرف بلورانس العرب، كان يفضل فرض الحماية البريطانية على فلسطين وتنفيذ خطة الوطن القومي لليهود، أغلب المعارضة الشديدة جاءت من اليهود المعارضين للحركة الصهيونية خصوصًا "مونتاغو" الذي كان وقتها وزيرًا لشؤون الهند في الحكومة البريطانية، وكان لهذا نتائج هامة.

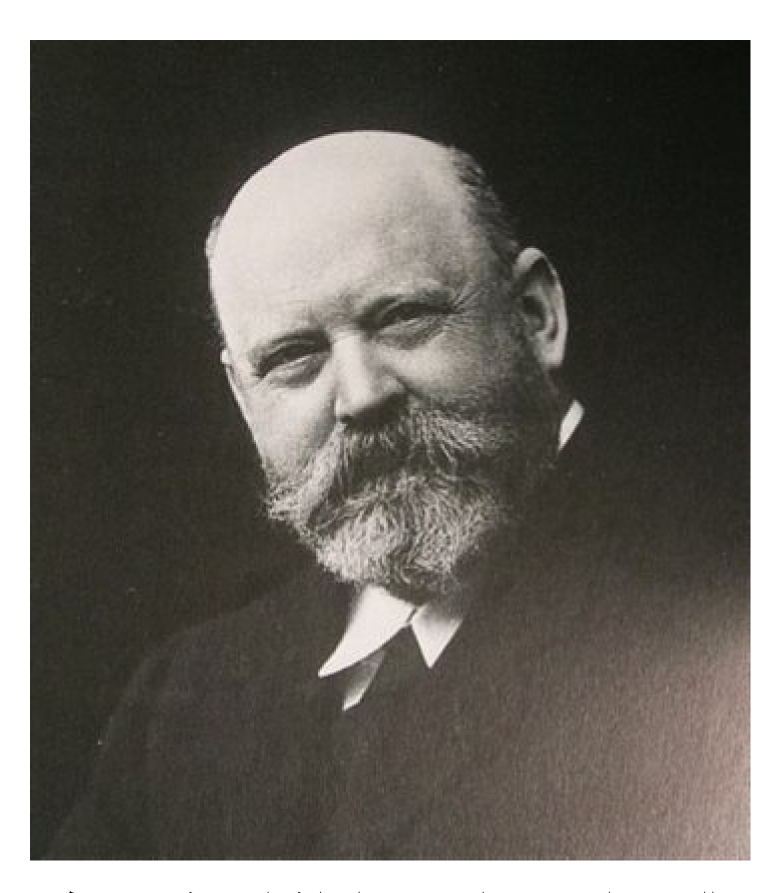
الالتزام البريطاني تمثل في رسالة من بلفور وزير الخارجية البريطاني آنذاك إلى اللورد "روتشيلد" كرئيس للجالية البريطانية اليهودية، وكان ذلك بالاتفاق بينه وبين بلفور على نص صيغة الرسالة، والتر روتشيلد لم يكن عظيمًا كوالده الذي توفي عام 1915، كان خياره أن يشارك في الأحداث الهامة في التاريخ اليهودي، ولكن ليس كوالده، فقد كان صهيونيًا بمعنى الكلمة، لكن كانت لديه عقبة في الخطابة وموانع أخرى، لكن حيويته لم تكن على شؤون جاليته فحسب بل على التكديس الصامت لما تمكن من جمعه من المخلوقات الأخرى، فقد جمع مليونان وربع المليون فراشة وثلاثين ألف جلد طيور وألف ومائتي صحيفة علمية وكتب، واكتشف خمسة آلاف من المخلوقات الجديدة، منها مائتين وخمسين تم تسميتها بعده، وتشمل (الفيل والنيص وطائر الجنة والسواديه وهي دبابة بعيون على سيقان ودودة أمعاء).

كان هذا غير معروف لأحد، حتى لأقرب المقربين إليه ومحبيه وأصدقائه، وكان قد جرد من ثروته من عديمي الضمير الذين استغلوه لمدة أربعين عامًا. عمومًا كان وايزمان المستشار لروتشيلد والآخرين ومسودة وعد بلفور كانت قد سلمت لبلفور باليد بتاريخ 18 تموز/ أيلول 1917 وكانت تحتوي على ثلاثة عناصر هامة:

1- إعادة تشكيل فلسطين ككل وكوطن لليهود.

2- حق اليهود في الهجرة غير مقيدة إلى فلسطين.

3- الحكم الذاتي اليهودي.



- اللورد والتر روتشيلد رئيس الجالية اليهودية في بريطانيا والذي وجَّه بلفور وعده باسمه -

وهذه العناصر الثلاثة أعطت الحركة الصهيونية كل شيء تمنته، وايزمان اعتقد حتى إلى يوم وفاته أنه بدون معارضة "منتياغو" ما كانوا قد حصلوا على هذه العناصر الثلاثة، وكانت المسودة تمت الموافقة عليها من قبل الحكومة البريطانية في 31 أكتوبر وصدرت بتاريخ 2 نوفمبر/ تشرين الثاني عام 1917، وعرفت فيما بعد بوعد بلفور، وقد جاء فيها "أن حكومة صاحب الجلالة نظرت بعطف لتأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين، وسوف تبذل ما وفي وسعها لتسهيل تحقيق هذا الوعد، ويجب أن يفهم جيدًا وبوضوح أن لا يحدث شيء يسبب تحيزًا للحقوق المدنية والدينية للجاليات غير اليهودية في فلسطين أو للحقوق والوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في أي بلد آخر"، وكان إعلان بلفور المفتاح لبانوراما جديدة ما كان لدولة اليهود أن ترى النور بدونه، والفضل في ذلك يرجع إلى كل من ثيودور هرتسل وإلى حاييم وايزمان.

كانت ظاهرة القوميات والمطامع تأخذ مكانها في العالم في ذلك الوقت، وكان الحلفاء محاطون بالشعوب التي تطالب بأن يكون النصر قادمًا، وأن السلام بعد ذلك يضمن لهم حقوقًا إقليمية، على أساس التعداد السكاني فيما إذا كان تعدادًا عرقيًا أو لغويًا أو عنصريًا، اليهود لديهم ادعاء تاريخي رومانسي في فلسطين، ولكنه كان ادعاءًا قديمًا، والمعايير التي طبقت في "فرساي" لم تكن أيًا من تلك المعايير القديمة، فعندما تم إعلان بلفور كان هناك ما بين خمسة وثمانون ألفًا إلى مائة ألف يهودي يعيشون في فلسطين مما جعل جميع سكان البلاد يصل إلى ستمائة ألف نسمة، وغالبًا كانت الأكثرية من العرب، لو كان عرب فلسطين منظمين جيدًا لما كان هناك أدنى شك بأن الإعلان

يكون قد صدر، وحتى بعد سنة من صدوره لم يكن تنفيذه ممكنًا، فقد دفع وايزمان الصهاينة عبر نافذة مختصرة من الحظ خبئت ثم استوثقت بغرائز رومانسية للطبقة الحاكمة في بريطانيا.

في لندن فكَّر "لويد جورج وبلفور" أنهما استغلا حربًا بغيضة في التاريخ البشري ليحققوا بعض المنافع وإعطاء اليهود وطنًا يهوديًا في فلسطين على حساب الشعب العربي الفلسطيني، فعندما التقى الاثنان على مأدبة غذاء بمناسبة يوم الهدنة رأي وايزمان أن رئيس الوزراء "لويد جورج" يقرأ المزامير في الكتاب المقدس ودموعه على وجنتيه، وقد اعتاد أن يقول بعد ذلك "إن فلسطين بالنسبة لي هي جزء من اهتمامي بالحرب ولكنها كانت الشيء الوحيد لتنوير الطغاة في لندن لإعطاء الوعود"، وأيضًا هناك نقطة أخرى وهي أن فلسطين تحميهم، الجنرال "اللنبي" احتل مدينة القدس بعد شهر واحد من إعلان بلفور، ودخل المدينة المقدسة بتواضع نبيل سيرًا على الأقدام، وعندما ذهب وايزمان ليراه عام 1918 وجد الجنرال متواضعًا سمحًا وصديقًا لكنه كان مغمورًا بمشاكل الإدارة العسكرية فقال: "لا نستطيع عمل أي شيء الآن ولكن علينا أن نكون حريصين للغاية بأن لا نسبب الأذى للمنشآت الخاصة بالسكان".

معظم الضباط البريطانيين الذين كانوا في فلسطين لا يعلمون شيئًا عن وعد بلفور، بعضهم كانوا من اليهود والبعض كانوا ممن يعادون السامية والبعض الآخر كانوا يفضلون العرب وكانوا يتوقعون أن يقوم العرب بذبح اليهود إذ اعتبروا اليهود حثالة المجتمعات الذين جاءوا إلى الأرض المقدسة من روسيا وكانوا من البلشفيك، الجنرال العسكري "وندهام" أعطى وايزمان باليد صفحات مطبوعة على الآلة الكاتبة وقال له: "ينبغي أن تقرأ هذه الصفحات بعناية ومن الأفضل أن تقرأها جيدًا.. إنها سوف تسبب لك إزعاجًا كبيرًا في المستقبل" وكانت تلك الصفحات هي نسخة من "بروتوكولات حكماء صهيون" الوثيقة التي كانت استرجعت من قبل البعثة العسكرية البريطانية التي كانت تخدم القيصر "نيقولا" الكبير في القوقاز، يبدو أنها كانت لدى جميع الضباط البريطانيين في فلسطين. أما بريطانيا فقد ذهبت بعيدًا لتضمن الانتداب على فلسطين عبر مفاوضات سلمية، وتقدم مشروع إقامة وطن قومي لليهود وكان الوضع عندما تسلمت بريطانيا فلسطين كالتالي:

كان اليهود في فلسطين يتكونون من نوعين رئيسيين: فكانت هناك الجاليات المتدينة من المثقفين والحكماء والذين كانوا يتكاثرون في فلسطين خلال القرن التاسع عشر الميلادي، وفي القدس أقاموا في الحي اليهودي وكانوا يعيشون على أموال الصناديق الخيرية التي تجبي أموالها من اليهود في كل أنحاء العالم، وعالمهم لم يكن له علم بوعد بلفور وكانوا دائمًا يشكون من أحولهم ولهم مطالب كثيرة، وعندما ذهب وايزمان لرؤيتهم طلبوا منه أن يقنع الجنرال "اللنبي" كي يرسل سفينة إلى "تريستا"، حيث يوجد هناك أفضل أنواع من الخيش لإقامة عُرُشهم في عيد المظلات، كي يتمكنوا من إقامة ذلك العيد بشكل صحيح، وكان وايزمان قد غضب من هذا المطلب حيث شعر أن الوطن القومي لا يهمهم بقدر ما يهمهم الاحتفال بأعياد التوراة الدينية القديمة، ثم كان هناك مستوطنون زراعيون أسسوا بمساعدة الصدقات خصوصًا بتمويل روتشيلد.

كان أسباب ما يسمى مذابح اليهود في روسيا عام 1881 دفعت إلى هجرة يهودية من روسيا إلى فلسطين، وحينها أخذ روتشيلد المهاجرين اليهود تحت جناحيه، فزودهم بالمدارس والأطباء ومستوطنات جديدة، وقرى عرفت بالموشافوت، وشملت اليركون والخضيرة وريشون لتسيون وزخرون ليكوف وبيتح تكفا وزيخرون لتسيون ويسود هماعلاه، وفي عام 1896 أضاف روتشيلد المطلة وبيرتوفيا الروسية، ورصد مليون وسبعمائة ألف جنيه إسترليني لتمويل المستوطنات

اليهودية، وكان مائة ألف إسترليني من جيب روتشيلد الخاص. لم يكن لدى روتشيلد وقت لهرتسل الذي كان يعتبره محرضًا سياسيًا أو للروس مثل وايزمان الذي كان بالنسبة له من البسطاء وقد أخبر وفدًا من الصهاينة ومنهم "نورداو": "هذه مستعمراتي وسوف افعل بها ما أشاء"، غير أنه أعطى مجموعة من تلك المستوطنات للاتحاد اليهودي الاستعماري عام 1900 واستمر في التمويل، من عام 1890 سنة تأسيس رخبوت والخضيرة وحتى بعد دخول القرن الجديد لم تكن تلك مجمعات زراعين فقط بل كانت هناك مصانع أقيمت، أحياء يهودية جديدة أضيفت إلى يافا وحيفا والقدس.

عام 1904 في أعقاب ادعاء اليهود بمذبحة جديدة في روسيا بدأت هجرة يهودية جديدة من روسيا إلى فلسطين وكانت أكبر من سابقتها، فقد كان عدد المهاجرين الجدد قد جاوز الأربعين ألفًا، بعضهم أقام في ضاحية قرب يافا العربية عام 1909، والتي أصبحت فيما بعد تعرف بمدينة "تل أبيب"، وفي نفس السنة أسست مجموعة من الشباب اليهود مجمعًا زراعيًا في دجانيا.

الفصل السابع : الانتداب البريطاني على فلسطين ووعد بلفور

في تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1917 قدَّمت بريطانيا وعد بلفور لليهود، قبل أن تُحتل القدس والمنطقة المعروفة باسم فلسطين، وتمثل هذا الوعد برسالة وجهت إلى اللورد روتشيلد بناء على طلب من المنظمة الصهيونية في بريطانيا العظمى، (وهنا أود أن أذكر بأن عائلة انشولم الألمانية التي تزعمت حركة الليموناتي أم الحركات الصهيونية الأخرى، والحركات التي استقطبتها، مثل الماسونية والبهائية والقضيانية وغيرها من الحركات وصهرتها في بوتقتها، هي نفس عائلة روتشيلد التي تعيش في بريطانيا وأمريكا الآن بعد انتقالها من ألمانيا إلى بريطانيا وإلى العالم الجديد واستعملت اسم روتشيلد بدلاً من انشولم، أكد ذلك الوعد البريطاني على إنشاء وطن لليهود في فلسطين دون انتهاك الحقوق المدنية والدينية القائمة لغير اليهود الموجودين فيها، وقد جاء هذا الوعد نتيجة ضغط من جانب حركة صهيونية بريطانية وخاصة من جانب الدكتور وايزمان الذي هاجر إلى بريطانيا من روسيا، والدافع الرئيسي لهذا الوعد كان الاعتبارات الاستراتيجية البريطانية، وتحت وعود كاذبة من الصهيونية، بأن يهود العالم من شأنهم أن يهبوا لمساعدة البريطانيين في حالة دخول بريطانيا مع دول أخرى بالحروب، فأسرع البريطانيون لإعطاء هذا الوعد خوفًا أن يسبقهم الألمان إلى إصداره.

وفي مؤتمر عقد في باريس عام 1919 دافع ممثلوا العرب والصهاينة كل عن قضيته، وتجدر الإشارة هنا إلى أن د. وايزمان والأمير فيصل بن الحسين توصَّلا إلى اتفاق بشأن دعم العرب لإقامة وطن قومي يهودي على أرض فلسطين، ووقَّعا على هذا الاتفاق، كما أكد فيصل لممثل الصهاينة الأمريكيين القاضي فرانكفورتر تأييده للقضية الصهيونية لكن فيصل اشترط لهذا التأييد تلبية التطلعات العربية في سورية.

جرى توزيع الشطر الأكبر من الدولة العثمانية في مؤتمر باريس من خلال عصبة الأمم، وذلك إلى مناطق انتداب وزِّعت على المنتصرين في الحرب، رأى البريطانيون والفرنسيون في الانتداب وسيلة لتحقيق طموحات استعمارية، أبدى البريطانيون حرصهم على إبقاء فلسطين بعيدة عن الفرنسيين وأصروا على المطالبة بإقامة انتدابهم على الزاوية التي من شأنها أن تقيم الوطن القومي لليهود عليها، كما نص عليه وعد بلفور، عارض العرب فكرة إنشاء وطن لليهود بالنظر إلى المناطق التي تُسمى الآن فلسطين، إذ شعر العرب بأنهم مهددون بخطر الطرد من قِبل الصهاينة وبأنهم لا يرغبون في العيش تحت حكم اليهود.

شكَّل العرب في فلسطين حركة وطنية لمقاومة شرور الانتداب البريطاني وتحيزه إلى جانب اليهود، وطالبوا تدخلاً أمريكيًا لحل المشكلة، وعلى الأثر بادر الرئيس الأمريكي ويلسون بإرسال لجنة عرفت بـ (لجنة كنغ كرين) للاستماع إلى آراء الفلسطينيين، وأعرب عارف الدجاني أمام لجنة الاستماع عن أفكاره بشأن اليهود فقال: "يثبت ماضيهم وتاريخهم أن التعايش معهم مستحيل،

فهم غير مرغوب فيهم في جميع البلدان التي يتواجدون فيها في الوقت الحاضر، لأنهم دائمًا يأتون لامتصاص دماء الجميع".

في ذلك الحين أدرك الصهاينة حتمية الصراع مع الفلسطينيين والعرب الآخرين، وكان ديفيد بن غوريون زعيم "اليشوف" وتعني المستوطنة وهي كلمة عبرية تستعمل للإشارة إلى السكان اليهود في فلسطين في دولة إسرائيل الحالية، استخدمت الكلمة في ثمانينات القرن التاسع عشر عندما كان اليهود في فلسطين خمسة وعشرين ألفًا تقريبًا، واستمر استخدامها حتى عام 1948، حيث بلغ عددهم سبعمائة ألف وتستعمل اليوم للإشارة إلي اليهود الذين سكنوا في دولة إسرائيل بعد تأسيسها في عام 1948، واستمر ذلك حتى أصبح دافيد بن غوريون أول رئيس وزراء لإسرائيل، والذي ذكر أمام اجتماع في عام 1919 ميلادية: "لا يرى الجميع أنه لا يوجد حل لهذه المسألة، فنحن كأمة نريد لهذا البلد أن يكون لنا، والعرب كأمه يريدون لهذا البلد أن يكون لهم"، وعرض الصهاينة قضيتهم على مؤتمر باريس للسلام، وتم في المؤتمر اعتماد الخطة البريطانية وكانت القضية الرئيسية التي تم أخذها بالاعتبار هي تقسيم الحقوق بين بريطانيا وفرنسا لا الاهتمام بوجهات نظر السكان.

في عام 1920 كان لبريطانيا انتداب مؤقت على فلسطين، شمل غرب وشرق نهر الأردن، وقد ساعد الانتداب على إنشاء وكالة عرفت فيما بعد باسم الوكالة اليهودية لفلسطين، كممثل للمصالح اليهودية أمام بريطانيا، وتعمل أيضًا على تشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وقد تأخر إنشاء الوكالة اليهودية حتى عام 1929، غير أنها أصبحت فيما بعد الحكومة الفعلية لمجتمع يهودي في العديد من الجوانب.

كانت المنطقة الممنوحة للانتداب أكبر بكثير من المنطقة التي طلبها الصهاينة، ومن الممكن كما افترض ونستون تشرشل عام 1922 بأن البريطانيين لم تكن لديهم النية مطلقًا في أن تصبح كل هذه المساحة وطنًا لليهود، وفي المقابل ثمة من يرى أنه لم يكن لبريطانيا خطط خاصة تتعلق بشرقي الأردن في البداية، كتب ممثل بريطانيا في عمان السير "أليك كيركرايد" في مذكراته ما من رغبة في هذه المرحلة (1920) في تشكيل إقليم إلى الشرق من نهر الأردن وتحويله إلى دولة عربية مستقلة.

في عام 1922 أعلنت بريطانيا أن حدود فلسطين ستقتصر على المنطقة الواقعة إلى الغرب من النهر، وسميت المنطقة الشرقية من النهر "عبر الأردن" وكانت منطقة مستقلة ما لبث أن منحت الاستقلال مما جعل جزء من الحركة الصهيونية تشعر بالخيانة لفقدان مساحة واسعة مما أسموه فلسطين التاريخية، وهي الضفة الشرقية لنهر الأردن، وانشقت مجموعة لتشكيل حركة "المراجعة" برئاسة بنيامين فلادمير جابوتسكي.



- السير ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا الأسبق -

في ربيع عام 1921 وصيف 1929 واجه القوميون العرب وعد بلفور والانتداب والوطن القومي اليهودي، وحرضوا على أعمال العنف ضد اليهود في القدس والخليل ويافا وحيفا، مما أدى في المقابل اليهودي تكوين منظمة الهاغانا اليهودية للدفاع عن يهود فلسطين، في عام 1936 اندلعت أعمال عنف في فلسطين واسعة النطاق ضد اليهود وضد البريطانيين، وفي تلك الأعمال قتلت القوات البريطانية عز الدين القسام في اشتباك مسلح، وكان القسام داعية من سوريا هاجر إلى فلسطين وعمل على استثارة المشاعر العامة ضد البريطانيين واليهود، ودعمت أسرة الحسيني أعمال العنف تلك كما دعمها أيضًا فوزي القاوقجي الضابط السابق في الجيش التركي، ولعل ذلك حظي بتمويل جزئي من ألمانيا وإيطاليا كما يعتقد اليهود والبريطانيون، وقد قتل في الاشتباكات التي جرت آلاف العرب ومئات من اليهود وقد توسع نطاق العنف بسبب الاستعداد الأولي للسلطات البريطانية، واضطر نصف القاطنين اليهود في الحي اليهودي بالقدس القديمة البالغ تعدادهم حوالي خمسة آلاف يهودي؛ إلى الفرار من منازلهم، وتم نقل من تبقى منهم في الخليل أيضًا. رد اليهود بإرهاب عشوائي وتفجيرات استهدفت المدنيين من العرب، وقد قامت بتنفيذ هذه الأعمال الإرهابية منظمات ارغون وتسفاي ليئومي وايتسل، وكانت ايتسل منظمة عسكرية سرية للجناح اليميني المنشق عن مجموعة "المراجعين"، أول من قادها "فلادمير زئيف جابوتسكي" الذي انفصل عن الحركة الصهيونية ثم تزعمها مناحيم بيغن في وقت لاحق، لجنة بيل عام 1937 أوصت بتقسيم فلسطين إلى دولة يهودية صغيرة وأخرى عربية كبيرة، وشملت توصيات اللجنة إجراء نقل ملكية طوعي يقوم به اليهود والعرب للفصل بين السكان، وافقت القيادة اليهودية على الخطة ولكن القيادة الفلسطينية والعربية، بمن فيهم الملك عبد العزيز آل سعود في المملكة العربية السعودية، رفضت التقسيم وطالبت بريطانيا بتقليص الهجرة اليهودية، وقال الملك عبد العزيز: "إذا اخفق البريطانيون في تحقيق مطالب العرب في فلسطين فإن العرب سوف ينقلبون عليهم ويسطفون إلى جانب أعدائهم، وأضاف بأن العرب لا يفهمون الموقف الغريب لحكومتكم البريطانية والظاهر أنهم – أي اليهود – يتحكمون بكم وبالشعب الإنجليزي عامة".

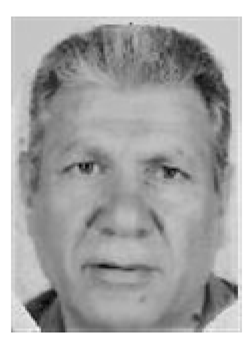
أوهمت بريطانيا العرب بأنها استجابت للمطالب العربية بالحد من الهجرة اليهودية، وقضى الكتاب الأبيض لعام 1939 بالسماح لـ 15000 من اليهود بدخول فلسطين كل سنة، وذلك لمدة خمس سنوات، بعد ذلك ستكون الهجرة خاضعة لموافقة العرب، وفي ذات الوقت اتخذ البريطانيون خطوات قاسية ضد العرب الفلسطينيين في كثير من الأحيان تحت ذريعة الحد من أعمال العنف.

الفصل الثامن : الهجرة غير المشروعة

ردًّا على كتاب بريطانيا الأبيض أو اتخاذه ذريعة بتنظيم هجرة غير مشروعة من أوروبا إلى فلسطين، من خلال مؤسسة الهجرة غير المشروعة التي نظمتها الوكالة اليهودية بين عامي 1939 – 1942، وتغاضت بريطانيا عن تلك الهجرة غير المشروعة، بل ساعدتها بشكل خفي، ومهدت الطريق أمام المهاجرين اليهود إلى فلسطين..

1- اغتيال اللورد موين

قام عضوان في منظمة "ليهي" اليهودية السرية بتاريخ 6 تشرين الثاني باغتيال اللورد موين في القاهرة، وقد كان موين البريطاني معروفًا بمناهضة الصهيونية، وكان وقتها وزير الدولة لشؤون الشرق الأوسط، والمسؤول عن تنفيذ الأحكام الواردة في الكتاب الأبيض لعام 1936، أي منع الهجرة اليهودية إلى فلسطين باستخدام القوة، كما كان أيضًا صديقًا شخصيًا لونستون تشرشل، إلا أن هذا الاغتيال لم يغير كثيرًا في السياسة البريطانية لكنه حوَّل ونستون تشرشل إلى باغض للصهاينة، وتمكنت بريطانيا من إلقاء القبض على القاتلين إلياهو حكيم وإلياهو بتزوري، وجرى إعدامهما شنقًا عام 1945.



- اللورد موين اغتاله الصهاينة في 6 تشرين الثاني عام 1944 -

وهنا لا بد لنا من استعراض الحادثة كما رواها الكاتب المصري الأستاذ يوسف حجازي عام 2001 وهي كالتالي:

"كان اللورد والتر موين وزيرًا مقيمًا في الشرق الأوسط بالقاهرة في منطقة من أخطر المناطق في العالم وفي فترة من أخطر فترات الحرب العالمية الثانية، وقد أوكلت إليه الحكومة البريطانية التصرف المطلق دون الرجوع إليها في مجموعة من أصعب وأعقد المشكلات، وعندما وجدت المنظمات الصهيونية أن اللورد موين شخص يتصف بالصدق والميل إلى الحق، ولما لم تستطع أن تتخذه مطية لأهوائها وخاصة فيما يتعلق بموضوع فلسطين الذي كان يرى إنها لا يمكن أن تمثل الحل لمشكلة اليهود المشردين، وأن عليهم أن يبحثوا لهم عن أرض جديدة، أو القبول بتوطينهم في بروسيا الشرقية، بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الثانية، لأن ألمانيا هي المسؤولة عن تشردهم، ولذلك هي التي يجب أن تدفع ثمن تشردهم، قرروا إعدامه واستغلال هذه الجريمة لإثارة عطف بريطانيا والرأي العالمي ضد مصر من جهة، خاصة وأن مصطفى النحاس رئيس وزراء مصر وزعيم حزب الوفد في ذلك الوقت؛ كان قد رفض الاعتراف "باتحاد المنظمات الصهيونية" كممثل للشعب اليهودي في مصر، وقرر وقف نشاط هذا الاتحاد خاصة وأن طلب اتحاد المنظمات الصهيونية للاعتراف به كممثل للشعب اليهودي في مصر جاء في فترة كان فيها النحاس مشغولاً في عملية إنشاء جامعة الدول العربية، والدعوة إلى عقد اجتماع لرؤساء الحكومات العربية في قصر "انطونيادس" في الإسكندرية لوضع نصوص ميثاق الجامعة، وكسب عطف بريطانيا، والرأي العالمي إلى جانب القضية اليهودية من جهة أخرى، والانتقام من

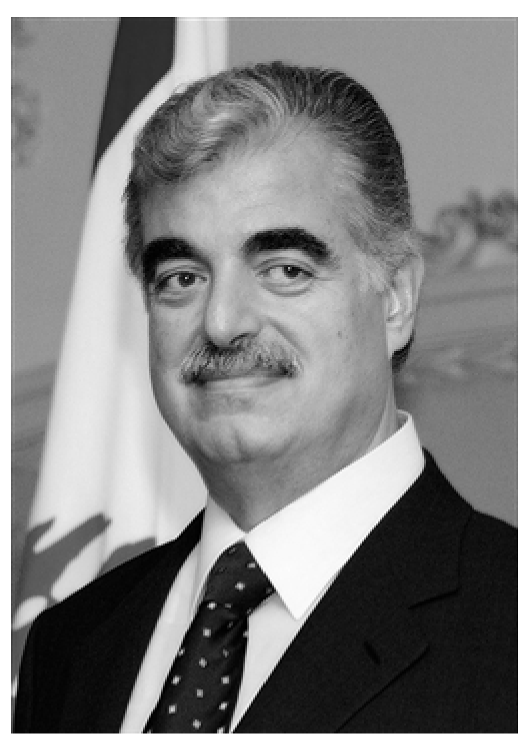
بريطانيا التي قتلت الإرهابي "أبراهام شتيرن" في شباط 1942، وكان أبراهام شتيرن أحد قادة منظمة الأرغون الإرهابية، الذين درسوا في إيطاليا، وكان معجبًا بالدوتشي موسوليني، ولذلك رفض دعم بريطانيا ضد ألمانيا في الحرب العالمية الثانية، وقال إن البريطانيين هم العدو الأساسي لليهود وأنه لا فرق بين الدول النازية الفاشية والديمقراطيات الغربية، أو بين الشيوعيين والديمقراطيين الاجتماعيين، أو بين أدولف هتلر وجوزيف تشمبرلين، وعندما فشل في إقناع قيادة منظمة الأرغون في مساعدته في خطته هذه انفصل عن "منظمة الأرغون"، وشكَّل مجموعة شتيرن وحاول تجنيد 40000 شاب يهودي ليحاربوا مع ألمانيا والمحور ضد بريطانيا والحلفاء ولذلك كلَّفوا عصابة "شتيرن الإرهابية" المتخصصة في مثل الجرائم الإرهابية بتنفيذ قرار إعدام اللورد والتر موين، ونسف قصر انطونيالس في الإسكندرية على رؤوس رؤساء الحكومات العربية، في يوم الاحتفال على التوقيع على ميثاق الجامعة، لأن فلسفة الصهيونية في الإرهاب تقوم على أن العالم لن يحترم اليهود إلا إذا اثبتوا أنهم بالإرهاب وسفك الدماء يدافعون عن أنفسهم وكيانهم، وأن الإنسان الذي يذهب إلى قتل إنسان آخر لا يعرفه عليه أن يؤمن فقط بشيء واحد، وهو أنه بهذا القتل سوف يغير التاريخ، وقد كلفت "منظمة شتيرن" في تنفيذ هذه المهمة، المستشرق كراوس، وهو تشيكي صهيوني وأستاذ اللغات السامية في جامعة القاهرة في الفترة من 1936 – 1944، وكان عضوًا في منظمة شتيرن الإرهابية، ولكنه انتحر في شقته بالزمالك بالقاهرة بعد تكليفه في تنفيذ مهمة قتل اللورد والتر موين وقد أكد ذلك صديقه ومساعده في بعض أبحاثه الدكتور عبد الرحمن بدوي، الذي قال إن السبب في انتحار "كراوس" هو أن القرعة قد وقعت عليه لتكليفه بقتل اللورد موين، كما كلفت "منظمة شتيرن" لتنفيذ هذه المهمة أيضًا الإرهابيان "إلياهو حكيم والياهو بيت تسوري" اللذان كانا يعملان في الجيش البريطاني، وفتاة كانت تعمل سكرتيرة في أحد المكاتب البريطانية، ونفذ الإرهابيان الجريمة بقتل "اللورد والتر موين"، وسائقه البريطاني "آرثر فوللر" أمام منزل اللورد في شارع حسن صبري في الزمالك، في الساعة الواحدة والربع من ظهر يوم 6/11/1944، وألقت أجهزة الأمن المصرية القبض على الإرهابيين وقدمتهما إلى المحكمة العسكرية في دار القضاء العالي وحكم عليهما بالإعدام شنقًا في 22/1/1945.

ولكن ومن سخرية القدر أو من سخرية إسرائيل أو من سخرية القدر وإسرائيل أن يرسل رئيس الوكالة اليهودية في فلسطين إلى رئيس الوزراء المصري محمود فهمي النقراشي برقية يستنكر فيها عملية الاغتيال ويعتبر القاتلين خائنين لقضية شعبهما، ويطلب نشر البرقية في الصحف المصرية وللأسف تنشر فعلاً في 13/11/1944، وهنا لا بد من الإشارة إلى الهدف من هذه الرسالة، وهل كان النقراشي باشا يدرك الهدف أم لا يدرك، فإذا كان يدرك فهذه مصيبة وإذا كان لا يدرك فالمصيبة أعظم، لأن مجرد إرسال رسالة من رئيس ما يسمى "الوكالة اليهودية في فلسطين"، واستقبال هذه الرسالة من رئيس وزراء أكبر دولة عربية جريمة لا تغتفر، خاصة وأن هذه الرسالة تُعطي مشروعية عربية رسمية لوكالة غير شرعية، كما أنها تُعطي صفة شعب لمهاجرين غير شرعيين وهم في الحقيقة خليط من أجناس وثقافات وحضارات وأعراق مختلفة، وتصورهم بأنهم وادعون مسالمون يستنكرون الأعمال الإرهابية، كما تصورهم أصحاب قضية وهم في الأصل والنهاية غزاة أجانب، ومصيبة المصائب أن يوافق رئيس الحكومة المصرية على نشر هذه الرسالة في الصحافة الوطنية المصرية، وذلك في محاولة صهيونية في أن تظهر الوكالة اليهودية والمهاجرون اليهود كجزء من المنظر العام في المنطقة، وهذه كانت خطوة أخرى في

اتجاه التطبيع بعد الخطوة الذي قام بها أستاذ الجيل ورئيس جامعة فؤاد الأول سابقًا "القاهرة حاليًا" أحمد لطفي السيد، في حضور افتتاح الجامعة العبرية في جبل الزيتون في القدس إلى جانب جيمس آرثر بلفور صاحب التصريح المشئوم، الذي تمر هذه الأيام الذكرى التسعون على صدوره، وحاييم وايزمان رئيس الوكالة اليهودية، ورئيس أول دولة للكيان الصهيوني بعد تأسيسه في عام 1948، والخطوة الذي قام بها الشاعر العراقي معروف الرصافي في زيارته إلى مدينة القدس وإلقاء قصيدة يمدح فيها المندوب السامي اليهودي الصهيوني البريطاني هربرت صموئيل، الذي يستعمر أرضًا عربية، ويمجد خطيبًا يهوديًا غازيًا لأرض عربية اسمه يهوذا، ومن سخرية القدر أنه توجد في مدينة غزة مدرسة ثانوية تحمل اسم "معروف الرصافي".

اعتقدت الوكالة اليهودية والإدارة الصهيونية أن رد فعل بريطانيا والعالم على اغتيال اللورد موين يمكن أن يعرِّض التعاون بينهم للخطر بعد الحرب - وكان البريطانيون قد ألمحوا إلى ذلك – كما أن هذا الاغتيال ربما ينعكس سلبًا على الجالية اليهودية في فلسطين وقد يعتبرها البريطانيون أعداء لبريطانيا، لذلك قامت المنظمتان في حملة استهدفت منظمتي ليهي وإرغون، وأطلق على الحملة اسم "موسم" إذ كان لا مفر من التخلص من الأعضاء المصريين، فألقت منظمة الهاجناة القبض على القادة واستجوبتهم، كما تم تسليم حوالي ألف منهم إلى البريطانيين.

وهذا لا بد أنه يذكرنا بقضية الرئيس رفيق الحريري في لبنان مؤخرًا، حيث قامت إسرائيل بكل تأكيد باغتياله لتتهم سوريا من أجل إخراجها من لبنان، وبعد أن خرجت سوريا بقى أمام إسرائيل اتهام حزب الله لتبعد الشبهات عن نفسها، لكن يبدو أن السحر بدأ يرتد على الساحر، نفس الأساليب لم تتبدل عند بني إسرائيل منذ الأزل، القتل وسفك الدماء واتهام الغير وهم المجرمون.



- الرئيس رفيق الحريري -

2- المقاومة اليهودية

عام 1945 تولى حزب العمال السلطة في بريطانيا، وكان قد وعد بإلغاء الكتاب الأبيض وبدعم وجود دول يهودية في فلسطين، إلا أنه كما يقول اليهود نكث بوعده هذا، وواصل الجهود الرامية إلى وقف الهجرة..

وأثناء ذلك حاولت عصابة الهاجناه جلب المهاجرين إلى فلسطين بصورة غير قانونية، وتوحدت الجماعات الصهيونية المتنافسة خصوصًا الجماعات الإرهابية المنشقة عن ارغون وليهي "عصابة شتيرن" واستخدمت القوة في محاولة طرد البريطانيين من فلسطين وشمل ذلك تفجير القطارات ومحطاتها ومقر نادي الضباط البريطانيين ومقر القيادة البريطانية في فندق الملك داود في القدس، وكذلك خطف الموظفين البريطانيين وقتلهم وتعليقهم على الأشجار، وبهذا بدأ السياسيون والصحف في بريطانيا يطالبون الحكومة بتسوية النزاع ووقف تعريض حياة الجنود للخطر.

الفصل التاسع : الصراع الإسرائيلي الفلسطيني

منذ ساعات الفجر يتدفق اليهود المتدينون إلى أقدس حائط حسب العقيدة الدينية اليهودية، وهو ما تبقى من أثر المعبد الكبير الثاني في القدس، حائط المبكى، الصغير والكبير، الملتحي والحليق، جميعهم يشقوا طريقهم إلى الشوارع الضيقة، أو من خارج أسوار مدينة القدس، المثقفون منهم وغير المثقفين يسيرون على طول مع الرعاة من التلال خلف القدس، الشباب البالغون سن الرشد يسيرون جنبًا إلى جنب مع الرجال الذين هم في خريف أعمارهم، المدرسون من المرافق الدينية في المدينة كتفًا لكتف مع أصحاب الحوانيت الذين يأمون القدس من مسافات بعيدة، من حيفا، وتل أبيب ومن قرى بحر الجليل، يرتدون بزاتهم الموحدة السوداء وكل واحد يحمل كتاب صلاة (سيدور) ويقف أمام الحائط المرتفع ليقرأ جزءًا من التوراة.

على مدى سنوات طويلة ماضية فعل اليهود هذا، ولكن ذلك السبت في شهر سبتمبر أيلول عام 1929 كان مختلفًا، الربانيون حثوا الرجال بأن يكونوا بقدر الامكان مُتَّحدين في صلاة جماعية ليبينوا تصميمهم على حقهم المزعوم، ولم يكن ذلك يقصد منه فقط التعبير عن عقيدتهم، لكن أيضًا كان رمزًا واضحًا لصيهونيتهم – وتذكيرًا للشعب العربي، الذي يفوقهم عددًا بشكل كبير أنهم لن يخافوهم في تحد سافر للمشاعر العربية.

كانت هناك إشاعات متواصلة تقول بإن المسلمين يزدادون غضبًا مما يشاهدونه من التوسع الصهيوني، بدأت هذه المخاوف مع صدور وعد بلفور عام 1917، والتزام بريطانيا بإقامة وطن قومي لليهود على أرض فلسطين، كان هذا مثيرًا لغضب العرب الذين عاشوا هناك والذين ترجع جذورهم إلى آلاف السنين، الأرض التي زرعوها لعدة قرون تصبح مهددة وربما تؤخذ منهم من الصهيونية وحُماتهم البريطانيين، الذين جاءوا بنهاية الحرب العالمية الأولى ليضعوا فلسطين تحت انتدابهم، البريطانيون حكموا كما فعلوا في المناطق الأخرى من الإمبراطورية محاولين إرضاء الطرفين، وكانت تلك صيغة لإعداد كارثة، ازدادت وتيرة التوتر بين العرب واليهود وحصلت هناك مناوشات وإراقة دماء حول محاولات اليهود بناء معابد لهم وأماكن للصلاة، وكان اليهود قد صمموا بعناد على أن يمارسوا صلواتهم على حائط المبكى في القدس، باعتبار أن ذلك جوهر طقوسهم الدينية.

وقت صلاة الظهر والتي تعرف عند اليهود بصلاة السمع كان هناك أكثر من ألف شخص يقرأون بصوت مرتفع الكلمات القديمة جدًّا في الكتاب المقدس (التوراة) أمام حائط المبكى، وكان ارتفاع أصواتهم وانخفاضها له إيقاع متناغم، ثم وبسرعة مذهلة انهالت عليهم حجارة وزجاجات مكسورة وعلب مملوءة بأتربة الأنقاض، هجوم قام به العرب من نقاط حول حائط المبكى، وانطلق أول وابل من الرصاص من بنادق المسلمين القديمة سقط يهود وتم جرهم بعيدًا.

في تلك الليلة اجتمع زعماء اليشوف (زعماء الجالية اليهودية في فلسطين) وبسرعة أدركوا أن مظاهرتهم لم يكن قد خُطط لها جيدًا وكان ينقصها نقطة رئيسية واحدة، وهي عدم المعرفة المسبقة بالهجوم العربي، وذكروا في ذلك الاجتماع أن عليهم أن يتذكروا بأنهم في عهد الملك داود اعتمدوا على الاستخبارات القوية كما جاء في التوراة، فقرروا الاعتماد على التجسس والمعلومات

الاستخباراتية التي يجب جمعها لتجنب أي هجوم مفاجئ من العرب، وفي ذلك الاجتماع بذرت البذور التي سوف تصبح يومًا من الأيام أضخم خدمات استخباراتية في العالم الحديث – الموساد – غير أن خلق الموساد كان لا يزال بعيدًا حوالي ربع قرن من ذلك الوقت، كل ما يستطيع زعماء الجالية اليهودية أن يقترحوه كخطوة عملية أولى في تلك الليلة من شهر سبتمبر هو تجميع كل الأموال التي يتمكنوا من توفيرها، ومناشدة جيرانهم ليقوموا بنفس الخطوة، المال يمكن أن يستعمل في رشوة العرب الذين لا زال اليهود مقبولين لديهم، والذين يمكنهم أن يعطوا تحذيرات مبكرة عن أي هجمات أخرى وتجييش أعداد كبيرة من المخبرين والجواسيس لهذه الغاية.

في غضون ذلك قرر اليهود ممارسة صلواتهم على حائط المبكى دون الاعتماد على البريطانيين لحمايتهم، إذ تتولى منظمة الهجناه حمايتهم، والهجناه هي المليشيا اليهودية المُشكَّلة حديثًا، وفي الأشهر التي تلت جاء مزيج من التحذيرات المسبقة ووجود المليشيا (الهجناه) مكَّن مواجهة الهجمات العربية، وكان الهدوء النسبي بين العرب واليهود قد ساد خلال السنوات الخمس التي تلت تلك الأحداث.

في تلك الفترة واصل اليهود بشكل سريّ في توسيع دائرة تجمعهم الاستخباري، ولم يكن لهذا التجمع اسم رسمي محدد وتواصل تجنيد العرب على قاعدة التخصص، الباعة المتجولون الذين يعملون في القدس والأحياء العربية والصبيان من صباغي الأحذية الذين يلمِّعون أحذية ضباط الانتداب كانوا على جداول الرواتب، أي يهودي كان بامكانه تجنيد جاسوس عربي والشرط الوحيد أن تكون المعلومات مشتركة، بالتأكيد ولكن ببطء حصل "اليشوف" على معلومات هامة ليس فقط عن العرب بل وأيضًا عن النوايا البريطانية.

اعتلاء أدولف هتلر سدة الحكم في ألمانيا عام 1933 كان مؤشرًا على بدء الهجرة الجماعية لليهود الألمان إلى فلسطين، في عام 1936 كان أكثر من ثلاثمائة ألف يهودي عبروا من أوروبا ووصلوا إلى الأرض المقدسة، كثيرون منهم كانوا معوزين وحالتهم صعبة إلا أن اليشوف قام بتوفير الطعام والمأوى لهم، وخلال أشهر شكَّل اليهود ثلث السكان في البلاد.

وجاءت ردود الفعل من العرب كما حصل سابقًا، فمِن على المآذن في مئات المساجد انطلقت صيحات الأئمة لطرد اليهود من الأرض الفلسطينية، في كل الأماكن الدينية العربية اجتمع المستشارون العرب وجاءت نفس الأصوات الغاضبة احتجاجًا: "علينا أن نوقف اليهود من أخذ أرضنا وأن نوقف البريطانيين من إعطائهم السلاح وتدريبهم".

واصل البريطانيون في محاولات استرضاء الجانبين، إلا أن تلك المحاولات باءت بالفشل، في عام 1936 اندلع قتال متقطع أدى إلى تمرد شامل ضد البريطانيين واليهود، قمع البريطانيون بلا هوادة تلك الثورة غير أن اليهود أدركوا أن المسألة ستكون مسألة وقت فقط، فقد يعود العرب بعدها ليضربوا بعنف مجددًا.

على طول البلاد اندفع اليهود للانضمام إلى منظمة "الهجناه" وأصبحوا جوهر الجيش السري الهائل، قوة بدنية وخبث كثعالب الصحراء في النقب..

وامتدت شبكة المخبرين العرب وأقيمت دائرة للهجناه لتغذية الخلافات العربية العربية عبر التضليل، الرجال الذين أصبحوا أسطوريين في مجتمع المخابرات الإسرائيلية تعلموا مهاراتهم

خلال فترة التكوين قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية، الهجناه – الكلمة تعني "الدفاع" بالعبرية – أصبحت أفضل القوى المخابراتية في الأراضي المقدسة.

الحرب العالمية الثانية جلبت سلامًا مجددًا غير مستقر إلى فلسطين، شعر اليهود والعرب بالمستقبل القاتم الذي سوف يحل بكليهما إذا ربح النازيون الحرب، أول تفصيل لما كان يحصل في معسكرات الموت الأوروبية قد وصل إلى "اليشوف"، دافيد بن غوريون وإسحق رابين كانا من بين أولئك الذين حضروا اجتماعًا في حيفا عام 1942، كان هناك إجماع بأن الناجين من المحرقة (الهولوكوست) النازية ينبغي إحضارهم إلى فلسطين، لا أحد يستطيع أن يقدر كم كان عددهم، ولكن كل واحد من اليهود كان يدرك أن وصول اللاجئين من أوروبا سوف يعيد إشعال فتيل المواجهة مع العرب، وفي هذا الوقت كانت بريطانيا تقول باستمرار إنها سوف ترفض السماح للناجين من المحرقة النازية من الدخول إلى فلسطين بعد أن يكون هتلر قد هزم، على أساس أن ذلك سوف يخلق اختلالاً في التوازن الديمغرافي في فلسطين.

حث بن غوريون على رفع مستوى طاقة مخابرات الهجناه، ولاقى ذلك التأييد الكامل من المجتمعين، إذ قال "يجب تجنيد مخبرين أكثر وأن تشكل وحدة مكافحة التجسس، لتشمل اليهود الذين كانوا يتعاونون مع البريطانيين، واقتلاع الشيوعيين اليهود والمنشقين من وسطنا"، الوحدة الجديدة كانت قد عرفت بالعبرية بريغول هاجدي (الجاسوس الفتى)، وكانت بقيادة الضابط الفرنسي الأجنبي الذي يعمل تحت غطاء رجل تسويق متجول.

فورًا كان يحول ما يصل إليه من النساء اللواتي يعاشرن ضباط الانتداب، وأصحاب الحوانيت الذين تاجروا مع البريطانيين وأصحاب المقاهي الذين رحبوا بهم، وفي عمق الليل أحضر المتسببون أمام المحاكم العسكرية التابعة للهجناه، المذنبون إما يكونوا قد حكم عليهم بالضرب أو اعدموا على تلال القدس بطلقة واحدة في مؤخرة الرأس.

في عام 1945 أضافت الهجناه وحدة مسؤولة عن شراء الأسلحة، وكانت مخابئ الإيطاليين والألمان للأسلحة التي تم الاستيلاء عليها في شمال أفريقيا بعد هزيمة رومل، قد هُربت من قِبل الجنود اليهود الذين كانوا في خدمة الحلفاء، عبر صحراء سيناء المصرية إلى فلسطين، جاءت الأسلحة في شاحنات قديمة، وعن طريق قوافل الجمال، وخُزنت في كهوف في البرية في المكان الذي حاول فيه الشيطان أن يغوي السيد المسيح عليه السلام، أحد المخابئ كان قريبًا من مكان مخطوطات البحر الميت التي كانت تنتظر الاكتشاف.

بعد هزيمة اليابان في شهر أغسطس عام 1945 انتهت الحرب، اليهود الذين خدموا في وحدات استخبارات الحلفاء العسكرية وصلوا ليعطوا الخبرة للهجناه، العناصر كانت في مكانها للتعامل مع ما تنبأ به بن غوريون "الحرب من أجل إقامة دولة إسرائيل"، والتي سميت حرب الاستقلال، نقطة الأثارة أنه يعرف أنها عملية غير مسبوقة لجلب الناجين من الهولوكوست من أوروبا، بداية جاءوا بالمئات ثم بالآلاف ثم بعشرات الآلاف، الكثير منهم كانوا لا زالوا يرتدون الزي الخاص بمعسكرات الاعتقال الألمانية، كل واحد منهم موشوم برقم تعريف نازي، جاءوا على الطرق البرية وفي السكك الحديدية عبر البلقان ثم عبروا البحر الأبيض المتوسط إلى شواطئ فلسطين، كل سفينة متوفرة قد تم شراؤها أو استئجارها من قبل وكالات الإغاثة في الولايات المتحدة، وغالبًا بأسعار مرتفعة جدًا، وشملت سفن شحن غير نظامية والبواخر والسفن الساحلية وسفن المراسي،

ومن شواطئ النورماندي قوارب نهرية، أي شيء يمكن أن يعوم على سطح الماء قد ضم إلى الخدمة.

بانتظار الناجين على الشواطئ بين حيفا وتل أبيب كان بعض الجنود البريطانيين الذين سبق وأن نقلوا إلى انجلترا من دنكرك، كانوا هناك لينفذوا أوامر حكومتهم بمنع الناجين من المحرقة النازية من الدخول إلى فلسطين، كانت هناك اشتباكات ولكن يبدو أن الجنود ربما تذكروا إنقاذهم الخاص، فقد نظروا إلى المسألة من زاوية أخرى حيث كان قاربًا يحمل لاجئين يصارع الأمواج على الشاطئ.

رأى بن غورين أن هذه الشفقة ليست كافية، فقد حان الوقت لإنهاء الانتداب البريطاني ولا يتم ذلك إلا باستعمال القوة، عام 1946 تمكن بن غوريون من توحيد الحركات السيئة اليهودية المختلفة، أولاً بالروح الجامحة لأولئك المستوطنين الأوائل وثانيًا إعطاء الأثارة لحرب عصابات ضد البريطانيين والعرب معًا.

كل قائد يهودي كان يعرف أنها مقامرة خطيرة، فالحرب على جبهتين من شأنها أن تؤدي إلى نضوب مصادرهم المحدودة، وأن نتائج الفشل سوف تكون وخيمة، بن غوريون أمر بأنه لا يتحمل سياسة ممنوعة، وفورًا بدأ فهرس الفظائع التي كانت مروعة والتي كانت متساوية على الجانبين، اليهود كانوا يقتلون لمجرد الاشتباه بتعاونهم مع الهجناه، والجنود البريطانيون كانوا يتعرضون لإطلاق النار ويسقطون قتلى وتضرب معسكراتهم بالقنابل، أما القرى العربية فقد أشعلت فيها النيران وكانت ضراوة تلك الحرب تشبه الضراوة التي سادت في القرون الوسطى.

للهجناه كانت الاستخبارات حرجة وحساسة، ليس فقط في إشاعة التضليل فحسب بل لإعطاء الانطباع للبريطانيين والعرب بأن لليهود رجالاً أكثر مما كان يعرف، فوجد البريطانيون أنفسهم أنهم يطاردون عدوًا خفيًا، وكانت قوات الانتداب قد بدأت معنوياتها تتدهور.

حاولت الولايات المتحدة التوسط للوصول إلى صفقة عام 1946 حاثين بريطانيا على أن تسمح لمائة ألف يهودي من الناجين من المحرقة الألمانية لدخول فلسطين، بريطانيا رفضت هذا الطلب واستمر القتال على أشده، وأخيرًا في شهر فبراير/ شباط 1947 قرر البريطانيون ترك فلسطين في الخامس عشر من أيار عام 1948 على أن تقوم هيئة الأمم المتحدة بالتعامل مع المشاكل الفلسطينية التي قد تؤدي إلى قيام دولة إسرائيل.

أدرك بن غوريون وقادته أن الصراع لا زال صراعًا مع العرب، وأرادوا التأكد أن الأمة الوليدة لن تُخنق في مولدها، ورأوا أنه يجب عليهم مواصلة الاعتماد على الاستخبارات الفائقة، فحصلوا على بيانات حيوية عن المعنويات العربية والقوة العسكرية التي لديهم، وتمركز الجواسيس اليهود في القاهرة وعمان، يسرقون خطط الهجوم المرتقب من الجيوش المصرية والأردنية، عندما بدأ ما عُرف بحرب الاستقلال حقق الإسرائيليون انتصارات عسكرية مذهلة، ولكن أيضًا أصبح واضحًا إلى بن غوريون بينما تستمر الحرب أن النصر الأخير ينبغي أن يكون متوقعًا في ضوء الفصل بين طموحات السياسيين والعسكر، وأخيرًا في عام 1949 لم يكن ذلك الفصل قد سوي بشكل نهائي، مما أدى إلى النزاع داخل مجتمع المخابرات الإسرائيلية حول المسؤوليات في أوقات السلم.

بن غوريون أول رئيس وزراء لإسرائيل، أقام خمس خدمات استخباراتية لتعمل في الداخل والخارج، الخدمات عبر البحار شكلت نفسها على غرار خدمات الاستخبارات البريطانية

والفرنسية، كل الخدمات وافقت على العمل مع الإسرائيليين، وأقيمت اتصالات مع مكتب الخدمات الاستراتيجية الأمريكي في واشنطن بوساطة رئيس وكالة الاستخبارات الإيطالية "جيمس جيرسي انجلتيون" وارتباطه بالجواسيس الإسرائيليين الجدد، ربما يلعب دورًا صعبًا في بناء الجسور بين المخابرتين.

على الرغم من هذه البداية الواعدة فإن أحلام بن غوريون بعمل المنظمات الاستخباراتية بانسجام قد ماتت في مخاض ولادة أمة تناضل بنفسها من أجل هوية متماسكة، استعراض العضلات بقى الأمر اليومي، والوزراء في حكومة بن غوريون وكذلك الرسميين قد حاربوا من أجل السلطة والمراكز، وكانت هناك مصادمات على كافة المستويات، من يريد تنسيق الاستراتيجية الاستخباراتية؟ من يريد تقييم البيانات الأولية؟ من الذي سيقوم بتجنيد الجواسيس؟ ومن الذي يجب أن يطلع على التقارير أولاً؟ ومن يقوم بترجمة المعلومات للزعماء السياسيين؟.

لم يكن هناك المزيد من المناورات التي لا هوادة فيها بين وزارة الخارجية ووزارة الدفاع، كل جهة منهما ادعت حقها في العمل في الخارج، "ايسار هاريل" العامل الصغير شعر بأن زملاءه يعتقدون أن الاستخبارات تعمل في ضوء الرومانسية والمغامرة، فتظاهروا بأن يكونوا خبراء في كل طرق العالم، وحاولوا أن يسلكوا كجواسيس دوليين خياليين يستمتعون بعظمتهم كأنهم يعيشون في ظل الخيط الرفيع بين القانون والإجازة الرسمية.

في غضون ذلك استمر العرب في المقاومة، وبقنابلهم وشراكهم، جيوش سوريا ومصر والأردن ولبنان لا زالت تهدد، خلفهم ملايين من العرب كانوا على استعداد لإعلان الجهاد (الحرب المقدسة) ولا توجد أمة في العالم تكون قد ولدت في مثل هذه البيئة المعادية مثل إسرائيل.

بالنسبة إلى بن غوريون كان هناك غالبًا شعور بشأن الطريقة التي نظر شعبه إليه بها لحمايتهم، بالطريقة التي كان زعماء إسرائيل الكبار قد فعلوا دائمًا، ولكنه كان يعرف أنه ليس نبيًا وأنه فقط محارب شوارع مقروص بشدة، والذي كسب حرب الاستقلال ضد الأعداء العرب الذين هاجموه بقوات تفوق ما لديه بعشرين ضعفًا ولم يكن هناك نصر أكبر منذ أيام الصبي الراعي داود، الذي قتل جالوت وهزم الفلسطينيين.

لا زال العدو لم يبتعد بل أصبح أذكى وأقسى لا يرحم وبدأ يضرب مثل اللص في الليل يقتل بدون تأنيب الضمير قبل أن يتلاشى، استمر التنافس والشجار والقنص لمدة أربع سنوات، في كل الاجتماعات التي ترأسها بن غوريون في محاولات لحل الأمور بين مجتمع الاستخبارات، خطة واعدة لوزارة الخارجية باستعمال دبلوماسي فرنسي جاسوسًا في القاهرة قد أحبطت من قِبل وزارة الدفاع التي أرادت أن يكون رجلها الخاص لهذه المهمة، الضابط الشاب بدون خبرة في عمل المخابرات ألقي عليه القبض خلال أسابيع من ضباط الأمن المصريين، الوكلاء الإسرائيليون في أوروبا تم اكتشافهم بأنهم يعملون في السوق السوداء بغزارة لتمويل عملهم، حيث لم تكن هنا ميزانيات كافية تغطي أنشطة التجسس، المحاولات لتجنيد قوات الدروز المعتدلين في لبنان قد انتهت عندما اختلفت الوكالات الإسرائيلية المتنافسة على كيفية استعمالهم، غالبًا المشاريع الضخمة تحطمت بسبب الشكوك المشتركة. الرجال الأقوياء في ذلك اليوم؛ كانوا وزير الخارجية الإسرائيلي ورئيس الأركان والسفراء جميعهم، ناضلوا لتأسيس التفوق لخدماتهم على الآخرين.

البعض أراد أن يكون تسليط الضوء على جمع المعلومات الاقتصادية والسياسية، والبعض فكروا بأن الاستخبارات يجب أن تتركز كليًا على القوة العسكرية للعدو، السفير الإسرائيلي لدى فرنسا أصر على أن تكون الاستخبارات تسير على شاكلة المقاومة الفرنسية إبان الحرب العالمية الثانية، بحيث يتحرك كل يهودي في الأرض، السفير في واشنطن أراد أن يكون جواسيسه محميين بغطاء دبلوماسي وأن يكونوا جزءًا من أعمال السفارة الاعتيادية كي يتسنى أن يكونوا فوق الشبهات، الوزير الإسرائيلي لبوخارست أراد أن يعمل جواسيسه على طول خطوط الكي جي بي (المخابرات السوفيتية) ويكونوا قساة، الوزير الإسرائيلي في بيونس ايريس طلب أن يعمل الوكلاء على غرار دور الكنيسة الكاثوليكية في مساعدة النازيين في الأرجنتين، بن غوريون أصغى بصبر إلى كل اقتراح.

الفصل العاشر : إعادة تشكيل الاستخبارات الإسرائيلية

بالنهاية وفي الثاني من مارس عام 1951 استدعى دافيد بن غوريون رؤساء خمس وكالات استخبارات إلى مكتبه، وأخبرهم أنه سوف ينيط مسألة أنشطة جميع الاستخبارات الإسرائيلية في الخارج بمؤسسة جديدة تسمى (هاموساد لي تيوم) بمعنى معهد التنسيق، وسوف يكون لها ميزانية ابتدائية قيمتها عشرون ألف جنيه إسترليني تنفق خمسة آلاف منها على المهمات الخاصة ولكن بموافقة مسبقة، الوكالة الجديدة يمكنها أخذ موظفيها من وكالات الاستخبارات القائمة، وقرر بن غوريون أن تسمى الوكالة الجديدة (الموساد) فقط. موساد، لكل الأغراض الإدارية والسياسية سوف تكون تحت صلاحيات وزارة الخارجية، على العموم سيكون لها كبار الضباط يمثلون المنظمات الأخرى في مجتمع الاستخبارات الإسرائيلية مثل: الشين بيت، الأمن الداخلي، أمان للاستخبارات العسكرية، استخبارات القوة الجوية والاستخبارات البحرية، عمل الضباط سوف يكون إطلاع الموساد على الطلبات المعينة لزبائنهم وفي حالة عدم الاتفاق على أي طلب فسوف تحال المسألة إلى مكتب رئيس الوزراء. في هذه الفظاظة الاعتيادية قال بن غوريون: "عليكم أن تعطوا الموساد قائمة تسوّقكم والموساد بدوره سوف يذهب ويحضر البضائع، ليس من اختصاصكم أن تعرفوا أين هم يتسوقون أو ما يدفعوه ثمنًا للبضائع".

بن غوريون يقوم بدور لجنة إشراف على الخدمات الجديدة، في مذكرته للرئيس الأول "روبين شالوح" طلب رئيس الوزراء أن يعمل الموساد تحت إمرته وسوف يعمل طِبقًا لتعليماتي وأن ترسل التقارير له باستمرار.

القواعد الأساسية قد وضعت، 28 سنة من الأحداث، بعد أن جلس أولئك اليهود في ليلة مقدسية في سبتمبر 1929 يناقشون الأهمية الحيوية للاستخبارات في منع الهجمات العربية، فقد كان لأحفادهم خدمة الاستخبارات التي أصبحت أكبر من أي استخبارات أخرى في العالم.

مولد الموساد مثل إسرائيل كان بهدوء، الخدمات قد وضعت حلقة من الجواسيس في العراق وقد عملت تلك الحلقة سنوات عدة تحت إدارة دائرة قوات الدفاع السياسية، العمل الرئيسي للحلقة كان أن تخترق المراتب العليا في الحربية العراقية، وتجري شبكة هجرة سرية لإخراج اليهود العراقيين من العراق إلى إسرائيل. في شهر مايو/ أيار 1951 فقط بعد تسعة اشهر بعد توقيع بن غوريون على أمر بعث الموساد، انقض وكلاء الأمن العراقيين في بغداد على الحلقة، اثنان من الوكلاء الإسرائيليين تم اعتقالهم إلى جانب العراقيين اليهود والعرب الذين أخذوا رشاوى ليسهلوا شبكة الهروب التي امتدت عبر الشرق الأوسط، 28 اتهموا بالتجسس، الوكيلان حكم عليهما بالإعدام، 17 شخصًا حكم عليهم بالسجن المؤبد والآخرون أطلق سراحهم كمثال على عدالة القانون العراقي.

كِلا جاسوسي الموساد ثم إخلاء سبيلهما لاحقًا من سجن عراقي كانا فيه يتعرضان إلى التعذيب القاسي، وذلك مقابل مبلغ من المال دفع في حساب في بنك سويسري باسم وزير الداخلية العراقي، تبع ذلك سريعًا كسر للجليد، جاسوس الدائرة السياسية في روما "ثيودور جروس" الآن يعمل للموساد تحت ترتيب جديد. في يناير/ كانون الثاني عام 1952 رئيس الشين بيت (خدمات إسرائيل

للأمن الداخلي) "ايسد هارتل" تسلم برهانًا قاطعًا أن "جروس" كان عميلاً مزدوجًا على قائمة رواتب الخدمات السرية المصرية، هرتل قرر أن يطير إلى روما حيث تمكن هناك من إقناع "جروس" بالعودة معه إلى تل أبيب مقنعًا الخائن بأنه على وشك أن يُعطى مركزًا أعلى في الشين بيت، في تل أبيب حوكم "جروس" سرًا وأدين وحكم عليه بالسجن لمدة خمسة عشر عامًا ليموت في السجن.

التقسيم

أوصت لجنة الأمم المتحدة بشأن فلسطين بتقسيم فلسطين إلى دولة عربية ودولة يهودية، ودعت إلى وضع القدس تحت الإدارة الدولية للجمعية العامة للأمم المتحدة التي اعتمدت هذه الخطة يوم 29 تشرين الثاني عام 1947 فأصدرت القرار رقم (181)، وكان وراء ذلك القرار الدعم الأمريكي والسوفيتي، وعلى وجه الخصوص الدعم الذي قدمه الرئيس الأمريكي "هاري ترومان"، وقد ساهمت عوامل كثيرة في قرار ترومان مساندة التقسيم من قبيل السياسة الداخلية والضغط الصهيوني المكثف، لكن ترومان كتب في مذكراته "أن الشيء المناسب والشيء الذي فعلت، هو ما اعتقد أنه الحق.. وليذهبوا بعدها إلى الجحيم جميعًا"، وكان أول من ذهب إلى الجحيم نتيجة ذلك القرار المشئوم هو الشعب الفلسطيني، ولا زال يعاني من جحيم تلك السياسة الغربية والصهيونية.

قبل اليهود بقرار الأمم المتحدة ورفضه العرب، ومن الطبيعي أن الذي ليس له الحق في شيء إذا منحته جهة دولية ذلك الحق فإنه يسارع للقبول لأنه يكون حصل على شيء من غير حقه بل جاءه مجانًا فلماذا يرفض؟، أما أصحاب الحق الشرعي وهم العرب فمن المؤكد أنهم سوف يرفضون مثل هذه القرارات التعسفية غير العادلة.

قرار تقسيم فلسطين يقضي بتقسيم الأرض ضمن إطار خطة معقدة إلى قسمين متساويين تفصلهما حدود متعرجة، وكان القصد هو قيام اتحاد اقتصادي وحدود مفتوحة بين البلدين، حين صدور قرار التقسيم كان العرب يمتلكون 90 بالمائة من الأرض الفلسطينية، واليهود ما لا يزيد عن 8 بالمائة من الأراضي، وكان عدد اليهود الذين يعيشون في فلسطين آنذاك حوالي400.000 نسمة، بينما كان عدد العرب الفلسطينيين 1.2 مليون ومائتي ألف نسمة، غير أنه سرعان ما تبين أن هذه الخطة لن تؤدي إلى نتيجة فمن شأن العداء المتبادل أن يجعل قبول الآخر مستحيلاً في كلا المجتمعين، وكانت الأمم المتحدة ترغب في تدويل القدس بالقوة، وما كانت قادرة على ذلك، وقررت جامعة الدول العربية الحرب مع اليهود لتخليص فلسطين من اليهود، ولكن بكل أسف كان واقع الأمر غير ذلك حيث أن كل دولة عربية في جامعة الدول العربية كان لها برنامجها الخاص، بحيث يكون لكل منها حصة في الذبيحة الدسمة.

الفصل الحادي عشر : فلسطين والحروب العربية الإسرائيلية

1- حرب عام 1948

تنقسم حرب عام 1948 إلى فترة ما قبل إعلان دولة اليهود تحت مسمى "دولة إسرائيل" وفترة ما بعد الإعلان عن قيام الدولة، بدأت اشتباكات بين القوات السرية الإسرائيلية والجماعات غير النظامية العربية فور صدور قرار التقسيم، ولم تشارك الدول العربية في القتال آنذاك، بيد أن الجيش الأردني ساعد في الهجوم على مستوطنة غوش عتسيون وعلى مستوطنة صغيرة من المستوطنات في الأراضي المخصصة للدولة الفلسطينية جنوب القدس.

2- مرحلة ما بعد إعلان الدولة

خلال الفترة التي سبقت إعلان الدولة الإسرائيلية تواجد جيشان من المتطوعين، وتمركز المقاتلون في البلدات العربية، وقاموا بعمليات هجومية على المدن والقرى اليهودية إبان وجود البريطانيين، وسمحت بريطانيا لفوزي القاوقجي وقواته غير النظامية بدخول فلسطين من سورية بعد الاتفاق معه على أنه لن يشارك في العمليات العسكرية، لكنه سرعان ما خرق الاتفاق وقام بالهجوم عبر الجليل.

أعمال العنف اندلعت في القدس يومي 30 تشرين الثاني و1 كانون الأول عام 1947 وتمكنت القوات الفلسطينية غير النظامية من قطع إمدادات الطعام والمياه والوقود عن القدس اليهودية خلال حصار طويل، بدأ في أواخر عام 1947، واندلع القتال والعنف على الفور في جميع أنحاء البلاد، وتضمن ذلك كمائن للمتنقلين ومحاصرة القدس، وأثيرت أيضًا أعمال عنف في مصفاة البترول في حيفا، وضد مستوطنة غوش عتسيون (نفذها الفلسطينيون) ودير ياسين (نفذها اليهود)، وبدأ العرب يتعرضون إلى المجازر في كل مكان في فلسطين على أيادي العصابات الصهيونية، الأمر الذي أجبرهم على الرحيل بسبب المجازر اليهودية وبناء على وعود من الدول العربية التي طلبت من الفلسطينيين الابتعاد عن البؤر المأهولة باليهود لفترة قصيرة، أو لحين تحرير فلسطين من اليهود والذي لن يستغرق أكثر من أسبوعين، حتى لا يتعرضوا لقصف مدافع جيوشهم، التي سوف تدخل إلى فلسطين بعد الخامس عشر من أيار عام 1948 موعد انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين، استجاب الفلسطينيون إلى هذا النداء العربي وهجروا مدنهم وقراهم القريبة من التجمعات اليهودية، على أمل العودة خلال شهر على أبعد تقدير إلى قراهم ومدنهم حسب الوعد العربي، ولا زالوا ينتظرون العودة بعد مضي أكثر من 60 عامًا على النكبة التي حلت بهم عام1948.

3- دخول الجيوش العربية إلى فلسطين

كانت حكومات الدول العربية المجاورة أكثر ترددًا مما يعتقد عمومًا للدخول في حرب ضد إسرائيل، على الرغم من التصريحات النارية التي يطلقونها، ولكن الضغط الشعبي اقترن بالخوف من أن الدول العربية الأخرى قد تتفوق عليهم في القتال في فلسطين، وقد ساهم ذلك في التأثير على كل من سورية والأردن ومصر في اتخاذ قرار الدخول في حرب مع إسرائيل، وكانت الدول العربية التي دخلت جيوشها إلى فلسطين تقاتل وفق خطة موحدة من الناحية الرسمية لكن التنسيق بينها كان ضعيفًا في واقع الأمر.

أعلن اليهود قيام دولة إسرائيل في يوم 14 أيار عام 1948 وانسحب البريطانيون من فلسطين، وخلال الأيام والأسابيع التالية هاجمت الدول العربية المجاورة لفلسطين، وتواصل القتال لفترات وجيزة تخللتها اتفاقات وقف إطلاق نار، وأعلنت هدنة من الجانبين في حزيران إلى تموز 1948 ثم من 19 تموز حتى 15 تشرين الأول 1948 سجل الجيشان المصري والسوري نجاحات ملحوظة في المرحلة الأولى وتمكن المصريون المدعومون بالدبابات والمدفعية والمدرعات والطائرات التي لم تكن إسرائيل تملكها أن يعزلوا النقب كله ويحتلوا أجزاء من الأراضي الفلسطينية التي خصصها قرار التقسيم للدولة اليهودية، في كتابه "في ميادين فلسطين" يروي ناشط السلام الإسرائيلي يوري أفنيري كيف أن الجيش المصري حاول حشد المدرعات لضرب تل أبيب، وكيف منعت مصر والأردن محاولات فلسطينية لإقامة دولة حقيقة، والتزم الأردن بعد مهاجمة المناطق المخصصة للدولة اليهودية، ولكن سورية ومصر لم تفعلا ذلك، تم صد الهجوم بواسطة عدد قليل من طائرات مسرشميت التي وصلت مؤخرًا وتم شراؤها من تشيكوسلوفاكيا. أحرز السوريون بعض التقدم في الأراضي التي خصصها التقسيم للدولة الفلسطينية، أما الأردن فلم يهاجم الأراضي اليهودية ومنع الفيلق العربي والقوات العسكرية من محاصرة القدس اليهودية من موقعة المحصن في اللطرون. لم يكن ممكنًا التغلب على المواقع الأردنية في اللطرون على الرغم من العديد من الهجمات الدموية، وبعد الالتفاف على ذلك انشأ الإسرائيليون في نهاية المطاف "طريق بورما" الذي تم إنجازه في حزيران عام 1948 فتم كسر الحصار المفروض على القدس.

4- الوقف الأول لإطلاق النار

أعطى وقف إطلاق النار في حزيران بموجب الهدنة المعقودة بين الأطراف المتحاربة، أعطى للجميع وقتًا لإعادة تجميع القوات ولتنظيمها، وهذا يمثل مرحلة حرجة في المعارك، الجانب العربي ارتكب خطأ حاسمًا في قبول الهدنة، إذ استغل الإسرائيليون وقف إطلاق النار لإعادة تنظيم الجيش وحشده وتدريبه، فأصبحوا قادرين على إحضار شحنات كبيرة من الأسلحة، على الرغم من أحكام المعاهدة وعلى تدريب وتنمية قوة مقاتلة حقيقية مكونة من 60.000 جندي مما أعطاهم تفوقًا فعليًا في العدد والعتاد لأول مرة، لعل الهدنة تمكنت من إنقاذ القدس أن كان أهلها مهددون بالموت جوعًا، وخلال الهدنة الطويلة اندمجت الجيوش السرية للهاغانا والبالماخ وإرغون وليهي في قوة مقاتلة واحدة هي جيش الدفاع الإسرائيلي.

5- استئناف القتال

كانت الحرب مع المصريين حرب مواقع لأنهم كانوا معزولين في "الفلوجة" وهي جيب وسط إسرائيل، وبعد انتهاء وقف إطلاق النار نقلت إسرائيل الحرب إلى داخل الأراضي المصرية، إذ دخلت قواتها سيناء، ثم اضطر الجيش الإسرائيلي إلى الانسحاب بعد مواجهات مع الطائرات البريطانية، في الوسط اقتطع الجيش الإسرائيلي رقعة من الأرض لفتح "ممر" بين القدس وبقية إسرائيل، خلال عشرة أيام من القتال بين هدنتين احتل الإسرائيليون مدينتي اللد والرملة اللتين كانتا تغلقان الطريق إلى القدس وتم طرد معظم الفلسطينيين الذين يعيشون فيهما بعد أن قتل الكثير منهم، كما دمروا العديد من القرى الفلسطينية الصغيرة المحيطة بتل أبيب، وهكذا لم يبقوا عمليًا على فلسطينيين في وسط إسرائيل.

6- الهزيمة العربية الأولى

بالرغم من النكسات الأولية التي حلت بإسرائيل في بداية دخول الجيوش العربية إلى فلسطين فإن تنظيمًا أفضل ونجاحات استخباراتية صهيونية قد تحققت خلال فترة الهدنة الأولى، حيث كان من الخطأ موافقة العرب على الهدنة ووقف إطلاق النار، استغلت إسرائيل الهدنة وعملت على استيراد أسلحة حديثة ومتطورة لمواجهة الجيوش العربية التي دخلت إلى فلسطين، فكانت تصل إسرائيل شحنات الأسلحة في الوقت المناسب، مكنتهم من الوصول إلى نصر حاسم على الجيوش العربية، وفقد العرب والفلسطينيون ميزة التفوق الأولى حيث أنهم فشلوا في التنظيم والتوحد، ولما وضعت الحرب أوزارها في عام 1949 كانت إسرائيل تسيطر على مناطق أوسع من تلك التي حددتها خطة الأمم المتحدة بقرار التقسيم، فكانت تشكل 78% من المنطقة الواقعة إلى الغرب من نهر الأردن، ولم تقم الأمم المتحدة بخطوة جادة لتدويل مدينة القدس التي أصبحت نتيجة للحروب مقسمة بين إسرائيل والأردن، يفصل بين قسميها سياج من الأسلاك الشائكة ومنطقة محرمة، ظل الأردن ومصر يحتلان المناطق المخصصة للدولة الفلسطينية المتبقية ثم ضمت مصر قطاع غزة، وضم الأردن الضفة الغربية من نهر الأردن، وفرّ من فلسطين نتيجة لتلك الحرب حوالي 726.000 من العرب وأصبحوا لاجئين في الدول العربية المجاورة.

في عامي 1948 و1949 دعا قرار الأمم المتحدة رقم 194 إلى وقف القتال وعودة اللاجئين الذي يرغبون بالعودة، وطالب قرار مجلس الأمن رقم 62 بتوقيع اتفاقات هدنة، من شأنها أن تؤدي إلى سلام دائم، وتم رسم حدود إسرائيل على طول الخط الأخضر تبعًا لاتفاقات الهدنة لعام 1949، وظلت الدول العربية ترفض الاعتراف بالكيان الصهيوني في تلك الحدود، ولم تحل مشكلة اللاجئين على الرغم من توقف العمليات الحربية، وقد انهارت المفاوضات لأن إسرائيل لم تسمح بعودة اللاجئين الفلسطينيين إلى أراضيها.

7- حملة سيناء

بعد الإطاحة بالملك فاروق في مصر على أيدي الضباط الأحرار برئاسة محمد نجيب وجمال عبد الناصر، قامت مصر ببعض التحركات نحو السلام مع إسرائيل، ومع ذلك جرى عام 1954 ضبط شبكة تجسس إسرائيلية حاولت تفجير وكالة الإعلام الأمريكية وغيرها من المؤسسات الأجنبية في مصر، بهدف خلق توتر بين الولايات المتحدة ومصر ومنع تقاربهما، وأعلنت إسرائيل تنصل كل من وزير الدفاع "بنحاس لافون" ورئيس الوزراء "دافيد بن غوريون" من المسؤولية عن ذلك الفعل، وألقى كل منهما اللوم على الآخر حتى أصبحت هذه الحادثة تعرف فيما بعد باسم (قضية لافون) و(العمل المشين)، وعلى أثر الحادث ارتابت مصر من النوايا الإسرائيلية وبدأت تتفاوض على شراء كميات كبيرة من الأسلحة، ولما رفض الغرب بيعها أسلحة اتجهت إلى بلدان الكتلة الشرقية وتوصلت إلى اتفاق مع "تشيكوسلوفاكيا" وأغلق الرئيس جمال عبد الناصر مضائق تيران وقناة السويس أمام الملاحة الإسرائيلية، وأيقن الاستراتيجيون الإسرائيليون أن مصر تعتزم خوض حرب أو خوض معركة دبلوماسية بعد أن تكمل تسلحها، وفي المقابل بدأت إسرائيل بالبحث عن مصادر للأسلحة أيضًا، وتوصلت إلى إبرام صفقة أسلحة مع فرنسا، شن الفلسطينيون والمصريون سلسلة من الغارات من قطاع غزة عبر الحدود تبعها غارات انتقامية إسرائيلية متزايدة الشدة، وكان رأي موشيه ديان وزير الدفاع آنذاك أن على إسرائيل شن حرب وقائية قبل أن تستكمل مصر أسلحتها الجديدة.

عام 1956 تآمرت إسرائيل وفرنسا وبريطانيا في خطة لإلغاء تأميم قناة السويس، على أن تغزو إسرائيل سيناء وتقوم بإنزال مظليين بالقرب من ممرات متلا، في حين تصدر بريطانيا وفرنسا إنذارًا لمصر، ثم بعد الإنذار تزجان بالقوات البرية تحت ذريعة الفصل بين القوات المتحاربة، بدأ تنفيذ الخطة اعتبارًا من يوم 29 تشرين الثاني عام 1956 فاحتلت إسرائيل شبة جزيرة سيناء على وجه السرعة، وقد اغضب تصرف إسرائيل وبريطانيا وفرنسا الولايات المتحدة، ودعا قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم 997 إلى الانسحاب الفوري، إلا أن القوات الإسرائيلية ظلت في سيناء عدة أشهر ثم انسحبت بعد ذلك تحت ضغط الأمم المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية، خاصة بعد أن حصلت إسرائيل على ضمانات بأن تظل ممرات متلا الدولية مفتوحة أمام الملاحة الإسرائيلية.

8- بدايات حركة فتح

ياسر عرفات، نشأ كما يقال في قطاع غزة وكان عضوًا في حزب الإخوان المسلمين، وذلك وفقًا لكتاب "بني موريس" (الضحايا الصالحون) الصادر عام 1999، تم تجنيد ياسر عرفات من قبل المخابرات المصرية عندما كان يدرس في القاهرة عام 1955 حيث أسس الاتحاد العام للطلبة الفلسطينيين، وفي عام 1957 انتقل إلى الكويت وعمل بالاشتراك مع خليل الوزير (أبو جهاد) وفاروق القدومي وخالد الحسن ومحمود عباس وغيرهم على تأسيس لجنة فلسطين، سميت لاحقًا "حركة التحرير الوطني الفلسطيني" على غرار جبهة التحرير الوطني الجزائرية، غير أن جهات فلسطينية ورجال فكر على معرفة جيدة بياسر عرفات، يقولون إنه لم يكن يومًا من الأيام فلسطينيًا بل كان مغربيًا في أصله ويرجع منبته إلى منطقة "القدوة" في مراكش، وأن غالبية سكان تلك المنطقة من اليهود المغاربة، وأن والده هاجر من مراكش إلى مصر وحصل على "الباشاوية" من الملك فاروق مقابل عشرة آلاف جنيه مصري في بداية العشرينات، والمسمى ياسر عرفات ولد في مصر وتخرج من جامعاتها وقد اختاره جمال عبد الناصر ليرأس حركة التحرير الفلسطينية، عمومًا البحث في جذور وأصول عرفات لن يوصلنا إلى نتيجة إيجابية حيث أن المسألة أعمق بكثير من معرفة الجذور.

في منتصف أيار عام 1967 بدأ الرئيس المصري جمال عبد الناصر إطلاق التصريحات غير المدروسة، وقالت الإذاعة المصرية من القاهرة: "لقد استمر وجود إسرائيل أكثر مما ينبغي، إننا نرحب بالعدوان الإسرائيلي ونرحب بالمعركة التي انتظرناها طويلاً، لقد حانت ساعة الصفر، جاءت المعركة التي سندمر فيها إسرائيل"، في نفس اليوم طلبت مصر انسحاب قوات الطوارئ التابعة للأمم المتحدة من سيناء وقطاع غزة، ووافق "يوتانت" الأمين العام للأمم المتحدة على سحب القوات في 18 أيار وتم الاعتقاد بأن عبد الناصر كان يأمل في الحقيقة أن لا يسحب "يوتانت" القوات الدولية، وأن يتخذ من وجود قوات الأمم المتحدة ذريعة لعدم فعل أي شيء.

في 23 أيار أغلق ناصر مضائق تيران أمام الملاحة الإسرائيلية، وامتنعت الولايات المتحدة عن الوفاء بالتزاماتها وضمان حق إسرائيل في استخدام الممرات المائية، وتدفق سيل من التصريحات العربية وأعلن رئيس منظمة التحرير آنذاك "أحمد الشقيري": "أنه إذا قامت الحرب فسيكون لدينا امتياز الضربة الأولى ستعيد منظمة التحرير الفلسطينية جميع الصهاينة الذين هاجروا بعد عام 1917 وسنقضي على دولة إسرائيل".

وعلى الرغم من العبارات النارية؛ يرى المحللون السياسيون الإسرائيليون مثل "آفي شاليم" وغيره أن التنافس بين العرب يقف وراء انزلاقهم بلدًا بعد الآخر في الصراع، مع أنهم ما كانوا يعتزمون الحرب، فيقول شاليم: "إن عبد الناصر ما كان ينوي مهاجمة إسرائيل أبدًا، لقد جرَّته إلى الصراع المناورات السوفيتية والمخاوف السورية ورغبته في قيادة العالم العربي" كما أوضح المحللون، لم تستطع إسرائيل المحافظة على تعبئة عامة محددة، وعندما أصبح واضحًا أن مصر لن تلغي حالة الاستعداد للحرب؛ بدأت إسرائيل الهجوم عليها في 5 حزيران 1967.

كان رئيس الاستخبارات الإسرائيلية منذ عام 1963 "مائير أميت"، وفي تلك الفترة كانت المجموعات البشريَّة الاستخباراتية قد تحولت إلى تجمعات استخباراتية إنسانية في شكل فني، ولم تكن توجد وكالة استخبارات أخرى قادرة على مقارنة وكلاء مائير أميت على الأرض في عملية جمع المعلومات، فقد وضع جواسيس بأعداد كبيرة في كل بلد عربي وعبر أوروبا وفي أمريكا اللاتينية وأفريقيا والولايات المتحدة، جواسيس اخترقوا المخابرات الأردنية التي تعتبر المخابرات الأفضل في خدمات الاستخبارات العربية، كما تمكَّن الجواسيس الإسرائيليون من اختراق المخابرات العسكرية السورية الأشد ضراوة وعنفًا، كانوا رجالاً من ذوي الأعصاب الباردة وقرارات فولاذية لا يجرؤ أي روائي على اختراعها، وفور تعيينه مديرًا عامًّا للموساد وزَّع مائير أميت مذكرة داخل الخدمة كانت قد سرقت من مكتب ياسر عرفات يقول فيها عرفات: "الموساد لديه اضبارة عن كل واحد فينا، إنهم يعرفون أسماءنا وعناويننا، نحن نعرف أن في كل ملف من ملفاتنا لديهم صورة واحدة هي نسخة عن كيف نكون بدون كوفية والثانية ونحن نرتدي الكوفية، لهذا فليس هناك صعوبة أمام الموساد الإسرائيلي لمتابعتنا سواء كنا بالكوفية أو بدونها".

جنَّد مائير أميت عددًا غير مسبوق من المخبرين العرب وعمل على أساس المبدأ القائل بإن قانون المعادلات سوف يتمكن من اكتشاف عدد ممن سيكون لهم فائدة، العرب المرتشون قد خانوا مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية، وكشفوا عن أسلحتهم وبيوتهم الآمنة وترتيبات أسفارهم، عن كل فلسطيني مقاتل قام الموساد باغتياله، دفع مائير للمخبر علاوة قيمتها دولار أمريكي واحد. (يا بلاش- ما أرخص الدم العربي).

بالعودة إلى حرب الأيام الستة عام 1967 كان يوجد جاسوس للموساد الإسرائيلي أو مخبرًا داخل كل قاعدة جوية مصرية، وفي المقرات الرئيسية للقيادات الحربية العليا في مصر، لم يكن هناك أقل من ثلاثة في القيادة العامة العليا في رئاسات القاهرة من الضباط الذين تمكن مائير أميت من إقناعهم بالعمل لدى الموساد، كيف فعل ذلك ظل سره المحمي بدقة، هناك بعض الأمور تركت بتلك الطريقة بشكل أفضل.

كل مخبر أو وكيل موساد في المكان أعطي بعض التعليمات مثل "الصورة الكبيرة" التي أرادها إلى جانب التفاصيل الصغيرة مثل: كم بعيدًا على الطيار المصري أن يمشي إلى عنابره أو إلى المطعم ليتناول وجباته؟ لأي مدى يكون الضابط قد توقف بسبب حركة المرور السيئة في القاهرة؟ إلى جانب أسئلة كثيرة ينبغي معرفتها ليمكن استعمالها، أحد الجواسيس تمكن من الحصول على عمل "نادل" جرسون في مطعم الضباط في قاعدة الخط الأمامي للمقاتلات الجوية، كل أسبوع يقوم بتزويد تفاصيل استعدادات الطائرات الحربية المصرية ونموذج حياة الطيارين والفنيين: عاداتهم في تعاطي المشروبات وملذاتهم الجنسية كانت من بين المعلومات السرية التي أرسلت بالراديو إلى تل أبيب.

دائرة الحرب النفسية التابعة للموساد الإسرائيلي عمل فيها علماء النفس على مدار الساعة يحضرون الملفات عن الطيارين المصريين والطواقم الأرضية وعن ضباط الصف ومهاراتهم في الطيران، وفيما إذا كانوا وصلوا إلى رتبهم عن طريق المقدرة أو عن طريق النفوذ، ومن لديهم مشاكل الشرب والمترددين على بيوت الدعارة والذين لديهم ميول نحو معاشرة الأولاد جنسيًا، أثناء الليل راجع مائير أميت الملفات باحثًا عن نقاط الضعف لرجال يمكن يبتزهم للعمل لديه، ولم تكن مهمة مسرّة ولكن الاستخبارات غالبًا ما تكون عملاً قذرًا كما يقول.

بدأت عائلات العسكريين المصريين تستلم رسائل مجهولة مودعة في البريد من القاهرة تحمل تفاصيل ضمنية عن سلوك أحبتهم، المخبرون يرسلون إلى تل أبيب تفاصيل خطوط العائلة التي يؤدي بالطيارين أو طواقم الطيران إلى أن يهبوا في أجازات مرضية، ضباط الصف يتلقون مكالمات هاتفية من مجهولين تحمل معلومات عن زملاء في الحياة الخاصة، مدرس في المدرسة استدعي من قبل امرأة بصوت حنون ليخبره أن الطالبة الابنة كانت سيئة بسبب والدها، ضابط كبير لديه عشيق ذكر سري، المهاتفة أفضت بالضابط إلى إطلاق النار على نفسه، هذه الحملة المسعورة سببت خلافات معتبرة في الحربية المصرية وأثلجت صدر مائير أميت.

كانت إسرائيل منذ عام 1964 تعاني من أزمة اقتصادية خانقة، وقد ارتفعت فيها نسبة البطالة إلى أعلى مستوياتها، وكانت تحاول اجتياز أزماتها الاقتصادية بشتى الوسائل غير أنها لم تفلح في ذلك فقرر الزعماء الإسرائيليون القيام بحرب توسعية كحل وحيد لأزمات الدولة الاقتصادية إذ وجدت أن التوسع على حساب جيرانها العرب هو الحل الامثل لأوضاعها.

كانت إسرائيل تدار من حزب العمل الإسرائيلي وكان رئيس وزرائها آنذاك "ليفي اشكول" الذي قام بزيارة بريطانيا وأمريكا عام 1964 لحشد التأييد والدعم الغربي لإسرائيل في حربها التوسعية التي كانت تعد لها، إلا أن اشكول واجه أزمة في محادثاته في بريطانيا حيث أخبره السياسيون البريطانيون أن منطقة الشرق الأوسط يحكمها في ذلك الوقت جنرالات عسكريون من العرب، وهؤلاء الجنرالات لا يعرفون الكثير في السياسة، ومن المتوقع أن يثيروا حربًا شاملة في الشرق الأوسط، وأن أوضاع بريطانيا الاقتصادية ودعمها للدولار الأمريكي المتدهور في ذلك نتيجة للحرب الفيتنامية لا يمكِّن بريطانيا من دعم إسرائيل في حرب جديدة شاملة في الشرق الأوسط، واقترحوا على اشكول تأجيل تلك الحرب إلى أن تزول أزمات بريطانيا الاقتصادية ليكون في مقدورها الوقوف إلى جانب إسرائيل في حربها مع العرب، من لندن واصل اشكول الرحلة إلى واشنطن حيث لاقى نفس الجواب من البيت الأبيض والاقتراح بتأجيل الحرب لحين تحسن وضع أمريكا الاقتصادي وانتهاء الحرب الفيتنامية. وقد قدر الخبراء الاقتصاديون أن أزمات الغرب سوف تنتهي مع بداية عام 1967، لهذا كان على إسرائيل أن تؤجل تلك الحرب إلى عام 1967.

وخلال الفترة بين عامي 1964 و1967 كانت إسرائيل تسعى إلى إيجاد مبرر للحرب، فاستغلت الهجمات التي كانت تقوم بها الفصائل الفلسطينية داخل الكيان الصهيوني، وقامت بتتبع أثر المهاجمين الذين كانوا يأتون عبر الأردن ومن سوريا أحيانًا وحمَّلت سوريا مسؤولية تلك الهجمات من أجل تأزيم الموقف واستفزاز مصر لإثارة حرب، بمعني أنها نصبت شركًا للعرب، ووقعت مصر فيه بكل بساطة، باعتبار أن مصر كانت ترتبط مع سوريا باتفاق دفاع مشترك، وقامت بغزو سوريا جوًا، واشتبكت مع الطيران السوري بمعركة فقدت سوريا فيها ست طائرات أسقطتها إسرائيل فتأزم الموقف أكثر، مما دفع مصر لمؤازرة سوريا سياسيًا، وجرى تهديد إسرائيل بحرب إبادة، وطلب الرئيس المصري من الأمم المتحدة سحب قوات الطوارئ الدولية من ممرات متلا، وقد نجحت إسرائيل في استفزاز مصر للدخول في حرب هي تريدها وتخطط لها، وفي شهر أيار/ مايو عام 1967 كان واضحًا أن زعيم البلاد الرئيس جمال عبد الناصر يُحضِّر للحرب ضد إسرائيل ردًّا على اعتداءاتها على سوريا، الأمر الذي كانت تريده إسرائيل.

في الساعات الأولى للحرب دمرت إسرائيل أكثر من 400 طائرة مصرية وهي رابضة في مطاراتها الحربية من أجل تحقيق التفوق الجوي العام، واحتلت القوات الإسرائيلية بسرعة شبه

جزيرة سيناء وقطاع غزة، وبدأت المدفعية الأردنية بإطلاق القذائف على القدس في اليوم الأول من أيام الحرب، على الرغم من تحذير رئيس الوزراء الإسرائيلي ليفي اشكول للأردنيين بالبقاء بعيدًا عن الحرب، ثم تقدم فيلق أردني فاستولى على مقر الأمم المتحدة في القدس، وبعد تحذير إسرائيل مرارًا للملك حسين ودعوته إلى وقف إطلاق النار والانسحاب، احتلت إسرائيل الضفة الغربية والقدس، وقامت المدفعية السورية في مرتفعات الجولان خلال الأيام الأولى من الحرب بقصف أهداف في شمال إسرائيل، قررت إسرائيل بعد فراغها من مصر احتلال مرتفعات الجولان على الرغم من الشكوك التي ساورت القيادة السياسية الإسرائيلية.

في شهر حزيران 1967 كان مائير اميت قادرًا على إعطاء قادة سلاح الجو الإسرائيلي الوقت المحدد بالضبط لليوم الذي سوف يوجهون فيه ضربة جوية قاضية ضد القواعد الجوية المصرية، محللوا الموساد أنتجوا خرائط عن الحياة في كافة القواعد الجوية المصرية بين الساعة السابعة والنصف والسابعة وخمس وأربعين دقيقة صباح يوم الخامس من حزيران عام 1967 كانت وحدات الرادارات في حالاتها الأكثر ضعفًا، في تلك الدقائق الخمس عشرة في تلك الليلة كان الموظفون متعبون بعد ورديتهم الطويلة بينما لم تكن بدائلهم التالية قد استنفرت بالكامل وكانت متأخرة غالبًا في الاستلام بسبب الخدمات البطيئة في قاعة المطعم، وجبة الإفطار بين السابعة والربع والسابعة وخمس وأربعين دقيقة صباحًا بعدها يسيرون عادة إلى عنابرهم ليجمعوا معدات طيرانهم، الرحلة تأخذهم عشر دقائق، معظم الطيارين يقضون عدة دقائق أكثر في التواليت قبل الذهاب إلى خطوط الطيران، وصلوا الساعة الثامنة صباحًا بداية اليوم الرسمي وعندها تبدأ الطواقم الأرضية بدحرجة الطائرات من العنابر لتتزود بالوقود والسلاح للدقائق الخمس عشرة التالية تكون الطائرات قد أحيطت بشاحنات الوقود وشاحنات الذخيرة.

تفاصيل مشابهة لرحلة العودة كانت قد أعدت لحركة ضباط الصف في قيادة القاهرة، الضابط المصري يحتاج إلى 30 دقيقة ليصل إلى العمل من بيته في إحدى الضواحي، المخططون الاستراتيجيون لا يكونون غالبًا على مكاتبهم قبل الثامنة والربع صباحًا، عادة يقضون عشر دقائق يجلسون لاحتساء القهوة وفي تبادل الأحاديث، ضابط الصف العادي لا يبدأ بشكل صحيح في دراسة الإشارات الليلية من قواعد المقاتلات حتى الساعة الثامنة والنصف صباحًا تقريبًا.

مائير أميت مدير عام الموساد أعلم قائد سلاح الجو الإسرائيلي أن الوقت الذي يجب أن تنطلق فيه الطائرات وتكون فوق أهدافها من الساعة الثامنة إلى الثامنة والنصف صباحًا، في هذه الدقائق الثلاثين سوف يكون بالإمكان طحن قواعد العدو مع العلم بأن قيادة القاهرة العليا سوف تكون بدون موظفيها الرئيسيين لتقوم بتوجيه القتال الدفاعي.

في الخامس من حزيران عام 1967 ضرب سلاح الجو الإسرائيلي الساعة الثامنة ودقيقة واحدة صباحًا بالضبط بأثر قاتل متسللاً على انخفاض ليقصف ويعاقب بشكل جيد وخلال لحظات تحولت السماء إلى اللون الأسود والأحمر، بتصاعد اللهب من شاحنات الوقود وانفجارات الذخائر والطائرات، وتم حسم الحرب لصالح إسرائيل خلال الدقائق الثلاثين الأولى.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن المخابرات العربية كانت تركز اهتمامها على حماية النظام من أبناء الشعب العربي، دون الالتفات إلى الاختراقات الإسرائيلية لقيادتها، فكان جل اهتمام مخابراتنا في البلاد العربية التركيز على حماية النظام بالتركيز على الرئيس أو الملك وملاحقة من تحوم حولهم

الشبهات بالاعتداء على النظام أو العسكريين الذين يمكن أن يخططوا لانقلابات عسكرية ضد النظام، لهذا تركت الأبواب مشرعة أمام الاستخبارات الإسرائيلية للعمل بهدوء، الأمر الذي أدى بالتالي إلى اختراق كل المؤسسات العسكرية والمدنية، وفي مصر وصل الاختراق إلى رئاسة الجمهورية حيث تمكنت إسرائيل من زرع الجاسوس الإسرائيلي الكبير "باروخ نادل" بانتحاله اسمًا مستعارًا كان "انورين التركي"، ليصل إلى منصب المستشار الخاص للرئيس جمال عبد الناصر للشؤون العسكرية في مصر، ويقضي في هذا المنصب الحساس مرافقًا للرئيس لمدة أحد عشر عامًا انتهت صباح يوم الخامس من حزيران عام 1967، وهو الجاسوس الذي أقام حفلاً للعسكريين والسياسيين في مصر في تلك الليلة، وبعد سكرهم وعربدتهم مع ما وفره لهم من المومسات أوصد عليهم باب الفيلا في حي الزمالك بالقاهرة، وغادر مصر تاركًا إياهم في سبات عميق إلى أن انتهت الحرب، أو قل إلى أن تمَّت هزيمة الأمة العربية واستيلاء إسرائيل على مناطق واسعة من الأراضي العربية الحيوية، والتي لا زالت تحتل معظمها حتى اليوم.

الفصل الثاني عشر : حرب عام 1967 وتغيير معالم الشرق الأوسط

تحدثنا في الفصول السابقة عن الدور الذي لعبه الموساد الإسرائيلي في توجيه الضربة القاضية لسلاح الجو المصري وبداية حرب عام 1967، وفي هذا الفصل أجد من الضروري استعراض الأوضاع الإسرائيلية الداخلية التي سبقت حرب الأيام الستة كما يحلو للبعض تسميتها، وما كان يجرى داخل الكيان الصهيوني من استعدادات ومناقشات ومخاوف، واستعراض الأوضاع الإسرائيلية العسكرية والاقتصادية التي سبقت الحرب.

يقول المعلقون السياسيون والمحللون الإسرائيليون إن حرب الأيام الستة كانت نتيجة حتمية لذروة الأحداث التي بدأت قبل عدة سنوات قبل عام 1967، وبالتحديد من بداية عام 1960 حيث - كما ادعى الإسرائيليون - أن حركة فتح التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية قد بدأت بمهاجمة أهداف عسكرية ومدنية في إسرائيل وعلى الرغم من أنها لم تكن تعتبر الفلسطينيين قوة عدوانية، فقد نشبت الحرب عام 1967، فكانت جولة جديدة من الصراع بين العرب والصهاينة، الكثيرون من الفدائيين الفلسطينيين كانوا يتسللون إلى داخل إسرائيل من الأراضي السورية، مما أدى إلى ازدياد الاحتكاكات على حدود الكيان الصهيوني الشمالية، في السابع من نيسان/ أبريل 1967 اشتبك الطيران الحربي الإسرائيلي مع تشكيل من القوات الجوية السورية، وكان ذلك ردًا على التسلل إلى إسرائيل من الأراضي السورية كما تدَّعي إسرائيل، مما أدى إلى إسقاط ست طائرات سورية، وصدرت على إثر ذلك تحذيرات وتهديدات لإسرائيل قبل ما يسمى يوم الاستقلال، وفي شهر أيار/ مايو من ذات العام كان الانطباع السائد بأن إسرائيل كانت تقترب من مهاجمة سوريا التي ترتبط مع مصر باتفاق دفاع مشترك، في منتصف شهر مايو/ أيار قرر المصريون التدخل لصالح سوريا وبدأوا في نشر قواتهم على طول برية سيناء.

الوصف المختصر لهذا التطور عبَّر عنه رئيس وزراء الكيان الصهيوني آنذاك "ليفي اشكول" في 16 أيار/ مايو 1967، إذ جاء في تقرير له قوله: "في ضوء المعلومات والطلبات التي تصل إلى مصر من سوريا، فيما يخص النوايا الإسرائيلية باتخاذ إجراءات صارمة ضد سوريا، وفي ضوء الإعلانات الإسرائيلية والتحذيرات التي تلت ذلك، وفي ظل الوضع الصعب الذي وجدت مصر نفسها فيه بعد السابع من نيسان عام 1967، قررت مصر أن لا تقعد مكتوفة الأيدي حيال الأوضاع القائمة، وفي حكم ليفي اشكول أن مصر كانت تنوي ردع إسرائيل عن إصدار تهديدات ضد سوريا، وكان التوتر وتأزم المواقف قد امتد إلى الجبهتين السورية والأردنية.

الأحداث التي أدت إلى الحرب، إضافة إلى النتائج، كانت قد جرى بحثها وتحليلها على نطاق واسع، ولكن لكي يدرك المرء لماذا نشبت تلك الحرب فليس من الضروري معرفة خلفياتها الدبلوماسية والعسكرية، فكل ما يحتاجه المرء هي المعرفة الحقيقية عن الإسرائيليين أنفسهم، في عام 1966 كان الإسرائيليون يتعرضون إلى هزات عاطفية وسياسية ومعنوية عنيفة، إذ كان هناك أكثر من 2.3 مليون يهودي وثلاثمائة ألف عربي في البلاد، ومع بداية عام 1966 بدأ

الإسرائيليون يفقدون الثقة بأنفسهم، وسيطرت عليهم روح الكآبة، فكان الشك في كل مكان مما أدى إلى حالة يأس قوية بين الإسرائيليين، وتردد السؤال على ألسنة معظمهم: ماذا يفعل الناس؟ وقد بدا ذلك واضحًا من كاتب الأغاني "حاييم هيفر" بقوله: "ليس كل شيء يسير بشكل صحيح، وليست هناك نقطة من الحظ السعيد، كل شيء يدعو إلى الكآبة وكل واحد حزين، الأشياء لا تعمل جيدًا ولا أحد يعرف لماذا!".

تلك الفترة عاصرها تدهور اقتصادي مخيف في إسرائيل وهبوط حاد جدًا في الهجرة اليهودية إلى فلسطين المحتلة، إضافة إلى الهجرة المعاكسة، حيث ترك عشرات الآلاف إسرائيل بشكل نهائي، الثقافة الاشكنازية الأوروبية في إسرائيل كانت مهددة بتدفق اليهود الشرقيين، المهاجرين من البلاد العربية مما أدى إلى توتر اجتماعي مصحوبًا بالغضب، هذه التطورات عمومًا أدت إلى بروز أزمات عميقة ومؤلمة تتعلق بالهوية اليهودية، ويبدو أن وجهة نظر الصهيونية كانت تسير في اتجاهها البعيد عن تلك التطورات، حيث قال أحد زعماء حزب "المباي" الصهيوني "إننا شعب عاطفي" كثيرون استنتجوا أن المشروع الصهيوني قد فشل كما قالت إحدى الصحف العبرية آنذاك.

خلال الأشهر التي سبقت الحرب كان هناك شعور يسود الإسرائيليين، شعور واسع بأن معظم القيم الأساسية للدولة والتضحيات والوحدة الوطنية قد فقدت معانيها ولم يكن هناك ما يعوضها، وكان هذا الشعور من أساسيات المعتقدات اليهودية، وكان الناس يجادلون كثيرًا، ولم يكن ذلك الجدل سياسيًا بين اليمين واليسار كما هي العادة، ولكنه كان غالبًا امتحانًا سياسيًا للحلم الإسرائيلي ذاته، كثيرون شعروا أن المجتمع الإسرائيلي كان يتفتت تدريجيًا.

الأزمة التي سبقت حرب الأيام الستة جعلت الإسرائيليين مستسلمين تمامًا لمصيرهم المنتظر، وفي هذا قال وزير الزراعة الإسرائيلي "حاييم جفاتي" في مذكراته إنه يشعر بأن إسرائيل كانت على وشك الاختبار الصعب كما لم تكن منذ حرب الاستقلال عام 1948، "كل واحد يفهم أن هذه معركة للموت"، وفي مكتب رئيس الوزراء سمع "حاييم جفاتي" أن الاتحاد السوفيتي فيما يبدو قرر أن يذهب إلى نهاية الطريق وأنه لم يعد مترددًا في تدمير إسرائيل، ولكن لم يكن هناك أي أساس لتقرير كهذا في الحقيقة، إسرائيل لم تترك الإشاعات تمر دون ملاحظة، الجنود العائدون إلى منازلهم في عطلة نهاية الأسبوع تحدثوا عن تدهور المعنويات في الجيش، وقالوا بإن هناك شائعات أن إسرائيل غير مستعدة للحرب، ولا توجد ثقة بأنهم قادرون على خوض حرب مع عدوهم، وقد كتب الوزير "حاييم جفاتي" أن الخوف ليس له قاعدة في الحقيقة ولكن يبدو أن الحرب أصبحت حتمية، وبما أن جفاتي شارك في اجتماع مجلس وزراء إسرائيل حيث قاطع رئيس أركان الجيش الإسرائيلي المجتمعين "اسحق رابين" قائلاً: إن الطائرات المصرية الأربعة السوفيتية الصنع قد اخترقت المجال الجوي الإسرائيلي وتمكنت طائرتان منها فيما يبدو تصوير مفاعل ديمونة النووي.

الاستعدادات للحرب ذكَّرت الكثير من الإسرائيليين بالمحرقة النازية "فكيف يكون ذلك؟"، طرحت هذا السؤال امرأة يهودية في رسالة منها إلى زميل دراسة لها سابق يعيش في مدينة لوس انجيلوس الأمريكية، وأعادت إلى الأذهان أنه لم تمضِ خمس وعشرون سنة على الحرب العالمية الثانية، وأن المسألة تحدث مرة ثانية؟ وفي رسالة إلى الرئيس الأمريكي "ليندن جونسون" كتب افرايم إيفرون الدبلوماسي الإسرائيلي في واشنطن، الذي جاء إلى البيت الأبيض يطلب دعم الولايات المتحدة لكيانه، والدموع تسيل على وجنتيه (طبعًا كانت دموع التماسيح).

عند نشوب الحرب قضى الوزير "حاييم جفاتي" الساعات الأولى في ملجأ مع جيرانه، وفي اليوم التالي كان كل شيء قد انتهى، فهو يقول في هذا: "كان أعظم يوم في حياتنا وربما كان أعظم يوم في تاريخ الشعب اليهودي، معظم الإسرائيليين اعتقدوا أن جيش الدفاع الإسرائيلي قد أنقذهم من الدمار، كثيرون وصفوا النصر على العرب بأنه "المعجزة الإلهية" وكأنهم قفزوا من الجحيم، وأنهم ولدوا من جديد في قمة الخلاص، كتبت صحيفة يديعوت احرنوت في الافتتاحية: "لقد كانت يدّ الله مع شعبه إسرائيل، إن مشاعر يوم القيامة قد اختفت وكان التاريخ يبدأ مرة أخرى".

قبل بضعة أشهر من الحرب كان موشى دايان وزير الدفاع الإسرائيلي في زيارة لفيتنام وعند عودته من الزيارة قال "الأمريكيون يكسبون كل شيء في فيتنام، ما عدا الحرب"، فليس بعيدًا بعد حرب حزيران عام 1967 كان يمكن أن يقال العكس عن الإسرائيليين، إنجازاتهم الوحيدة كانت بطبيعة الحال كسب الحرب، لا شيء تم اكتسابه باحتلال المناطق التي سقطت بأيدي الإسرائيليين في الحرب، والتي انزلقت بعيدًا بسبب الخوف الذي نجم عن سكرات النصر. عواطف الإسرائيليين قادتهم إلى العمل ضد مصالحهم، نوع من السلوك ضد المصلحة الوطنية يرجع الفضل فيه غالبًا للعرب، مما دفع السفير البريطاني أن يكتب بإعجاب كبير إلى رؤساءه في لندن: "الشيء الحسن أنه كيف يستطيع الإسرائيليون أن يتصرفوا بطريقة أفضل كثيرًا من العرب"، لم يكن هناك في الحقيقة أي تبرير للخوف الذي سيطر على الإسرائيليين قبل الحرب، ولا من أجل الشعور بالنشوة التي سادت بعد الحرب، والتي تجعل قصة إسرائيل في عام 1967 صعبة الفهم.

لقد بدأت مرحلة الركود الاقتصادي الأولى في إسرائيل مع بداية عام 1964 وفي عام 1966 وصل الاقتصاد الإسرائيلي إلى أقصى درجاته ركودًا، حيث عكس الوضع الاقتصادي في انتقاليته من مرحلة المتطلبات الملحة إلى مرحلة الشلل، خصوصًا في مجال البطالة، ولم يكن هذا التحول قد جاء مفاجئا حيث كانت جذوره تنمو عميقة قبل العام 1964، ولكن الحملة الانتخابية كانت قد أخفته نوعًا قبل الانتخابات، كان آلاف الإسرائيليين يحصلون على ترقيات في وظائفهم ومرتباتهم الشهرية، والتي كان معظمها يتآكل في موجة ارتفاع الأسعار المحمومة التي واجهتها البلاد بعد ذلك مباشرة، لقد كان معدل إنفاق العائلة حوالي 735 ليرة إسرائيلية شهريًا، وفي عام 1966 ارتفع معدل الإنفاق الشهري للعائلة اليهودية إلى 820 ليرة إسرائيلية.

لهذه الأسباب كان لابد من الدخول في حرب مع العرب تكون نتائجها توسعية بقدر المستطاع، من أجل انفراج الأزمات الاقتصادية الحادة التي تواجهها إسرائيل، فكانت حرب الأيام الستة وكانت الهزيمة العربية الثانية في الصراع القائم بين العرب واليهود في فلسطين، وعلَّق الكثير من المحللين السياسيين الغربيين بأن تلك الحرب قد غيرت وجه الشرق الأوسط، ونحن مع هذا الرأي بغض النظر عن التسميات التي أطلقها العرب على تلك الحرب، (النكسة – الجولة الثانية في الحرب العربية الإسرائيلية – الكبوة -.. إلى أخر هذه المسميات)، ولكن علينا أن نعترف بأنها كانت هزيمة عربية نكراء بكل المقاييس، لا زلنا حتى كتابة هذه السطور نعاني من آثارها وفواجعها، وفعلاً لو لم تكن تلك الحرب لما سقط العراق العربي في أيادي الأمريكيين والصهاينة! ولو لم تكن تلك الحرب اللعينة لم انجر الفلسطينيون لتوقيع اتفاقات اوسلو التعيسة، ولو لم تكن تلك الحرب لكان العالم العربي في أوضاع أفضل من النواحي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ولما كانت غزة قد حوصرت وجوِّع شعبها الفلسطيني، ولكن كانت تلك الحرب قد غرست بذور الوعي عند أبناء الأمة العربية.

علينا ألا نقلد النعام في سلوكنا السياسي إزاء تلك الهزيمة الكبرى، إذ أن من واجبنا أن نبين وندون في سجلات التاريخ ما أصابنا من ويلات وكوارث لتطَّلع عليها الأجيال القادمة من أمتنا، فهل يجوز أن نستمر في الكذب والخداع على أجيالنا في تسجيل هزائمنا العسكرية والنفسية على أنها انتصارات، كما حدث في حرب عام 1967؟ علينا أن نعترف بهزائمنا وأن نعترف بتقصيرنا في فهم خبث ومكر عدونا، باعتباره عدوًا فريدًا في نوعه تقوم حياته على الفساد في الأرض والدسائس والمؤامرات.

في الباب الخامس في هذا الكتاب سوف استعرض الأوضاع التي سبقت وتلت حرب الأيام الستة، وما كان يجرى على المستويين السياسي والشعبي في إسرائيل، وكذلك على المستوى الرسمي في ما سمي دول الطوق، وقد رأينا أن نفرد بابًا خاصًا بهذا الموضوع حيث أنه شائك وطويل إضافة إلى تعقيداته.

في نهاية الحرب أصدرت الأمم المتحدة القرار 242، وَدَعت إلى مفاوضات سلام دائم بين الطرفين وإلى انسحاب إسرائيل من الأراضي العربية التي احتلتها عام 1967، إلا أن إسرائيل لم تستجب لهذا القرار ورفضت الانسحاب من الأراضي العربية حيث كانت أهدافها من الحرب حل أزماتها الاقتصادية بالتوسع في البلاد العربية.

بعد الهزيمة العربية عام 1967 بدأت الجماعات المتدينة في إسرائيل بالتحريض على ضم الضفة الغربية ومرتفعات الجولان واستيطانها، غير أن عددًا من الوزراء الإسرائيليين من بينهم بنحاس ولكمان أران، إضافة إلى حزب العمل وياكوف شمشون شابيرا من الحزب الوطني الديني، ابدوا مخاوفهم إزاء المشكلات الديموغرافية التي من شأنها أن تنشأ بسبب ضم هؤلاء العرب، وأشار شابيرا أيضًا إلى أن ضم الضفة الغربية يُعطي مصداقية للمزاعم القائلة بإن إسرائيل ليست إلا مشروعًا استعماريًا، وكان مناحيم بيغن وإيغال ألون يؤيدان عدم الضم، واقترح موشيه ديان منح حكم ذاتي لعرب الضفة لكن مناحيم بيغن عارض هذه الخطة، رغم أنه مال إليها في وقت لاحق، كان بيغن يرى أن من الممكن استقدام أعداد كبيرة من اليهود إلى إسرائيل للاستيطان في المناطق، مع منح العرب حق الاختيار بين الرحيل أو أن يكونوا مواطنين في دولة إسرائيل.

أما الموساد الإسرائيلي فقد اقترح إقامة دولة فلسطينية تحت الحماية الإسرائيلية، وذلك ورد في تقرير مؤرخ في 14 حزيران 1967 لكن هذا الاقتراح لم يلقَ قبولاً، وتقول بعض المصادر أن موشيه ديان استقبل في صيف 1967 وفدًا من الأعيان الفلسطينيين، واقترح عليهم حكمًا ذاتيًا في الضفة الغربية ولكن الوفد رفض هذا الاقتراح، وبحلول شهر تموز عام 1967 طرح إيغال ألون خطته المعروفة باسم "خطة ألون" التي دعت إلى احتفاظ إسرائيل بأجزاء كبيرة من الضفة الغربية في أي تسوية سلمية، وذلك لأسباب استراتيجية لإسرائيل، فجرى بناء عدد متزايد من المستوطنات، مع اتضاح أن الدول العربية لن تقدم على مفاوضة مع إسرائيل، ثم جاءت قمة الخرطوم في آب وأيلول عام 1967، فكانت نقطة انعطاف حاسمة إذ بدا أنها تغلق الباب أمام إسرائيل لاحتمال أي تفاوض أو الاعتراف بها بأي شكل من الأشكال، لكن لعل قرارات قمة الخرطوم ما كانت عقبة كأداء في الوصول إلى السلام، ففي عام 1970 قيل إن الملك حسين عرض السلام مقابل انسحاب إسرائيلي من الضفة الغربية، وعودة الأماكن المقدسة، غير أن إسرائيل رفضت هذا الاقتراح رفضًا قاطعًا.

منذ أن جاء حزب الليكود المعارض للحكم في إسرائيل عام 1977 إلا وأصبح توسيع المستوطنات سياسة رسمية إسرائيلية، وظل الليكود في الحكم إلى أن أبرم اتفاقيات اوسلو وبحلول عام 2003 بلغ عدد الإسرائيليين المستوطنين في الضفة الغربية وغزة 220.000 مستوطن، إضافة إلى 200.000 استوطنوا في منطقة القدس ومحيطها الذي احتلته إسرائيل عام 1967، كما أن 15000 مستوطن يهودي سكنوا في مرتفعات الجولان السورية التي استولت عليها إسرائيل من سورية.

حرب الاستنزاف

بعد حرب الأيام الستة؛ شن الرئيس المصري جمال عبد الناصر حرب استنزاف في منطقة قناة السويس، وفي إسرائيل توفي رئيس الوزراء ليفي اشكول وحلت محله المتشددة غولدا مائير، جرت حرب في مواقع ثابتة بين الجانبين، راحت تزداد دموية، وتحت ضغط الولايات المتحدة جرى توقيع اتفاق ثاني لوقف إطلاق النار في آب 1970، أعلن فيه الجانبان رسميًا قبولهما قرار الأمم المتحدة رقم 242، وتوفي جمال عبد الناصر في نهاية سبتمبر من العام 1970، وحل محلة الرئيس محمد أنور السادات الذي واصل التقلب بين عرض خطط السلام والتهديد بالحرب، وأعلن بأن يكون عام 1972 عام الحسم، وكانت إسرائيل على قناعة بتفوقها العسكري ولم تفكر بأن مصر سوف تقوم بمهاجمتها إلا بعد أن تعيد بناء جيشها، من هنا بدأ السبيل الأفضل وهو الانتظار ريثما تقبل الدول العربية الشروط الإسرائيلية.

حرب أكتوبر (حرب يوم الغفران بالتسمية الإسرائيلية)

في تشرين الأول عام 1973 شنَّت مصر وسورية حربًا جديدة على إسرائيل، اجتاز المصريون قناة السويس بعيد ظهر يوم السادس من تشرين الأول (يوم الغفران)، وهو أقدس أيام السنة لدى اليهود، وكانت الحكومة الإسرائيلية قد تجاهلت إنذارات استخباراتية متكررة لأنها كانت مقتنعة بأن أسلحة إسرائيل تمثل رادعًا كافيًا في وجه أي مهاجم، لقد أعلن السادات مرتين عن نيته لتوجيه ضربة لإسرائيل من قبل اعتزامه شن الحرب، لكن شيئًا لم يحدث.

فوجئ الإسرائيليون من أكثر من ناحية واحدة تدفق أعداد كبيرة من القوات لمصرية عبر قناة السويس دون مقاومة، وبدأت في إقامة رأس جسر لها، وكان الجيش الإسرائيلي قد أهمل مهام التدريب والصيانة الرئيسية اعتمادًا على ضعف الجيوش العربية، والمصرية بالذات، وتبين لإسرائيل عندما قامت بحشد قواتها أن نقصًا في المعدات وأن جاهزية سلاح الدبابات منخفضة، أما سلسلة المخافر المبنية لتكون مراصد على امتداد قناة السويس (خط بارليف) استخدمت بدلاً من ذلك لتكون تحصينات تمنع تقدم المصريين إلى أطول وقت ممكن، كانت إسرائيل تراهن بل تعتمد على تفوق سلاحها الجوي لجعل الموازين في ساحات القتال تميل إلى صالحها، لكن سلاح الجو الإسرائيلي غدا عديم الجدوى بسبب فعالية صواريخ سام الروسية.

في هذه الأثناء تركت إسرائيل أقل من 200 دبابة لحراسة مرتفعات الجولان في مواجهة قوات سوريا، وحولت دبابتها من الجولان إلى المعركة في جنوب البلاد وسيناء، أما عبور المصريين قناة السويس أدى أيضًا إلى استعادة قطاعًا من شبة جزيرة سيناء، وتمكنت سوريا من الاستيلاء على جزء من الجولان، إلا أن إسرائيل تمكنت من استرجاعه فيما بعد، وفي جبهة القناة تمكن الجيش الإسرائيلي من محاصرة الجيش الثالث المصري في قناة السويس (الدفرسوار)، خسرت فيها إسرائيل كما تدَّعي 2700 جندي إسرائيلي، وهو العدد الأكبر في أي حرب خاضتها مع العرب، كما أدت نتائج الحرب إلى استقالة غولدا مائير من رئاسة الوزراء مفسحة الطريق أمام إسحق رابين الذي كان سفير إسرائيل إلى الولايات المتحدة الأمريكية وكان قبل ذلك رئيس أركان جيش الدفاع الإسرائيلي.

في أعقاب حرب عام 1967 أعلنت الدول العربية وبقيادة المملكة العربية السعودية حظرًا على إمدادات النفط إلى الولايات المتحدة وهولندا خاصة، بسبب دعمهما لإسرائيل في عدوانها عام 1967، وإلى تخفيض إنتاج النفط بنحو 340 مليون برميل يوميًا، الأمر الذي أدى إلى ارتفاع أسعار النفط من 3 دولارات للبرميل إلى 11 دولار، بسبب الاندفاع إلى تخزين النفط إضافة إلى النقص الفعلي، وكان النفط المباع إلى البلدان الأوروبية يأخذ طريقه في النهاية إلى الولايات المتحدة وهولندا، لكن خطوط الإمدادات صارت طويلة وصارت الأسعار تزداد من يوم لآخر.
ولعل هذا خلق حافزًا كما يقول المراقبون السياسيون للتحركات الدبلوماسية الأوروبية التي سعت لاسترضاء العرب، ولعل ذلك كان سببًا في دعوة ياسر عرفات إلى مخاطبة الجمعية العامة للأمم المتحدة، ومنح منظمة التحرير الفلسطينية مقعدًا دائمًا بصفة مراقب في الأمم المتحدة إلى اتخاذ قرار بأن "الصهيونية شكل من أشكال العنصرية في عام 1975".

والحقيقة أن ارتفاع أسعار النفط كانت لأسباب أخرى بعيدة كل البعد عن الحظر والحرب، لا زالت أسرارها غامضة حتى الآن، غير أن هناك اعتقادًا بأن الاحتكارات النفطية الأمريكية قامت بإرسال وفود إلى الدول النفطية، بدأت بزيارة نيجيريا باعتبار نيجيريا تُصدِّر الزيت الخام الخفيف، والذي يسمى بالإنكليزية Light crude Oil، وهو نوع النفط الذي تتحدد في ضوء سعره أسعار الأنواع الأخرى من النفط الخام، تمامًا مثل الذهب الذي تتحدد أسعار العملات العالمية على ضوء أسعاره، وكانت نيجيريا مدانة للبنوك العالمية بحوالي 50 مليون دولار في ذلك الوقت، وغير قادرة على تسديد فوائد ذلك الدين، اقترح الوفد على الرئيس النيجيري إعفاء بلاده من الدين البالغ 50 مليونًا وإعطائه 50 مليونًا إضافية بشرط أن يرفع سعر النفط الخفيف إلى رقم خيالي بالمقارنة مع الأسعار التي كانت سائدة، فوافقت نيجيريا على ذلك الاقتراح، وبالمثل واصل الوفد زياراته للدول النفطية العربية، ووقعوا اتفاقات سرية معها لرفع أسعار النفط، وافقت معظم الدول العربية على عرض الاحتكارات النفطية العالمية، كما وقَّعوا اتفاقيات حول المبالغ الضخمة التي ستترتب عن الارتفاعات، والتي ستؤول للدول النفطية نتيجة الارتفاع الحاد بالأسعار، على أن تودع تلك الأموال في البنوك العالمية مقابل شهادات إيداع لمدة 30 عامًا، ويسمح للدول النفطية بموجب تلك الاتفاقيات سحب الفوائد فقط، وهي كافية للإنفاق على مشاريع الدول النفطية بل تزيد عن احتياجاتها.

وكانت الخطة الصهيونية تقضي بأن تودع الأموال في البنوك العالمية التي تملكها المنظمة الصهيونية لمدة ثلاثين عامًا دون السحب منها، وأن تقوم البنوك العالمية بتأسيس بنوك محلية تسمىHolding Banks، تستثمر الأموال النفطية فيها، مع ترتيب منح قروض لدول العالم الثالث بتسهيلات كبيرة، مع الإيحاء لتلك الدول بأن تنفق تلك الأموال في مشاريع لا فائدة منها، والصرف على رؤساء تلك الدول واحتفالاتهم وأعيادهم الشخصية، ومد طرق محلية لا يستفاد منها، وعند الاقتراب من الثلاثين عامًا المتفق عليها يعمل الإعلام الصهيوني على الضرب على وتر "ديون العالم الثالث" وعدم قدرة تلك الدول على تسديد الفوائد، فكيف لها أن تسدد المبالغ الرئيسية المدانة بها، وهنا برزت مشكلة ما يسمى ديون العالم الثالث، وكان مخططًا أن تبدأ تلك البنوك المحلية (الهولدنغ بانكس) بإعلان إفلاسها، وإعلان الإفلاس في أمريكا يحل البنك من التزاماته وليس هناك قانون جزاء للإفلاس، ولا عقوبات على الجهة المعلن إفلاسها في الولايات المتحدة الأمريكية، وفي هذه الحالة تقول البنوك العالمية للعرب لقد استثمرنا أموالكم في بنوك محلية وقد أفلست هذه البنوك ولا نستطيع عمل أي شيء لكم، وباي باي حبايبنا أيها العرب.

تنبَّه إلى هذه المؤامرة المغفور له جلالة الملك فيصل، ملك المملكة العربية السعودية بعد أن كان من ضمن الموقعين على تلك الاتفاقيات الخبيثة، وقد نبهه صديق له إنكليزي يدعى "جوناثان ماي"، وكان من أكبر خبراء المال في العالم، تحادث مع الملك فيصل وأبلغه أن بلاده وقعت في مصيدة صهيونية كبرى، فاستدعاه الملك فيصل إلى الرياض للتباحث معه في إيجاد مخرج من المأزق، وتم الاتفاق فيما بينهما على تأسيس بنك فدرالي عربي يصدر عملة خليجية موحدة يباع النفط بتلك العملة، فأوكل الملك فيصل إلى جوناثان ماي هذه المهمة وطلب منه الإسراع في تأسيس البنك والعملة الخليجية، وعند عودة جوناثان ماي إلى بريطانيا لاحقته الحركة الصهيونية لتصفيته جسديًا، إلا أنه فر من هناك إلى الولايات المتحدة الأمريكية، فوجد في انتظاره في مطار نيويورك من يقتاده إلى زنزانته في سجن منسوتا دون توجيه تهمة له، وبقي في السجن مع حرمانه من

الاتصال مع العالم خارج السجن ولا يُعرف مصيره بعد ذلك، ويعتقد أنه قضى نحبه في السجن ودُفن سرًا، وفي الناحية الثانية تم تصفية صاحب فكرة العملة الخليجية الموحدة وبيع النفط بها، تمَّت تصفيته على أيدي أحد أفراد عائلته وأشاعوا أنه قتل لأنه قال سوف أصلي في القدس، وهذه مسألة بعيدة كل البعد عن الحقيقة التي ظلت غامضة حول مقتله، كما أن بعض الأمراء في منطقة الخليج قد شارك في التآمر مع الأمريكيين على تصفية الملك فيصل رحمه الله، وفي هذه المرحلة بالذات لا نريد كشف المزيد عن تلك المؤامرة ولا عن تفاصيلها، لأن تلك التفاصيل تشمل بعض الزعماء العرب في دول النفط الخليجية، برغم أنهم لم يعودوا على قيد الحياة الآن فقد دفنت أسرار تلك المؤامرة على حياة الملك فيصل معهم.

السلام مع مصر

أثمرت الدبلوماسية المكوكية التي اعتمدها وزير الخارجية الأمريكي (عرَّاب الصهيونية) هنري كيسنجر بعد ذلك؛ انسحابات إسرائيلية جزئية من سيناء، بموجب شروط أقل من تلك التي كان الحصول عليها ممكنًا قبل الحرب، وكان زعيم المعارضة في إسرائيل "مناحيم بيغن" مُصِرًّا على معارضته أي شكل من أشكال الانسحاب، لكن مصر بزعامة أنور السادات وإسرائيل بزعامة مناحيم بيغن وقعتا عام 1978 على اتفاقيات كامب ديفيد، التي كانت إطارًا إلى معاهدة السلام عام 1979، ثم انسحبت إسرائيل من شبة جزيرة سيناء عام 1982 وفق شروط أملتها إسرائيل على مصر وأهمها تزويد إسرائيل بالغاز الطبيعي بأسعار متدنية وأن تكون سيناء منطقة منزوعة السلاح.

الفصل الثالث عشر : المؤثرات التي طرأت على النزاع الإسرائيلي الفلسطيني

في أعقاب حرب الخليج نشط الضغط الأمريكي المتواصل، وتفكك الاتحاد السوفيتي والميول في الرأي العام العالمي، أدت هذه العوامل إلى الدعوة إلى المفاوضات الرامية إلى تسوية للقضية الفلسطينية المزمنة، وفي الأعوام 1993 و1995، وقعت منظمة التحرير الفلسطينية مع إسرائيل إعلان أوسلو للمبادئ، واتفاقية أوسلو المرحلية، مما أدى إلى السماح بإقامة سلطة فلسطينية يفترض أن تكون كيانًا مؤقتًا يملك صلاحية التفاوض مع إسرائيل وحكم المناطق التي قد تنسحب منها إسرائيل في كل من الضفة الغربية المحتلة وقطاع غزة.

هذه الاتفاقيات التي وقعت بين ياسر عرفات وإسرائيل والتي عرفت باتفاقات أوسلو أدَّت إلى سماح إسرائيل بدخول ياسر عرفات وأعضاء من حركته الفتحاوية إلى فلسطين وأقام عرفات في غزة كما أدت إلي إيجاد شرخ في الوضع الفلسطيني، حيث أن حركة فتح وهي التي تسيطر على منظمة التحرير انفردت في التوقيع على اتفاقية أوسلو، مما جعل الفصائل الفلسطينية الأخرى التي تشكل منظمة التحرير الفلسطينية لا تقبل بتلك الاتفاقية الإسرائيلية الفتحاوية، وكانت إسرائيل تهدف من توقيع تلك الاتفاقية إلى وقف أعمال العنف في الأراضي المحتلة خصوصًا الانتفاضة الفلسطينية التي لم تكن قادرة على وقفها، وقد رأت أن حركة فتح تستطيع وقف الانتفاضة الفلسطينية وأن تمنع أعمال العنف ضد إسرائيل. استطاعت حركة فتح فعلاً أن توقف الانتفاضة الفلسطينية، غير أنها لم تتمكن من وقف أعمال العنف ضد الاحتلال، برغم أن قوات الاحتلال قامت بانسحابات جزئية من داخل المدن الفلسطينية وبقيت تحاصر تلك المدن من خارجها، أما المساحة التي بقيت تحت إدارة حركة فتح فقد كانت حوالي 8% من الأرض الفلسطينية.

استمرت أعمال العنف ضد الاحتلال الإسرائيلي برغم ما فعله عرفات وحركته للسيطرة على الموقف ووقف تلك الأعمال بموجب الاتفاقية الموقعة بينه وبين إسرائيل، وكان عرفات قد لجأ إلى أسلوب الخطابة الشعبية في الفلسطينيين، على غرار خطابات الزعيم المصري الراحل جمال عبد الناصر ظنًّا منه أن ذلك الأسلوب يجعل الجماهير الفلسطينية تلتف حوله، فقد بدأ في تقليد شخصية عبد الناصر وحتى أسلوبه في الخطابة العشوائية الخالية من المنطق ومن قواعد اللغة العربية، وقد فاته أن خطابات الرئيس عبد الناصر الملهبة جاءت في وقت كانت الشعوب العربية تتطلع فيه إلى مخلص يخلصها من الهزيمة التي منيت بها الجيوش العربية عام 1948 في فلسطين، فعبد الناصر الذي جاء نتيجة انقلاب عسكري في مصر، وألغى الملكية وأعلن مصر جمهورية جعله رمزًا سياسيًا، ليس للشعب العربي في مصر فحسب بل لكافة الشعوب العربية، وبقى يتربع على هذا العرش دون منازع إلى عام 1967 حيث حلت الهزيمة الكبرى بالأمة العربية ولم يعد عبد الناصر ذلك الرمز المقدس لدى الكثيرين في مصر وفي البلدان العربية الأخرى، لهذا لم يعد أسلوب الخطابة الشعبية ملفتًا للأنظار كما كان في الفترة التي سبقت عام 1967، ولم يتمكن عرفات من تقمص شخصية عبد الناصر على الإطلاق برغم محاولاته الجادة.

لهذا استمرت أعمال المقاومة الفلسطينية للاحتلال الإسرائيلي، وأصبح الشعب الفلسطيني يقاتل على جبهتين، الجبهة الإسرائيلية من جهة ويقاوم السياسة القمعية والتعسفية التي استعملتها السلطة الفلسطينية ضد الشعب الفلسطيني في الداخل من جهة أخرى، وقد بلغت إجراءات السلطة إلى درجة أن السجون الفلسطينية امتلأت بالشباب، وفي منطقة غزة اشتد الخلاف بين السلطة الفلسطينية وبين فصائل المقاومة وفي مقدمتها حركة حماس الإسلامية، أدت بالتالي بياسر عرفات إلى ترك غزة والإقامة في مبنى مقاطعة رام الله، وبعدها فرضت إسرائيل على عرفات الإقامة الجبرية في مبنى المقاطعة في رام الله وكانت طريقة لم يسبق أن استعملت من قبل، مما جعل الكثير من الفلسطينيين يعتقدون أن الرئيس عرفات رهن الاعتقال الإسرائيلي، وبقي عرفات عبئًا على إسرائيل إلى أن تخلصت منه بدس السم له في الطعام وانتهت أسطورة عرفات، واستبدل بشخصية كان واحدًا من مهندسي اتفاقية أوسلوا اللعينة وهو محمود عباس، رئيس السلطة الفلسطينية المنتهية ولايته منذ زمن بعيد ولكنه لا زال متمسكًا بالكرسي، وتقوم إسرائيل بحمايته وحماية سلطته من الشعب الفلسطيني في الداخل.

بتاريخ 5 تشرين الثاني عام 1995 اغتيل رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق رابين على يد متعصب يهودي اسمه إيغال عامير، وذلك أثناء مسيرة تدعو إلى السلام، ولما وجَّهت المحكمة سؤالاً لعامير لماذا قام باغتيال رئيس الوزراء الإسرائيلي أجاب بكل صراحة أن رابين كان يدعو للسلام مع العرب وأنه ينوي إعادة القدس الشرقية للفلسطينيين وإعادة مرتفعات الجولان السورية إلى السوريين، وهذا يعني أنه يعجل في حدوث حرب "الارمغادون" الوارد ذكرها في التوراة التي سوف تهزم فيها إسرائيل، وأضاف: "قمت بقتل رابين من أجل تأخير وقوع تلك الحرب اللعينة وتأجيل هزيمة إسرائيل".

حل محل إسحق رابين شمعون بيريز الذي أشرف على توقيع اتفاقية أوسلو، غير أن تزايد التفجيرات الاستشهادية التي قامت بها حركة حماس داخل الخط الأخضر أدى بالتالي إلى خسارة حكومة العمل برئاسة شمعون بيريز في الانتخابات، التي جرت في أيار 1996 وتولى بنيامين نتنياهو من حزب الليكود رئاسة الوزارة الإسرائيلية الذي كان من أشد معارضي أوسلو، وفور توليه السلطة في إسرائيل قام نتنياهو بمحاولة إتمام مشروع سمَّاه مشروعًا سياحيًا تحت الأرض في القدس، الأمر الذي أثار جدلاً واسعًا، وكان المشروع الإسرائيلي عبارة عن فتح بوابة تصل بين نفقين، وكان الهدف من ذلك أن هذه البوابة تُعرِّض أساسات المسجد الأقصى للخطر وهذا ما سبب عنفًا استمر عدة أيام، وكانت حصيلته إصابات كثيرة بين الفلسطينيين.

وبرغم معارضة نتنياهو لعملية أوسلو وقَّعت إسرائيل مع السلطة الفلسطينية في كانون الثاني 1997 اتفاقية انتقالية بشأن مدينة الخليل، انسحب بموجبها الجيش الإسرائيلي من بعض أجزاء مدينة الخليل، وبقي خارج المدينة يحيط بها من كل جانب، كما بقي في جزء من المدينة يضم حوالي 500 مستوطن يهودي يعيشون وسط المدينة الفلسطينية تحت الحماية الإسرائيلية، ثم نتجت عن مفاوضات "واي ريفر" في تشرين الأول 1998 اتفاقيات نصت على مزيد من الانسحابات الإسرائيلية إلى جانب تجديد الالتزام الفلسطيني بمنع ما تسميه إسرائيل وحركة فتح الإرهاب الفلسطيني، ولكن أحكام هذه الاتفاقيات لم تطبق من قبل إسرائيل، حيث أن حركة فتح لم تتمكن من منع المقاومة ضد الاحتلال الإسرائيلي كما أن قوات الاحتلال لم تنسحب من المناطق التي نصت عنها تلك الاتفاقيات، أي أنها كانت اتفاقات حبر على ورق، في أيار 1999 خسر نتنياهو

الانتخابات فغادر منصبه وتولى رئاسة الوزراء رئيس حزب العمل "إيهود باراك"، وواصل باراك برامج الاستيطان لكنه تعهد بمواصلة المفاوضات السلمية بنشاط، حاول باراك في البداية تجديد المفاوضات مع سوريا، لكن الرئيس السوري حافظ الأسد رفض عرض قدم إليه من خلال الرئيس الأمريكي كلينتون، وكان من شأن هذا العرض أن تتنازل إسرائيل عن جزء من مرتفعات الجولان بدون أي منفذ على بحيرة طبريا. تحوَّل بعد ذلك اهتمام باراك نحو الفلسطينيين وأعلن أنه سوف ينفذ أحكام اتفاقات واي ريفر، بسحب القوات الإسرائيلية العسكرية المنصوص عنها في الاتفاقية وبدأت المفاوضات حول ما يسمى التسوية النهائية، عرضت إسرائيل إعادة قرية أبو ديس وهي إحدى ضواحي مدينة القدس لتكون عاصمة فلسطينية، غير أن الحكومة الإسرائيلية عادت وسحبت هذا العرض نظرًا لاندلاع الانتفاضة الثانية (انتفاضة الأقصى)، عام 2000 انتهت مفاوضات الحل النهائي في كامب ديفيد بالولايات المتحدة الأمريكية إلى حالة استعصاء في تموز 2000، حيث أصر الفلسطينيون على حق اللاجئين في العودة إلى إسرائيل، واعتبرت إسرائيل أن هذا من شأنه إيجاد أغلبية عربية فيها، فأصروا على ضم أجزاء رئيسية من المناطق الفلسطينية وعلى الإبقاء على القسم الأكبر من المستوطنات، ولم يعرضوا إلا صيغة محدودة للدولة الفلسطينية، واعتبر الفلسطينيون أن العروض التي تم تقديمها في كامب ديفيد لا تتضمن إلا كانتونات أو مناطق عزل (غيتو) تتشكل منها الدولة الفلسطينية، ولكن دينس روس المبعوث الأمريكي للسلام قدَّم في كتابه "السلام المفقود" الصادر عام 2004 خريطة يفترض أنها تعكس الاقتراح التوفيقي الذي طرحه الأمريكيون في كامب ديفيد.

انطلقت شرارة العنف في 28 أيلول 2000 على أثر زيارة اريبل شارون إلى جبل الهيكل في القدس ودخوله إلى الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى متحديًا إرادة الشعب الفلسطيني، وهذا الموقع اسمه الحرم الشريف في اللغة العربية ويضم المسجد الأقصى المقدس عند المسلمين، ودخول شارون إلى هذا الموقع الفلسطيني المقدس أسهم في إذكاء لهيب الاضطرابات، وعلى أثرها دعت الولايات المتحدة إلى مؤتمر قمة في شرم الشيخ في شهر تشرين الأول من أجل إنهاء حالة العنف التي سادت البلاد.

بات الوقت ضيقًا أمام المفاوضات مع مواجهة رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود باراك انتخابات وشيكة في إسرائيل، ومع إتمام الرئيس الأمريكي فترة ولايته الرئاسية وفشل المفاوضات التي جرت في واشنطن في كانون الأول 2000 في الوصول إلى أي اتفاق، طرح الرئيس كلينتون مقترحات لردم الهوة بين الطرفين، وطلب موافقة الطرفين عليها بحلول 27 كانون الأول عام 2000، وقام كثيرون بالتعتيم على النتائج لكن المفاوض الأمريكي الرئيسي "دينيس روس" كان واضحًا في كتابه (السلام المفقود)، والذي صدر عام 2004 وجاء في صفحة 753 - 755 الخلاصة التي قدمها روس أن اقتراح كلينتون منح الفلسطينيين نحو 97% من أراضي الضفة الغربية إضافة إلى السيادة على مجالهم الجوي، أما اللاجئون الفلسطينيون لا يستطيعون العودة إلى إسرائيل دون موافقة إسرائيلية، على أن ترابط قوة دولية في وادي الأردن لمدة ست سنوات وتحل محل الجيش الإسرائيلي، وتكون المناطق المجاورة للقدس والحرم الشريف ضمن الدولة الفلسطينية.

اجتمعت الحكومة الإسرائيلية في 27 كانون الأول ووافقت على اقتراحات كلينتون مع إبداء تحفظات حيالها، وصفها "روس" بأنها تحفظات ضمن الحدود المقبولة، وهنا أود أن أشير إلى أن

إسرائيل منذ أقدم عصور التاريخ قد برعت في اتباع سياسة الذرائع (سياسة البرغماتية)، فعندما يجدوا أنفسهم محرجين في أي موضوع يوافقون عليه دون تردد ولكن يقاومونه عمليًا ولا يطبقوه على أرض الواقع، إنما تأتي موافقاتهم بسبب عدم إثارة الآخرين عليهم خاصة الرأي العام.

الفلسطينيون لم يقدموا إجابة في الموعد المحدد، ولم يأتِ الرد الفلسطيني أبدًا، وفي هذا يقول "دينيس روس" إنه قال لأبي العلاء (أحمد قريع) في 29 كانون الأول: سجل كلماتي، ستنفض الولايات المتحدة يدها من الأمر، وسيكون ذلك في وقت لا يعود فيه باراك وامنون أو شلومو موجودين بل في وقت يصبح فيه شارون رئيسًا للوزراء، سوف ينتخب شارون بكل تأكيد إذا لم يتم التوصل إلى اتفاق وستنخفض الـ 97% إلى 40% وستخسرون فرصة إقامة عاصمتكم في القدس الشرقية، ولن يترك الجيش الإسرائيلي وادي الأردن وسيكون حق اللاجئين غير المقيد في العودة إلى دولتكم قد ذهب أدراج الرياح".

أجابه أبو العلاء: "أخشى أن يتطلب الأمر خمسين سنة أخرى لتسوية هذا الأمر".

وفي حفل عشاء أقيم في تشرين الثاني عام 2005 في ذكرى رحيل إسحق رابين قال الرئيس كلينتون: "إن الرئيس ياسر عرفات ارتكب خطيئة تاريخية جسيمة عندما رفض اقتراحاته وتسبب في انهيار عملية السلام"، إلا أنه في 13 تشرين الثاني قال وزير الإعلام الفلسطيني آنذاك (الدكتور نبيل شعث): "إن إسرائيل لا تريد أبدًا أن تصل إلى الحل النهائي خلال المرحلة الثانية من مفاوضات كامب ديفيد، وهذا ما أسكت الشائعات القائلة بإن إسرائيل عرضت على الفلسطينيين 97% من الضفة الغربية و10% من وادي الأردن، وأما كل ما قيل إن إسرائيل قدَّمت للفلسطينيين تنازلات كبيرة فهذا غير صحيح، وأكد شعث أن إسرائيل رفضت إعادة القدس إلى الفلسطينيين، بل هي فوق ذلك مُصّرة على ضم الكتل الاستيطانية إلى مدينة القدس، وأوضح بأن هذه النقطة هي ما أوصل مفاوضات كامب ديفيد الثانية إلى حالة استعصاء، وأن ما اقترحه رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق إيهود باراك لم يكن سوى إعطاء عرفات مقرًا رئاسيًا في القدس القديمة.

وفي مفاوضات ما يسمى بمفاوضات اللحظة الأخيرة التي جرت في طابا المصرية بين 22 – 27 كانون الثاني 2001 برعاية أوروبية ومصرية، فشل الجانبان في التوصل إلى تسوية، ورغم اتفاق الجانبين على إعلان مشترك يقول إنهما اقتربا من الاتفاق اقترابًا لا سابق له، فإن عدم الاتفاق الملموس بشأن موضوع اللاجئين وخرائط الاستيطان النهائية ظل قائمًا، قطع باراك المفاوضات يوم 28 كانون الثاني 2001 وعلقها حتى ما بعد الانتخابات، وكان باراك يأمل التوصل إلى صفقة يستطيع تقديمها إلى الجمهور الإسرائيلي، ولكن أصابه الغضب وخيبة الأمل لعدم التوصل إليها، لقد انتهت المفاوضات لأن باراك الذي قيل إنه دفع العملية السلمية إلى الأمام خسر الانتخابات في بداية شهر شباط وحل محله رئيس الحكومة اليميني أرييل شارون.

لم يجرِ فعليًا خلال المفاوضات تقديم أي خرائط رسمية من الجانبين أو من قبل الجانبين، وبعد فشل المفاوضات أكد الفلسطينيون بأن إسرائيل لم تعرض عليهم إلا "معازل" في الضفة الغربية، ولم تنشر الحكومة الإسرائيلية أي خرائط، أما دينيس روس الذي ترأس الفريق الأمريكي المفاوض فقد لخص المقترحات التي قدمتها الولايات المتحدة وقال أيضًا كل من مجموعة غوش شالوم ومؤسسة السلام في الشرق الأوسط بنشر خريطة لهذا العرض الذي قدمته حكومة باراك في طابا، وقد كانت

مسألة اللاجئين أحد الأسئلة الرئيسية البارزة، وكان الرئيس كلينتون يظن أن المسألة لا تتعدى فوارق في الصياغة بين الطرحين الإسرائيلي والفلسطيني، ولقد دعت اقتراحاته الرامية إلى ردم الهوة إلى السماح للفلسطينيين بالعودة من الخارج إلى الدولة الفلسطينية ولا يكون بوسعهم أن يعودوا إلى إسرائيل إلا بموافقة الحكومة الإسرائيلية، لكن الاقتراح الفلسطيني في طابا دعا إلى عودة نهائية لجميع اللاجئين إلى إسرائيل، لكن هذا الاقتراح ما كان مقبولاً لدى الإسرائيليين، لأن من شأنه أن يخلق أغلبية عربية فيها، وأن يضع نهاية لممارسة اليهود حق تقرير المصير كما يقول الإسرائيليون.

تواصلت المقاومة الفلسطينية في عامي 2001 و2002 رغم محاولات لجنة ميتشل وغيرها استعادة الهدوء، وقد كانت الهجمات التي استهدفت مركز التجارة العالمية في الولايات المتحدة يوم 11 أيلول 2001 وبيلة مباشرة على النزاع الإسرائيلي الفلسطيني، فمن جهة أولى حاولت البلدان العربية والإسلامية الاستفادة من الحاجة إلى تعاونها في الحرب على الإرهاب بُغية انتزاع تنازلات لصالح الفلسطينيين، ومن جهة ثانية، بدأ كثير من الأمريكيين في النظر إلى الأعمال الإرهابية في ضوء جديد عندما بدأ الربط بين منظمات مثل حماس وحزب الله اللبناني، وبين جماعة القاعدة بزعامة أسامة بن لادن، وأما ما كان له أثر مؤذ متميز على الفلسطينيين هو التظاهرات التي خرجت تأييدًا لابن لادن والأدلة التي ربطت بين سفينة اعترضتها إسرائيل (اسمها كارين) كانت تحمل أسلحة مهربة وبين الدعم الإيراني المقدم إلى حركة حماس، تم اعتراض هذه السفينة يوم 3 كانون الثاني 2002 وهو يوم وصول المبعوث الأمريكي انتوني زيني من أجل محاولة التوصل إلى تسوية، وعلى ضوء هذه الصورة بدا أن الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي يمنحان إسرائيل مجالاً أوسع للتحرك ضد الفلسطينيين، فقامت إسرائيل بتنفيذ اقتحامات متزايدة في المناطق الفلسطينية وحاصرت الرئيس ياسر عرفات في المجمع الرئاسي في رام الله، غير أن الفلسطينيين قاموا بتصعيد هجماتهم ضد الجنود الإسرائيليين إضافة إلى تصعيد العمليات الاستشهادية داخل الخط الأخضر في إسرائيل.

اقتراحات السعودية السلمية وقرار الدولة الفلسطينية

طرح ولي العهد السعودي الأمير عبد الله بن عبد العزيز اقتراحًا بإنهاء حالة الحرب الطويلة بين العرب وإسرائيل، مقابل انسحاب الإسرائيليين من المناطق الفلسطينية ومقابل انسحابها من الجولان مع ترتيبات ملائمة فيما يخص القدس واللاجئين، وقد جرى تبني هذا الاقتراح بعد تعديله ليكون أكثر وضوحًا فيما يخص مسألة اللاجئين في اجتماع الجامعة العربية، وفي النهاية جرى إدخاله ضمن خطة الطريق التي طرحتها اللجنة الرباعية، وفي 12 آذار 2002 اتخذت الجمعية العامة للأمم المتحدة القرار 1397، الذي دعا الأطراف إلى وقف ما اسماه العنف من جديد وتطرق إلى ذكر خطة الأمير عبد الله للسلام، وكذلك دعا وللمرة الأولى منذ عام 1947 إلى إقامة دولة فلسطينية إلى جانب إسرائيل.

الفصل الرابع عشر : عملية الجدار العنصري

استمرت العمليات الاستشهادية وردود الفعل الانتقامية الإسرائيلية تواصلت، أعلن ياسر عرفات وقف العنف عدة مرات لكن هذا لم يكن له تأثير ظاهر على اشتداد العمليات الاستشهادية والكمائن، أما الإسرائيليون فقد واصلوا من جانبهم سياستهم في اغتيال المطلوبين في المناطق الفلسطينية، وخلال الأسبوع الأخير من شهر آذار، أي حين كان الجنرال ريني على وشك الذهاب إلى الشرق الأوسط من جديد، كان الفلسطينيون ينفذون عملية استشهادية ناجحة كل يوم تقريبًا، إضافة إلى الكثير من الهجمات الأقل نجاحًا، أدى تفجير في فندق بارك في ناتانيا إلى مقتل 27 شخصًا كانوا يحتفلون بأحد الأعياد الدينية اليهودية.

وردت إسرائيل بغارة ضخمة أسمتها (عملية الجدار الواقي)، قصدت من خلالها استئصال البنية التحتية للمقاومة، بما في ذلك إعادة احتلال رام الله ونابلس وجنين وطولكرم وبلدات أخرى، وزعمت إسرائيل أن 50 شخصًا فقط قتلوا في مخيم جنين، وأن أكثرهم أعضاء في كتائب شهداء الأقصى التابعة لحركة فتح، لكن الفلسطينيين اتهموا إسرائيل بارتكاب مجزرة في مخيم جنين قتلوا فيها أكثر من 500 شخص، وقد كررت هذه الاتهامات أكثر المصادر الإخبارية في أوروبا رغم تراجعها عنها فيما بعد، وقد قالت منظمات حقوق الإنسان التي دخلت مخيم جنين بعد الغزو الإسرائيلي إن فيه قدرًا كبيرًا من الدمار ومن المرجح أن يكون الجيش الإسرائيلي قد ارتكب فيه جرائم حرب من خلال منع وصول المساعدات الطبية، لكنها قالت إن عدد القتلى لم يتجاوز الخمسين وأن أكثر من نصفهم إرهابيين، وبهذا أكدت الرواية الإسرائيلية الكاذبة عن الأحداث.

خفت الهجمات الاستشهادية لكنها لم تتوقف، وخلال مجرى القتال ادعت إسرائيل أنها وضعت يدها على وثائق كثيرة تدل على أن ياسر عرفات كان قد وافق شخصيًا على تنظيم خلايا إرهابية، وكذلك على أن خزينة السلطة الفلسطينية وافقت على دفع أموال من أجل شراء أحزمة ناسفة يستخدمها الاستشهاديون، (نلاحظ أن إسرائيل تحاول في كل مناسبة وبعد كل عملية مقاومة، أن تقحم عرفات وسلطته فيها بينما هم بعيدون كل البعد عن تلك العمليات، بل على العكس كانوا يحاولون وقفها أو محاربتها)، واعتقل الإسرائيليون أو قتلوا كثيرًا من الأشخاص الذي شكت إسرائيل في تورطهم في النشاطات الاستشهادية، كما قام الجيش الإسرائيلي بإتلاف سجلات وأبنية وطرق وغير ذلك من البنية التحتية المدنية البريئة في المصارف والمنظمات غير الحكومية، وغيرها من المنظمات التي من الواضح أنه لا علاقة لها بتلك العمليات.

وفي وقت لاحق من مجريات القتال تمكن الجيش الإسرائيلي من تحديد مكان وجود مروان البرغوتي الذي يقود "التنظيم" في فتح واعتقلته، وزعمت إسرائيل أن لديها أدلة على صلة البرغوتي بكثير من الأعمال الإرهابية وفي النهاية قدمته إلى المحكمة فتلقى خمسة أحكام بالسجن المؤبد بسبب التواطؤ على القتل، ذهب منتقدوا السياسة الإسرائيلية إلى أنه من غير الممكن إنهاء العنف بالوسائل العسكرية في غياب التقدم باتجاه الحل السلمي، لكن عدد الهجمات الاستشهادية الناجحة وتواترها راحا يتراجعان في أعقاب عملية الجدار الواقي، وذلك مع استخدام قوات الأمن

الإسرائيلية المتزايد للمعلومات الاستخباراتية التي جمعتها خلال هذه العملية من أجل رصد الهجمات وإحباطها، لكن عدد محاولات شن تلك الهجمات لم يشهد تناقصًا كبيرًا.

وقُبيل نهاية عملية الجدار الواقي وصل إلى المنطقة وزير الخارجية الأمريكي كولن باول، لمحاولة وقف العنف، فقد كان في حاجة إلى الهدوء في إسرائيل وفلسطين من أجل إتاحة المجال للولايات المتحدة لبناء تحالف ضد العراق، لكن مهمة باول لم تحقق شيئًا، إذ لم يتمكن من جعل الإسرائيليين ينسحبون انسحابًا كاملاً من المناطق التي احتلوها، ولم يتمكن من جعل الفلسطينيين يوافقون على وقف إطلاق النار، وقد أدى الغضب الشعبي والمظاهرات في البلدان العربية لقيام إسرائيل بارتكاب المجازر إلى دفع الأمم المتحدة إلى التحرك، وجاء قرار الأمم المتحدة رقم 1402 ينص على انسحاب إسرائيل الفوري، ومع مغادرة باول كان الجيش الإسرائيلي قد بدأ في الانسحاب من بعض البلدات، لكن ياسر عرفات كان لا يزال حبيس المقر الرئاسي في رام الله، وكان الإسرائيليون يحاصرون كنيسة المهد في بيت لحم، حيث التجأ إليها فلسطينيون مسلحون هربوا من الجيش الإسرائيلي، تبنى مجلس الأمن قرار 1405 الداعي إلى تشكيل فريق تحقيق محايد وإرساله للتحقيق في المجازر التي ارتكبتها إسرائيل، واعترضت إسرائيل على تركيبة الفريق بعد أن كانت وافقت على التحقيق في البداية، لكنها عادت عن موافقتها ومنعت إجراء تحقيق، زاعمة أن تركيبة الفريق وإجراءات التحقيق غير منصفين بالنسبة لها، وقالت إن الأمم المتحدة تراجعت عن الاتفاقات الأولية بشأن هذا التحقيق، كانت معارضة التحقيق في إسرائيل مدفوعة بذكريات مؤتمر "دربان" الذي كما تقول، لم يمضِ عليه وقت طويل إضافة إلى قرار الأمم المتحدة الذي ينص على أن الصهيونية أحد أشكال العنصرية الذي جرى استحضاره كثيرًا في الجدل العام في إسرائيل.

قام رئيس الوزراء الإسرائيلي "أرييل شارون" بزيارة الولايات المتحدة في عام 2002 بضغط من الإدارة الأمريكية من أجل طرح برنامج سلمي يمكن أن يكون مقبولاً لدى الفلسطينيين والدول العربية، ناقش الاثنان خطط عقد قمة إقليمية في وقت لاحق من عام 2002 وعرض الجانب الإسرائيلي وثائق زعم أنها تثبت تورط ياسر عرفات والسلطة الفلسطينية في أعمال إرهابية، وقد وردت أنباء أثناء اجتماع بوش وشارون عن تفجير استشهادي قامت به حركة حماس، الأمر الذي جعل شارون يقطع زيارته ويعود إلى إسرائيل.

تم التوصل إلى حل الحصار لمبنى المقاطعة (مقر الرئاسة الفلسطينية) وكنيسة المهد في أيار 2002، وجرى إبعاد المسلحين في كنيسة المهد إلى قبرص وأوروبا، أما بعض المطلوبين الذين كانوا في مجمع المقاطعة في رام الله فقد جرى حبسهم في أريحا، لكن من الواضح أن قسمًا من المطلوبين ظل في المجمع، وقد زعمت إسرائيل أن زعيم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين كان يتولى تنسيق الهجمات الاستشهادية من زنزانة سجنه في أريحا. وتحت ضغوط من أجل الإصلاح الديمقراطي، وقَّع ياسر عرفات في نهاية أيار القانون الأساسي أو دستور الدولة الانتقالية الفلسطينية، وينص هذا الدستور على أن القانون الفلسطيني قائم على مبادئ الشريعة الإسلامية.

وبعد موجة جديدة من الهجمات الاستشهادية الفلسطينية في حزيران أعادت القوات الإسرائيلية احتلال معظم أنحاء الضفة الغربية، وسرعان ما زعمت الحكومة الإسرائيلية أن إعادة الاحتلال هذه لن تستمر من غير نهاية، لكنها عادت فأشارت إلى غير ذلك في وقت لاحق، وألقى الرئيس بوش كلمة طال انتظارها تناولت سياسة الشرق الأوسط ودعت إلى قيام دولة فلسطينية، لكنها أصرت على ضرورة الإصلاح الديمقراطي في السلطة الفلسطينية.

وفي شهري آب وأيلول 2002 أحبطت عدة محاولات لوقف إطلاق النار من جانب الفلسطينيين بفعل رفض الجماعات المشاركة فيها، وبفعل الأعمال التي قامت بها إسرائيل، مثل اغتيال الشهيد صلاح شحادة الذي كان قائد الجناح العسكري في حماس، وذلك خلال غارة صاروخية على غزة سقط ضحيتها 13 مدنيًا، حل محمد ضيف محل صلاح شحادة، مرت ستة أسابيع من شهر آب وأيلول هدأت فيها الهجمات الكبيرة مما سهَّل وضع خطة إسرائيلية فلسطينية من أجل إعادة السلطة الفلسطينية الكاملة إلى قطاع غزة وبيت لحم، لكن هذا فشل بعد عدد من الهجمات العنيفة في غزة، وفي أوائل شهر أيلول أحبطت قوات الأمن الإسرائيلية كثيرًا من الهجمات الاستشهادية، وضبطت شاحنة تحمل أكثر من 600 كيلوغرام من المتفجرات وعبوات الغاز كان الفلسطينيون يعتزمون استخدامها في هجوم استشهادي كما زعمت إسرائيل.

انعقد المجلس الوطني الفلسطيني في أيلول للموافقة على الوزارة الجديدة التي جرى اختيارها انسجامًا مع المساعي الإصلاحية، لكن أعضاء الحكومة في المجلس رفضوا المصادقة على الحكومة الجديدة حتى يقبل ياسر عرفات بوجود رئيس الوزراء يقاسمه السلطة، بدلاً من ذلك وافق عرفات على إجراء الانتخابات في كانون الثاني 2003 رغم الاحتلال الإسرائيلي، كانت إذ ذاك شعبية عرفات قد تراجعت بين الفلسطينيين ولم تُجرَ تلك الانتخابات أبدًا، وانتهت فترة الهدوء النسبي بتفجير استشهادي في أم الفحم وفي حافلة في تل أبيب، ردت الحكومة الإسرائيلية بالهجوم على غزة ودخلت مدينة غزة ذاتها كما حاصرت ياسر عرفات ومعه نحو 200 شخص في مبنى المقاطعة في رام الله، طالبت إسرائيل الفلسطينيين بتسليم الأشخاص المطلوبين الذين لجأوا إلى مبنى المقاطعة، وكان بينهم رئيس الأمن الوقائي الفلسطيني توفيق الطيراوي، ولما رُفِضَ هذا الطلب قامت إسرائيل بتدمير جميع مبنى المقاطعة باستثناء المبنى الرئيسي لكنها وعدت بعدم إيذاء عرفات، وبعد سريان شائعة بأن إسرائيل تعتزم نسف مبنى المقاطعة انطلقت مظاهرات ضخمة في الضفة الغربية وغزة سقط فيها 4 قتلى، ضغطت الولايات المتحدة على إسرائيل لكي تتوقف عن تدمير المبنى في مجمع المقاطعة وتنسحب، استمر الحصار الإسرائيلي رغم قرار الأمم المتحدة، ورفع الحصار في النهاية لكن عرفات ظل محتجزًا ومعزولاً في رام الله. جرى فرض حصار جديد في الخريف، وفي نيسان 2002 أطلقت الحكومة الأمريكية سلسلة مشاورات مع مجموعة الدبلوماسيين، وصارت تعرف باسم "اللجنة الرباعية"، وضعت هذه اللجنة خطة طريق فيما يخص الاستيطان تتضمن انسحاب إسرائيل من المناطق المحتلة وإقامة الدولة الفلسطينية، وفي تشرين الأول 2002 انسحب حزب العمل من الحكومة الإسرائيلية، ودعا رئيس الوزراء آرييل شارون إلى انتخابات فورية تُجرى في 28 كانون الثاني 2003، وفي الانتخابات حظي حزب شارون (الليكود) بتفويض ساحق لمواصلة السياسات المتشددة إزاء الفلسطينيين، رفض حزب العمل الإسرائيلي تشكيل حكومة ائتلاف، وواصلت إسرائيل احتلال معظم أجزاء الضفة الغربية.

وخلال هذه الفترة واصلت الولايات المتحدة حشد القوات من أجل غزو العراق، كان الفلسطينيون مؤيدين لصدام حسين وكان نظامه قد قدَّم الأموال لعائلات الشهداء، إضافة إلى إيواء المقاتلين الفلسطينيين، دخلت القوات الأمريكية بغداد يوم 9 نيسان، وأعلن الرئيس بوش انتهاء الحرب في الأول من أيار عام 2003.

تلك الحرب على العراق سببت جيشانًا واضطرابًا في الشرق الأوسط وكان الفلسطينيون أكثر من تأثر بها، دهش العرب لسرعة سقوط العراق وسارعت الحكومات العربية بما فيها السلطة

الفلسطينية إلى إبداء إشارات تصالحية، وإلى الحديث عن الديمقراطية مع انتقاد خجول للاحتلال الأمريكي للعراق الذي ولَّدَ قدرًا كبيرًا من السخط، انتخب محمود عباس رئيسًا للوزراء في فلسطين في 29 نيسان، لكن العنف لم يهدأ، نفَّذ الإسرائيليون غارات دموية في غزة وغيرها يوم انتخاب عباس، وبعد ساعات معدودة نفَّذت حركة حماس هجومًا استشهاديًا في ملهى ليلي في تل أبيب، وفي اليوم التالي بدأ الجيش الإسرائيلي بغارات مكثفة في المناطق، وخلافًا لخطة الطريق تولى ياسر عرفات مسؤولية تنظيم قوة أمنية موحدة جديدة، كانت الولايات المتحدة طبقًا لما وعدت به الفلسطينيين؛ قد أطلقت خطة طريق مُحدَّثة يوم 30 نيسان، أي عقب انتخاب أبو مازن مباشرة، وفي قمة احتفالية عُقدت في العقبة يوم 4 حزيران تعهد كل من رئيس الوزراء الإسرائيلي شارون ورئيس الوزراء الفلسطيني محمود عباس بالوفاء بشروط خطة الطريق، ثم تصافحا في حضور الرئيس الأمريكي جورج بوش، ودعا أبو مازن إلى وقف العنف.

تعهد زعماء حركتي حماس والجهاد الإسلامي الإسلاميتين الوطنيتين بمواصلة المقاومة، وبعد تلك القمة مباشرة قتل أربعة جنود إسرائيليين في غزة في عملية مشتركة، لم تقتصر المشاركة فيها على الإسلاميين وحدهم إذ شاركت فيها حركة فتح المنشقة عن حركة محمود عباس. بدأت إسرائيل تفكيك زهاء 100 نقطة عسكرية غير قانونية، لكن هذا التفكيك اقتصر على النقاط غير المأهولة، وفي 10 حزيران حاولت إسرائيل اغتيال زعيم حماس أحمد ياسين مما أثار الغضب بين الفلسطينيين والانتقاد الموجه إلى الولايات المتحدة. وفي 11 حزيران، قتل تفجير انتحاري 16 إسرائيليًا في حافلة في شارع رئيسي من شوارع القدس، وفي 20 آب قتل تفجير انتحاري آخر 21 شخصًا في حافلة في القدس، وفي اليوم التالي اغتالت إسرائيل أحد قادة حماس ويدعى إسماعيل أبو شنب، ولعل ذلك كان انتقامًا لتلك التفجيرات، أعلنت إسرائيل أيضًا إهدار دم جميع قادة حماس ونفذت عدة محاولات لاغتيالهم فشل بعضها، وكان من بين المستهدفين "الزعيم الروحي" المسن المُقعد لحركة حماس، ومع استمرار تهاوي الهدنة سرت شائعات قالت إن متطرفين فلسطينيين حاولوا اغتيال رئيس وزراء السلطة الفلسطينية محمود عباس، وفي الأيام التي أعقبت ذلك دخلت إسرائيل الضفة الغربية من أجل عملية "تطهير أمني" تدوم عدة أيام. بدأ عباس ورئيس جهاز الأمن في غزة محمد دحلان التحرك ضد المقاومين الفلسطينيين وفقًا لمقتضيات خطة الطريق؛ في حين حاول ياسر عرفات أن يستبدل بمحمد دحلان جبريل الرجوب وأن يضع الأجهزة الأمنية ووزارة الداخلية في أيدي أنصاره. أعلن عباس في 4 أيلول أنه لن يتحرك ضد المقاومين، لكن هذا لم يفلح في جعله يتمكن من الاستمرار في منصبه فاستقال في 6 أيلول وخَلَفه أحمد قريع (أبو العلاء) الذي كان من أنصار عرفات. تعهد قريع بانتهاج خط متشدد إزاء إسرائيل، وفي 8 أيلول قرر زعماء الاتحاد الأوروبي فرض حظر على الجناح السياسي لحركة حماس وعلى منع التبرعات النقدية المقدمة إليها.

وفي مساء 10 أيلول 2003 سقط 15 قتيلاً في تفجيرين انتحاريين متزامنين في القدس، وبالقرب من قاعدة زريفين العسكرية، قرب "ريشون لتسيون"، انتهت فترة الحرب الهادئة بتفجير انتحاري آخر في مطعم في حيفا يوم 4 تشرين الأول تمَّت نسبته إلى حركة الجهاد الإسلامي، أدانت السلطة الفلسطينية ورئيس وزرائها المُعيَّن أحمد قريع ذلك التفجير، لكنهما لم يتمكنا من الالتزام باتخاذ خطوات ضد الفصائل الفلسطينية المقاتلة، وعلى سبيل الانتقام قامت إسرائيل باجتياح غزة وجنين؛ وفي 5 تشرين الأول ضربت قاعدة في سوريا زعمت أنها قاعدة لتدريب الجماعات الفلسطينية،

كان هذا أول هجوم إسرائيلي في الأراضي السورية منذ حرب يوم الغفران (حرب رمضان) عام 1973، بعد ذلك بدأت فترة طويلة من الهدوء النسبي في الهجمات الفلسطينية، لكن إسرائيل واصلت مهاجمة الأهداف الفلسطينية موقعة خسائر كبيرة في أرواح المدنيين، استمر حدوث الهجمات الاستشهادية من وقت لآخر من قِبل فصائل حماس أو الجهاد الإسلامي أو من قِبل كتائب الأقصى التي هي جزء من حركة فتح من الواضح أن السلطة الفلسطينية فقدت سيطرتها عليه، جرى تنفيذ تفجيرات انتحارية في 25 كانون الأول 2003 وفي 14 و29 كانون الثاني 2004 وفي 22 شباط أيضًا من قِبل كتائب الأقصى التابعة لحركة فتح ومن قبل حماس والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

اتفاق جنيف أعلن فيه زعماء المعارضة الإسرائيلية وقادة فلسطينيون عن اتفاق مبادئ بشأن شروط الحل النهائي، يطرح هذا الاتفاق الذي صار يعرف باسم اتفاق جنيف تقديم تنازلات تاريخية من الجانبين: تتخلى إسرائيل عن السيادة على الشطر العربي من القدس، في حين يتخلى الفلسطينيون بوضوح عن حق اللاجئين في العودة إلى إسرائيل، ورغم انعدام الصفة الرسمية لذلك الاتفاق في وقته فقد حظي بدعاية واسعة، وتضمنت تأييدًا من جانب وزير الخارجية الأمريكي كولن باول وتحبيذًا حارًا من جانب ياسر عرفات، شجبت الحكومة الإسرائيلية هذا الاتفاق والمشاركين فيه وحاولت منع الترويج له في وسائل الإعلام العامة، وعلى نحوٍ مماثل، شجبه المقاومون الفلسطينيون وحلفاؤهم.

الجدار الأمني (يدعى أيضًا السياج الأمني أو جدار الفصل العنصري) كان من بين القضايا الكبرى التي أثيرت خلال الحملة الانتخابية الإسرائيلية عام 2003 إقامة حاجز أمني (سياج أو جدار)، دعا إلى بنائه حزب الحمائم في إسرائيل، حزب العمل. وكان من المزمع أن يقام الجدار على امتداد الخط الأخضر ليساهم في منع الهجمات الانتحارية داخل إسرائيل، وكان حاجز مماثل في غزة قد استطاع تقليل حالات التسلل حتى الصفر، لكن اليمين، بما فيه حزب الليكود بزعامة آرييل شارون، عارض إقامة هذا الجدار لأن من شأنه أن يخلق حدود أمر واقع، كما رأوا، فيقسم القدس ويضع معظم المستوطنات الإسرائيلية في الضفة الغربية، خارج حماية الترتيبات الأمنية. فاز شارون وحزبه في الانتخابات بأغلبية كبيرة موقعين فوضى شاملة في حزب العمل وحزب ميريتس اليساري.

وخلال عام 2003 تبنى رئيس الوزراء آرييل شارون فكرة الجدار العازل وعدَّلها، فغير مسار الجدار ليشمل كبرى المستوطنات الإسرائيلية وجعل فيه قسمًا ناتئًا من جهة الشرق من شأنه فصل الفلسطينيين إلى جيبين، ومع المضي في إنشاء الجدار صار من الواضح أنه يحجز كثيرًا من الفلسطينيين فيفصلهم عن حقولهم وأماكن عملهم التي يقع بعضها على الجانب الإسرائيلي من الخط الأخضر الذي رسمته هدنة 1948 ويقع بعضها الآخر على الجانب الفلسطيني، وفي المناطق المأهولة حيث يظهر الجدار أكثر من المناطق الأخرى، تمت إقامته على شكل جدار إسمنتي ضخم رغم أن معظم أجزائه الأخرى مبنية على شكل سياج، بدأت الجماعات الفلسطينية وجماعات السلام الإسرائيلية حملة احتجاج شديدة، وفي 8 كانون الأول 2003 عقدت الجمعية العامة للأمم المتحدة جلسة طارئة فأصدرت القرار رقم (ES-10/14)، الذي طلب من محكمة العدل الدولية في لاهاي رأيًا استشاريًا فيما يخص شرعية إقامة الجدار، بدأت المحكمة مداولاتها في 24 شباط لكن إسرائيل قاطعت جلساتها رغم أنها قدمت مذكرة موجزة مفادها أن على المحكمة عدم إصدار

حكم في هذه القضية، وقد قدم نحو 30 بلدًا آخر، من بينها الولايات المتحدة وعدة دول أوروبية، مذكرات تقول إن على المحكمة عدم إصدار حكم لأن المسألة سياسية لا قانونية؛ ولذلك امتنعت هذه الدول كلها عن حضور الجلسات، على أن أكثر هذه الدول انتقدت الجدار باعتباره غير شرعي، أو باعتباره عقبة في وجه مفاوضات السلام. قامت جماعات إسرائيلية وصهيونية بتنظيم مظاهرات في لاهاي، ونظم الفلسطينيون مظاهرات مضادة.

جلب الإسرائيليون حافلة تعرضت للتفجير وقالوا إن الجدار يمنع الهجمات الانتحارية، أما الفلسطينيون فاستخدموا الجلسات منبرًا من أجل نزع الشرعية عن الاحتلال، وفي 9 تموز خرجت محكمة العدل الدولية برأي استشاري فيما يخص السياج الأمني الإسرائيلي، قررت المحكمة أن هذا السياج ينتهك حقوق الإنسان، وأن على إسرائيل تفكيكه، أعلنت إسرائيل عدم التزامها بقرار المحكمة لكنها أدخلت تغييرات على مسار الجدار نزولاً عند قرار المحكمة الإسرائيلية العليا.

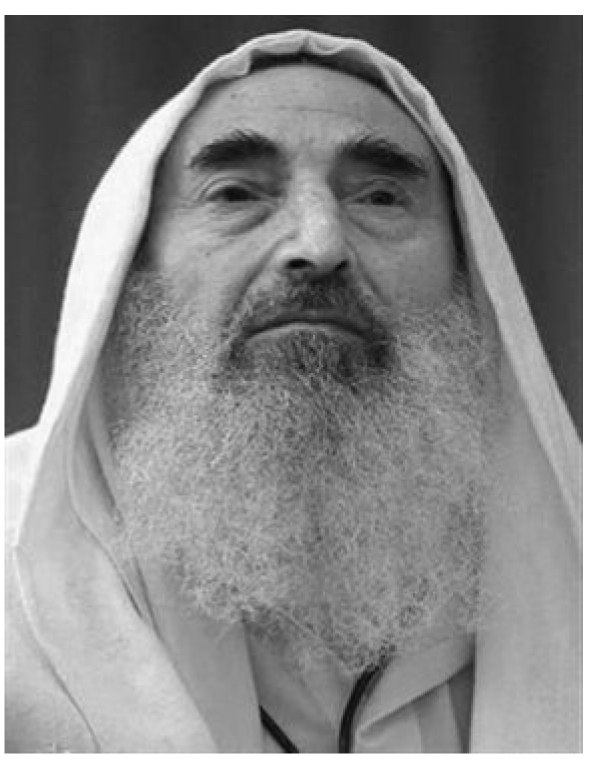
فضيحة الفساد الإسرائيلية منذ انتخاب آرييل شارون في عام 2003 حامت حوله الشكوك كما حامت حول عدد من أعضاء حزب الليكود بسبب مزاعم بالرشوة والعلاقة مع عصابات إجرامية، وفي كانون الثاني 2003 أدين دافيد آبيل بتهمة الرشوة، وقد كان أحد أقرب مساعدي آرييل شارون، وقالت لائحة الاتهام إنه قدم الرشوة إلى شارون وابنه وإلى نائب رئيس الوزراء إيهود أولمرت، وكان السؤال الواضح هو: هل سيُدان آرييل شارون أم لا؟.

جدل بشأن تبادل السجناء بعد شهور طويلة من المفاوضات من خلال وساطة ألمانية، اتفق كل من إسرائيل وحزب الله اللبناني على تبادل للسجناء وفق شروط من جانب واحد، وذلك في 29 كانون الثاني 2004. أطلقت إسرائيل سراح أكثر من 400 سجين فلسطيني ولبناني أحياء، وأعادت عددًا كبيرًا من الجثث مقابل جثث ثلاثة جنود إسرائيليين اختطفهم حزب الله وقتلهم، وجثمان مدني واحد هو ضابط الاحتياط الحنان تاننباوم الذي كان "رجل أعمال" مريب، كذب بشأن كيفية اختطافه وقدم لحزب الله دعاية مجانية عبر تلفزيون المنار.

اغتيال الشيخ أحمد ياسين

كانت إسرائيل تستهدف زعيم حركة حماس الشيخ أحمد ياسين منذ شهور كثيرة بغية اغتياله، وفي أعقاب هجوم انتحاري في ميناء أشدود؛ صعَّد جيش الدفاع الإسرائيلي عملياته ضد الإسلاميين في غزة وأعلن من جديد أن قادة حماس مستهدفون بالاغتيال.

وفي 22 آذار أكدت معلومات استخباراتية إسرائيلية أن أحمد ياسين (مؤسس حركة حماس الإسلامية وزعيمها) ذهب إلى الصلاة من غير زوجته وأطفاله، فأعطي الضوء الأخضر لاغتياله.



لقد أدى اغتيال هذا الرجل العجوز المُقعد إلى احتجاجات في معظم أنحاء العالم وإلى تعهد حركة حماس بالثأر له، لعل القيمة الاستراتيجية لاغتياله كانت قليلة؛ ولعله اغتيل من أجل تعزيز شعبية آرييل شارون المتراجعة.

الفصل الخامس عشر : خطة فك الارتباط وخطاب الضمانات من جورج بوش

كان ثمة اقتراح من حزب العمل الإسرائيلي بقيادة عاميرام ميتزنا خلال الحملة الانتخابية لعام 2003، مفاده أنه على إسرائيل أن تنسحب من جانب واحد من قطاع غزة، وربما من بعض أجزاء الضفة الغربية، وأن تواصل حياتها خلف الجدار الفاصل إذا فشلت المفاوضات مع الفلسطينيين، رفض شارون وحزبه هذا الاقتراح باعتباره انهزاميًا، لكن شارون نفسه أعلن قبيل نهاية عام 2003 أنه يخطط للانسحاب من جانب واحد يجري خلال ستة أشهر (تم تأجيل هذا التاريخ فيما بعد)، جوبهت خطة الانسحاب من كامل قطاع غزة بمعارضة شديدة من زملاء شارون في حزب الليكود ومن المستوطنين أيضًا، وقد أشارت التقارير في أواخر شهر شباط إلى أن إسرائيل مازالت تواصل مصادرة الأراضي وبناء الحواجز الأمنية من أجل مستوطني غزة، رغم ما قيل عن إن شارون قرر إخلاء المستوطنات.

وفي نيسان 2004 سافر شارون إلى الولايات المتحدة واجتمع في 14 نيسان مع الرئيس الأمريكي جورج بوش من أجل الحصول على مساندة وضمانات أمريكية من أجل خطة فك الارتباط من جانب واحد التي طرحها شارون، قدَّم بوش له خطابًا ينص على أن الولايات المتحدة تقبل هذه الخطة وأن خطة الطريق تظل هي خطة السلام الوحيدة التي تؤيدها الولايات المتحدة، وحتى يكسب شارون شعبية لصالح هذه الخطة في إسرائيل، صرح بوش أن الولايات المتحدة ترى وجوب إقامة اللاجئين الفلسطينيين في الدولة الفلسطينية الجديدة لا في إسرائيل؛ أي أنه لا حاجة لإلزام إسرائيل - برأيه - بالانسحاب حتى خطوط الهدنة لعام 1949، إضافة إلى أن الولايات المتحدة تقبل بالسياج الأمني الإسرائيلي. كرر شارون التزام إسرائيل بخطة الطريق وتعهد بأن يكون السياج الأمني حاجزًا مؤقتًا لا حدودًا نهائية، لم يكن لخطاب بوش وزن كبير فيما يخص المفاوضات في المستقبل، فقد كرر مواقف اتخذها الرئيس الأسبق كلينتون بشأن اللاجئين والحدود، ورغم ذلك أثار الخطاب غضبًا في العالم الإسلامي، خسرت خطة الانسحاب من جانب واحد الاستفتاء الذي أجري داخل حزب الليكود يوم 2 أيار 2004 فاقترح شارون نسخة معدلة منها، وفي أيار نفذت إسرائيل عملية عسكرية واسعة في غزة (عملية قوس قزح) قتلت فيها أكثر من 40 شخصًا وشردت الآلاف وأثارت غضبًا دوليًا.

وفي أواخر تشرين الأول أقر البرلمان الإسرائيلي (الكنيست) قانون فك الارتباط في القراءة الأولى، مما أدى إلى خروج الحزب القومي الديني اليميني من الحكومة التي تراجعت أغلبيتها النيابية إلى 55 مقعدًا بسبب خروجه.

اغتيال الدكتور عبد العزيز الرنتيسي في 17 نيسان 2004

قتل جيش الدفاع الإسرائيلي زعيم حماس المنتخب حديثًا عبد العزيز الرنتيسي، ومن الواضح أن د. محمود الزهار قد انتخب ليحل محله، لكن من غير إعلان رسمي عن ذلك خشية الانتقام الإسرائيلي، ويقال إن الزهار هو الأخير الباقي على قيد الحياة من بين سبعة أشخاص أسسوا حركة حماس، أما الستة الباقون فقد اغتالتهم إسرائيل جميعًا.



حكومة أحمد قريع بعد فترة طويلة من المفاوضات

شكَّل أحمد قريع حكومة دائمة، وبدأت التحركات من أجل التوصل إلى وقف إطلاق النار وتجديد المفاوضات مع الإسرائيليين، لكن حصيلة هذه التحركات كانت قليلة جدًا، ففي 19 تشرين الثاني اتخذ مجلس الأمن الدولي القرار رقم 1515 الذي اعتمد خطة الطريق التي وضعتها اللجنة الرباعية من أجل السلام، ودعا الأطراف إلى الوفاء بما يترتب عليها بموجب هذه الخطة، لكن التوغلات الإسرائيلية تواصلت وبدا الفلسطينيون من جانبهم غير مستعدين لضبط فصائل المقاومة، أو غير قادرين على ذلك.

أعلن عن لقاءات مرتقبة بين رئيسي الوزراء أحمد قريع وآرييل شارون، وكثرت الشائعات والتكهنات بشأنها لكنها تبخرت، ولحين من الوقت كان قريع يعلن أنه لن يجتمع مع شارون حتى توقف إسرائيل بناء السياج الأمني، لكن عندما أعلن شارون خطة فك الارتباط من جانب واحد وبدا أنه صادق في ذلك، صار قريع قلقًا من أن يكون انسحاب الإسرائيليين دون مفاوضات نصرًا لحماس والجهاد الإسلامي، الخصمين السياسيين لمنظمة التحرير الفلسطينية التي تدير السلطة الوطنية الفلسطينية، واللذين يأملان في وراثة الزعامة الفلسطينية، أعلن قريع عند ذلك استعداده للاجتماع مع شارون وأن هذا الاجتماع سيحدث بكل تأكيد في أواخر شباط، لكن المفاوضات الرامية إلى وضع جدول أعمال هذا الاجتماع تأجل لأسبابٍ كثيرة، من بينها وقوع تفجيرات استشهادية وقيام إسرائيل بمزيد من الاغتيالات.

فوضى في غزة في هذه الأثناء، صار من الواضح أن قريع غير قادر على الحكم فعلاً رغم بعض النجاح في ميدان تحسين الشفافية المالية، نزولاً عند مطالب الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة، وفي أوائل 2004 وردت أخبار كثيرة عن الفوضى وانعدام القانون في المناطق الفلسطينية، وعند نهاية شهر شباط أعلن رئيس الأمن الفلسطيني السابق محمد دحلان أن السلطة الفلسطينية ما عادت قادرة على لجم كتائب شهداء الأقصى المنشقة عن فتح، والتي كانت مسؤولة عن كثير من التفجيرات الانتحارية، أما محاولات توحيد الأجهزة الأمنية، التي عرقلها عرفات، فقد انتهت بالشقاق والاتهامات المتبادلة، وفي 26 شباط وعد الرئيس عرفات بإجراء الانتخابات التي طال تأجيلها؛ لكن كثيرًا من الفلسطينيين لم يصدقوا هذا الوعد، وفي نابلس سادت حالة من انعدام القانون واستقال محافظ المدينة.

اندلع العنف في غزة يوم 18 تموز 2004 بين فصائل من حركة فتح، اختطفت إحدى المجموعات قائد الشرطة غازي الجبالي وعددًا من المواطنين الفرنسيين، ثم أطلقت سراحهم شريطة مثول الجبالي أمام القضاء، أعاد ياسر عرفات تنظيم الأمن وعين ابن شقيقه موسى عرفات مسؤولاً عن قوات الأمن الفلسطينية، ردت القوى المعارضة باجتياح مقر موسى عرفات، وبعد ذلك أعلن رئيس الوزراء أحمد قريع استقالته فلم يقبلها عرفات، لكن قريع أصر على الاستقالة، أعلن عرفات عن سحب تعيين موسى عرفات؛ لكنه أعلن أيضًا أن موسى سيظل مسؤولاً عن الأمن في غزة، استدعت المطالبات اللاحقة بالإصلاح مزيدًا من التصريحات من جانب عرفات،

وعندما لم ينفذ شيء من تلك التصريحات؛ أعلن أعضاء المجلس الوطني الفلسطيني تأجيل اجتماعه احتجاجًا.

الوضع الأمني في عام 2004

لم تقع هجمات كبيرة ناجحة خلال ربيع وصيف 2004 رغم كثرة المحاولات، وقد عزا الفلسطينيون والإسرائيليون ذلك الهدوء النسبي إلى السياج الأمني الذي أنجز جزئيًا وإلى تحسن أداء الاستخبارات الإسرائيلية، واصلت إسرائيل اعتقال وقتل الفلسطينيين المنتمين للمقاومة، وواصلت احتلال المدن الفلسطينية في الضفة الغربية. وفي 31 آب 2004 ارتكبت حماس هجومًا استشهاديًا مزدوجًا في بئر السبع انتقامًا لقتل قادتها، جاء المهاجمون من منطقة تقع جنوب مدينة الخليل في الضفة الغربية حيث لم يجر بناء السياج الأمني بعد، أدى الهجوم إلى تسريع بناء الجدار ونفذت إسرائيل انتقامًا دمويًا من خلال قصف مخيم تدريب لحماس في غزة، وفي تشرين الأول 2004 نفذت إسرائيل عملية "أيام الندم" من أجل إيقاف تساقط الصواريخ الفلسطينية على البلدات الإسرائيلية، قُتل وشرّد في هذه العملية كثير من المدنيين.

الفصل السادس عشر : محادثات السلام السورية الإسرائيلية

انطلقت محادثات السلام بين سوريا وإسرائيل بعد مؤتمر مدريد للسلام، ويقال إن الجانبين توصلا في أيار 1995 إلى إنجاز اتفاقية سلام تفصيلية تتضمن انسحابًا إسرائيليًا من مرتفعات الجولان التي احتلتها إسرائيل عام 1967 ثم قامت بضمها في وقتٍ لاحق، وفي المقابل، يعترف السوريون بإسرائيل ويسمحون بتجارة طبيعية معها وبإقامة محطات إنذار مبكر إسرائيلية على الأراضي السورية، كان الوعد الإسرائيلي بالانسحاب من الجولان كله قد قدم بشكل غير مباشر من رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق رابين إلى وزير الخارجية الأمريكي وارن كريستوفر، بصفة "وديعة" يجري تقديمها إلى السوريين إذا وافقوا على بقية الشروط الإسرائيلية، وقد أطلق على هذه الوديعة أيضًا اسم "الجيب" بسبب ما قيل من أن رابين قال لكريستوفر "ضع هذه في جيبك" حتى تتحقق بقية الشروط.

وخلال المفاوضات، خالف كريستوفر هذا التفاهم مع رابين وأخبر الأسد عن "الوديعة"، وخلال فترة استمرار المفاوضات كان رابين يكثر من ترديد شعار: "سيكون عمق الانسحاب مساويًا لعمق السلام"، مشيرًا إلى أن إسرائيل ستكون مستعدة للانسحاب حتى خطوط الهدنة مقابل السلام الحقيقي، لكن المفاوضات مع حكومة رابين لم تستمر فقد اغتيل رابين يوم 5 تشرين الثاني 1995.

تم تجديد المفاوضات في كانون الثاني 2000 من قبل رئيس الوزراء إيهود باراك، لكنها انتهت بالفشل أخيرًا في 27 آذار 2000، أصرت سوريا على مواصلة المفاوضات من النقطة التي توقفت عندها، بما في ذلك "وديعة رابين". والواقع أن رابين وعد في "وديعته" بالانسحاب حتى خطوط 4 حزيران، لكن باراك ما كان راغبًا في تقديم ذلك، على أن باراك وافق تحت ضغط الولايات المتحدة، على الوفاء بتعهد الانسحاب حتى خطوط 4 حزيران 1967، مع تغييراتٍ طفيفة. قدم الرئيس الأمريكي كلينتون للرئيس الأسد اقتراحًا إسرائيليًا بالانسحاب حتى خطوط 4 حزيران استنادًا إلى حدود يتفق عليها الطرفان وفقًا للخريطة المبينة هنا، كان هذا الاقتراح منسجمًا مع اتفاقات سابقة تم التوصل إليها مع السوريين، لكن الأسد رفض الاقتراح، توفي حافظ الأسد في 10 حزيران 2000 وحل محله ابنه بشار، وأما المسار السلمي السوري الإسرائيلي فتراجع عن واجهة الأحداث.

بعد أن عارضت سوريا العراق عام 1991 (غزو الكويت) وتعاونت مع الولايات المتحدة، عادت إلى التعاون مع صدام حسين في الحرب العراقية عام 2003، وبعد الحرب استضافت سوريا المنفيين العراقيين، ومن الواضح أنها قدمت المأوى للجماعات المتمردة، تزايد عدم رضا الولايات المتحدة عن دور سوريا، الحقيقي أو المزعوم، في التمرد العراقي وبدأ مسئولوا الإدارة الأمريكية يضغطون على سوريا لمنع المتمردين العراقيين من عبور حدودها إلى العراق وللكف عن دعم المقاومة، بما فيها حزب الله اللبناني وحماس، التي لها مقرات في دمشق. وفي 12 كانون الأول

2003 وقّع الرئيس بوش على قانون محاسبة سوريا واستعادة سيادة لبنان لعام 2003. دعا القانون إلى اتخاذ إجراءات في حق سوريا إذا لم تكف عن دعم ما اسماه "الإرهاب" وإذا لم تنسحب من لبنان، واصلت الإدارة الأمريكية الضغط على سوريا؛ وبعد تدخل سوريا في انتخابات الرئاسة اللبنانية، صدر قرار مجلس الأمن الدولي رقم 1559 الداعي إلى انسحاب سوريا من لبنان، نفذت سوريا القرار ظاهريًا فسحبت جميع قواتها من لبنان بحلول شهر نيسان 2005 عقب اغتيال السياسي اللبناني واسع الشعبية رفيق الحريري.

تجدد إشارات السلام من جانب سوريا عقب إقرار قانون محاسبة سوريا في الولايات المتحدة أعلنت سوريا أنها مستعدة لتجديد المفاوضات مع إسرائيل من أجل التوصل إلى اتفاقية سلام، وذلك من غير شروطٍ مسبقة. لكنها قالت إن من الواجب استئناف المفاوضات من حيث توقفت، كررت سوريا هذه الدعوة مرات كثيرة خلال تشرين الثاني 2004، كانت العبارة المطروحة في بعض الأحيان هي التفاوض "دون شروط" وفي أحيان أخرى دعا السوريون إلى مفاوضات "دون شروط قائمة على وديعة رابين" (أي وعد إسحق رابين بالانسحاب حتى خطوط وقف إطلاق النار عام 1949)، كانت استجابة إسرائيل لهذه البوادر باردة لأن الولايات المتحدة لم تضغط عليها من أجل استئناف المفاوضات، ولأن حكومة الرئيس الأسد واصلت دعم حزب الله وجماعات "المقاومة" الفلسطينية، ومع أن الرئيس الإسرائيلي كتساف دعا إلى التقاط مبادرة السلام السورية؛ فقد أصر رئيس الوزراء آرييل شارون ووزير خارجيته على أن على سوريا، قبل بدء المحادثات، أن توقف الدعم الذي تقدمه للمقاومة، اغتالت إسرائيل القيادي في حماس عز الدين الشيخ خليل في سوريا يوم 26 أيلول 2004، والظاهر أنها حاولت أيضًا في كانون الأول اغتيال قائد آخر في حماس في دمشق.

الفصل السابع عشر : وفـاة ياسر عرفات

توفي رئيس السلطة الفلسطينية، زعيم منظمة التحرير الفلسطينية المزمن، ياسر عرفات في 11 تشرين الثاني 2004، تاركًا خلفه مستقبلاً غير واضح. ثمة بعض المؤشرات إلى أن وفاة عرفات فتحت إمكانيات جديدة من أجل السلام، وكذلك من أجل الإصلاح والديمقراطية في السلطة الفلسطينية.



- عرفات مع كبير حاخامي إسرائيل -

بدأ التحضير للانتخابات الفلسطينية بطريقة منظمة؛ وكان محمود عباس أبرز المرشحين، وأعلن قائد كتائب شهداء الأقصى مروان البرغوثي، السجين لدى إسرائيل بسبب صلته بكثير من الهجمات الاستشهادية، عن ترشيح نفسه بصفته مرشحًا مستقلاً، لكنه سحب ترشيحه أواسط شهر كانون الأول تحت ضغط من حركة فتح، تكررت وعود عباس خلال حملته الانتخابية بمواصلة القتال من أجل الدولة الفلسطينية وعاصمتها القدس ومن أجل حق عودة اللاجئين الفلسطينيين، لكنه قال لصحيفة الشرق الأوسط اللندنية إن الانتفاضة العنيفة كانت خاطئة وإن على الفلسطينيين السعي إلى تحقيق أهدافهم بالوسائل الدبلوماسية، وجرى تقليل التحريض ضد إسرائيل في الإعلام الفلسطيني بتوجيهاتٍ صدرت عن عباس.

لم تقع خلال هذه الفترة هجمات عنيفة ناجحة ضد المدنيين داخل إسرائيل؛ لكن جرى إطلاق قذائف الهاون على المستوطنات الإسرائيلية في غزة إضافةً إلى قيام فلسطينيين بنسف نقطة حدودية عسكرية إسرائيلية عند الحدود بين غزة ومصر، واصلت إسرائيل اعتقال قادة المقاومة الفلسطينيين واغتيالهم وواصلت احتلال مدن الضفة الغربية وشن الغارات على بعض الأهداف في غزة ردًا على ما يقوم به الفلسطينيون، كما واصلت هدم البيوت وتخريب كروم الزيتون ومضايقة الفلسطينيين عند حواجز التفتيش، قتل كثير من الأطفال الفلسطينيين في هذه الغارات، وقد وجهت

انتقادات إلى الجيش الإسرائيلي في إسرائيل والخارج بسبب لامبالاته بأرواح المدنيين وباحتمال ارتكابه جرائم حرب.

العلاقات مع مصر بعد وفاة عرفات

تحسنت العلاقات الإسرائيلية المصرية وخاطب الرئيس المصري حسني مبارك رئيس الوزراء الإسرائيلي آرييل شارون بكلماتٍ دافئة، وفي أوائل كانون الأول أطلقت مصر سراح الإسرائيلي عزام عزام الذي مضت عليه ثمانية أعوام في السجن بسبب اتهامه بالتجسس، وهو اتهام ينكره عزام، وفي الوقت عينه أطلقت إسرائيل سراح ستة طلاب مصريين اتهموا بالتآمر لقتل جنود إسرائيليين، وفي وقتٍ لاحق أطلقت إسرائيل سراح عدد من السجناء الفلسطينيين في "بادرة تجاه مصر" رغم ما قيل عن عدم وجود صلة بين الإجراءات المصرية والإسرائيلية، وفي أواسط كانون الأول وقَّعت كل من مصر وإسرائيل والولايات المتحدة معاهدة المناطق الصناعية المؤهلة التي تمنح مصر مزايا تجارية في الولايات المتحدة الأمريكية لقاء المشاريع المشتركة بين مصر وإسرائيل، قام وزير الخارجية المصري أحمد أبو الغيط ورئيس المخابرات المصرية عمر سليمان بزيارة القدس، ورغم تحسن العلاقات لم تعد مصر سفيرها إلى إسرائيل بعد أن استدعته في أعقاب انفجار أحداث العنف عام 2000.

الفصل الثامن عشر : عباس يخلف عرفات

تم انتخاب محمود عباس رئيسًا للسلطة الفلسطينية في 9 كانون الثاني 2005 إذ حصل على 61% من الأصوات، ونال أهم منافسيه مصطفى البرغوثي 20%، ومع مشاركة أكثر من 60% ممن يحق لهم الانتخاب، رغم الصعوبات الناجمة عن الاحتلال الإسرائيلي ومقاطعة الانتخابات من قبل الجماعات الإسلامية، وجه الرئيس الأمريكي جورج بوش الدعوة إلى عباس بزيارة واشنطن بعد سنواتٍ طويلة من امتناع البيت الأبيض عن استقبال أي زعيم فلسطيني، وأعلن رئيس الوزراء الإسرائيلي شارون أنه يعتزم الاتصال بعباس والتخطيط لعقد اجتماع بينهما.

حكومة الوحدة الوطنية في إسرائيل بسبب عدم رضا اليمين الإسرائيلي عن خطة فك الارتباط التي طرحها رئيس الوزراء آرييل شارون، قرر الحزب الوطني الديني ترك الحكومة وحاول أعضاء منشقون من حزب الليكود الحاكم بزعامة شارون منع تشكيل حكومة وحدة وطنية مع حزب العمل، جرى إخراج حزب الوسط شينوي من الحكومة وتم تشكيل تحالف مع حزب العمل الإسرائيلي وحزب التوراة الموحد، فازت الحكومة الجديدة بثقة الكنيست بفارق بسيط (58 مقابل 56) مع امتناع عدد من نواب حزب الليكود عن التصويت.

في مؤتمر شرم الشيخ دعا الرئيس الفلسطيني محمود عباس بعد انتخابه جميع الفصائل الفلسطينية لإنهاء العنف والتفاوض على اتفاقية هدنة وتم نشر قوات الشرطة الفلسطينية في قطاع غزة مع أوامر واضحة بمنع الهجمات الإرهابية، اتفقت الأطراف على عقد مؤتمر قمة تستضيفه مصر في شرم الشيخ يوم 8 شباط 2005، وفي ذلك المؤتمر الذي حضره الملك الأردني الملك عبد الله والرئيس المصري مبارك إضافةً إلى الزعيمين الإسرائيلي والفلسطيني، أعلن الجانبان إنهاء العنف، وقالت التقارير الصحفية إن إسرائيل ستطلق سراح أكثر من 900 سجين فلسطيني وتنسحب تدريجيًا من المدن الفلسطينية، وأعلنت مصر والأردن عن إعادة سفيريهما إلى إسرائيل، اعتبرت الانتفاضة منتهية من الوجهة الرسمية. لكن وعلى غرار ما كان يحدث بعد القمم التي من هذا النوع، سرعان ما تحطمت آمال السلام بفعل تفجير استشهادي في تل أبيب يوم 25 شباط، كان من الواضح أن حركة الجهاد الإسلامي التي تسيطر عليها دمشق هي من ارتكبه، أعلنت إسرائيل تجميد التسليم المخطط للمدن الفلسطينية إلى قوات الأمن الفلسطينية، أدان محمود عباس التفجير وقامت السلطة الوطنية الفلسطينية بالاعتقالات بين الناشطين الفلسطينيين بهدف منعهم من مقاومة إسرائيل.

قرار فك الارتباط بُعيد مؤتمر شرم الشيخ

وافق الكنيست الإسرائيلي على خطة فك الارتباط ثم وافقت عليها الحكومة الإسرائيلية يوم 20 شباط، دعت هذه الخطة إلى إخلاء من جانب واحد لإحدى وعشرين مستوطنة في غزة وأربع مستوطنات في الضفة الغربية مع حلول صيف 2005، وكان من المفترض أن يجري تنسيق فك الارتباط مع السلطة الفلسطينية، وقد وعد محمود عباس الذي كان رئيسًا للوزراء في ذلك الوقت بالمساعدة على ضمان الهدوء أثناء إخلاء المستوطنات.

مؤتمر لندن عقد في لندن يوم 1 آذار 2005، مؤتمر استضافته بريطانيا، كان هدف المؤتمر تنظيم الدعم المالي للحكومة الفلسطينية والمساعدة في تنظيم قوات الأمن الفلسطينية، لم تحضر إسرائيل هذا المؤتمر ولم يتم التعرض المباشر للقضايا الثنائية، لكن الرئيس الفلسطيني عباس قال إن إنهاء الاحتلال وتحقيق السلام هدفان يتصدران أولويات الفلسطينيين.

مؤتمر القاهرة والتهدئة، اجتمعت الجماعات المقاتلة الفلسطينية في القاهرة أواسط شهر آذار ووافقت على التهدئة التي كانت أقل من هدنة، بدأت تحركات حماس والجهاد الإسلامي من أجل الانضمام إلى منظمة التحرير الفلسطينية، وأعلنت حماس اعتزامها المشاركة في انتخابات المجلس التشريعي الفلسطيني المقرر إجراؤها في أيار، انسحبت إسرائيل من أريحا؛ ثم انسحبت من طولكرم بعد أسبوع، أوقفت إسرائيل انسحابها من مدينة فلسطينية ثالثة في ذلك الشهر لأنها زعمت أن السلطة الفلسطينية لم تكن تقوم بنزع أسلحة من الفلسطينيين وفقًا لما تنص عليه خطة الطريق، واصلت إسرائيل خلال هذه الفترة اعتقال مقاتلين يقومون بالتخطيط لشن هجمات أو بتهريب الأسلحة؛ لكن قوات السلطة الفلسطينية قامت أيضًا برصد وإجهاض نشاطات فلسطينية أخرى، وفي نهاية آذار قام مقاتلون من كتائب شهداء الأقصى بإطلاق النار على مقر عباس في رام الله بسبب سخطهم إزاء التغيرات في السلطة الفلسطينية، ورغم إعلان السلطات انتهاج سياسة متشددة مع المنشقين؛ أعاد عباس حساباته وقرر محاولة تلطيف الاختلافات، وقد استقال رئيس المخابرات الفلسطينية في الضفة الغربية توفيق الطيراوي بسبب ضعف الجهود المبذولة من أجل تحقيق سيادة القانون، كما قال.

القمة العربية واقتراح السلام

تجاهلت القمة العربية المنعقدة في الجزائر معظم القضايا الملحة في العالم العربي ورفضت مبادرة سلام جديدة قدمها ملك الأردن عبد الله، وبدلاً من ذلك كررت القمة دعمها لمبادرة السلام السعودية التي اعتمدتها قمة بيروت عام 2002 ورفضتها إسرائيل، وقد أشارت إسرائيل إلى أن هذه المقترحات غدت قديمة الآن بفعل التغيرات التي طرأت على واقع الشرق الأوسط.

النقاط العسكرية غير الشرعية في آذار 2005، وافقت الحكومة الإسرائيلية على تقرير عن النقاط العسكرية جرى إعداده من قبل تاليا ساسون بناءً على طلب من الحكومة، يتحرى التقرير أوضاع عدد كبير من النقاط العسكرية غير الشرعية التي تمت إقامتها في الضفة الغربية من غير موافقة رسمية أو تفويض حكومي بعد آذار 2001، ثمة 20 – 30 نقطة عسكرية كان من المفترض إخلاؤها بموجب خريطة الطريق، وقد فشلت قرارات ومحاولات حكومية متكررة لإخلاء هذه النقاط، شكلت الحكومة لجنة لدراسة التقرير، لكنها لم تتخذ أي إجراء.

الجدل بشأن المستوطنات، كان الفلسطينيون مستاءين من تواصل بناء السياج الأمني الذي يعزل أحياء فلسطينية في القدس، وكذلك من الخطط الإسرائيلية المعلنة لبناء عدة آلاف من الوحدات السكنية الجديدة في المنطقة (E1) قرب مستوطنة معالي أدوميم شرقي القدس، تقع مستوطنة معالي أدوميم ضمن أراضي إسرائيل بموجب اتفاقية جنيف، لكن خريطة الطريق تمنع البناء في المستوطنات، وفي رسالة بعثها إلى آرييل شارون ردًا على إعلان شارون رسميًا عن خطة فك الارتباط، قال الرئيس بوش إن على إسرائيل بشأن حدود الاستيطان النهائية أن تأخذ في حسبانها التغيرات الناجمة عن ارتفاع كثافة السكان الإسرائيليين في المناطق المحتلة، لعل الإعلان الإسرائيلي كان مصممًا من أجل اختبار هذا التصريح، ومن أجل تعزيز شعبية شارون الواسعة في أوساط مؤيدي اليمين الإسرائيلي. في البداية، شجب كل من وزيرة الخارجية الأمريكية كوندوليزا رايس والسفير دان كورتزر التصريح الإسرائيلي، وقد أثار رد فعلهما سخط منتقدي شارون اليمينيين وسخط رئيس الوزراء السابق إيهود باراك الذي زعم أن هذا دليل على عدم قيمة الوعود الأمريكية، غيَّر كورتزر ورايس أقوالهما وأنكرا وجود خلاف في الرأي مع الإسرائيليين فيما يخص خطط الاستيطان.

الحركة من غير اتجاه خلال شهري نيسان وأيار، زار الرئيس الأمريكي كل من آرييل شارون ومحمود عباس، كانت هذه الزيارة كبيرة الأهمية من الناحية الرمزية لأنها دليل على أن الولايات المتحدة أنهت عزلة السلطة الفلسطينية، التي بدأت عندما فشل عرفات في اتخاذ أي إجراء ضد المقاومة، وعد الرئيس بوش الفلسطينيين بمساعدات مباشرة بقيمة 50 مليون دولار، إضافةً إلى مبالغ أكبر مخصصة لتقديم المساعدة من خلال المنظمات غير الحكومية، وصرح بوش أن خطوط هدنة 1949 هي أساس أي اتفاق، أثارت هذه النقطة الأخيرة جدلاً في إسرائيل لسببٍ ما، ومن ثم اتضح أنها متفقة مع صياغة الرسالة التي سلمها بوش إلى شارون في نيسان 2004، وبرغم ذلك الصخب كله، لم ينتج عن اجتماع بوش مع شارون أو مع عباس أي تغير واضح في عدم استعداد إسرائيل لتقديم تنازلات للفلسطينيين، أو في عدم استعداد الفلسطينيين لاتخاذ خطوات حاسمة لإنهاء

العنف من خلال اعتبار فصائل المقاومة خارجة على القانون وتجريدهم من أسلحتهم ومكافحة هجماتهم مكافحة فعالة، واعتقال المطلوبين وجمع الأسلحة غير الشرعية، أطلق الإسرائيليون سراح نحو 400 سجين فلسطيني كبادرة حسن نية تجاه عباس، وكان من بين هؤلاء للمرة الأولى، سجناء "تلطخت أيديهم بالدم" ممن شاركوا في هجمات سقط فيها قتلى أو جرحى، لكن الفلسطينيين قللوا من شأن هذه البادرة واعتبروها عديمة المعنى لأن معظم هؤلاء السجناء شارفوا على إنهاء أحكامهم ولأن عددًا ضخمًا من السجناء ما يزال في سجون إسرائيل، وأشار الفلسطينيون إلى أن إسرائيل لم تطلق سراح أي سجين معتقل منذ ما قبل عام 1994؛ وبالتالي فإن السجناء المطلق سراحهم لا يحققون الشروط المتفق عليها في شرم الشيخ.

استمرت الهجمات الفلسطينية وخاصةً باستخدام الصواريخ وقذائف الهاون التي تستهدف مستوطنات غزة وبلدات منطقة النقب، سافر الرئيس عباس إلى غزة وحصل على التزام غير متحمس من قبل الفصائل المتطرفة باحترام التهدئة طالما احترمتها إسرائيل؛ لكن هذا لم يحل دون تواصل الهجمات الفلسطينية والانتقامات الإسرائيلية واعتقال المطلوبين، ألقت إسرائيل القبض على استشهادي فلسطيني يبلغ 15 عامًا عند حاجز تفتيش في الضفة الغربية، ثم ألقت القبض في وقت لاحق على شابة كانت في طريقها إلى تنفيذ هجمة انتحارية ضد مستشفى إسرائيلي، وكانت كتائب شهداء الأقصى التابعة لفتح هي من أرسلها، تقول الإحصائيات الفلسطينية إن إسرائيل قتلت 40 فلسطينيًا في تلك الفترة وجرحت 411 واعتقلت نحو 1000 مدني كان سبب اعتقال معظمهم هو تجاوز مدة تصريح الإقامة في إسرائيل، كان أكثر القتلى من الرجال المطلوبين أو ممن في سبيلهم إلى شن هجمات استشهادية، وفي أواخر حزيران وصلت وزيرة الخارجية الأمريكية كوندوليزا رايس فاجتمعت مع الجانبين، وأعلنت أنهما وافقا على تدمير المنازل في مستوطنات غزة بعد انسحاب إسرائيل.

وفي 21 حزيران 2005 اجتمع شارون وعباس في قمة طال انتظارها، لكن هذه القمة لم تسفر عن أي نتيجة ظاهرة إلا تصريح آرييل شارون بأنه حصل على موافقة الفلسطينيين على تنسيق عملية الانسحاب من غزة، لن تقدم إسرائيل أي تنازلات فيما يخص الأمن إلا إذا تحرك الفلسطينيون ضد من تسميهم الإرهابيين، ولن يتخذ الفلسطينيون أي إجراء حاسم ضدهم، لم يصدر أي إعلان عن القمة، وأعلنت القيادة الفلسطينية عن عدم رضا عميق، قال الفلسطينيون إن عددًا كبيرًا من المطلوبين أعلنوا استعدادهم للانضمام إلى الشرطة الفلسطينية في حين قال الإسرائيليون إنهم أقنعوا وكالة المساعدات الأمريكية (US AID) بتقديم 500 مليون دولار إلى المستشفيات الفلسطينية على شكل معدات طبية، أما من ناحيتها، فقد أنهت الولايات المتحدة الحظر الذي فُرض منذ 18 شهرًا على الزيارات الدبلوماسية إلى غزة عندما قتل موظفوا إغاثة في هجومٍ إرهابي، وعند ذلك استؤنفت زيارات الدبلوماسيين الأمريكيين إلى غزة.

ومع عودة العنف بعد القمة، شنت إسرائيل غارات جوية ضد منصات إطلاق الصواريخ في غزة، فقتلت كثيرًا من حركة الجهاد الإسلامي وأعلنت أنها سوف تستأنف سياسة استهداف قادة هذه الجماعة الإرهابية بالقتل.

وفي فلسطين تواصلت المظاهرات (بل حتى الهجمات المسلحة) ضد القيادة الفلسطينية، وواصلت شعبية حماس ارتفاعها (وهي الآن تعتزم خوض الانتخابات التشريعية)، ولعلها ازدادت بفعل اجتماعات - فعلية أو من صنع الشائعات - جرت بين مسؤولين في الاتحاد الأوروبي وبين ممثلين

من حماس، وبفعل وجود دعوات متكررة في الولايات المتحدة من أجل الاعتراف بحماس، دعا رئيس الوزراء البريطاني والرئيس عباس حماس إلى وقف العنف والانضمام إلى العملية السلمية، لكن حماس رفضت في البداية مع قبولها بهدنة قصيرة المدى، أعلن الرئيس عباس عن تأجيل الانتخابات التشريعية عدة أشهر من أجل تعديل قانون الانتخابات، وفي أوائل شهر أيلول وجه عباس الدعوة إلى حماس والجهاد الإسلامي للانضمام إلى حكومة وحدة وطنية.

يعزى الاستعصاء الذي شهدته هذه الفترة إلى عوامل كثيرة، لم يكن أي جانب يملك القوة السياسية الكافية لتقديم تنازلات فيما يخص قضايا الحل النهائي، لا معنى لتلك المفاوضات مع إصرار شارون على عدم إمكانية تقسيم القدس ومع إصرار عباس على أن تكون القدس عاصمة للفلسطينيين، وعلى عدم تقديم أي "تنازل" فيما يخص عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى إسرائيل، كان على عباس تحقيق الفوز لحركة فتح في الانتخابات التشريعية وما كان قادرًا على فعل أي شيء يمكن أن يستعدي المتعاطفين مع المتطرفين، ومن ناحيةٍ أخرى كان شارون قد بذل كل ما لديه من أجل عملية فك الارتباط في غزة فما عاد قادرًا على توفير أي دعم سياسي لتنازلات أخرى، فإن حدث عنف فلسطيني بعد تقديم أي تنازل، فقد يستخدم ذريعة إيقاف تنفيذ فك الارتباط، ومع تواصل الهجمات الفلسطينية على المستوطنات، وتواصل تحريض اليمين الإسرائيلي ضد خطة فك الارتباط، تراجع تأييد الإسرائيليين للانسحاب من أكثر من 65% إلى نحو 50%، لكن رئيس الأركان الإسرائيلي الجديد دان حالوتس أشار إلى أن الأحداث العسكرية العارضة لن توقف فك الارتباط، يمكن وقف فك الارتباط من خلال قرار سياسي فقط، وقد هددت إسرائيل أيضًا بأنها ستتخذ - عند الضرورة - إجراءات حاسمة لضمان عدم تعرض المستوطنين والجنود للهجمات خلال عملية الإخلاء.

الاحتجاجات على فك الارتباط، نفذ المستوطنون المحتجون على فك الارتباط احتجاجات متزايدة الشدة تضمنت قطع طرق في إسرائيل وأعمال عنف ضد الفلسطينيين والشرطة وجنود الجيش الإسرائيلي، وكذلك دعوات إلى الجنود تحثهم على رفض المشاركة في إخلاء المستوطنين، وفي نهاية حزيران حاول مؤيدوا المستوطنين (الذين اتخذوا مسكنًا لهم في فندق ماوز يام المهجور في غزة) الاستيلاء على منازل فلسطينية وهاجموا شابًا فلسطينيًا عمره 18 عامًا. داهمت الشرطة الإسرائيلية الفندق وأخرجت المستوطنين بالقوة، وفي 13 تموز، أغلقت الحكومة الإسرائيلية قطاع غزة أمام مواطنين إسرائيليين من غير سكان المستوطنات كانوا يعتزمون القيام بمسيرة نظمها مجلس المستوطنات.

انتهاء الهدنة في 13 تموز حيث قام استشهادي من حركة الجهاد الإسلامي من طولكرم بتفجير في نتانيا نتج عنه قتل خمسة أشخاص، احتل جيش الدفاع الإسرائيلي مدينة طولكرم واعتقل كثيرًا من أعضاء الجهاد الإسلامي وقتل شرطيًا فلسطينيًا فتح النار على الجيش الإسرائيلي، انتقمت حماس في غزة بأن أمطرت مستوطنات غزة والبلدات الإسرائيلية بسيل من الصواريخ، نجم عنه مقتل شخص واحد، وردًّا على هذا شن جيش الدفاع هجمات صاروخية في غزة وطارد قادة عسكريين من حماس في منطقة الخليل، مما أدى إلى قتل 8 أو أكثر من أعضاء حماس، وقد قتل بعضهم وهم يهمون بإطلاق صواريخ جديدة، وفي 15 تموز اندلعت معركة عنيفة بين قوات السلطة الفلسطينية التي كانت تحاول استعادة النظام وبين عناصر حركة حماس في غزة، قتل مدنيان فلسطينيان في هذه المعركة.

واصلت إسرائيل اعتقال قادة المقاومة الفلسطينيين واغتيالهم، كما واصلت احتلال مدن الضفة الغربية وشن الغارات على بعض الأهداف في غزة ردًا على ما يقوم به الفلسطينيون، كما واصلت هدم البيوت وتخريب كروم الزيتون ومضايقة الفلسطينيين عند حواجز التفتيش، قتل كثير من الأطفال الفلسطينيين في هذه الغارات، وقد وجهت انتقادات إلى الجيش الإسرائيلي في إسرائيل والخارج بسبب لامبالاته بأرواح المدنيين وباحتمال ارتكابه جرائم حرب.

العلاقات مع مصر

بعد وفاة عرفات؛ تحسنت العلاقات الإسرائيلية المصرية، وخاطب الرئيس المصري حسني مبارك رئيس الوزراء الإسرائيلي آريل شارون بكلماتٍ دافئة، وفي أوائل كانون الأول أطلقت مصر سراح الإسرائيلي عزام عزام الذي مضت عليه ثمانية أعوام في السجن بسبب اتهامه بالتجسس، وهو اتهام ينكره عزام، وفي الوقت عينه أطلقت إسرائيل سراح ستة طلاب مصريين اتهموا بالتآمر لقتل جنود إسرائيليين، وفي وقتٍ لاحق أطلقت إسرائيل سراح عدد من السجناء الفلسطينيين في "بادرة تجاه مصر" رغم ما قيل عن عدم وجود صلة بين الإجراءات المصرية والإسرائيلية، وفي أواسط كانون الأول وقَّعت كل من مصر وإسرائيل والولايات المتحدة معاهدة المناطق الصناعية المؤهلة التي تمنح مصر مزايا تجارية في الولايات المتحدة الأمريكية لقاء المشاريع المشتركة بين مصر وإسرائيل، قام وزير الخارجية المصري أحمد أبو الغيط ورئيس المخابرات المصرية عمر سليمان بزيارة القدس، ورغم تحسن العلاقات لم تعد مصر سفيرها إلى إسرائيل بعد أن استدعته في أعقاب انفجار أحداث العنف عام 2000.

وبعد تبين عجز الغارات الجوية الإسرائيلية في إيقاف صواريخ حزب الله أو في التوصل إلى قرار مُرضٍ من أجل وقف إطلاق النار، نفَّذت إسرائيل غزوًا بريًا محدودًا في لبنان، ترافقت فيه التحركات المتقطعة غير الحاسمة مع تصريحات هجومية من جانب شخصيات إسرائيلية عامة، تواصلت الجهود من أجل التوصل إلى وقف إطلاق نار يكون مُرضيًا للطرفين، كانت مطالب إسرائيل الرئيسية تشمل تطبيق قراري مجلس الأمن 1559 و1680 (أي نزع سلاح حزب الله) ونشر الجيش اللبناني حتى الحدود وانتزاع السيطرة في جنوب لبنان من يد حزب الله، إضافة إلى إعادة الجنديين المختطفين، وقد أرادت إسرائيل والولايات المتحدة أيضًا وجود قوة دولية قوية تشرف على نزع سلاح حزب الله، أما المطالب اللبنانية الرئيسية فتجسدت في خطة من سبع نقاط تضمنت نشر الجيش اللبناني في جنوب لبنان لكنها لم تتضمن نزع سلاح حزب الله، أصر اللبنانيون أيضًا على إعادة السجناء اللبنانيين الذين تحتجزهم إسرائيل وعلى انسحاب إسرائيلي فوري من الأراضي اللبنانية، وطلب لبنان أيضًا استعادة مزارع شبعا التي تحتلها إسرائيل، كانت الأمم المتحدة قد قررت في عام 2000 أن مزارع شبعا (الواقعة في مرتفعات الجولان) جزء من سوريا، أما سوريا فقد رفضت في ذلك الوقت ترسيم الحدود مع لبنان، لكنها قالت إنها تؤيد المطالب اللبنانية.

في 11 آب، تصاعد الهجوم الإسرائيلي الذي لم تكن له خطة واضحة عندما بدا أن الجهود الرامية إلى تحقيق وقف إطلاق النار قد باتت في حالة استعصاء، وبدأت القوات الإسرائيلية تتقدم بالقوة باتجاه نهر الليطاني، الذي يبعد 30 كم إلى الشمال من الحدود الإسرائيلية اللبنانية، لكن مجلس الأمن الدولي اجتمع في ذلك الوقت وأصدر القرار رقم 1701 الداعي إلى وقف الأعمال القتالية وإلى نشر الجيش اللبناني في جنوب لبنان، مع صياغة غامضة فيما يخص عدد من المسائل، أوقف الجانبان القتال يوم 14 آب 2006، وأثار سوء الآداء في هذه الحرب عاصفة من الانتقادات في إسرائيل؛ كما أثار الهجوم الإسرائيلي غضبًا واسعًا في العالم العربي، وكان الجيش الإسرائيلي الذي هاجم لبنان قد مُنِّي بهزيمة نكراء وسقطت عنه أسطورة الجيش الذي لا يقهر، فقد مرغ

مقاتلوا حزب الله اللبناني رأس ذلك الجيش بالتراب بعد أن حقق نصرًا كبيرًا عليه، ودمر معظم قواته الغازية.

الفصل التاسع عشر : الإدانـات

أدانت منظمات حقوق الإنسان الدولية والأمم المتحدة إسرائيل بسبب جريمة الحرب المتمثلة في استخدام القنابل العنقودية في جنوب لبنان، لكن الاتفاقيات الدولية لا تحرم استخدام هذه القنابل، وقد استخدمت في نزاعات سابقة، وقد زعمت تلك المنظمات أيضًا أن إسرائيل تستهدف المدنيين عمدًا، لكن تقريرًا لمنظمةٍ إسرائيلية غير حكومية صدر في كانون الأول وجد أن مقاتلي حزب الله كانوا يختبئون بين السكان المدنيين وأن نحو 700 من القتلى اللبنانيين في هذه الحرب هم من مقاتلي حزب الله، وفي وقتٍ لاحق، أدانت بعض مجموعات حقوق الإنسان (من بينها منظمة العفو الدولية وهيومن رايتس ووتش) حزب الله أيضًا بسبب الإطلاق العشوائي للصواريخ، لكن مجلس حقوق الإنسان في الأمم المتحدة الذي أصدر ثمانية إدانات لإسرائيل خلال عام 2006 امتنع عن إدانة حزب الله أو حركة حماس.

ظل الجنديان الإسرائيليان أسرى لدى حزب الله، وفي كانون الأول تم الكشف عن أنهما جرحا أثناء أسرهما وأن حالتهما الصحية غير مؤكدة، ظلت الحدود هادئة رغم تواصل عملية إعادة تسليح حزب الله من قبل سورية بخطى حثيثة.

وفي 21 تشرين الثاني جرى اغتيال السياسي اللبناني المُعادي لسوريا بيير الجميل، وفي الأول من كانون الأول بعد موافقة حكومة فؤاد السنيورة على طلب إنشاء محكمة دولية لمحاكمة قتلة رفيق الحريري، انسحب وزراء حزب الله من الحكومة اللبنانية وقامت حشود كبيرة منظمة من أنصار حزب الله بمحاصرة مقر رئاسة الحكومة وإسقاط الحكومة اللبنانية، وقد قيل إن المتظاهرين كانوا يطالبون بتمثيل أنصار حزب الله في الحكومة بنسبة الثلث، أو بتعديل الدستور بحيث يوفر تمثيلاً عادلاً للشيعة، أو بحكومة وحدة وطنية.

العنف في غزة خلال الهجوم الإسرائيلي على لبنان وبعده، تواصلت عمليات جيش الدفاع الإسرائيلي من غير هوادةٍ في غزة، مع مواصلة الفلسطينيين إطلاق صواريخ القسام على غربي النقب، ومع إصرار حماس على أنها ملتزمة بالهدنة، ظلت حكومة حماس تتلقى المال من إيران والدول العربية، وقد كانت هذه الأموال تدخل غزة تحت أعين المراقبين الأوروبيين غير اليقظة في معبر رفح، هذا في حين تقدر كمية الأسلحة التي جرى تهريبها إلى غزة عبر أنفاق تم حفرها من الجانب المصري من الحدود بنحو 30 طنًا، ولم تفعل الحكومة المصرية الشيء الكثير لوقف هذه النشاطات.

وخلال شهري تشرين الأول والثاني أطلق الفلسطينيون كمية كبيرة جدًا من صواريخ القسام على غربي النقب وعلى بلدة سديروت خاصةً فقتلوا ثلاثة إسرائيليين، وقد كشفت عملية قام بها جيش الدفاع الإسرائيلي في رفح عن وجود شبكة واسعة من الأنفاق المستخدمة في التهريب، لكن عمليات الجيش الإسرائيلي في شمال غزة الهادفة إلى إيقاف إطلاق صواريخ القسام توقفت تحت ضغط دولي متزايد، مع قتل إسرائيل أكثر من 50 فلسطينيًا، من بينهم كثير من المدنيين، كانت الغاية من العمليات في شمال غزة وقف إطلاق صواريخ القسام لكنها لم تحقق أي نتيجة، وفي إحدى الغارات لجأ مقاتلون فلسطينيون إلى مسجد، ثم بمساعدة نساء تطوعن بلعب دور الدروع

البشرية، قتل جيش الدفاع الإسرائيلي عددًا من تلك النساء، وفي 8 تشرين الثاني أي عقب الانسحاب الإسرائيلي، أثارت رشقة مكثفة من صواريخ القسام ردًا إسرائيليًا عن طريق القصف، لكن القذائف أخطأت هدفها فأصابت حيًا سكنيًا وقتلت عشرين مدنيًا فلسطينيًا، أما المفاوضات بين الإسرائيليين والفلسطينيين من أجل إعادة الجندي المختطف جلعاد شاليط فقد ظلت من غير تقدم مع مطالبة الفلسطينيين بإطلاق سراح أكثر من ألف سجين فلسطيني.

الهدنة في 26 تشرين الثاني، أعلن الفلسطينيون والإسرائيليون عن هدنة مفاجئة تسري في قطاع غزة فقط، ورغم استمرار صواريخ القسام التي يطلقها الفلسطينيون خلال الأيام التالية لإعلان الهدنة إلا أن الهدنة لم تنهار، وفي اليوم الذي أعقب الهدنة أي 27 تشرين الثاني، أعلن رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود أولمرت عن مبادرة دبلوماسية إسرائيلية جديدة تعرض السلام على الفلسطينيين والدول المجاورة، بما ينسجم مع مبادرة السلام العربية، كانت تلك هي المرة الأولى التي يشير فيها الإسرائيلي إلى المبادرة العربية إشارة غير إيجابية بطبيعة الحال، رحب الرئيس الفلسطيني محمود عباس بهذه الكلمة، طبيعي أن يرحب عباس وسلطته بهذا الإعلان من جانب إسرائيل، أما قادة حماس فقد رفضوها، ومن الولايات المتحدة صدر تقرير "مجموعة دراسة العراق" الذي أوصى بمساهمة أمريكية فعالة في عملية السلام الإسرائيلية الفلسطينية، فأعطى دفعة للحديث عن المفاوضات السلمية.

تكرر خرق الهدنة في غزة بفعل رشقات من صواريخ القسام على البلدات الإسرائيلية، وأعلنت حركة الجهاد الإسلامي أنها غير ملتزمة بالهدنة ما لم تشمل الضفة الغربية أيضًا، إلا أن إسرائيل ادعت بأن حزب الله كان يدفع آلاف الدولارات مقابل إطلاق كل صاروخ من صواريخ القسام، ومن الطبيعي أن يكون هذا افتراء على حزب الله اللبناني، أما الحكومة السورية التي كانت تريد استرجاع الجولان وكسر العزلة المفروضة عليها بسبب دورها في العنف في كل من لبنان والعراق وفلسطين، فقد عرضت إجراء مفاوضات سلمية مع إسرائيل "من غير شروط مسبقة"، لكن وزير الدفاع الإسرائيلي إيهود أولمرت رفض هذا العرض زاعمًا إن سوريا تواصل دعم المجموعات الإرهابية.

قمة عباس أولمرت في 23 كانون الأول، اجتمع أخيرًا رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود أولمرت والرئيس الفلسطيني محمود عباس وأعلنا عن بعض التنازلات من أجل جعل الحياة أكثر سهولة على الفلسطينيين، بما في ذلك الإفراج عن أموال الضرائب التي جمدتها إسرائيل وإزالة عدد من حواجز التفتيش على الطرقات، لكن خطة الإفراج عن السجناء بمناسبة عيد الأضحى ألغيت، وافقت إسرائيل بعد القمة على نقل كمية كبيرة من الأسلحة من مصر إلى جماعة فتح الموالية للرئيس عباس، وألمحت وزيرة الخارجية الإسرائيلية تسيبي ليفني في مؤتمر صحفي إلى مبادرة سلام جديدة، اعتبرت هذه الخطوات محاولات لمساندة الرئيس عباس في صراعه مع حكومة حماس بقيادة إسماعيل هنية، والأصح لزيادة التوتر بين السلطة وحركة حماس في غزة، ولكن حماس لم تستجب لمثل هذه التحريض المكشوف.

حكومة الوحدة الوطنية الفلسطينية ومرحلة الفوضى، بعد صدور وثيقة الأسرى الفلسطينيين تواصلت المفاوضات من أجل تشكيل حكومة وحدة وطنية، كانت إسرائيل وسلطة عباس تأملان أن تتمكن من الاعتراف بوجود إسرائيل، ووقف العنف، ونيل اعتراف الغرب بما يسمح للحكومات الغربية باستئناف تمويل السلطة الفلسطينية. حدد الرئيس عباس مهلة أسبوعين لتشكيل الحكومة، ثم

جرى تأجيل الموعد ثم تم نسيانه؛ ثم انتهت المفاوضات بالفشل. وفي 16 كانون الأول أعلن محمود عباس حل الحكومة والدعوة إلى انتخابات جديدة إلا إذا وافقت حماس على قيام حكومة وحدة وطنية. لكنه لم يحدد موعدًا لإجراء تلك الانتخابات، أدى هذا الطرح إلى تجدد العنف بين الفصائل الفلسطينية إذ راحت حماس تتهم فتح بمحاولة اغتيال رئيس الوزراء إسماعيل هنية، فشلت محاولة لإقامة هدنة بين الجانبين، وتم إغلاق المدارس في غزة بسبب تزايد الفوضى، لكن الجانبين توصلا تحت رعاية سعودية في 8 شباط 2007 إلى اتفاق على تشكيل حكومة وحدة وطنية، لم ينص الاتفاق صراحةً على إعلان الاعتراف بإسرائيل أو على تلبية مطالب اللجنة الرباعية في نزع سلاح المقاومة كما كان يطلب عباس، ثم عقدت قمة ثلاثية بين محمود عباس وإيهود أولمرت، ووزيرة الخارجية الأمريكية كوندوليزا رايس في 19 شباط، لكنها فشلت في زحزحة عباس عن موقفه أو في الحصول على تنازلات لصالح الفلسطينيين.

أعمال الإنشاء في جبل الهيكل/ الأقصى تطلق شرارة الشغب بدأت إسرائيل إعادة بناء نفق قرب المسجد الأقصى في القدس وفق مسار جديد، كان النفق قد انهار في عام 2004، وكان المسار الجديد يمر على بُعد 80 مترًا من الأقصى، ورغم موافقة الوقف الإسلامي على المشروع في البداية عاد الشيخ رائد صلاح زعيم الحركة الإسلامية في إسرائيل، فزعم أن هذه الأعمال الإنشائية تلحق الضرر بالمسجد وهدد ببدء انتفاضة جديدة، أنكرت إسرائيل أن هذه الأعمال ضارة بالمسجد، وبعد احتجاجات جرت في العالمين العربي والإسلامي علقت إسرائيل العمل في ذلك النفق لكنها واصلت عمليات التنقيب الأثري.

نصبت إسرائيل كاميرات متصلة بالإنترنت من أجل إظهار ما تقوم به من عمليات ودعت الحكومة التركية إلى تفتيش الموقع، أعلنت تركيا وفريق من اليونسكو أن الأعمال التي قامت بها إسرائيل لم تسبب أي أذى، لكن فريق اليونسكو طلب من إسرائيل وقف الأعمال حتى يمكن وضعها تحت إشراف دولي، وفي تموز أعلنت السلطات الإسرائيلية إلغاء المشروع.

تفكك السلطة الفلسطينية تواصلت حوادث معزولة نتج عنها إصابات بين المدنيين، إضافةً إلى اشتباكات بين مناصري كل من حماس وفتح، ثم تفاقم الوضع في غزة في عام 2006 وفي الجزء الأول من عام 2007، وترافق ذلك كله مع إطلاق يومي لصواريخ القسام على بلدة سديروت، وتضمنت حالة الفوضى قتل عدد من الفلسطينيين واختطاف فلسطينيين وأجانب، جرى اختطاف مراسل هيئة الإذاعة البريطانية آلان جونستون على يد جماعة طرحت مطالب متنوعة، وزعمت الحكومة الفلسطينية أنها غير قادرة على تحريره، لكن حماس حررته فعلاً في 4 تموز في عملية وصفها الناطق باسم فتح "ياسر عبد ربه" بأنها "مسرحية مرتبة".

وفي حزيران 2007 اندلع قتال شديد بعد ما قيل من قيام ناشطين من فتح بإطلاق قنبلة ذات دفع صاروخي إلى داخل منزل رئيس الوزراء الفلسطيني إسماعيل هنية، وهو أيضًا زعيم حركة حماس في غزة، انتقمت قوات حماس بمهاجمة ناشطي فتح الذين يفوقونها عددًا، وبمهاجمة الشرطة الفلسطينية التابعة لفتح، وبقية القوات الحكومية في غزة، ورغم أن قوات حماس تقدر بأقل من 3000 مقاتل، في حين يفترض أن قوات فتح تقارب 40000 عنصرًا، تمكنت حماس من طرد فتح من جميع معاقلها، أظهر مقاتلوا حماس تشددًا يتوائم مع أفعال الفتحاويين، حيث اجتاحت حماس المستشفيات وقامت بقتل عناصر من فتح، وفي ذلك القتال استولت حماس على كميات كبيرة من الأسلحة التي قدمتها حكومة مصر إلى قوات فتح، لم يكن محمد دحلان وغيره من كبار

قادة فتح في قطاع غزة عندما بدأ ذلك القتال، وقد اشتكى مقاتلوا فتح من أن أحدًا لم يعطهم أمرًا بالرد على النيران، تردد الرئيس الفلسطيني محمود عباس الذي يقع مقره في الضفة الغربية، لكنه لم يلبث أن أعطى أمرًا بشن هجومٍ مضاد بعد أن وجه باحتمال تمرد عناصر فتح في الضفة الغربية، لكن انهيار حركة فتح في غزة تواصل من غير توقف، وفي 14 حزيران أقال محمود عباس حكومة الوحدة الوطنية الموجودة في غزة وأعلن عن اعتزامه تشكيل حكومة جديدة من التكنوقراطيين المستقلين، فر مقاتلوا فتح إلى مصر وإسرائيل عن طريق البر والبحر وعن طريق إسرائيل، أما مقاتلوا فتح المطلوبين من قبل السلطات الإسرائيلية فقد فضلوا تسليم أنفسهم لها على مواجهة حماس، تلقت الصحف الإسرائيلية طوفانًا من الفاكسات الواردة من غزة راجية إسرائيل أن تعيد احتلال قطاع غزة من أجل إسقاط حركة حماس، وفي الضفة الغربية راحت ميليشيات فتح وقوات الشرطة تعتقل مسؤولي حماس وناشطيها، عبَّر الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة عن موقف مساند لمحمود عباس، كما عبَّر وزراء الخارجية العرب عن دعمهم له لكنهم طالبوا في الوقت عينه بإعادة إنشاء حكومة الوحدة الوطنية، وصرح زعيم حركة حماس المقيم في دمشق خالد مشعل أن حماس لا تعتزم مواجهة الرئاسة الفلسطينية لكن ما قامت به كان ضروريًا من أجل استعادة النظام والتخلص من العناصر المسيئة، وأصرت حماس على أن زعماء من فتح مثل محمد دحلان خاصة، ليسوا إلا خونة متآمرين مع الأمريكيين والإسرائيليين، واعتبر أحد المتحدثين باسم حماس أن ما جرى من عنف كان تطبيقًا "للعدالة الإسلامية"، وأطلقت إسرائيل والسلطة الفلسطينية الأكاذيب والادعاءات التي لا أساس لها من الصحة أن هذا العنف ما كان ليبدأ من غير موافقة من خالد مشعل؛ ومن المرجح أيضًا أنه أعطى الأوامر بذلك حيث أن مشعل واقع تحت سيطرة السوريين الذين يؤونه، وتحت سيطرة الإيرانيين الذين يقدمون تمويلاً كبيرًا لحماس والذين هم من حلفاء سوريا.

شهدت شعبية حماس في غزة وضعًا مشددًا مع تدهور شروط المعيشة بسبب الحصار الإسرائيلي والدولي، ولأن المقاومين راحوا يحاربون مظاهر الثقافة الغربية في غزة، وفي تشرين الثاني تعرضت تظاهرة نظمتها فتح في ذكرى وفاة ياسر عرفات إلى قمع عنيف من قبل قوات الأمن التابعة لحماس التي قتلت سبعة أشخاص وجرحت خمسة وخمسين، ألقت حماس باللائمة في هذا العنف على حركة فتح. واصلت حماس استيراد كميات كبيرة من المتفجرات والأسلحة التي كانت تقوم بتهريبها إلى غزة عبر الأنفاق، اكتشفت قوات الأمن المصرية 60 نفقًا في يومٍ واحد بعد احتجاج إسرائيل على تراخي مصر في مراقبة الحدود، وكانت حماس وبقية الميليشيات تطلق على منطقة النقب الغربي ما معدله صاروخ قسام واحد كل ثلاث ساعات في حين كانت إسرائيل تنفذ غارات انتقامية وقصفًا صاروخيًا يستهدف طواقم إطلاق الصواريخ في غزة، إضافة إلى إغارات ليلية في الضفة الغربية من أجل إلقاء القبض على حمساويين مطلوبين.

مؤتمر أنابوليس انطلاقًا من قرار القمة العربية تجديد مبادرة السلام العربية ومن الوضع الذي خلقته حماس من خلال استيلائها على السلطة في غزة، واستجابةً لدعوة تقرير "مجموعة دراسة العراق" إلى المضي في مفاوضات السلام الإسرائيلية الفلسطينية، نظمت الولايات المتحدة قمة في مدينة أنابوليس في الفترة 26 – 28 تشرين الثاني، توقعت تنبؤات كثيرة بفشل هذه القمة، لكن الدول العربية بما فيها سوريا، حضرتها إضافة إلى الأمم المتحدة وممثلين عن مجلس التعاون الخليجي والاتحاد الأوروبي وروسيا وجنوب أفريقيا، ودول أخرى.

أطلقت إسرائيل سراح أكثر من 400 سجين فلسطيني، وزودت السلطات الفلسطينية بمواد الإغاثة، وسمحت إسرائيل أيضًا بنشر شرطة السلطة الفلسطينية في نابلس للحد من الجريمة التي تفشت فيها، اجتمع إيهود أولمرت ومحمود عباس عدة مرات من غير التوصل إلى اتفاق على إعلان مشترك من أجل تلاوته في قمة أنابوليس، تم التوصل إلى الإعلان المشترك في اللحظة الأخيرة بعد ضغوط شديدة مارسها الأمريكيون، وفر هذا المؤتمر الاعتراف بمحمود عباس زعيمًا للفلسطينيين، واتفقت إسرائيل مع الفلسطينيين على تجديد مفاوضات الوضع النهائي مع الإعراب عن الأمل في التوصل إلى اتفاق قبل نهاية عام 2008، وتعهد الطرفان بتطبيق خريطة الطريق بشكل متوازٍ مع قيام الولايات المتحدة بمراقبة التقدم في هذا الصدد، ولم يجر ذكر المشكلة التي تمثلها سيطرة حماس على قطاع غزة.

قام الرئيس الأمريكي جورج بوش بجولة في الشرق الأوسط في كانون الثاني 2008، لكن من الواضح أن جولته هذه فشلت في حشد الدعم لأهداف سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، التي كان من بينها مساندة سلام إسرائيلي فلسطيني، يقوم على مفاوضات بين إسرائيل والسلطة الفلسطينية التي تهيمن عليها فتح، واصلت مصر والسعودية العمل من أجل رأب الصدع بين فتح وحماس؛ وهذا ما من شأنه إنهاء المفاوضات السلمية، لكن الإسرائيليين والفلسطينيين تعهدوا بإجراء مفاوضات جدية بشأن "القضايا الجوهرية" من قبيل قضيتي القدس واللاجئين، وصدرت عن الحكومة الإسرائيلية إعلانات متضاربة فيما يخص تجميد بناء المستوطنات في الضفة الغربية، وفي أجزاء القدس التي ضمتها إسرائيل بعد حرب الأيام الستة.

ظل النظام الذي تقوده حماس في غزة العائق الأكثر وضوحًا في وجه السلام، وواصل إرهابيوا الجهاد الإسلامي ولجان المقاومة الشعبية إطلاق صواريخ القسام وقذائف الهاون على بلدة سديروت وغيرها من الأهداف في النقب الغربي؛ كما أطلقوا صاروخ غراد واحد على الأقل على مدينة أشدود، واستمرت إسرائيل في قصف طواقم إطلاق الصواريخ وزعماء مختلف المجموعات المسؤولة عن إطلاق الصواريخ من غزة فقتل بعض المدنيين، وبعد ذلك انضمت حماس إلى عمليات إطلاق الصواريخ مع تصاعد توتر الأوضاع، قتل قناصون فلسطينيون معلمًا متطوعًا اسمه كارلوس شافيز في كيبوتز عين هاشلوشا، وعمدت إسرائيل إلى تقييد السفر من غزة ودخول البضائع إليها وقررت قطع إمدادات الوقود عنها، أدت هذه الخطوات إلى التأكيد بأن إسرائيل تمارس سياسة العقاب الجماعي، وفي 20 كانون الثاني قامت حماس بإيقاف محطة الكهرباء في غزة عن العمل في أعقاب قطع إمدادات الوقود، في محاولة لجعل العالم يدين إسرائيل لأن هذه المحطة تنتج نحو 20% من الكهرباء في غزة، لكن من غير الواضح ما إذا كان الوقود في محطة الكهرباء قد نفذ فعلاً، وبعد ثلاثة أيام قامت حماس بتفجير فتحات في الجدار الفاصل بين غزة ورفح بعد أشهر من التحضير جرى خلالها تخريب حديد التسليح فيه، وهذا ما سمح للآلاف من أهالي غزة بدخول مصر بحرية، ومن الواضح أن عددًا من عناصر حماس المسلحين أفلحوا في التسلل إلى سيناء مع جموع الناس التي تدفقت لشراء السلع من رفح، وبعد شيء من التردد قامت مصر بإغلاق الثغرات إغلاقًا جزئيًا في 28 كانون الثاني، وفي الأيام اللاحقة تبين أن الحدود لم تعد مغلقة وأن ناشطي حماس أعادوا فتح بعض أجزاء الجدار التي أغلقها المصريون، اعتقلت قوات الأمن المصرية أكثر من عشرة فلسطينيين تسللوا إلى سيناء.

اقترحت السلطة الفلسطينية بقيادة محمود عباس تولي الإشراف على المعابر الحدودية التي هجرها المراقبون الأوروبيون عندما تولت حماس السلطة، وأصرت حماس على حقها في وضع دورياتها على المعابر الحدودية، مُعلنة عن عدم قبولها العودة إلى الوضع السابق الذي كان يسمح للإسرائيليين والأوروبيين بمنع دخول الأسلحة والأموال والمقاتلين، صحيح أن حماس عارضت عودة المراقبين الأوروبيين في البداية لكنها عادت فخففت موقفها بعد عدة أيام. أعاد المصريون إغلاق الحدود وتواصلت المفاوضات الرامية إلى التوصل إلى حل يسمح بفتح معبر رفح؛ لكن من غير نتيجة.

قتل عماد مغنية

في 13 شباط، قتل في دمشق العقل المدبر لإرهاب حزب الله عماد مغنية في تفجير سيارة مفخخة بجانب سيارته، كانت إسرائيل ودول أخرى تعتبر منذ زمن بعيد أن مغنية مسؤول عن تخطيط وتنفيذ عمليات حزب الله بدءًا بالهجمات التي استهدفت مقر قوات المارينز والسفارة الأمريكية في بيروت أوائل الثمانينات، وكذلك الهجوم على المركز اليهودي والسفارة الإسرائيلية في بوينس آيرس وحوادث اختطاف الجنود الإسرائيليين المتكررة ومن بينها عملية الاختطاف التي أشعلت شرارة حرب 2006 في لبنان.



- قائد المقاومة اللبنانية الشهيد عماد مغنية -

اعتقلت سوريا كثيرًا من الفلسطينيين، واتهم حزب الله إسرائيل بتدبير عملية الاغتيال، أما إيران التي كانت تنكر منذ زمن طويل أي علاقة لها بعمليات مغنية فقد أعلنت الحداد عليه علنًا واتهمت إسرائيل باغتياله، وتوقعت إسرائيل حدوث عمليات انتقامية.

الغارة الإسرائيلية على غزة في 27 شباط 2008 قتلت غارة صاروخية إسرائيلية خمسة من حماس زعمت فيما بعد أنهم كانوا يخططون لتنفيذ عملية كبيرة ضد إسرائيل، وفي اليوم التالي ردت حماس بإطلاق 30 صاروخًا وصل بعضها حتى عسقلان، وقتل أحدها طالبًا في كلية سابير في النقب الغربي، كان من بين هذه الصواريخ عدد من صواريخ غراد إيرانية الصنع، وهي نسخة من صواريخ الكاتيوشا، بدأت إسرائيل في 29 شباط حملة واسعة النطاق استمرت عدة أيام وقتلت أكثر من 100 فلسطيني، زعمت إسرائيل أن عشرة مدنيين فقط قتلوا في غزة؛ أما حماس فقالت إن أكثر قتلى الغارة كانوا مدنيين، وقبيل زيارة وزيرة الخارجية الأمريكية كوندوليزا رايس إلى المنطقة، دعت الولايات المتحدة إلى وقف العنف، انتهى الهجوم الإسرائيلي يوم 3 آذار رغم أن جيش الدفاع الإسرائيلي كان يعتزم المضي فيه، علق الرئيس الفلسطيني محمود عباس المفاوضات المباشرة مع إسرائيل، لكنها استؤنفت في 5 آذار، أعلنت حماس أنها انتصرت، ورغم تواتر الإشاعات عن "هدنة" وعن مفاوضات من أجل الهدنة في شهر آذار، واصلت الصواريخ

الفلسطينية استهداف النقب الغربي وواصلت إسرائيل قتل الفلسطينيين، أما إغارات إسرائيل في الضفة الغربية فكادت تتوقف تمامًا رغم وقوع هجوم استهدف ييشيفات مركز هاراف في القدس يوم 6 آذار، أقدم فيه مسلح فلسطيني من حي جبل المكبر في القدس على قتل ثمانية من طلبة المدرسة الدينية، ادعت حماس مسؤوليتها عن هذا الهجوم لكنها عادت فأنكرتها في وقتٍ لاحق.

وبعد دعوات ملحة من جانب وزيرة الخارجية الأمريكية تم استئناف المفاوضات الإسرائيلية الفلسطينية، قال عباس إن الجانبين يناقشان القضايا الجوهرية، من قبيل مستقبل مدينة القدس مثلاً؛ لكن أي تفاصيل عن هذه المفاوضات لم تنشر، أعلنت إسرائيل عن عقود لبناء منازل للمستوطنين في حي هارشوما في القدس الشرقية، وفي عدة مناطق أخرى في الضفة الغربية مما أغضب الفلسطينيين، تلا هذا الإعلان عدد من الإعلانات المتضاربة التي صدرت عن مسؤولين إسرائيليين بشأن سياسات توسيع الاستيطان، وفي شهر نيسان، أزالت إسرائيل عددًا من حواجز الطرق في الضفة الغربية وسمحت للقوات الفلسطينية بدخول مدينة جنين.

الهدنة أفضت مفاوضات مكثفة غير مباشرة برعاية مصرية إلى هدنة بين إسرائيل وحماس بدأ تنفيذها في 19 حزيران، سرت هذه الهدنة على قطاع غزة فقط دون أن تشمل الضفة الغربية، وبموجب الهدنة تمتنع إسرائيل عن تنفيذ هجمات داخل غزة في حين تمتنع حماس والفصائل الأخرى عن إطلاق الصواريخ وشن الهجمات الإرهابية ضد إسرائيل، زعمت إسرائيل أن الهدنة تشمل تهريب الأسلحة، لكن حماس أنكرت ذلك، ورغم وقوع عدد من حوادث إطلاق الصواريخ وقذائف الهاون من جانب الفلسطينيين فقد بدت الهدنة صامدة، في البداية على الأقل. اعتقلت حماس ناطقًا باسم كتائب شهداء الأقصى بعد أن زعمت تلك الجماعة مسؤوليتها عن إحدى الهجمات، وعمدت إسرائيل دون ضجة إلى تخفيف إغاراتها واعتقالاتها في الضفة الغربية بعد أن صارت هذه الهجمات الإسرائيلية تثير هجمات انتقامية في غزة، وتواصلت بعد سريان الهدنة المفاوضات الرامية إلى الإفراج عن الجندي الإسرائيلي المختطف جلعاد شاليط، ظلت الهدنة صامدة رغم حوادث عرضية لإطلاق صواريخ القسام وقذائف الهاون، لكن أمل إسرائيل في الإفراج عن جلعاد شاليط لم يتحقق.

وفي 29 حزيران وافقت الحكومة الإسرائيلية على صفقة تُفرج بموجبها عن اللبناني المحكوم سمير قنطار، وعدد من السجناء اللبنانيين والفلسطينيين مقابل جثتي إلداد ريغيف وإيهود غولدفاسر اللذين كان اختطافهما الشرارة التي نتجت عنها حرب لبنان الثانية، وفي إسرائيل أعلن رئيس حزب العمل إيهود باراك أن حزبه سينسحب من الحكومة الائتلافية إذا لم يغير حزب كاديما رئيسه إيهود أولمرت، وذلك بعد مزاعم متكررة بالفساد، وفي 17 أيلول 2008 فازت وزيرة الخارجية تسيبي ليفني بزعامة حزب كاديما وعندما أعلنت ليفني في 26 تشرين الأول أنها غير قادرة على تشكيل حكومة ائتلافية تقرر إجراء انتخابات جديدة في 10 شباط 2009.

وفي مساء 4 تشرين الثاني نفَّذ جيش الدفاع الإسرائيلي توغلاً كبيرًا في غزة من أجل تدمير نفق قيل إن الفلسطينيين يحفرونه من غزة إلى إسرائيل، قُتل في هذا التوغل ستة مسلحين من حماس، وفي الأيام التالية ردت حماس والفصائل الأخرى بإطلاق نحو 35 صاروخ غراد (من عيار أكبر) على سديروت وعسقلان فرد جيش الدفاع الإسرائيلي بتوغل استهدف خان يونس.

وفي 9 تشرين الثاني عُقد اجتماع للجنة الرباعية في شرم الشيخ من أجل تأكيد دعم المفاوضات الإسرائيلية الفلسطينية ضمن إطار عملية أنابوليس وخطة الطريق، عبَّر الجانبان عن مساندتهما هذه العملية، ألغت حماس مشاركتها في اجتماع من أجل المصالحة الفلسطينية كان مقررًا عقده في القاهرة خلال الأسبوع نفسه.

واصلت حماس والفصائل التابعة لها إطلاق الصواريخ على إسرائيل وأعلنت أنها تعتزم عدم تجديد اتفاق التهدئة في 19 كانون الأول، كانت مفاوضات التهدئة قد جرت في 19 حزيران 2008، وفي النهاية أعلنت حماس أنها تقبل استمرار التهدئة ستة أشهر فقط، زعمت الأخبار أن قيادة حماس لغزة تريد تجديد التهدئة لكن زعيم حماس في المنفى خالد مشعل رفض قبول ذلك، لجأت إسرائيل إلى المصريين وإلى الأمم المتحدة طالبة وضع حد لإطلاق الصواريخ، وفي 24 كانون الأول قصفت حماس إسرائيل بنحو 60 صاروخًا وقذيفة هاون، بدأت إسرائيل عملية "أوفريت ييتزوكا" يوم 26 كانون الأول، وخلال ساعات من صباح يوم السبت وحده نفَّذ جيش الدفاع الإسرائيلي نحو 100 إغارة دمر فيها مخازن أسلحة ومصانع أسلحة وأنفاق تهريب ومنصات إطلاق صواريخ، إضافة إلى مراكز قيادة حماس في غزة، قتل نحو 225 فلسطينيًا ثم ازداد الرقم فبلغ 300 قتيلاً خلال بضعة أيام، تزعم تقديرات الأمم المتحدة أن من بين القتلى زهاء 51 مدنيًا، أما مصادر حماس فتقول إن 155 شخصًا ممن قتلوا في الهجوم الأصلي كانوا مدنيين، وقع كثير من الإصابات في صفوف متدربي "شرطة" حماس أثناء حفل لتخريجهم، زعمت إسرائيل أن حماس تعمدت استخدام الدروع البشرية؛ وأشارت برامج تلفزيون حماس إلى فخر حماس باستخدام المدنيين دروعًا، ردت حماس على الغارات الجوية المتواصلة بإطلاق صواريخ غراد التي وصلت هذه المرة حتى بئر السبع ويافني (45 كم)، قتلت هجمات حماس 3 إسرائيليين حتى نهاية العام، أما حصيلة القتلى بين الفلسطينيين فناهزت 400 قتيل. رفضت حماس الكف عن إطلاق الصواريخ وراحت إسرائيل تستعد لشن عملية برية في غزة، ثم أصدر مجلس الأمن الدولي بيانًا في 28 كانون الأول، دعا فيه الجانبين إلى وقف العنف، لكن اعتراض الولايات المتحدة حال دون إصدار مجلس الأمن قرارًا ملزمًا بوقف إطلاق النار.

انتهت أعمال القتال الرئيسية يوم 18 كانون الثاني عندما أعلنت إسرائيل وقف إطلاق النار من جانب واحد، ثم حذت حماس حذوها فأعلنت وقف إطلاق النار من جانبها، قتل زهاء 1300 فلسطيني؛ وقتل 13 مواطن إسرائيلي، زعمت إسرائيل أن أكثر المصابين الفلسطينيين كانوا مقاتلين، في حين زعم الفلسطينيون أن أكثرهم مدنيون، وتحدثت جماعات حقوق الإنسان عن أعداد كبيرة من القتلى الأطفال، لكن إسرائيل زعمت أن كثيرًا من "الأطفال" الذين تحدثت عنهم هذه التقارير؛ هم في الواقع مقاتلون راشدون من حركة حماس، لكن إسرائيل لم تنشر أي قائمة علنية بالإصابات، لم تكن نتائج هذه العملية حاسمة، ولم تحقق إسرائيل نصرًا عسكريًا، لكن مشكلات حكم حماس في غزة والجندي المختطف جلعاد شاليط واستمرار تدفق الأسلحة المهربة إلى غزة عبر الأنفاق ظلت كلها من غير حل، مبدئيًا على الأقل. استمر إطلاق الصواريخ واستمرت الردود الانتقامية حتى ما بعد الانتخابات الإسرائيلية في 10 شباط 2009.

أعطى الناخبون الإسرائيليون الأغلبية البرلمانية لأحزاب اليمين، وشكَّل بنيامين نتنياهو حكومة ضمَّت حزب الليكود الذي يتزعمه، وحزب العمل الإسرائيلي وحزب إسرائيل بيتنا اليميني، إضافة إلى أحزاب دينية، رفض حزب كاديما الانضمام إلى الحكومة، والظاهر أن رفضه جاء بسبب عدم

قبول الليكود العودة إلى حل النزاع الإسرائيلي الفلسطيني عن طريق إقامة دولتين، وفي 4 حزيران 2009 ألقى الرئيس الأمريكي باراك أوباما كلمة تاريخية موجهة إلى المسلمين والعالم العربي دعا فيها الفلسطينيين إلى نبذ العنف ودعا العرب إلى الاعتراف بحق إسرائيل في الوجود، مكررًا دعم الولايات المتحدة حل الدولتين وداعيًا إلى إنهاء بناء المستوطنات (خطاب الرئيس أوباما في القاهرة يوم 4 حزيران 2009). استجاب رئيس الوزراء الإسرائيلي نتنياهو لكلمة أوباما يوم 14 حزيران فأعلن تأييد إسرائيل الحل القائم على الدولتين، وتعهد بألا تقوم إسرائيل بإنشاء مستوطنات جديدة أو بمصادرة أراضٍ جديدة لصالح المستوطنين؛ لكنه أعلن أيضًا استمرار بناء وحدات سكنية في المستوطنات من أجل ما أطلق عليه اسم "النمو الطبيعي".

الباب الخامس

الفصل الأول : الأوضاع العامة في فلسطين قبل حرب الأيام الستة وبعدها

في الفصول السابقة من الباب الرابع في هذا الكتاب استعرضنا أوضاعًا عديدة مثل انطلاق الحركة الصهيونية العالمية بزعامة كل من ثيودور هرتسل وحاييم وايزمان، وعد بلفور بإقامة وطن قومي لليهود على أرض فلسطين، والانتداب البريطاني بعد انتصار بريطانيا وفرنسا على تركيا في الحرب العالمية الأولى، كما استعرضنا الهجرة اليهودية غير المشروعة إلى فلسطين وتشكيل هيئة الاستخبارات الإسرائيلية، ثم قرار تقسيم فلسطين الصادر عن الأمم المتحدة في نهاية عام 1947، والحرب العربية الإسرائيلية عام 1948 ودخول الجيوش العربية إلى فلسطين والهزيمة العربية الأولى، ثم حرب عام 1967 وتغيير معالم الشرق الأوسط.. الخ.

في ذلك الاستعراض وضعنا نصب أعيننا أن لا نشير بالاتهام أو التقصير أو التخاذل لأحد من زعماء الأمة العربية في تلك الأوقات، لعدة أسباب أهمها أن القادة العرب الذين فشلوا في حروبهم مع الكيان الصهيوني قد انتقلوا إلى عالمهم الآخر ولم يعودوا بيننا الآن، وقد فرضت علينا ثقافتنا الاجتماعية والدينية أن لا نذكر سوى محاسن موتانا وأن لا ننبش القبور لتعليق الفشل على شماعات غير الأحياء، فالأمة العربية كاملة شاركت في الهزائم بصمتها أحيانًا وأحيانًا أخرى بعبادة الصنمية، الأمر الذي يعيد إلى الأذهان قول شاعرنا الكبير المرحوم نزار قباني في هزيمة أمتنا عامي 1948 و1967:

لا غرابة أننا خسرنا الحرب مرتين

لأن شعبنا بدون لسان!

ما قيمة الشعب بلا لسان؟

واستعرضنا أيضًا الأوضاع الداخلية الإسرائيلية، والركود الاقتصادي الحاد الذي اجتاح الكيان الصهيوني مع بدايات عام 1964، وعن مخاوف الإسرائيليين من اقتراب كيانهم المصطنع من حافة الانهيار بسبب البطالة التي وصلت ذروتها في تلك الفترة..

في هذا الباب سوف نستعرض في فصوله التالية الأوضاع العامة في فلسطين قبل حرب الأيام الستة وبعدها أيضًا، والآثار السلبية التي تلتها، خصوصًا فيما يتعلق بتغيير وجه منطقة الشرق الأوسط، هدفنا في ذلك إعطاء صورة حقيقية للصراع العربي الإسرائيلي المزمن، في محاولة لتنوير بصيرة الأجيال العربية المقبلة بحقيقة الأحداث التي اجتاحت منطقة الشرق الأوسط، ومعاناة الشعوب العربية نتيجة الهزائم العسكرية والنفسية، لترى ذلك الواقع على حقيقته، ولتعمل على تدارك الأخطاء التي وقعت فيها أنظمتنا العربية في محاولاتها استرجاع الأراضي التي استولت عليها إسرائيل، سواء عن طريق القرارات الدولية غير المنصفة أو استعمال القوة العسكرية في اغتصابها.

ونظرًا للأبحاث الواسعة التي قمنا بها فإننا لم نوفق في الوصول إلى الايجابيات والتحضيرات أو الاستعدادات لدى الجانب العربي خصوصًا فيما يسمى دول الطوق العربية بمعنى الدول العربية المحيطة بالكيان الصهيوني، إذ يبدو أنه لم يكن هناك أي نوع من الاستعداد الجاد للمواجهة مع إسرائيل عسكريًا تحت ذريعة الدعم الأمريكي والأوروبي لإسرائيل وتفوقها العسكري، ولكن الحقيقة تؤكد أن تلك الأنظمة العربية كانت منغمسة في أمور أخرى لا علاقة لها بالصراع القائم مع الكيان الصهيوني، وأكثر من ذلك كانت بعض دول الطوق تقيم علاقات صداقة وحسن جوار مع الكيان الصهيوني سرًّا بذريعة الحفاظ على أمنها وحماية أراضيها من الاحتلال كما حدث في فلسطين.

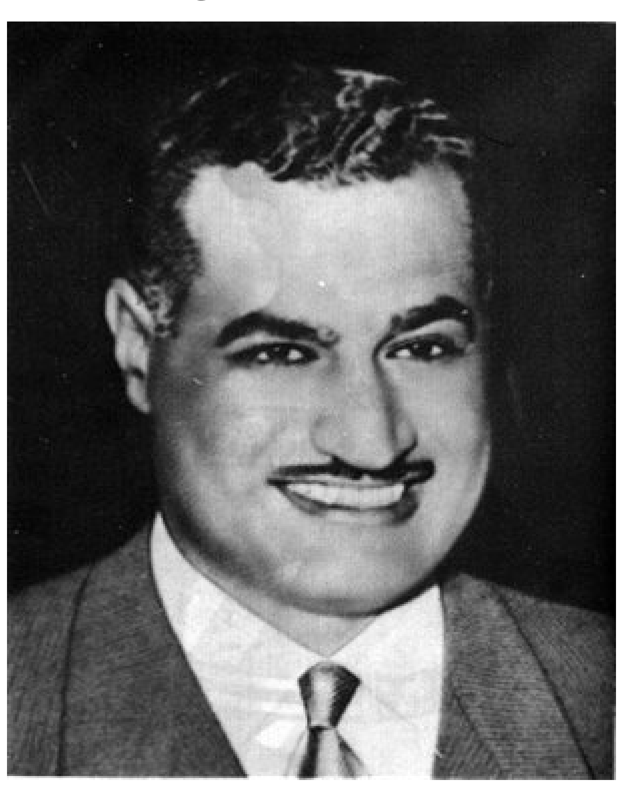
لهذه الأسباب نجد أنفسنا ملزمين باستعراض الأحداث والاستعدادات للتوسع الإسرائيلي في الأراضي العربية، والتحضير لشن الحروب من أجل تحقيق تلك الأهداف، وكانت آنذاك ولا زالت تفتعل الأحداث أو تستغل بعض الظروف لتبرير العدوان على الأمة العربية.

قد يتساءل البعض لماذا نركز على حرب الأيام الستة كما أطلقوا عليها، والجواب على هذا يتخلص في أن ما حل بالأمة العربية نتيجة تلك الحرب كانت أكبر هزيمة عسكرية إلى جانب الهزائم النفسية التي تعددت أشكالها ولازلنا نعاني منها حتى هذا اليوم، ولأن العالم لم يجد تفسيرًا لتلك الهزيمة الكبرى إذ لم يصدق في حينه على الأقل أن الجيوش العربية المسلحة والمدربة لم تستطع الصمود في وجه إسرائيل أكثر من ستة أيام إن جاز التعبير، علمًا بأن إسرائيل لم تكن تلك الدولة العملاقة التي في استطاعتها قهر الجيوش العربية بالشكل المهين كالذي حصل.

نذكر هذه الأحداث وقلوبنا تعتصر ألمًا وحسرة، ولكن ليس أمامنا خيار آخر سوى شرحها ولو بشكل موجز، لعل ذلك يكون فيه العبرة للأجيال القادمة التي بدأت تتساءل لماذا عجز العرب عن محاربة إسرائيل؟ ولماذا اندحرت الجيوش العربية أمام جيش الدفاع الإسرائيلي، خصوصًا بعد أن تمت هزيمة ذلك الجيش الأسطورة أمام المقاتلين من حزب الله في لبنان، وكيف أن حزب الله دمر دباباتهم الحديثة وعلى رأسها دبابة "ميركافا" التي لم تكن موجودة لدى إسرائيل في حرب الأيام الستة، والتي تعتبر فخر الصناعات العسكرية الإسرائيلية، وهي الدبابة الأقوى في العالم، إضافة إلى مقاتلين محاصرين في قطاع غزة جعلوا تلك الدبابات الضخمة مثار جدل واسع في أوساط السياسة الإسرائيلية، وعلى المستويات العسكرية في العالم.

عشية الخامس والعشرين من شهر تشرين الأول/ أكتوبر عام 1966 انفجر لغم أرضي في قطار بضائع على الطريق بين مدينتي القدس وتل أبيب، أدى إلى خروج رأس القطار وقاطرتين عن الخط الحديدي، علمًا بأن قطار ركاب كان قد مرّ من نفس المكان قبل ساعتين فقط ولم ينفجر به اللغم الأرضي، بمعنى أن الانفجار كان مقصودًا ليحدث في قطار بضائع وليس بقطار ركاب على الأرجح، وعلى الفور نشرت الصحف العبرية بيانًا أصدرته وحدة قيادة تحمل اسم "عبد القادر الحسيني" وحمل البيان العبارة التالية (اخرجوا.. اخرجوا من أرضنا أيها الصهاينة)، وفي اليوم التالي التقطت جريدة يديعوت أحرنوت الإسرائيلية خبرًا أذاعته محطة إذاعة منظمة التحرير الفلسطينية من غزة يقول (غدًا سنصل إلى نتانيا وإلى مكتب ليفي اشكول)، وقد نشرت صحيفة يديعوت احرنوت وقتها هذا الكلام على صفحاتها الأولى بعناوين بارزة، ماذا كان ينبغي على إسرائيل أن تفعل إزاء هذا العمل الذي تسميه (إرهابًا) الذي كما تقول الجريدة قد وصل مرحلة مركزية في مناقشات الحكومة الإسرائيلية، أدى إلى بروز ضغط شعبي في إسرائيل على الحكومة،

مطالبًا باتخاذ إجراءات صارمة لمنع حركة فتح من الاستمرار بإرهاب المستوطنين الإسرائيليين، وبعد بضعة أيام حذرت الصحف الإسرائيلية بأن نجاح من تسميهم الإرهابيين الفلسطينيين ينبغي أن لا يمر دون عقاب، واتهموا سوريا بتشجيعهم على أعمال العنف داخل الكيان الصهيوني، كما ساد انطباع عام في إسرائيل بأن الحكومة إن لم تستجب للضغط الشعبي فإن ذلك يؤكد النتائج الخاطئة بأن إسرائيل قد بدأت في الضعف، كما اتهمت إسرائيل أيضًا الرئيس جمال عبد الناصر بمساعدة النشطاء الفلسطينيين على غرار ما يفعله الزعماء الثوريون.



- الرئيس جمال عبد الناصر -

مساء الجمعة الحادي عشر من نوفمبر/ تشرين الثاني من نفس العام قتل ثلاثة جنود إسرائيليين كانوا يؤدون الخدمة العسكرية الإلزامية حيث تعرضت سيارتهم إلى لغم أرضي بالقرب من مستوطنة "عراد" في الجنوب وهم عائدون من منطقة الخليل، وقد دل تتبع أثار أقدام الفاعلين إلى الحدود الأردنية وتم التعرف على المكان الذي جاءوا منه، اليوم التالي كان يوم سبت وهو يوم عطلة عند اليهود وكان على إسرائيل أن تقرر كيف يكون الرد، وكان القرار أن يقوم جيش الدفاع الإسرائيلي باقتحام بلدتي حسام والسموع في منطقة الخليل لقتل الإرهابيين، وتدمير بعض المباني في البلدتين، ومن بينها مسجدي القريتين.

عمومًا لم تكن هناك أمام إسرائيل طريقة أخرى لاتهام سوريا وتحميلها مسؤولية قتل الجنود الثلاثة، فقررت أن يكون الرد في الجانب الأردني، وكان العسكريون يطلبون موافقة الحكومة على العمل ضد القريتين الأردنيتين لعدة أشهر، فقد أرادوا أن يعملوا في وضح النهار وبقوة كبيرة، لإجبار سكان القريتين على طرد الفدائيين من التسلل إلى إسرائيل عبر قراهم، غير أن الحكومة

الإسرائيلية رفضت أن يكون الرد على نطاق واسع، ولكن فقط يكون عملاً محدودًا والذي اعتبره العسكريون الإسرائيليون بدون جدوى.

دخل الجيش الإسرائيلي إلى قرية السموع التي تقع على بُعد خمسة عشر كيلومترًا إلى الجنوب من مدينة الخليل، وقام بتدمير ما زاد عن ستين منزلاً في القرية، وفورًا ذهب رئيس أركان جيش الدفاع الإسرائيلي إسحق رابين إلى منزل رئيس الوزراء ليفي اشكول في القدس، وكان اشكول يفضل أن تكون الإجراءات العسكرية ضد سوريا ولكنه وافق مرغمًا على العمل ضد الأردن برغم المغامرة في نزاع غير مرغوب فيه مع الجيش الأردني.

وزير خارجية إسرائيل آنذاك "ابا إيبان" كتب فيما بعد أن مقتل الجنود الثلاثة كان سببًا في التصعيد، وكان هناك انطباع متزايد في إسرائيل أن البلاد أصبحت "موسمًا مفتوحًا" للقتل والهجمات، وبما أن جيراننا في وضع آمن؛ فإني أشعر بأن الحكومة عاجزة عن تأمين خدمة القطارات الاعتيادية، وأن الحياة الطبيعية في العاصمة الوطنية لإسرائيل أصبحت في حالة سيئة وخطيرة للغاية بكل مستوياتها، وكان ابا إيبان يُشير إلى قدرات إسرائيل لمنع الهجمات ولكنه ربما كان قد أضاف بأن رئيس الوزراء الذي كان يتعرض للسخرية لعدم اتخاذه قرارات مناسبة وحتى أن داعميه المقربون وجدوا أنه في حالة خطيرة جدًا.

لم يتمكن اشكول من تجاهل مطلب العسكريين بالانتقام لمقتل الجنود الثلاثة: "إن صبر إسرائيل لن يستمر طويلاً" كما قال في اجتماع مجلس الوزراء، وكان سكرتير الحربية الإسرائيلي قد وثق الجدل بين الوزراء، ثلاثة منهم وهم وزير الصحة "إسرائيل بازيلي" من حزب مابام ووزير الداخلية "موشيه شابيرا" من حزب المفدال ووزير السياسة "موشيه كول" من حزب الأحرار الليبراليين، أرادوا التأكد بأن تكون العملية محدودة المجال أكثر مما اقترحه إسحق رابين وآخرون مثل "يغال ألون" الذي دعم اقتراح رابين، وقد أوضحت افتتاحية الصحيفة ليوم الأحد عدم موافقته، وقد جاء في الافتتاحية قوله: "إننا يمكن أن نعتاد على فكرة اختراق هؤلاء المتسللين المدربين تمامًا في ميدان العمليات وفنون التخريب"، وكتبت جريدة هآرتس: "إننا سوف نواصل استدعاء خطوات الدفاع الوقائية"، وكتبت صحيفة معاريف عكس ذلك فذكرت بأن أقرباء أحد الجنود الثلاثة طلب من الحكومة الانتقام لموت قريبه الملك حسين ملك الأردن فيما يبدو أنه يفترض بأن إسرائيل لن تدع موت الجنود الثلاثة تمر دون رد، فسارع للتعبير عن أسفه في رسالة إلى حكومة الولايات المتحدة الأمريكية، السجلات المحفوظة لدى مدير عام مكتب رئيس الوزراء تبين أن محتويات رسالة الملك كانت قد أرسلت إلى السفارة الإسرائيلية في واشنطن مساء يوم السبت، وأرسلت إلى القدس في ذات الليلة ومشفرة، اشكول كان قد أُعلم بالرسالة يوم الأحد الثالث عشر من شهر نوفمبر/ تشرين الثاني، الساعة التاسعة صباحًا، وهو الوقت الذي كانت فيه عملية السموع تقترب من نهايتها، وأعلن الأردن في وقت لاحق أن مائة منزل دمرت في القرية على أيادي القوات الإسرائيلية، واعترفت إسرائيل بتدمير أربعين منزلاً على الرغم من تقرير داخلي أعطى رقم ستين منزلاً. الملحق العسكري في السفارة الأمريكية في عمان الذي قام بزيارة للسموع قدَّر المنازل المدمرة بأنها أعلى بكثير من الأرقام الإسرائيلية، المبعوث الإسرائيلي لواشنطن "افرايم ايفرون" ذكر أن الملحق قد شاهد جثث الكثير من المدنيين والذي يتضح من مشاهداته أن المنازل لم يجرِ إخلاؤها من ساكنيها قبل تفجيرها، بعض الجثث كانت لمسنين ونساء من الذين لم يتمكنوا من الفرار في الوقت المناسب كما ذكر "أفرايم ايفرون".

العملية تمت وراء توقعات مجلس الوزراء الإسرائيلي والتي توجت بمعركة جوية مع القوات الأردنية، قائد كتيبة في قوات المظليين قُتل، وعشرة جنود من جيش الدفاع الإسرائيلي قتلوا أيضًا وجرح حوالي 37 جنديًا إسرائيليًا، الجرحى كان من بينهم طيار، بعد العودة من السموع سار المشاركون في العملية في استعراض احتفالي في شوارع بئر السبع.

في اليوم التالي للعملية جرى استفتاء سريع قامت به جريدة هآرتس الإسرائيلية، قال ثلاثة من أربعة من المستوطنين إنهم يؤيدون العملية وكتبت جريدة يديعوت احرنوت إننا نعرف بأننا كنا نتعامل مع عالم غير معقول ومفقود الأمل به، مع مخربين وقتلة الذين لا يردعهم أحد، فهم لا يستطيعون التوقف، حتى الحيوان عندما يقوده تعطشه للدم فإنه لا يرتوي بل يزيد تعطشًا، وطبقًا لجريدة معاريف الإسرائيلية "كان اقتحام الجنود الإسرائيليين للحدود مصحوبًا بالفرح حيث لم يكن لديهم خيار آخر"، الجريدة ذكرت بالأوضاع التي كانت قائمة إبّان حرب الاستقلال حينما واجه الإسرائيليون عدوًّا قويًا وقد عرف الإسرائيليون أنه ليس لديهم أي خيار سوى الانتصار، ولم يكن لإسرائيل أية مصلحة بالدخول في نزاع مع الأردن، وقد كتبت صحيفة هآرتس آنذاك بأن عملية السموع قد كشفت عن ضعف إسرائيل، من الصعب تجنب الانطباع بأن الأردن قد استُهدف نظرًا لأن الدفاع السوري قد منع مهاجمة الهدف الصحيح.

خلف الأبواب المغلقة انطلقت أصوات خطيرة في انتقاداتها للعملية، ستة وزراء بما فيهم وزراء الأحزاب الدينية عبَّروا عن غضبتهم من نتائج العملية العسكرية في قرية السموع، حاول اشكول تهدئة الوزراء بالإشارة إلى أن إسرائيل تنفق 1.5 بليون ليرة إسرائيلية كل سنة لبناء قواتها المختلفة، وبرغم هذا هل هناك ضمانات بأن يظل الشياطين خارج البيت؟ هنا إسرائيل تخبر العالم أن لديها قوات مختلفة، ولكن عندما تسفك دماؤنا فإن علينا أن نردد الصوت.. نعم، أضاف إشكول وقال الصوت مرة، مرتان وحتى ثلاث مرات ولكن ينبغي أن يكون هناك ما يجب عمله، برغم أنه كان يعتقد أن جيش الدفاع الإسرائيلي قد تجاوز حدوده ولم يدافع عن الجيش، مخبرًا وزراءه: "من الخطأ أن نفهم بأن العملية كانت خاطئة"، وعبَّر عن دعمه وتأييده لرئيس الأركان وتحدث كيف كان مأخوذًا عندما قام بزيارة الجنود الجرحى في العملية ليطلع على روحهم المعنوية الثابتة، رابين بنفسه واهارون باريف رئيس شعبة الاستخبارات، اعترفا بأن تقديراتهما خاطئة بأن الجيش الأردني سوف لا يتخذ موقفًا، وأصبح رابين يخشى أن يلجأ الأردنيون إلى محاولة وقف القطارات إلى القدس وذبح ركابها، غير أنه لم يوافق على التوصية بعمل عسكري ضد الأردن كان خاطئًا.

أبا إيبان وزير خارجية الكيان الصهيوني طلب وتسلم تصريحًا من الحكومة ليوضع بلطف أن مجال العملية كان قد توسع على غير المتوقع، وأن النوايا ليست دائمًا تقرر النتائج، وبعبارة أخرى قال إنهم فشلوا.. وفي محادثة مع سكرتير عام الأمم المتحدة "يوتانت" قال أبا إيبان إن العملية خرجت عن السيطرة، والحاجة للصراحة من أجل رد انزعاج الولايات المتحدة، حيث أنه عندما سمع الرئيس الأمريكي "جونسون" ما حدث كان مضطربًا بعنف، وذكرت التقارير أنه كان مشمئزًا وغاضبًا، الأمريكيون أيضًا كانوا يعارضون رد إسرائيل على الأردن، والأسباب ان الجيش الأردني لن يكون قادرًا أن يدافع عن البلد بشكل مناسب، وسوف يسبب ذلك إهانة للملك حسين، وحسب تقرير استخباراتي من شهر أيار، يحلل العوامل التي أدت إلى إشعال الحرب بين إسرائيل وجيرانها واضعًا حوادث الحدود والهجمات الإرهابية على رأس القائمة، وقام الأمريكيون بتمرير رسائل بين القدس وعمان في محاولة لتفكيك حركة فتح، واحد من معاوني الرئيس

الأمريكي وهو "روبرت كومر" كان قد أرسل ليخبر السفير "هيرمان" لدى إسرائيل، أنه إذا واصلت إسرائيل ضربها للأردن فسوف تكون الولايات المتحدة مجبرة على إعادة النظر في تزويد إسرائيل بالأسلحة.

لم تكن إسرائيل في كل يوم مهددة بهذه الطريقة وقد حاول السفير "هارمان" توضيح الأمر بأن رئيس الوزراء الإسرائيلي "ليفي اشكول" قد تصرف تحت ضغط شديد من وازع الضمير غير أن هذا لم يقنع الرئيس الأمريكي الذي أرسل "كومر ليرى" أبي فانبرغ، كومر سمع أن فاينبرغ كان قد تحدث بقوة مع المدير العام لمكتب رئيس الوزراء "هيرتسوغ" الذي أخبره أنهم كانوا يريدون تفجير أربعة منازل فقط في القرية، أجابه كومر أنه كان عليه أن يفكر بإمكانية التصعيد قبل أن يتصرفوا وليس بعده، سؤل فاينبرغ إذا كان بامكانه إرسال رسالة كرومر إلى السفير هارمان غير أن كرومر أخبره بأنه سوف يخبر السفير بنفسه وسأله أن يعطي الرسالة إلى إشكول، وكما هي العادة قبل فانبرغ المهمة بالنيابة عن رئيسه وأوضح لاشكول أن الرئيس جونسون كان يخشى أن يكون هناك ضباط في الجيش الأردني ربما يقومون بعمل ضد إسرائيل خلافًا لرغبات الملك حسين وأن الرد الإسرائيلي يمكن أن ينجم عنه ثورة ضد الملك.

مسؤول كبير في وزارة الخارجية الأمريكية "نيقولا كاتسنباخ" أوضح لأبا إيبان وزير خارجية إسرائيل سوء الوضع وكان على وشك أن يصفع وجه السفير الإسرائيلي، ولكن باعتباره لا يقوى على ذلك فقد صفع سكرتير السفير، استعرض السفير الأمريكي "هارمان" عملية السموع ووصفها بالجنون وأعلن أنه لا يوجد دبلوماسي إسرائيلي في الولايات المتحدة يفكر بغير هذا، وأبدى أسفه أن إسرائيل لم تقم بعمل ضد سوريا بعد وفاة أربعة من شرطة حراسة الحدود قبل شهر من ذلك الوقت، جيش الدفاع الإسرائيلي طالب بعمل عسكري ضد سوريا ولكن كان وضع الحكومة حرجًا بسبب الضغط الأمريكي، فبدلاً من مهاجمة إسرائيل ذهبت أمريكا إلى مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، ولكن الاتحاد السوفيتي حال دون تمكن مجلس الأمن من اتخاذ قرار بشأن سوريا، في هذا قال السفير الأمريكي هارمان فيما بعد بأن ذلك كان الذنب الأساسي فلو كانت الحكومة الإسرائيلية قد وافقت على عمل ضد سوريا في شهر تشرين الأول/ أكتوبر لربما خضعت للمطالب العسكرية بالعمل ضد الأردن، على أثر عملية السموع قامت مظاهرات صاخبة ضد الملك حسين في الأردن ووقتها أعربت الصحافة الإسرائيلية عن اهتمامها، حيث ذكرت صحيفة هآرتس أن 17 % من الإسرائيليين كانوا ضد عملية السموع.

هيرتسوغ الرئيس الإسرائيلي أيضًا كان قلقًا وتأكد أن الملك حسين بعث معربًا عن أسفه من خلال طبيب في لندن كان يعمل ضابط ارتباط سري بين ملك الأردن وبين رئيس دولة إسرائيل هيرتسوغ الذي كان يأمل أن الملك سوف يرى الرسالة كنوع من الاعتذار الإسرائيلي.

منظمة فتح كانت على علم بأن تفجير لغم أرضي في قطار بضائع وخروج رأسه مع قاطرتين خاليتين من البضائع عن القضبان الحديدية، وكذلك انفجار لغم في سيارة عسكرية إسرائيلية، وقتل بعض الجنود المكلفين بالخدمة العسكرية الإلزامية، لا يحرر فلسطين من الصهاينة بل على عكس ذلك يعطي إسرائيل فرصة للتباكي أمام العالم واستدرار العطف على اليهود من الإجرام والإرهاب الفلسطيني ثم يعطي فرصة لتوجيه ضربات مؤلمة للفلسطينيين والعرب عمومًا وربما يؤدي إلى التوسع على حساب الأمة العربية، وهناك من يتساءل فيما اذا كان مخططوا هذه العمليات في

حركة فتح يعلمون بذلك أم لا يعلمون، ففي كلتا الحالتين تكون النتيجة واحدة وهي استغلال إسرائيل لهذه العمليات وتجييرها لصالحها.

هذا إذا سلمنا بأن حركة فتح لم تكن مخترقة من الموساد الإسرائيلي كبقية البلدان والجيوش العربية كما أوضحنا في الباب الرابع من هذا الكتاب، وكان هناك اعتقاد بين أوساط المفكرين والسياسيين الفلسطينيين أن تلك العمليات كانت تجري بموافقة، إن لم تكن علنية فإنها تكون ضمنية من الإسرائيليين أنفسهم من أجل حصولهم على مبررات توجيه ضربات للأماكن التي تدل عليها أثار أقدام الجناة، فكانت برأيهم أنها عمليات لا تقدم ولا تؤخر في القضية الجوهرية إنما كانت تخدم الأهداف الإسرائيلية قطعًا دون غيرها.

فإذا خلصنا إلى القول بإن حركة فتح كانت مخترقة من الموساد الإسرائيلي كبقية المرافق الأخرى في الدول العربية، المرافق السياسية والاقتصادية والعسكرية والبرلمانية وأسلحتها الجوية، نجد أن حركة فتح وغيرها من الحركات التحررية ليست استثناء، وأن جذور الموساد تضرب عمقًا فيها..

وهذا يعيدنا إلى تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية في مؤتمر قمة القاهرة عام 1964 وتنصيب المحامي الفلسطيني والسياسي الكبير الأستاذ المرحوم أحمد الشقيري على رأس تلك المنظمة واعتبارها الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني، وهذا بحد ذاته كان إعلانًا رسميًا من دول الجامعة العربية بالتخلي عن تعهداتها بتحرير فلسطين وتحميل مسؤولية التحرير للفلسطينيين أنفسهم دون الإشارة إلى مساعدتهم ماليًا وعسكريًا.

قبل الأستاذ أحمد الشقيري بهذه المهمة الصعبة، وبدأ في محاولة جمع الشخصيات السياسية الفلسطينية ليتولوا عمليات بناء التنظيم الجديد، وبسبب الشتات والتشرذم الذي حل بالفلسطينيين منذ نكبة عام 1948، أي بعد حوالي ستة عشر سنة من المعاناة والهزائم النفسية، فكان معظم من تولوا مناصب رئاسة منظمة التحرير الفلسطينية الإقليمية من المنتمين إلى الحركة الماسونية العالمية، ثم كان التعيين في تلك المناصب يخضع للنظام الحاكم في بلد التعيين وكانت بعض الأنظمة ترفض تعيين البعض وتوافق على البعض الآخر من أعضاء الحركة الماسونية، وهذا بحد ذاته اختراق صريح وواضح لمنظمة التحرير الفلسطينية، الأمر الذي عرقل مسيرة أحمد الشقيري كثيرًا ولم يتمكن من فعل أي شيء إزاء هذا التصرف العربي نحو الفلسطينيين، بقي الأمر متعثرًا إلى أن تمكنت حركة فتح من السيطرة الكاملة على منظمة التحرير بتسهيل ومباركة من الأنظمة العربية في ذلك الحين.

بعد تولي حركة فتح رئاسة منظمة التحرير الفلسطينية؛ بدأت في إجراء تغييرات جذرية بين المسؤولين في المنظمة، فاستبدلت معظمهم بأعضاء من حركة فتح ليتم إحكام السيطرة على المنظمة الفلسطينية، وأخذت أيضًا في تصفية العناصر المعارضة لفتح في منظمة التحرير وفي التنظيمات الأخرى، فإن دل هذا على شيء فإنما يدل على اختراق إسرائيلي واضح، وخدمة للمصالح الإسرائيلية ابتداء بعزل الشرفاء من الفلسطينيين عن قضيتهم الأساسية مرورًا بالتصفيات الجسدية للرموز السياسية الفلسطينية وانتهاء بتشويه سمعة الشرفاء الفلسطينيين وتصنيف الشعب الفلسطيني بين خائن وعميل ووطني، وكان الوطنيون حسب التصنيفات الفتحاوية ينحصرون في أعضاء حركة فتح دون غيرها، أما باقي الشعب الفلسطيني فإنه يتبع تصنيفات فئوية أخرى، وهكذا

أصيب الشعب الفلسطيني سواء في داخل الأرض المحتلة أو في الخارج بحالة من الوهن والضعف، بسبب الخوف والرعب اللذين فرضا عليهم من حركة فتح.

الفصل الثاني : بداية حصول إسرائيل على السلاح النووي

في شهر تموز/ يوليو عام 1966، ظهر بيان كبير في صحيفة هآرتس الإسرائيلية تضمن احتجاجًا على السلاح النووي في الشرق الأوسط، كثيرون من الموقعين على البيان كانوا من أساتذة الجامعات الذين يعارضون تطلعات إسرائيل في عهد بن غوريون، بما ذلك معارضة الحكم العسكري، وادعت إسرائيل حينها أنها لا تملك أسلحة نووية وأنها لن تكون الأولى في امتلاك الطاقة النووية في المنطقة، وكان التطور النووي قد بدأ في مفاعل ديمونة مع بداية عام 1950 ولكن كان يجري بشكل سري للغاية، فقد اتخذت إسرائيل خطوات مختلفة ومتعددة لإخفاء الأمر، ولكن يبدو أن العارفين كانوا أكثر مما كان يعتقد في ذلك الوقت.

مع بداية عام 1966 أعطى إشكول تفاصيل عن المشروع لهيئة الدفاع والشؤون الخارجية في الكنيست الإسرائيلي، إلى جانب ستة عشر عضوًا في الكنيست وبعض القادة في جيش الدفاع الإسرائيلي كانوا أيضًا من ضمن الحضور، التقارير التي قدمها موشيه دايان عن ديمونة في الاجتماع تركت مجالاً ضيقًا للشك حول ما كان يدور في المشروع.

بعض الصحافيين عرفوا عن ديمونة ولكنهم منعوا من نشر معلوماتهم، فعملوا عن طريق النقل عن الصحافة الأجنبية خصوصًا في العناوين الرئيسية للصحف، بدا الازدياد واضحًا بأن إسرائيل كانت تسلح نفسها بالأسلحة النووية، البروفسور "آرنست دافيد برغمان" رئيس هيئة الطاقة الذرية الإسرائيلية وهي هيئة رسمية، توقف عن قول الحقيقة بصراحة مخفيًا ذلك تحت عنوان التطور في الطاقة الذرية للأغراض السلمية، العالم "يوفال نويمان" الذي سلمه المشروع النووي الإسرائيلي كتب يقول: "عشية حرب الأيام الستة، كان لدى إسرائيل بنية نووية واسعة وكانت تقديرات واشنطن تقول بإن إسرائيل تمتلك قنبلتين نوويتين.

المشروع النووي الإسرائيلي كان قد بدأ ردًا على المحرقة النازية، القتل الجماعي المزعوم لليهود في أوروبا أثار النظرة إلى أن دولة إسرائيل تحتاج إلى قنبلة ذرية لمنع "اوسشفيتس" أخرى، الافتراض الاستراتيجي كان أن إسرائيل القوية تستطيع ردع الدول العربية من محاولة تدميرها، وأن امتلاك إسرائيل لأسلحة نووية فإن أعداءها سوف يقتنعون للاعتراف بها وعقد صلح معها، الخوف من الانتقام النووي يمنع العرب من الهجوم ضد إسرائيل؛ كما أفادت صحيفة يديعوت احرنوت نقلاً عن معهد أبحاث بريطاني، غير أن الرأي في إسرائيل حول هذه المسألة كان منقسمًا بين العسكريين والسياسيين.

أثار مشروع ديمونة خلافات اقتصادية وسياسية، فمن الطبيعي أن النضال والكرامة والكبرياء كانت جميعها مشمولة بهذه الخلافات، بعض المعلومات كان قد تم الكشف عنها، فالمعلق العسكري "إسرائيل باعر" كتب كتابًا عن الموضع، عارض فيه أن يعتمد أساسًا أمن الدولة على ردع القدرات في التحليل النهائي، كانت مشكلة الأمن الإسرائيلي لا تنحصر في الحل العسكري بل في الحلول السياسية فقط، فمن الأفضل هو نزع السلاح النووي من الشرق الأوسط بكامله، كما كتب المحلل "اليعازر ليفنيه" يقول: إيغال ألون كان يخشى أن الأسلحة النووية سوف تستهلك ميزانيات الجيش وبالتالي تحد من القدرة على بناء قواته التقليدية، كما أنها يمكن أن تدفع الدول العربية

للهجوم كما كانوا دائمًا يهددون، وهذا يعني أن العرب كانوا يهددون فقط دون النية بالهجوم لتحرير الأرض من الصهاينة.

أعضاء الكنيست في لجنة الدفاع والشؤون الخارجية أشاروا إلى أنه منذ أن ألقيت القنبلة الذرية على هيروشيما كانت هناك حروب تقليدية لا حصر لها خصوصًا حروب العصابات، وهذا كان الخطر الرئيسي ولن يكون السلاح النووي موجهًا ضدها، أي ضد حرب العصابات، قادة جيش الدفاع الإسرائيلي قلقون من أن القدرات النووية سوف تحد من قدرات العمليات العسكرية إلى درجة الشلل، فلو قرأ رؤساء الأركان ما كتبه إسرائيل باعر في كتابه حول الأمن الإسرائيلي لعرفوا أن السلاح النووي لن يكون إلا على حساب المعدات الحربية التقليدية وإذا اقتنعوا أن النقاش حول الأسلحة النووية سوف يمنع الحرب، فيمكنهم أن يستنتجوا بأن وقتهم قد ولى، وكان الضباط يخشون من أن امتلاك السلاح النووي سوف يقيدهم ويجعلهم غير لازمين للخدمة العسكرية، ربما كان هذا القلق هو السبب الذي جعلهم مولعين بالقتال ومشاكسين.

مذكرات "هيرتسوغ" وكذلك السجلات الأمريكية وبعض الوثائق التي تم الحصول عليها من أرشيف الدولة الإسرائيلية، جميعها تشير إلى مركزية الموضوع في العلاقة بين إسرائيل والولايات المتحدة، وكيل وزارة الخارجية الأمريكي كتب إلى الرئيس جونسون يقول: "ليس لدينا دليل على أن إسرائيل تنتج القنبلة الذرية" وكان ذلك في شهر مايو/ أيار عام 1967، ولكن الافتراض كان أنها تستطيع ذلك خلال وقت قصير عند الحاجة، كان من المحتمل أن إسرائيل كانت تُخفي الحقيقة عن الولايات المتحدة، وأضاف وكيل الوزارة: "الشكوك الأمريكية تقوم على أساس، من بين المشاكل الأخرى، رفض إسرائيل لإخبارهم ما الذي كانت تفعله بما هو بين 80 و100 طنًا من اليورانيوم المركز اشترته من الأرجنتين قبل أربع سنوات من ذلك الوقت، والتهرب من طلبات الولايات المتحدة بزيارات منتظمة إلى مفاعل ديمونة، وفي أوقات أخرى تعمد الإسرائيليون المماطلة في ردودهم خصوصًا عندما طلبت الولايات المتحدة تفاصيل عن مفاعل ديمونة، السفير هارمان اقترح أن يذهب "أبا إيبان" إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة ليتجنب اللقاء مع وزير الخارجية الأمريكي "دين رسك"، حيث أن الولايات المتحدة سوف تسأل ليفي اشكول عن اليورانيوم الأرجنتيني، وكان قال في مكتب رئيس الوزراء إنه يرغب بالضحك من المسألة.

المجتمع الإسرائيلي لم يؤخذ رأيه في الاختيار بين أولئك الذين يدعمون امتلاك القنبلة الذرية وأولئك الذين يعارضونها، ولكن طالما أن معظم الإسرائيليين شعروا بأن وجود الدولة أصبح مهددًا، كان هناك احتمال بعدم وجود فرصة بأن الغالبية سوف تعارض إنتاج قنبلة ذرية.

الفصل الثالث : تطلعات الإسرائيليين إلى حدود آمنة

استمرار العيش بدون حدود سلام معترف بها دوليًا يجعل المستوطنين الإسرائيليين ليس فقط في حالة قلق دائم، ولكن أيضًا خاضعين إلى شدة الوقتية التي تعطل جهودهم في تحديد هويتهم، أكثر فأكثر أخذ الناس يتحدثون عن حاجة الدولة لاستعادة حدود البلاد التوراتية وذلك يشمل القدس الشرقية، في شهر أيلول/ سبتمبر عام 1966 أجرت جريدة يديعوت أحرنوت مناقشة مع رسميين في وكالة يهودية حول وضع الحركة اليهودية، محرر الجريدة "هيرتسل روزنبلوم" تساءل فيما إذا كان ممكنًا إحضار ملايين من اليهود إلى إسرائيل بحدودها الحالية أي عام 1966، المتحدثون الرسميون في الحركة الصهيونية تجنبوا الإجابة على هذه التساؤلات التي طرحها الإعلام الإسرائيلي.

بعد بضعة أسابيع من ذلك الوقت نشرت صحيفة "معاريف" الإسرائيلية رسالة إلى المحرر من قارئ يتصارع مع أسس الصهيونية الإسرائيلية العلمانية يقول في الرسالة: "بدلاً من تهويد الخليل موقع قبور الآباء الجوالين فقد بنينا رامات غان وبدلاً من حماية قبر راحيل فإننا نحمي "كيبوتس هاتتا" في الجليل، وفوق هذا كله بدلاً من الصعود إلى جبل الموريا في القدس بنينا تل أبيب"، لقد كان تقسيم القدس حقيقة تشكل جرحًا مفتوحًا لا زال مفتوحًا لدى اليهود المتدينين، فالقدس الحقيقية هي تلك المدينة التي داخل الأسوار كما يعتقدون، الشاعر "أوري تسفاي غرينبيرغ" أعلن عام 1949 مشيرًا إلى المدينة القديمة وكعضو في الكنيست الأول تساءل: لماذا نريد دولة بدون القدس؟.

القدس والأحلام الصهيونية

الخط الأخضر الذي يقسم فلسطين ترك القدس اليهودية على حافة الممر الضيق، معزولة عن باقي البلاد، ومقسمًا المدينة بحزام من البيوت المهدمة وحواجز من الأسلاك الشائكة وجدران إسمنتية وحقول ألغام، هذه لم تكن أرض أحد، في الجانب الآخر حيثما توجد أسوار المدينة القديمة (الجزء الإسرائيلي من المدينة).

مع العام 1967 من انقطاع أغلب المواقع التي تشكل المعالم الدينية والتاريخية اليهودية كما يعتقد اليهود بما فيها حائط البراق أو حائط المبكي كما يسمونه، كانت القدس أيضًا تتراجع إلى الخلف أمام الازدهار في تل أبيب، ففي القدس المركزية كانت أجواؤها تسيطر عليها ظلال الماضي التي خلفها الانتداب البريطاني وكانت المدينة يغمرها الغبار والتعاسة.

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كان السكان اليهود في القدس من المتدينين ولكن زعماء الحركة الصهيونية وثيودور هرتسل بشكل رئيسي ارتبطوا بالقدس بتردد، وفي بعض الأحيان بالعداء، حيث كانت المدينة دينية بالنسبة لهم ليست مثل تل أبيب التي تعتبر العاصمة للمشروع الصهيوني فكانت تعد قلعة المعارضة الأرثوذكسية للصهيونية، البريطانيون رأوها عاصمة البلاد ولكن الزعماء اليهود أهملوها كما يقول الإعلام الإسرائيلي، وبقبول قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة عام 1947 تكون الصهيونية قد تنازلت عن القدس وقبلت بأن تكون المدينة جسمًا مستقلاً، وكانت القدس قد أعلنت عاصمة لإسرائيل بعد ثمانية عشر شهرًا من قيام الكيان الصهيوني على أرض فلسطين، تحت ضغط من المتدينين اليهود سكان المدينة من اليهود كانوا متحمسين من أجل هويتهم كمقدسين، وكان ذلك عمليًا ما يشتركون به جميعًا، الأغلب كانوا يهودًا علمانيين ولكن المتعصبين الأرثوذكس نادرًا ما وجدوا أنفسهم في الجوار العلماني في بيت هاكيرم أو العكس، سكان رحافيا لم تكن عاداتهم أن يزعجوا الجوار مثل حي المصرارة، عدد قليل فقط من المقدسين انتقلوا إلى بيت صفافا وهي قرية عربية إلى الجنوب من القدس والتي كانت مقسمة بالخط الأخضر، كانت المدينة خليط من الجوار والجاليات كل واحدة منها بحدودها الخاصة وشخصيتها المميزة بعضها يعكس نسيمًا للحجارة والإيمان وبشكل فريد بين مدن العالم فقد استوحت الكُتَّاب والشعراء وليس لديها قصة واحدة فكل صيغة أو تعميم عنها فيه الصدق والحقيقة، خلال الأعوام التسعة عشر من حياة المدينة المقسمة تضاعف عدد الإسرائيليين ليصل إلى ما يقرب من مائتي ألف نسمة، في بداية عام 1967 كانت ثالث أكبر مدن الكيان الصهيوني في فلسطين بعد تل أبيب وحيفا، فقد نما عدد السكان اليهود بفضل المهاجرين الجدد الذين أرسلوا إليها لتقويتها ولكنهم في الحقيقة أضعفوها اقتصاديًا واجتماعيًا، بداية أقاموا في غرف مستأجرة أو في البيوت التي استولوا عليها من العرب، ومع تدفق المهاجرين أسكنتهم الدولة في "معبروت" في خيام وعشوائيات وبعد ذلك بدأت الحكومة الإسرائيلية تبني لهم وحدات سكنية وبيوتًا في مجمعات سكنية، ولهذا أصبحت بعد فترة قصيرة مناطق السكان الذين يعيشون فيها تحت خط الفقر، معظم المهاجرين الذين اسكنوا فيها كانوا من اليهود المهاجرين من الدول العربية، وأغلبهم كان يعتمد على المساعدات الاجتماعية التي تقدمها لهم المؤسسات اليهودية من الخارج.

عاشت القدس بالتوتر الذي يحيط بالمدن، الجدران الدفاعية التي أقيمت خارج المنازل في شارع الملك جورج فوق المتنزه المطل على البلدة القديمة خط الحدود لبيت الزوار اليهود الذين أحبوا أن يقوموا برحلات خطرة وشاذة من جميع أنحاء العالم وأطفال أيضًا كانوا يتخطون الحدود بالخطأ، أو يدخلون بدون قصد إلى المناطق المحرمة ليجمعوا بعض مخلفات الحديد لبيعها، كان هؤلاء يدوسون أحيانًا على ألغام أرضية وكان يمكن مشاهدة الجنود الأردنيين في بعض المواقع، وأي واحد منهم يحاول أخذ صور كان يُعرِّض نفسه لإطلاق النار من قبل الجنود الأردنيين، القناصة الأردنيون كانوا يفتحون النار في فترات متفاوتة وكانت تقع عدة حوادث وجرحى في الجانب الإسرائيلي، الحوادث الخطيرة كان يجري التعامل معها عن طريق مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة بينما كانت الحوادث المحلية فقط تجري تسويتها عن طريق لجنة الهدنة المشتركة، احتج الأردنيون بأن إسرائيل تخالف اتفاقية وقف إطلاق النار بمنع وصول الأردنيين إلى طريق بيت لحم وتمنع إعادة إصلاح البيوت المهجورة على طول الحدود مثل "بيت طنوس" غالبًا كانت هذه الأمور تشكل التوتر، إسرائيل من جانبها ادعت أن الأردن كان يطلب منه أن يسمح للإسرائيليين بالصلاة على حائط المبكى في القدس القديمة.

في ربيع عام 1966 أعلن اشكول أن الوصول إلى حائط المبكى اليهودي في القدس هي مسألة "سرمدية" بمعنى أمر أبدي، وفي صيف ذلك العام في يوم الصيام المقدس للإسرائيليين في التاسع من شهر آب/ أغسطس جاءت مقولة في صحيفة معاريف الإسرائيلية اختتمتها الصحيفة بالعبارة التالية: "حائط المبكى يبكي اليوم على أطفال إسرائيل الذين هم ليسوا إلى جانبها"، الأماكن المقدسة في القدس القديمة قد كتب عنها بلفيرد في الصحيفة عام 1967 "أرواحكم تصرخ من أجلكم ولكن أقدامكم لن تطأ تلك الأماكن"، ونشرت صحيفة يديعوت احرنوت بأن السلطات الأردنية قد أطلقت اسمًا جديدًا على الشارع المؤدي إلى حائط المبكى، وهو شارع حائط البراق، نسبة للحصان الذي سرى بمحمد من مكة في الحجاز إلى بيت المقدس، السلطات الأردنية سمحت للسواح اليهود بالوصول إلى حائط المبكى ولكن ليس للإسرائيليين.

الحنين נוסטלגיה

الحدود التي حددتها الأمم المتحدة والتي عرفت بالخط الأخضر لم تكن تتفق من وجهة النظر اليهودية ومع خارطة الأحلام الصهيونية إلا أن الحركة الصهيونية فضلت التخلي عن مناطق واسعة من واقع طموحاتها، فحرب الاستقلال عام 1948 أعطت إسرائيل مناطق أكثر من المناطق التي خصصتها الأمم المتحدة للكيان الصهيوني غير أن هذا لم يلغ الشعور عند الإسرائيليين بأنهم تنازلوا عن الحلم الأصلي مُعلنين حقهم بكل أرض فلسطين، وعلى الرغم من أن إسرائيل لم تطالب في ذلك الوقت بالمناطق التي بقيت خارج الخط الأخضر، حيث كان هناك إجماع بأن الحدود المتفق عليها بموجب اتفاق وقف النار كان من الصعب على إسرائيل أن تحمي نفسها بتلك الحدود.

بعد أن تولى ليفي اشكول رئاسة الوزراء في الكيان الصهيوني أخذ يبحث في مسألة التوسع الممكن لحدود إسرائيل، وفي شهر حزيران عام 1963 كان رئيس أركان جيش الدفاع الإسرائيلي "تسفاي تسور" وكان إسحق رابين نائبه، رابين شرح لاشكول الحدود التي تتطلع إليها إسرائيل ينبغي أن تكون مع نهر الأردن شرقًا وقناة السويس جنوبًا ونهر الليطاني شمالاً، وبرغم أنه لم يقترح عملاً عسكريًا لتغيير الحدود التي كانت قائمة في ذلك الوقت، اعتقد رابين بأن هذا التغيير سيكون مرغوبًا فيه إلا أنه غير جوهري ولكنه يستحق التفكير به إن سنحت الفرصة، بعد أشهر كان لدى جيش الدفاع الإسرائيلي خطة تحت رمز "الكرباج" لاحتلال الضفة الغربية كاملة بما فيها القدس الشرقية.

كما كان هناك اقتراح آخر تحت رمز: موتسارت للسيطرة على كل المواقع التي لا تخضع لإسرائيل في ذلك الوقت، مثل: "رامون هاننتسوف" اللطرون على الطريق إلى القدس ومناطق أخرى حسب الخطة المسماة "بناي أور" أي أبناء النور، في حالة قيام الدول العربية بمهاجمة إسرائيل، وفي تلك الحالة سوف يحاول الجيش الإسرائيلي أن ينقل ميادين الحرب إلى مناطقهم أي المناطق العربية وستكون إسرائيل بطيئة في إخلاء المناطق التي تكون قد تمكنت من احتلالها، ما لم يأخذ الانسحاب منها مكانه بموجب نصوص اتفاقيات تفرض حدودًا أكثر أمنًا بين إسرائيل وجيرانها الأردن وسوريا، وكانت إسرائيل قد حاولت لعدة سنوات التوصل إلى اتفاقية مع الأردن لتعديل الحدود في منطقة اللطرون، الممثل الإسرائيلي في لجنة الهدنة المشتركة شعر بأن الدولة يمكنها إنجاز أهدافها بزراعة الأراضي وتحسين أوضاعها.

مما تقدم يتضح أنه كان لإسرائيل نوايا توسعية منذ عام 1963، وأن الحرب لم تكن نتيجة لدخول مخربين عرب إلى إسرائيل عن طريق الأردن وسوريا أحيانًا، فإنه ادعاء لا أساس له من الصحة حيث كانت إسرائيل تُعد فعلاً لحرب توسعية لفرض حدود جديدة وخط أخضر جديد، فإسرائيل كانت تريد حدوث هذه الأعمال التخريبية كما تصفها لتُعطي لنفسها المبرر في تأزيم الموقف، وجر العرب إلى حرب واسعة النطاق، لتكون نتائجها احتلال الضفة الغربية من الأردن وبرية سيناء، وتفرض الحدود الجديدة، بحيث يكون نهر الأردن من الشرق وبرية سيناء من الجنوب ونهر الليطاني من الشمال، كما أن الادعاء بأن العرب كانوا يعدون لمهاجمتها ومحوها من خارطة

الشرق الأوسط هو أيضًا ادعاء كاذب لسبب بسيط أن أنظمة ما يسمى دول الطوق كانت منشغلة في خلافاتها العربية العربية ولم يكن لديها الوقت لتفكر بتحرير فلسطين أو بحرب ضد إسرائيل.

عام 1964 نشرت مجلة الايكونومست البريطانية، وهي مجلة تحتل مكانة مرموقة ورفيعة في الإعلام العالمي، مقالاً مُدعمًا بالخرائط للمناطق التي تنوي إسرائيل احتلالها، وشرحت المجلة محاولات إسرائيل مهاجمة دول الطوق العربية عام 1964، نظرًا لارتفاع نسبة البطالة فيها وتدهور الاقتصاد الإسرائيلي بشكل غير مسبوق، إذ وصلت معدلات العاطلين عن العمل إلى 16% وهي أعلى نسبة وصلت إليها منذ قيام ذلك الكيان على أرض فلسطين، وحسب المجلة البريطانية قام ليفي اشكول رئيس الوزراء في الكيان الصهيوني آنذاك بزيارة رسمية لبريطانيا لحشد الدعم والتأييد لمشروع الهجوم الإسرائيلي ضد البلدان العربية، ورغبة إسرائيل في حل أزماتها الاقتصادية وإزالة آثار البطالة، ولن يتم ذلك إلا بالتوسع في حدودها التي فرضتها الأمم المتحدة عام 1948، قوبل اشكول بعدم قبول بريطانيا تأييد ودعم إسرائيل في مشروع الحرب التوسعية، وكان رد رئيس وزراء بريطانيا في ذلك الوقت بأن حكام منطقة الشرق الأوسط من الجنرالات العسكريين، الأمر الذي قد يؤدي إلى اندلاع حرب شاملة في المنطقة في الوقت الذي تواجه فيه بريطانيا أزمات اقتصادية حادة، مما يجعلها غير قادرة على الوقوف إلى جانب إسرائيل في الحرب المقترحة، وعليه طلب من اشكول التريث لحين انفراج الأزمات الاقتصادية في بريطانيا وتتمكن من مساندة حليفتها إسرائيل، وذلك حسب ما أوردته مجلة الايكونومست.

ذكرت المجلة في مقالها أنها حصلت على تلك المعلومات من المحادثات السرية بين رئيس وزراء إسرائيل ورئيس وزراء بريطانيا، وواصلت في مقالها بأن اشكول غادر لندن متوجهًا إلى واشنطن لإجراء محادثات بهذا الشأن مع الرئيس الأمريكي جونسون، إلا أنه تلقى نفس الرد نظرًا لظروف أمريكا الاقتصادية، وبسبب التورط الأمريكي في الحرب الفيتنامية وانخفاض قيمة الدولار بالمقارنة مع العملات الأخرى، مما جعل أمريكا غير قادرة على مساندة إسرائيل في حرب جديدة، وطلب الرئيس جونسون من اشكول التريث لحين انفراج الأزمة الاقتصادية الأمريكية والخروج من حرب فيتنام.

المتتبع لتلك التطورات السياسية والاقتصادية العالمية كان يدرك تمامًا أن الانفراج الاقتصادي في كل من بريطانيا وأمريكا لن يكون قبل ثلاث سنوات على الأقل، أي مع بداية عام 1967، وعلى هذا الأساس توقع المحللون الاقتصاديون والمراقبون السياسيون نشوب حرب بين العرب وإسرائيل في المنتصف الثاني من عام 1967، وقد جاءت توقعاتهم وتحليلاتهم الدقيقة في مكانها، وحصلت الحرب في الخامس من حزيران عام 1967، وخسر العرب الحرب وتوسعت إسرائيل في حدودها الشمالية والجنوبية والشرقية تمامًا كما جاء في الخارطة التي نشرتها مجلة الايكونومست عام 1964.

في ذلك الوقت وجَّه صحافي بريطاني سؤالاً لوزير الدفاع الإسرائيلي آنذاك "موشيه دايان" عن كيفية السماح بنشر مثل تلك المعلومات المتعلقة بنوايا إسرائيل في إثارة حرب والتوسع على حساب العرب؟ وكان رد دايان بالحرف الواحد وبكل صلافة: "العرب لا يقرأون وإن قرأوا لا يفهمون وإن فهموا لا يطبقون وإن طبقوا لا يحسنون، لهذا إننا لا نخشاهم ولا نخشى نشر خططنا التوسعية".

فيما يلي سوف استعرض وقائع وأحداث وما جرى في تلك الحرب ليكون في ذلك تذكير للأحياء ممن عاصروا تلك الفترة، ولعلها أيضًا تكون أخبارًا صادقة للأجيال القادمة عن هزيمتنا العسكرية والنفسية والتي ربما تساعدهم على عدم السقوط في تلك الأخطاء القاتلة، وعدم الاعتماد على دخول الحرب بمنطق الطبلة والربابة التي ما قتلت ذبابة، كما وصفها شاعرنا الكبير المرحوم نزار قباني في قصيدته المشهورة عالم 1967 "دفتر على هامش النكسة".

الفصل الرابع : اليوم الأول من الحرب

صبيحة يوم الاثنين الخامس من حزيران عام 1967، وفي تمام الساعة السابعة والدقيقة الخامسة والأربعين كتب بار ديان في مذكراته "اعتقد أن الحرب قد بدأت، سربان من طائرات ميستير طارا على ارتفاعات منخفضة"، وكان يعني بذلك انطلاق الطائرات الإسرائيلية لضرب القواعد الجوية المصرية، وبار ديان هو قائد فيلق دبابات في جيش الدفاع الإسرائيلي، وبعد خمس وأربعين دقيقة كانت إسرائيل قد حسمت المعركة لصالحها، فالطائرات التي انطلقت تمكنت من تدمير مئات الطائرات المصرية وهي رابضة في أرضها خالية من الوقود، إذ تم تدميرها دون أن تشتعل، نظرًا لعدم وجود وقود في خزاناتها، أما الحرائق التي شبت في القواعد الجوية المصرية فقد كانت نتيجة اشتعال ناقلات الوقود أو صهاريج الوقود المحمولة قبل أن تتمكن من الوصول إلى الطائرات في مدرجاتها.

هنا لا بد من التساؤل عن حالات التأهب والاستنفار القصوى التي كانت مصر قد أعلنتها قبل أسبوعين من يوم الخامس من حزيران 67 تحسبًا لأي هجوم مفاجئ من العدو، فهل كان عدم تزويد الطائرات المصرية بالوقود في الوقت المناسب يندرج تحت ذلك الاستنفار، وتلك الاستعدادات التي كان يعلن عنها لمواجهة العدو الإسرائيلي؟ من هذا يتبين تمامًا أنه لم تكن لدى القيادة السياسية المصرية في تلك الفترة على الأقل نوايا لمهاجمة الكيان الصهيوني! وإنما كانت البيانات والتهديدات بضرب إسرائيل في العمق لا تتعدى نطاق الحرب النفسية، مما جعل إسرائيل تستغل ذلك بالقيام بهجوم جوي بما يعرف بـ ((Blitzkrieg بمعنى حرب خاطفة أو حرب بسرعة البرق، أنهت فيه سلاح الجو المصري وجعلت القوات البرية وارتال الدبابات المصرية في سيناء مكشوفة بدون غطاء جوي، وتحت تحكم السلاح الجوي الإسرائيلي.

على صعيد المعارك البرية فقد كانت أصوات المدافع وإطلاق النار تدوي في كل مكان وفي كل اتجاه، واستمرت العربات العسكرية تسير عبر أرض تحترق تمطرها شظايا القنابل، دبابة من نوع باتون تدهورت وأسرع "بارديايان" وفرقته لإصلاحها، وكانوا يسيرون في بيارة برتقال بالقرب من رفح، وتابعوا سيرهم ليروا القرويين يفرون من أمامهم، وكان سلاح الجو قد أكمل تدمير معظم القوة الجوية المصرية، قليلون من الإسرائيليين عرفوا ذلك وكانت تلك أهم ساعات تحمل معها الرعب، حيث كان الرعب يسيطر على الإسرائيليين في كافة أنحاء إسرائيل، بسبب التعتيم الإعلامي الذي فرضه الجيش الإسرائيلي على سير المعارك، وبسبب ما كانوا يستمعون من المصدر الوحيد لهم وهي إذاعة صوت القاهرة باللغة العبرية "إذاعة كول كاهير".

في تمام الساعة الثامنة وعشر دقائق أعلن راديو إسرائيل أن مصر كانت تهاجم إسرائيل، وصدرت الأوامر عبر الإذاعة لجنود الاحتياط بالتوجه إلى وحداتهم على الفور، انطلقت صفارات الإنذار معلنة قرب هجوم جوي ولكن لم يكن ذلك سوى تجربة من سلسلة التجارب التي يقوم بها الدفاع المدني، وفي الساعة التاسعة والنصف أذاع راديو إسرائيل أن سلاح الجو المصري تلقى ضربة مدمرة، وقام عيزر وايزمان بالاتصال بزوجته هاتفيًا الساعة العاشرة صباحًا وأخبرها أن إسرائيل ربحت الحرب، وبعد دقائق عقد المتحدث الرسمي باسم جيش الدفاع الإسرائيلي مؤتمرًا صحافيًا

للمراسلين العسكريين الذين لم يسمح لهم بكشف الأخبار السرّية، وفي العاشرة والنصف اتصل مساعد وزير الدفاع ورئيس الأركان السابق "تسفاي تسور" برئيس الوزراء دافيد بن غوريون وأعلمه أن 137 طائرة مصرية قد دمرت وأن إسرائيل فقدت من 6 – 7 طائرات فقط، وقبل الحادية عشرة صباحًا تحدث موشى ديان وزير الدفاع في الإذاعة الإسرائيلية ولم يذكر شيئًا عن تدمير سلاح الجو المصري غير أن راديو صوت إسرائيل الناطق باللغة العربية أذاع بأن 120 طائرة مصرية قد تم تدميرها، بعض الأشخاص اتصل مع الوزير "غفاني" وأخبره أن 150 طائرة للعدو قد دمرت، بينما صدرت نشرة جريدة معاريف الإسرائيلية تقول استنادًا إلى إذاعة صوت إسرائيل العربية، أن 120 طائرة مصرية قد دمرت في الهجوم الجوي الأول، أحد العاملين في السفارة الإسرائيلية في باريس سرَّب معلومات لوكالة أنباء رويترز أن القوات الجوية الإسرائيلية دمرت 117 طائرة مصرية على الأرض.

مراسل جريدة هآرتس في شمال فلسطين المحتلة سمع أخبارًا من ضابط في الشرطة في مدينة عكا أن الطائرات التي دمرت في مصر وصل عددها إلى 220 طائرة، المراسل يهودا اريبل كان يعمل أيضًا مع وكالة أنباء ألمانية، أسرع إلى مكتب البريد في نهاريا التي كان معظم سكانها من اليهود الألمان ليرسل برقية، إلا أن مكتب البريد استدعى الدكتور "فرتس فولف" مدير البريد ليقرأ برقية "اريبل" ورفض إرسالها وقال هذا غير ممكن، من يستطيع أن يصدق هذا الشيء؟ وأضاف اعتقد أن اريبل قد أصابه مس من الجنون.

لا أحد يلوم الدكتور فرتس فولف على عدم تصديق رواية "اريبل" كمعظم الإسرائيليين الذين لم يصدقوا تلك الأنباء، حيث أن إذاعة القاهرة العبرية "كول كاهير" كانت تذيع أن تل أبيب تحترق والمقاتلين الفلسطينيين يتجولون الآن في شوارعها لا يخافون الموت، ولم يكن لدى الإسرائيليين مصدر آخر نظرًا للتعتيم الذي فرضه جيش الدفاع الإسرائيلي على وسائل الإعلام الإسرائيلية.

فيما بعد كتب "بار دايان" في مذكراته اليومية الساعة الثانية عشرة والدقيقة الأربعين أن معركة خان يونس قد انتهت، وأن الجنود المصريين يفرون الآن من المدينة، وأن المراكز الحكومية في رفح تشتعل بالنيران وأن وحدة عسكرية كانت تمر من هناك ذكرت بأن جثث المصريين كانت على طول الطريق وفي جانبنا الأيسر كانت أصوات المدافع تدوي، وسأل قائلاً هل هذه معركة جديدة؟ بعدها رأى فرقة الدبابات تعود إلى الطريق العام لتواصل قتالها. فقال: اعتقد أن رب جيوش إسرائيل معهم الآن.

انطلق صوت رئيس الوزراء ليفي اشكول عبر إذاعة إسرائيل وهو يخطب، ولكنه لم يتطرق إلى ذكر تدمير القوة الجوية المصرية، في الثانية عشرة والنصف التقى اشكول مع موشى ديان ورابين والون ويادين كان أيضًا متواجدًا في اللقاء. تقرير الوضع كان يشير إلى أن قوات جيش الدفاع الإسرائيلي البرية والآلية كانت تتقدم في سيناء، ديان غيَّر فكره بشأن قطاع غزة وسمح لوحدات عسكرية باحتلال مدينة غزة، وكانت القوة الجوية الإسرائيلية لا زالت تقصف القواعد الجوية المصرية. حاول مراقبوا الأمم المتحدة وقف إطلاق النار في القدس إلا أن محاولاتهم باءت بالفشل وواصل الإسرائيليون إطلاق النار باتجاه الأردنيين في القدس، كما أن الأردنيين وسَّعوا عملياتهم العسكرية في الشمال مهددين "رامات دافيد" القاعدة الجوية الإسرائيلية في الشمال، واقترح ديان غزو المنطقة ومدينة جنين في الضفة الغربية لحماية القاعدة الجوية وقال "لا نريد احتلال المدينة" ووافق رئيس الوزراء أشكول على ذلك ولكنه أكد إذا كان ممكنًا اتركوا المدينة، وكان ديان قد

أصدر أوامره لاحتلال مدينة جنين قبل لقائه باشكول، وأمر سلاح الجو بقصف الأردن وسوريا ولكي يبدأ جيش الدفاع الإسرائيلي عملياته لاحتلال جبل "ماونت سكوبص" في القدس فقد وافق اشكول على أوامر ديان، وفي الساعة الثالثة من بعد ظهر الخامس من حزيران أخبر موسى ديان رجال الصحافة بأن إسرائيل تمكنت من تدمير أربعمائة طائرة مصرية وهي جاثمة على أرض القواعد الجوية المصرية.

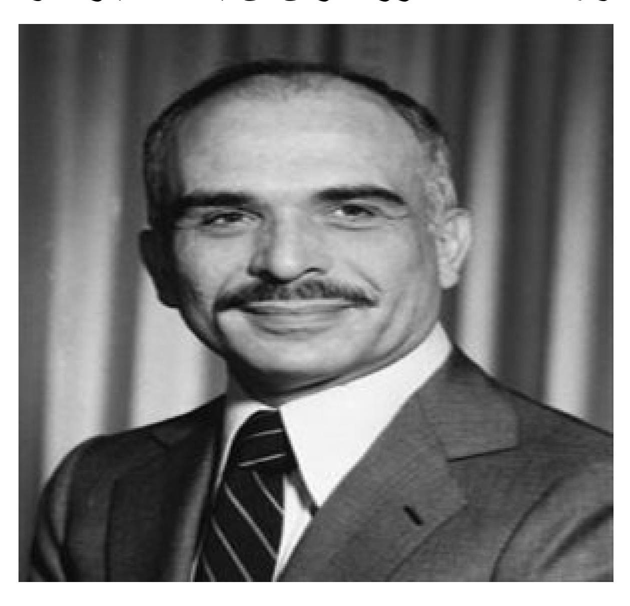
الاجتماع الصحافي شمل أهم نقاش دار أثناء فترة الحرب حول سقوط الضفة الغربية والقدس الشرقية بأيدي إسرائيل، وقال ديان إني اقترح تجنب الدخول في حربين، محذرًا من الدخول في حرب مع الأردن وتساءل عن ذلك "إسرائيل ليور" بقوله: "ماذا يريد موشى ديان؟" كما اقترح ديان أيضًا احتلال منطقة اللطرون حسب الخطة التي أعدت مسبقًا، إسحق رابين الذي كان غير راغب باحتلال الضفة الغربية من الأردن قال: "إننا ندمر قوتهم الجوية فلماذا نحتاج أخذ أراضيهم في هذه المرحلة؟" وكان إسحق رابين سابقًا قد رفض تفويض الجنرالات في القيادة المركزية بضرب الأردنيين كرد على قصفهم مدينة القدس.

الفصل الخامس : مشاركة الأردن في المجهود الحربي العربي

مشاركة الأردن في المجهود الحربي العربي ووقوفه إلى جانب مصر وسوريا كان هاجسًا يؤرق القيادتين السياسية والعسكرية في الكيان الصهيوني، وكان قد تم في المناقشات التي دارت في الاجتماعات خلال الأيام العشرة التي سبقت الحرب؛ اتخاذ قرارات حول عزم إسرائيل احتلال الضفة الغربية من الأردن بما فيها القدس الشرقية إذا شارك الجيش الأردني في الحرب المنتظرة عام 1967.

الأردن عندما نشبت الحرب بين إسرائيل وكل من مصر وسوريا وجد نفسه أمام خيارين لا ثالث لهما، الخيار الأول يتلخص في أن يشارك الأردن في المجهود الحربي العربي ويتحمل النتائج مهما بلغت، والخيار الثاني أن يلوذ بالصمت ولا يشارك في تلك الحرب ويظل بعيدًا عنها. في الخيار الأول أقيمت الحسابات السياسية الأردنية على احتمال سقوط الضفة الغربية كاملة وانتهاء الوجود الأردني فيها وبهذا يكون الأردن قد مُني بهزيمة نكراء، أما الخيار الثاني فإنه قد يؤدي بالقيادتين المصرية والسورية إلى محاولة تعليق أسباب الهزيمة العربية على شماعة الأردن باعتباره يسيطر على أطول خط للنار مع إسرائيل وأن ذلك يجعل الأردن يلعب دورًا إيجابيًا وفاعلاً في النصر وفي الهزيمة أيضًا، وهذا ربما يؤدي إلى حدوث تغييرات جذرية في الأردن ينتهي معها حكم العائلة الملكية الهاشمية حيث تكون الهزيمة في هذه الحالة هزيمة سياسية.

كان الأردن في ذلك الوقت بقيادة الملك الحسين بن طلال يعي تمامًا نتائج الخيارين والظروف التي سوف تنجم عنهما في كلتا الحالتين، ففضل أن تكون الهزيمة عسكرية ولا تكون هزيمة سياسية، ولهذه الأسباب قرر الأردن أن يأخذ الخيار الأول والدخول في حرب إلى جانب مصر وسوريا.



- الملك حسين -

على الرغم من قرار القيادتين السياسية والعسكرية في الكيان الصهيوني باجتياح الضفة الغربية، قام الأردنيون بمهاجمة إسرائيل بموجب قرار المشاركة في المجهود الحربي العربي غير أن رئيس الوزراء في الكيان الصهيوني "ليفي أشكول"، وكذلك رئيس أركان جيش الدفاع الإسرائيلي "إسحق رابين" كانا لا يرغبان بالمواجهة العسكرية مع الأردن لأسباب عديدة أهمها:

1- الجيش الأردني يعتبر من أكثر الجيوش العربية تدريبًا وخبرة في خوض المعارك البرية خصوصًا في مجال حرب الدبابات والمدفعية وأن معظم قادة الجيش وضباطه تلقوا تدريباتهم العسكرية في بريطانيا وإنهم يجيدون فنون التكتيكات الحربية إجادة عالية.

2- سلاح الجيش الأردني قليل بالمقارنة مع السلاح الإسرائيلي إلا أنه قادر على تكبيد إسرائيل خسائر كبيرة في الأرواح والعتاد، ولا ترغب إسرائيل بتحمل تلك الخسارات كما أن جبهة المواجهة مع الأردن هي أطول جبهة من النواحي الجغرافية والطوبغرافية واللوجستيكية، الأمر الذي يجعل الجيش الإسرائيلي غير قادر على حماية حدود إسرائيل الشرقية بشكل عملي، في الوقت الذي تكون فيه القوات الإسرائيلية منشغلة مع السوريين والمصريين.

خلال الحرب سقطت الضفة الغربية كاملة في أيادي الإسرائيليين ولم يستطع النظام المصري التحريض ضد النظام الأردني حيث شارك الأردن فعلاً في المجهود الحربي العربي، وخسر الأردن الضفة الغربية، كما خسرت مصر برية سيناء، وخسرت سوريا مرتفعات الجولان الاستراتيجية.

وبما أن الطائرات الحربية الإسرائيلية تمكنت من حسم الحرب لصالح الكيان الصهيوني خلال فترة زمنية بلغت 45 دقيقة أي ثلاثة أرباع الساعة بما فيها انطلاقها من قواعدها وزمن الوصول إلى القواعد الجوية المصرية، فإن تسمية تلك الحرب بحرب الأيام الستة لا يتفق مع الواقع العملي لتلك الحرب، وينبغي أن تكون التسمية "حرب ثلاثة أرباع الساعة"، فخلال ثلاثة أرباع الساعة تمكنت إسرائيل من إنزال كارثة غير مسبوقة بالأمة العربية، وهزيمة عسكرية كبرى، إضافة إلى الهزائم النفسية للأمة العربية والتي ما زالت الأمة تعاني منها حتى اليوم أي بعد حوالي ثلاث وأربعين سنة من تاريخها.

بار دايان وجنوده في الفرقة السابعة لسلاح الدبابات استغل شباك التمويه على الدبابات وجهزها للتحرك وخصص من يقوم بتزويد "حقن طبية" لاستعمالها في حالة تعرض الجنود لقنابل الغاز، وكانت تلك الحقن قد زودت لفرقة المشاة المنقولة قبل يومين على الأقل من بدء الهجوم، مما يشير إلى التنسيق الكامل بين فرق ووحدات الجيش الإسرائيلي استعدادًا لتوجيه الضربة القاضية للأمة العربية، في الوقت الذي كانت فيه الأنظمة العربية قريرة العين بسباتها العميق والأمة مخدرة بالخطابات التخديرية، بعد ذلك وزع إعلان موقَّع من الجنرال "إسرائيل تال" قائد فرق الدبابات المعروفة بفرق المدرعات الفولاذية وجاء في الإعلان: "اليوم سوف نخرج لسحق الأيادي التي حاولت الوصول إلينا"، موجِّهًا الاتهام إلى المصريين، وأضاف: "هذه المعركة التي أرادها العدو والتي بدأها ولا زلنا نضرب العدو بشدة تصل إلى ضعفي ما يضربنا به"، وشدد على أن إسرائيل تواجه حربًا طويلة، فللمرة الثالثة كان الخنجر المصري يلوح علينا، للمرة الثالثة اخطأ العدو في تصوره الجنوني أن إسرائيل ستركع على ركبتيها، بالدم والنار والحديد فإننا هذه المرة سوف نقتلع تلك المؤامرة من قلوبهم"، ووعد تال أن إسرائيل لن تستهدف المدنيين المصريين وقال: "نحن لا

نشتهي أرضهم أو ممتلكاتهم، وإننا لم نأتِ لتدمير بلدهم ولا لامتلاكها، الإسرائيليون جاءوا ليهزموا مؤامرة التدمير وسوف ينتصرون، اليوم برية سيناء سوف تعرف قوة فرقة الفولاذ والأرض سوف ترتجف عندما تصل دباباتنا إليها".

في تلك الأثناء دخل إلى بيت دافيد بن غوريون في تل أبيب، ضابط كبير كان قد أرسله "بار دايان" ليخبر رئيس الوزراء بأن الحرب قد بدأت، وكتب دافيد بن غوريون في مذكراته: "لم يكن هناك داع لكل هذا"، وبقي ثابتًا على موقفه من الحرب وقال: إنه خطأ محزن، بار دايان أراد أن يعلم بن غوريون أنه خلال الساعات القليلة القادمة سوف يقوم جيش الدفاع الإسرائيلي باجتياح مدن خان يونس ورفح جنوب غزة تليهما برية سيناء كاملة إلى قناة السويس.

الفصل السادس : اليوم الثاني - الاجتياح البري

واصل فيلق الدبابات السابع ووحدات الجنرال "تال" المدرعة تقدمها كما فعلت قوات "آرييل شارون وأبراهام يافي" واستمر القتال أيضًا في قطاع غزة، يهوشع بار دايان وأصدقاؤه تحركوا إلى الصحراء على طول الطريق الساحلي، وعلى الطريق شاهدوا سيارة جيب عسكرية مدمرة وثلاثة جنود إسرائيليين أمواتًا في داخلها، حيث كانت السيارة قد ضُربت في مقدمتها، في الوقت الذي كان الجنود يجلسون في أماكنهم، أحدهم بعيون خضراء مفتوحة، وآخر مات وهو يمسك بمقود السيارة وعيونه تحملق ثابتة على قطعة من طريق مُعبَّد أمامه، وعلى طول الطريق كان "بار دايان" يشاهد جثث الجنود المصريين، وكانت طائرتا ميراج إسرائيليتان تحلقان على ارتفاع منخفض، كانتا فيما يبدو تطاردان طائرة مصرية من الطائرات القلائل المتبقية من سلاح الجو المصري.



- اريل شارون -



- أعضاء في الكنيست الإسرائيلي -

حوالي الساعة الثانية من صباح يوم السادس من حزيران كان ليفي اشكول قد اعتمد أولويات "ديان" لبقية الحرب بقوله: دمروا الدبابات المصرية، احتلوا شرم الشيخ في سيناء وطريق اللطرون غربي القدس، المدينة المقدسة وكافة أنحاء الضفة الغربية، احتلوا بانياس في مرتفعات الجولان السورية وتل العزازيات والمناطق المحايدة على الحدود السورية، وكانت المعركة لاحتلال طريق جبل "سكوبص" في القدس قد بدأت.

الجنرال "أود بول" أخبر رؤساءه في نيويورك عن تبادل النار على طول الحدود السورية الإسرائيلية، وذكر لهم أن السوريين كانوا يقصفون المدنيين في إسرائيل، كان بول يستعمل القنصلية الأمريكية في القدس كقاعدة اتصالات، أهارون ياريف أخبر الحكومة في تل أبيب بأن السوريين يهاجمون بضعة مدن في الشمال، إلا أن تلك الهجمات أقل تأثيرًا مما كان متوقعًا.

قبل طلوع النهار غادر "أبا ايبان" منزله في القدس في طريقه إلى الجمعية العمومية للأمم المتحدة في نيويورك، بغرض تأخير قرار وقف إطلاق النار، حيث أن جيش الدفاع الإسرائيلي بحاجة لوقت أطول لإنجاز مهماته، زوجته سوزي ودعته إلى السيارة وتحاضنا،

الساعة الرابعة صباحًا سمع "إيغال ألون" من راديو هيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي) أن الحرب في الشرق الأوسط على وشك الانتهاء، وكان متخوفًا من أن تنتهي الحرب قبل احتلال القدس الشرقية، وعلى الفور قام بالاتصال مع ليفي اشكول الذي بدوره طلب منه الحضور إلى مكتبه، عندما وصل "ألون" المبنى وجد هناك "مناحيم بيغن" وكان بيغن مع اشكول لذات الغرض. سأل ألون ماذا عن القدس؟ ألون وبيغن ذهبا ليقابلا اشكول سويا وقالا: إنه الوقت المناسب، وأخيرًا أخبر ألون أن اشكول استجاب إيجابًا وأخبر الوزيرين بأن الموضوع ينبغي أن يبحث في اجتماع مجلس الوزراء لاحقًا في ذات اليوم.

اجتمع مجلس الوزراء الإسرائيلي بعد ظهر يوم السادس من حزيران، قبل كل شيء سمع الوزراء البابا في الفاتيكان يقول: "إن القدس يجب أن تصبح مدينة مفتوحة"، وقد شكَّل ذلك فرصة أخرى لتجنب الاحتلال، وحسب "إسرائيل ليور" كانت المسألة متأخرة وقال: في هذا اليوم أصبح واضحًا لجميع الوزراء، وكل جنرال في جيش الدفاع الإسرائيلي أن عجلة الحرب لن تعود إلى الوراء، وكانت المناقشات مختلفة تمامًا عما كانت عليه قبل قرار مهاجمة مصر، إذ تقدمت بدون خوف ولم يعد هناك حديث عن تهديد لوجود إسرائيل، بل على العكس استمع الوزراء إلى تقارير مشجعة من "ياريف" الذي قال إن الجيش المصري قد هزم تمامًا.

ليفي اشكول الذي عاش في فلسطين أكثر من خمسين عامًا وجد من السهل في ضوء وضع الخط الأخضر كخط مؤقت وترتيبات اصطناعية نتيجة لفشل عسكري أن تكون كلمته في مجلس الوزراء في ذلك اليوم غير متميزة مع بروز الوضع الجديد، وقال "إن علينا أن نفكر بتحديد أهدافنا الأمنية والسياسية، التي هي برأيي ينبغي أن توجه مباشرة نحو تغيير طبيعة العلاقات الإسرائيلية العربية التي ظلت قائمة منذ عام 1948 وفي ضوء هزيمة الجيوش العربية، علينا أن نضع خط تؤكد وضع إسرائيل الصحيح في الشرق الأوسط في الوقت الذي ننجز فيه سلامًا دائمًا وحدودًا آمنة".

اشكول كان على دراية بالمناقشات التي يجريها الموساد مع جيش الدفاع الإسرائيلي ووزارة الخارجية في أعقاب عملية "السموع"، وقد خرجوا جميعًا بنتيجة واحدة وهي أن من مصلحة إسرائيل أن تسمح للملك حسين مواصلة العملية التي كان قد بدأها لتدمير الهوية الفلسطينية باستيعاب الفلسطينيين في الأردن وتشجيعهم على الهجرة.



- ليفي اشكول رئيس وزراء إسرائيل-

أدرك اشكول أن احتلال الضفة الغربية سوف يضع مليون فلسطيني تحت الحكم الإسرائيلي مما يعمق هويتهم الوطنية ويجعلهم يشكلون خطرًا على اليهود الإسرائيليين، لهذا في الليلة التي سبقت عبَّر عن رأيه أن يُعيد الضفة الغربية والقدس، ربما إنه اعتقد بأن الضفة الغربية سوف تخدم إسرائيل في المساومة، وكان يأمل بأن تؤدي المساومة إلى حدود أفضل مع إمكانية الوصول إلى حائط المبكى.

وفي ضوء الماضي ربما توقع أيضًا أن يكون هناك هروب جماعي للفلسطينيين، "إيغال ألون" قدَّم للحكومة فلسفة جديدة كاملة كانت قد وضعت تفاصيلها قبل الحرب تقي بمفاوضة الملك حسين إن لم ينجح ذلك التفاوض فإن على إسرائيل أن تبقى محتلة للضفة الغربية وتعمل إسرائيل على تحويل الضفة إلى منطقة حكم ذاتي مع روابط اقتصادية مع إسرائيل، في غضون ذلك يجب احتلال القدس القديمة ولكن بدون ضمها رسميًا إلى إسرائيل، أما الحدود السورية ينبغي أن تُعدَّل وذلك يعني إبقاء "بانياس" تحت إدارة إسرائيلية، وأن تبقى إسرائيل في المناطق التي احتلتها إلى أن يتم التوصل إلى تسوية سياسية، حتى لو تطلب ذلك أشهر أو سنوات، مع الأخذ بعين الاعتبار عدم التخلي عن قطاع غزة ولكن على إسرائيل أن تبحث عن طريقة لإخراج اللاجئين الفلسطينيين من القطاع.

أما مناحيم بيغن فقد قال إذ ذاك إن احتلال الضفة الغربية من الأردن يعني تحرير الجزء الشرقي لأرض إسرائيل الغربية، وطالب بالتوسع في الاحتلال ليشمل نهر الأردن ولكن بدون الأراضي شرقي النهر، وأكد أنه على إسرائيل أن تسيطر على البلدة القديمة في القدس، وقال إن العالم المسيحي في الغرب سوف يتفهم ذلك، كما خاطب بيغن أيضًا سكان المناطق المحتلة والذين أرادهم أن يغادروها ولكنه كان يتحدث بحذر قائلاً: "سوف تعمل إسرائيل ما بوسعها لإجلاء العرب بطريقة إنسانية".

"موشى ديان" اقترح احتلال شرم الشيخ مع احتلال سلسلة الجبال في الضفة الغربية دون النزول إلى الأردن ومحاصرة المدينة المقدسة، وردًا على اعتراض مناحيم بيغن أضاف ديان: "عمومًا جيش الدفاع الإسرائيلي قادر على الدخول إلي القدس الشرقية في أي وقت عندما تعطي الحكومة كلمتها"، وأمل ديان أن يتجنب الحرب وكان يعتقد بأن أهل المدينة سوف يرفعون الأعلام البيضاء

ويطلبون من الجيش الدخول إلى البلدة القديمة، وأضاف بأن المدينة شهدت حروبًا كثيرة ودمارًا، وأن علينا أن نحاول بقدر الامكان أن نأخذ المدينة سلميًا.

كانت تلك لحظات حرجة إذ كان اشكول يعتقد بصدق أن احتلال الضفة الغربية سيؤدي إلى المساومة، ففي تلك الحالة عليه أن يتوقف عن احتلال القدس الشرقية، وكان ينبغي أن يعلم أنه لا حكومة إسرائيلية وبالتأكيد ليست حكومته ستكون قادرة على التنازل عن القدس الشرقية، وأنه لم تكن هناك فرصة أن يتنازل عنها الملك حسين، احتلال القدس الشرقية هدد بعودة الوضع إلى الطريق المسدود الذي كان عليه قبل الحرب.



- موشى ديان-

ومرة أخرى لم يكن هناك أي شيء يقدم إلى العرب غير أن اشكول والوزراء الإسرائيليين لم يسألوا أنفسهم لماذا كانت بالضبط فائدة السيطرة على المدينة المقدسة، فإذا أخذ هذا كمسلمات، تخوف حاييم موشية شابيرا وزلتسمان آران أن تجد إسرائيل نفسها في وضع صعب خصوصًا فيما يتعلق بعلاقاتها مع العالم المسيحي إلا أنهما لم يسقطا ذلك الحلم، في منتصف المداولات لم يكن هناك منطق سياسي، ولكن إثارة شعور وكأن أولئك الحضور قد وجدوا فجأة النور مخبئًا فيها أو فجأة رأوا الحقيقة وادعوا أنهم كانوا دائمًا يعرفونها، وفيما إذا كان العلمانيون والمتدينون يعتقدون أن القدس الشرقية هي صهيون الحقيقية أي الكأس الذي تاقت له الأمة اليهودية على مدار ألفي عام.

ذكر إسرائيل ليور أن جميع المناقشات التي جرت بطريقة مرتجلة بدون تنظيم أو بعملية منتظمة، بدون أوراق عمل.. والوزراء لم يدققوا في البدائل، وكان بامكانهم على سبيل المثال، حصر جيش

الدفاع بفتح طريق إلى حائط المبكى، بدون حاجة لاحتلال القدس الشرقية، وكان بامكانهم أن يعلنوا أن ذلك يجيء مطابقًا لاتفاقية الهدنة الموقعة عام 1949.

اليوم الثالث.. قرار مجلس الأمن الدولي

في اليوم الثالث للحرب أصدر مجلس الأمن الدولي قرارًا بوقف إطلاق النار دون أن يتطرق القرار إلى الانسحاب، ورحب أبا ايبان بالقرار، ولما سمع مناحيم بيغن بقرار مجلس الأمن اتصل على الفور مع رئيس الوزراء "ليفي اشكول" ليسأله مرة ثانية عن القدس الشرقية، واتصل اشكول مع موسى ديان وكذلك فعل مناحيم بيغن، ورد ديان بدون تروي وبانفعال أنه ليس بحاجة إلى نصائحهما، وقال إن جيش الدفاع يعمل كل ما يمكن عمله، وفي صباح ذلك اليوم أصدر أوامره لاحتلال القدس الشرقية بالسرعة الممكنة.

قوات "موردخاي غور" البرية كانت قد وصلت جبل الزيتون واحتلت "اوغسطا فيكتوريا" الذي بناه أخر قيصر ألماني لزوجته، ومن هناك بدأت قواته تقصف الحي الإسلامي داخل القدس الشرقية، وقد كان في معركة القدس أخطاء كبيرة أدت إلى وقوع إصابات في جيش الدفاع الإسرائيلي، وكتب "غور" في مذكراته أنه تلقى أوامر بالدخول إلى القدس الشرقية عن طريق بوابة الأسود الساعة الثامنة والدقيقة الرابعة، وفي العاشرة صباحًا أعلن أن جبل الهيكل أصبح لنا، أي الجبل الذي يقع فيه المسجد الأقصى المبارك وقبة الصخرة المشرفة.

هذا ما كان يجري في أيام الحرب الثلاثة الأولى من مداولات ومناقشات حول الأوضاع في الأراضي العربية المحتلة، وحول النصر الذي باغت الشعب الإسرائيلي وشعوب العالم أيضًا، وكأن احتلال المناطق العربية لم يكن في حسبان الإسرائيليين على الإطلاق أو على الأقل بتلك السرعة المذهلة نظرًا لما كان يواجههم من جيوش عربية مسلحة تسليحًا جيدًا ودبابات حديثة.

على الجانب الآخر حاولنا استقصاء ما وقع أو الاستعدادات العربية وما كان يدور في الساحات العربية أو أنظمة دول الطوق كما كانوا يطلقون عليها، والحقيقة المروعة أن محاولاتنا وصلت إلى طرق مسدودة حيث لم يكن في الجانب العربي ما يؤخذ به عن واقع تلك الحرب، وكان من غير الممكن الاعتماد إلى ما كانت تبثه وسائل الإعلام العربية خلال الحرب، نظرًا لاتضاح عدم المسؤولية، إذ كان البث يعتمد على تضليل الشعوب العربية وزرع الوهم في نفوس الناس للتغطية على فشل الزعامات العربية التي خاضت الحرب.

لهذه الأسباب لم نجد ما يستحق الذكر حول الاستعدادات العربية للحرب بل سمعنا تصريحات تصف أكبر هزيمة عرفتها الأمة العربية عبر تاريخها بأنها كانت "نكسة"، ثم تحولت النكسة في الإعلام العربي الحكومي إلى "انتصار" تحت دواعي أهداف إسرائيل من الحرب، وهي الإطاحة بالزعيم جمال عبد الناصر، وطالما بقي الرئيس في سدة الحكم بتأييد من الشعوب العربية فإن ذلك يعني فشل الخطة الإسرائيلية وبالتالي فقد حقق العرب النصر على إسرائيل.

المراجـع

1 - التوراة اليهودية (التناخ) أسفار موسى الخمسة.

2 - التلمود لكل إنسان - أ. كوهين 1975.

3 - تاريخ اليهود - الطبعة الأولى عام 1988 - بول جونسون.

4 - مصر القديمة - الثقافة والتاريخ – ج. ي. ماتشيب وايت-
تاريخ العائلات الملكة في مصر القديمة).

5 - جواسيس جدعون– تاريخ الموساد السري– الطبعة الخامسة (ثوماص غوردون).

6- حياة وتاريخ بابل - ي. أ (واليس بدج).

7- حرب عام 1967 والسنة التي غيرت الشرق الأوسط 2005
الكاتب الإسرائيلي (توم زيكيف).

8- المكتشفات الأثارية الحديثة في عدد من مناطق الشرق الأوسط.

References

The Jewish Torah (Tanach) the Pentateuch -1

Everyman's Talmud - A. Cohen 1975 -2

History of the Jews , 1st. edition 1988 -3

Ancient Egypt - Culture and History -4

(J. E. Manchip White 1970)

Gideon's Spies – The Secret History of the -5

Mossad (5th Edition) Thomas Jordan

Babylonian Life and History - 6

(E. A. Wallis Budge)

Israel, The war and the year that transformed Middle East 1967 -7
– 2005

(The Israeli Writer Tom Segev)

Many Recent Archeological Discoveries in Middle East Regions -8

المؤلف في سطور

• د. شفيق عبد الحليم الخليل

• مؤرخ وإعلامي، من مواليد فلسطين- يافا، عام ١٩٣٨ م

• درجة الدكتوراه في الصحافة من انجلترا.

• بكالوريوس في الفيلولوجيا من جامعة بريستول في انجلترا

• التخصص العلمي :

١. الصحافة والإعلام

٢. علوم الفيلولوجيا (فقه وتاريخ اللغات)

٣. أنظمة الاستثمار المصرفية

٤. دراسات أخرى خاصة بالاركيولوجيا

• دورتان في سويسرا للتدريب على أعمال المصارف المالية والاستثمارات

• يتقن اللغات: العربية – الإنجليزية – العبرانية – الألمانية

• البريد الإلكتروني : Charlesdickens2@aol.com

• العمل والخبرات السابقة

- 7 years Promotion Manager for the Mid-East Region – Euro-foreign Banking Corporation – Switzerland- Centered in Beirut – Lebanon

- Middle East Manger for the Swiss Financial Investment Company - Entereit A.G (Intereit Actiengesellschaft) Beirut - Lebanon

- العمل في الصحافة لمدة تزيد على ٣٠ عاما في الخليج العربي والولايات المتحدة الأمريكية، وتشمل الإذاعة والتلفزيون، وتأسيس صحيفة عربية في مدينة كليفلاند بولاية أوهايو الأمريكية باسم "صحيفة البيان "

• صدر للمؤلف :

- السنهدرين بيت : كتاب بمعنى مجلس الكهنوت الصهيوني الأعلى الثاني. نشر في جريدة القبس الكويتية على حلقات أسبوعية بلغت حوالي السبعين حلقة.

- ميشيل دي نوستراداموس: قراءة في كتابه المعنون "القرون" وتصحيح للترجمات المغلوطة التي فسرتها الحركة الصهيونية بقصد الإساءة للأمة العربية والإسلامية، وتحريض شعوب العالم ضد العرب والمسلمين.

- بنو إسرائيل عبر التاريخ : مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة 2011م

شمس للنشر والإعلام - رؤية جديدة في عالم النشر

في مسعى جاد لتقديم رؤية جديدة تسهم في تصحيح العديد من المسارات في مجال النشر، تأسست "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" كخطوة على طريق إرساء أسس مشروع ثقافي متكامل يهدف إلى نشر الإبداع العربي في كافة التخصصات، وإثراء صناعة النشر، وتقديم إضافة حقيقية إلى مسيرة الكتاب العربي، وفق رؤى متوازنة تجمع ما بين طبيعة عملها كمؤسسة تجارية تتطلع إلى تحقيق الربح والانتشار، وبين تحقيق رسالتها الثقافية.

وتهدف "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" إلى تحقيق عدد من الغايات، تتمثل في:

- إتاحة الثقافة الرفيعة للقارئ، وتلبية حاجاته من المعرفة.

- تفعيل حركة النشر، خاصة لشباب المؤلفين، ورعاية وتشجيع المبدعين، ودعم قدراتهم الفكرية والأدبية، والعمل على إبرازها.

- الإسهام الفعال في نشر الإبداع العربي، من خلال سياسات ترويج وتوزيع تتلاءم ومقتضيات العصر.

- حماية الحقوق الفكرية والمادية للكتّاب، وإعادة صياغة أسس التعامل المادي مع المؤلفين وفق قواعد أكثر إنصافاً.

- التعريف بالكاتب والكتاب إعلامياً وجماهيرياً، ومد جسور التواصل بين المبدع والمتلقي.

- الوصول بالإبداع العربي إلى القارئ غير العربي، من خلال ترجمة الإصدارات العربية المتميزة إلى لغات مختلفة، والعمل على خلق آفاق عالمية لنشرها بالتعاون مع دور نشر احترافية.

- إثراء الحياة الثقافية بالأنشطة والندوات والفعاليات، من خلال رؤى تنظيمية وترويجية تضمن نجاحها والمشاركة الفاعلة فيها.

- توثيق الصلات بين دور النشر المحلية والعربية والدولية، وكذلك بين الكتاب والمثقفين العرب، والتواصل الفاعل مع المهتمين على اختلاف توجهاتهم، وفق صيغ تعاون إيجابية.

ويرتكز عمل المؤسسة على منهاج "احترام الكاتب والكتاب" مادياً وأدبياً ومعنوياً، وفق عدة معايير تقوم على الالتزام التام بأخلاقيات مهنة النشر. وتسعى لتقديم رؤية جديدة لصناعة الكتاب تشمل الدقة في انتقاء المحتوى، والجودة في إخراجه وتصميمه وتنفيذه وطباعته، والاهتمام بنشره وترويجه إعلامياً ودعائياً، بما يضمن له مكاناً بارزاً في مكتبة القارئ.

شمس للنشر والإعلام

www.shams-group.net

01288890065 (2+) / 27270004 02 (2+)





ما من أحد يشك ولو للحظة بأن التاريخ الذي نتبعه ونعلمه لأبنائنا في المدارس؛ لا يمثل الحقيقة التاريخية على الإطلاق، لأنه سبق وأن تعرض للتزوير واستبدال الحقائق بروايات أسطورية ومجازية بعيدة كل البعد عن واقعها الفعلي. وأنا على يقين تام بأن تاريخ المنطقة تعرض عن قصد للتشويه من قبل الحركة الصهيونية وأعوانها بإعادة تفعيل أهدافها القديمة والحديثة وإمعانها في تضليل شعوب المنطقة وإدخالهم إلى متاهات لا حدود لها وتضليلهم عن طريق التزوير والروايات الخيالية التي لا تخدم إلا المصالح الصهيونية..

وهذا الكتاب يطالب بإعادة النظر؛ ليس في قراءة جغرافية التوراة؛ بل في إعادة قراءة تاريخ منطقة الشرق الأدنى ككل لاستجلاء الحقيقة والواقع، وأن يعاد كتابة تاريخ المنطقة في ضوء المعرفة الحقيقية واكتشافها، كما أنه دعوة صادقة للمؤرخين العرب لأن يؤدوا واجبهم الحقيقي في إضاءة شموع المعرفة على طريق الأجيال العربية القادمة، وأن لا يعتمدوا - كما فعل المستشرقون - على التوراة اليهودية كمرجع تاريخي وحيد، بل ينبغي دراسة المكتشفات الآثارية والمدونات التي تم العثور عليها خلال القرن العشرين للوصول إلى الحقيقة المتعلقة بتاريخ منطقة الشرق الأدنى.

المؤلف

